شرح

فتح الرّحيم الملك العلام

في علم
العقائد والتّوحيد والأخلاق والأحكام
المستنبطة من القرآن

تصْنِيف الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

الشَّيخ صالح بن عبد اللَّه العُصيمي

حفظه اللَّه

النُّسخة الإلكترونية (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ:

الحمدُ للهِ الَّذي نَزَّلَ الكِتَابَ هُدًى وشفاءً لما في الصدورِ، وَأَودعَ فِيه من أَصنافِ المَعارفِ وأَنواعِ العُلومِ ما تَستقيمُ به الأُمور، يَسَّره للمتذكِّرين، وبَيَّنَه للمتدبِّرين، وكَشَفَهُ للمُتَفَكرين، وأَصلَح بِه الظَّاهِرَ وَالبَاطِنَ والدُّنيا والدِّين، وجَعله من فضلِه وكرمِه حاويًا لعلوم الأوَّلين والآخرين، ومُهيمنًا علىٰ الكتب والمقالات، وآيةً للمستبصرين.

وأشهدُ أَلَّا إله إلا الله وحده لا شريكَ له في ملكِه وسلطانِه، ولا مثيلَ لَه في نعوتِه وأوصافه وكرمِه وإحسانِه، ولا نديدَ له في ألوهيتِه وحمديتِه وعظمةِ كبريائِه وشأنِه.

وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه المؤيَّد بآياتِه وبرهانِه، الهادي إلىٰ جنَّتِه ورضوانِه.

اللهم صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعِه علىٰ الحق وأعوانه وسلِّم تسليمًا.

قولُه رَحِمَهُ اللهُ: **(ولا مثيلَ له في نعوتِه وأوصافِه وكرمِه وإحسانِه) النعوتُ عندَ جماعة من أهل العلم لفظٌ يطلق ويرادَ به أسماء الله الحسنىٰ**، وقد صنَّف جماعةٌ من أهل العلم كتابًا باسم كتاب «النعوت» يريدون به الأسماء الإلهية، منها كتاب أبي عبد الرحمن النسائي رَحِمَهُ اللهُ المسمىٰ كتاب «النُّعوت» وهو قطعةٌ من سننه الكبرىٰ، والأولىٰ إطلاقُ الأسماء الحسنىٰ علىٰ ما سمَّىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به نفسه؛ فإن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] فتسميتها أسماءً حُسنىٰ أَولىٰ من التعبير بهذا أو غيرِه.

أما بعد..

فقد كتبتُ سابقًا كتابًا مطولًا في تفسيرِ القرآن، فصارَ طولُه من أكبرِ الدواعي لعدمِ نشْرِه؛ لفُتورِ الهِممِ ومَللِها من الطُّول، ثم إنِّي بعد ذلك استخلصْتُ منه ومِن غيره قواعدَ تَتَعلق كلُّها بأصول التفسير، وهي نعمَ العونِ للراغبين في علمِ التفسيرِ الذي هو أصلُ العلوم كلِّها، فبلغتْ سبعين قاعدة، ويسّر المولىٰ طبعَها ونشرَها.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: أنَّه تَقدَّم منه كتابة تفسيرٍ مطولٍ وهو تفسيرُه المعروف، ثم لطوله لم يطبع هذا الكتاب في زمنه رَحِمَهُ اللهُ، ثم طبع منه مجلد حالَ حياته، ثم طُبع بعد ذلك وانتشر، وقبل استتمام طباعته في حياته استخلص رَحِمَهُ اللهُ قواعد تتعلق بالتفسير هي «القواعد الحسان» وطبعها رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في حياته، وهي تشتمل علىٰ سبعين قاعدة، وكتابُه من أحسن الكتب المتعلِّقة بأصول التفسير وقواعده، وجرىٰ فيها

رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المعنىٰ العام للقاعدة؛ دون إرادةِ المعنىٰ الخاص للأصل أو القاعدة الذي اصطلح عليه، فهو تارة قد يذكر شيئًا يعد من أصول التفسير، وتارة قد يذكر شيئًا يعدُّ من قواعد التفسير، وكتابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كتابٌ نافع.

وهاهنا تنبيه يتعلق بكُتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي طَبعها في حياته، فالكتب التي طبعها في حياته الطبعاتُ المعتمدة منها هي تلك الطبعات التي كانت في حياته؛ لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يكتبُ الكتاب أوَّلًا بخطه، أو يُبيِّضَه بعض تلاميذه ثم يرسله إلىٰ مصر، فيُصَفُّ فيها الكتاب صفًّا أوليًّا ثم يُعاد إليه فيزيد وينقص ويُغيره ويُبدل ثم يُرسله مرةً ثانية إلىٰ مصر فيُطبع فيها، فتكون النسخة الأخيرة التي صحَّحها ودقَّقها هي النسخةُ التي طُبعت، فإذا وُجِدت نسخة خطية من هذا الكتاب بعدَه لا يُعوَّل عليها، لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد نسخها بما صَنَع، ولـمَّا لم ينتبه بعض الناس لهذا الأمر طبعوا للشيخ كُتبًا علىٰ نسخ خطية متقدِّمة، أجرىٰ الشيخ فيها قلم التَّغيير والتَّحويل عند إبَّان طباعتها، فصار الناسُ يظنُّون أنها المعتمدة، والمعتمدُ هو النُّسخُ التي طبعت في حال حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ومن جُملة ما حصل فيه التغيير والتبديل كثيرًا كتابُ «القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم النافعة» فإنَّ هذا الكتاب طُبع في حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ الوصف الذي ذكرت لكم، وقرئ عليه قبل موته بأشهر يسيرة، فالطبعة المعتمدة هي تلك الطبعة، وأمَّا الطبعة الأخيرة التي حققها بعض أهل العلم في هذا الزمن فلا يُعوَّل عليها، لأنها كانت من نسخةٍ خطيةٍ قديمةٍ، أجرىٰ الشيخ بعد ذلك عليها تحويلًا وتبديلًا وتغييرًا حتىٰ استوَتْ علىٰ هذه النسخةِ المطبوعة التي قُرئت عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فينبغي التعويلُ عليها، وملاحظةُ هذا الأمر في كتبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فتكرَّر عليّ الطلبُ في السَّعيِ في نشر التفسير فاعتذرت بالعذر المذكور، ولكن لا زلت أُفكِّر في تلخيصه واختصارِه، فظهر لي أنَّ الأولىٰ والأنفع إفرادُ علومِ التفسير كلِّ نوعٍ علىٰ حدتِه ولو لزِم من ذلك تركُ ترتيبِ التفسير؛ بل لو لزم من ذلك تركُ الكلام علىٰ كثير من الآياتِ القرآنية إذا تكلمنا علىٰ نظيرها أو ما يقاربها، فإنَّ الإحاطةَ علىٰ جميع الآيات القرآنية ليس من شروط علم التفسير، لأنَّ من خواصِّ تيسير اللهِ لمعاني كتابِه أنَّه جعلَه أصولًا وقواعد وأُسسًا، إذا عَرَف العبدُ منها شيئًا وَموضعًا عَرفَ نظيرَه ومشابِهه ومقارِبه في كلِّ المواضِع، فمعرفةُ بعضِه يدعو إلىٰ معرفة باقيه.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثانية أن الطلب تتكرر عليه في نشر تفسيره فاعتَذَر بالعذرِ السابقِ من كونه مطولًا والهممُ قد فَترَت عن مثلِه، ثم بَقيت في نفسِه فكرةُ تلخيصِه واختصاره؛ وهذه الفكرةَ حَدَتْه إلىٰ ملاحظةِ

هذا الأصل في تأليف هذا الكتاب، ولا صِلةَ بهذه الفكرة بكتاب «تيسير اللطيف المنان» فإن «تفسير اللطيف المنان» ليس اختصارًا لتفسيره وإنَّما هي معاني تَبَدَّتْ له أثناء قراءته للقرآن الكريم فكتبها علىٰ ذلك النحو، وإنَّما هذه الفكرة التي كانت في ذهنه رَحِمَهُ اللَّهُ هي التي أَنتج منها هذا الكتابَ العظيم، فإنه رأىٰ أن إفرادَ علوم التفسير كل نوع علىٰ حدة، ولو لزمَ منه ترك الكلامِ علىٰ كثير من الآيات فهو أولىٰ وأنفع، وما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من أنَّ علوم التفسير يمكنُ الإفادةُ منها إذا أدركَ الإنسانُ مجامعَ المعاني القرآنية دونَ حاجةٍ للوقوف علىٰ كل آيةٍ- هذا حق-، وقلَّ من يعتني بهذا الأمر، فإن بعضَ النَّاس يَظُنُّ أنَّ التفسيرَ لا يُدركُ إلا بأن يؤخذ القرآنُ آيةً آيةً، وهذا ليس من المنهج القوي في التَّلقين والتلقي، بل المنهجُ القوي هو بيانُ الأصولِ والقواعدِ والكليات في قدرٍ من القرآن بحيث لو لم يدرس الطالب إلا إياه لاستطاع أن يعرفَ تفسير باقي القرآن، وهذا القدر هو في شيئين اثنين:

أحدهما: المُفصَّل من سورةِ ق إلىٰ آخره.

والثاني: سورة البقرة.

فإن الإنسانَ إذا دَرَس تفسير هذين القدرين من القرآن الكريم علىٰ طريقة تُبَيَّنُ فيها الأصولُ والقواعدُ في الفهمِ والتفسير لكلام الله ﷻ أكسبَه ذلك قدرةً علىٰ فَهم باقي القرآن الكريم، كما أنَّ المرء إذا دَرس أصول العربية في الآجرامية أو غيرِها من المختصرات أمكنَه أن يُدرك أكثرَ أبواب العربية فكذلك هذا المعنىٰ الذي أشارَ إليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

❧❧◊☙☙

ثم نظرتُ فإذا علومُ التفسيرِ كثيرةٌ جدًّا، وفي استيعابها يطول الكتاب جدًّا، فرأيتُ أهمَ علومِ القرآن علىٰ الإطلاق ثلاثةَ علوم: علمُ التوحيد والعقائدِ الدِّينية، وعلمُ الأخلاقِ والخصالِ المَرضيَّة، وعلمُ الأحكام للعبادات والمعاملات.

فرأيت الاقتصارَ علىٰ هذه الثلاثة أولىٰ وأنفعُ وأحسنُ موقعًا، وكلُّ واحدٍ من هذه الثلاثة يقتضي كتابًا مطولًا وخُصوصًا علمُ الأحكام، ولكن أتينا بمقاصدِها ونصوصها من الكتاب، وجمعناها في فنِّها واختصرنا الكلام فيها اختصارًا لا يُخِلُّ بالمقصود ولا يُغلقُ العباراتِ، بل أتينا بذلك بعباراتٍ واضحةٍ ليس فيها حشو ولا تعقيد.

ونسأل المولىٰ تعالىٰ أن يُعيننا علىٰ ذلك وأن يَجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يَنفعنا به وسائرَ إخواننا المسلمين، وأن يَعفو عن خطئنا وتقصيرنا وإسرافنا في أمرنا، إنَّه جواد كريم. وسميته: «فتح

الرحيم العلاَّم في علم العقائد والأخلاق والأحكام» المستندة إلىٰ كتاب الله الكريم نصًّا واستنباطًا وتنبيهًا وإرشادًا.

بعد أن بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الطَّلب تتكرر عليه في اختصارِ التفسير ورأىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأنفَع إفرادُ علومِ التفسير كلَّ نوعٍ علىٰ حِدة، ثم نظرَ فإذا علومُ التفسير كثيرةٌ جدًا، وفي استيعابها يَطول الكتابُ جدًا، فرأىٰ أهمَّ علومِ القرآن علىٰ الإطلاق أنَّها ثلاثةُ علوم: علمُ التوحيد والعقائدِ الدينية، وعلمُ الأخلاقِ والخصال المرضية، وعلمُ الأحكام للعبادات والمعاملات.

وهذه الإضافة (علومُ القرآن) تطلق ويُراد بها معنيان اثنان:

أحدهما: علومُ القرآن المتعلقةُ به؛ كالمكيِّ والمدنيِّ، والناسخِ والمنسوخِ، والصيفيِّ والشتائيِّ، وأشباهِها.

والثاني: علومُ القرآن المستنبطةُ منه، وهي محلُ العناية في كلام المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **فليس مقصودُه النوع الأول المفردُ باسم فن علوم القرآن الذي صنَّف فيه الناسُ فأكثروا.**

وإنَّما مرادُه بعلومِ القرآن: العلوم المستنبطة منه، وهاهنا لابد من رعايةِ أمرٍ عظيم وهو التَّفريقُ بين ما يُستنبط من القرآن ويُستخرَجُ منه، وبينَ ما يُحكم به علىٰ القرآن من خارج عنه، فإنَّ تطبيقَ قواعدِ العربية أو الأصول أو غيرِها علىٰ القرآن هي من تسليط أمرٍ خارجٍ عنه عليه لإدراك فهمه، وهذه المرتبةُ دونَ المرتبة الأسمىٰ وهي النَّظرُ إلىٰ ما يُستنبطُ ويُستخرجُ من القرآن وهي هدايةُ القرآن، فإن هدايةَ القرآنِ هي العلم الذي يُستخرج من القرآن الكريم بخلافِ ما يُسلط عليه من العلومِ ويُنتجُ تفسيرًا، **وأكثرُ المفسرين إنَّما يعتني بهذا؛ فيعتني بتسليطِ علوم الآلة علىٰ آي القرآنِ الكريم ثم يُفسرُ معاني القرآن بهذا، ولا يُلاحِظُ هدايةَ القرآن وما ينتجُه القرآنُ من المعاني إذا وُصِلت الآيات بعضُها ببعض، وحُملَ بعضُها علىٰ بعض، وجُمعت معانيها فإنها تُنتِج فهمًا للقرآن هو المرادُ الأعظم**، وفي هذا يقول عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاضرةٍ له: تخرجتُ من الزَّيتونة وقد درَستُ فيها تَفسيرَ البيضاوي كلِّه، فلمْ أفهم القرآن، فلمَّا نَظرتُ في القرآن بعدَ ذلك عرفتُ أن القرآنَ كتابُ هداية.

فالهدايةُ هي المقصودُ الأعظمُ مما يُستنبَط ويُستخرجُ من القرآنِ الكريم، وهي التي يَنبغي أن يَعتنِيَ بها طالبُ العلم أكثرَ من عنايتِه من مجردِ تفسيرِ المعاني، فإن الإنسانَ قد يُفسِّر المعاني ولكن لا يَصلُ إلىٰ الهدايةِ المطلوبة منها، فقد يفسِّرُ الإنسان مثلًا قولَه تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة]، بأن

الحمدَ هو الإخبارُ عن محاسنِ المحمودِ مع حبِّه وتعظيمِه، لكنَّه تَغشَىٰ بصيرتَه عن ملاحظةِ **أنَّ الحمدَ حيثُ ذُكِرَ في القرآن الكريم لم يأتِ إلا حمدًا لله** ﷻ، فلم يأتِ قطُ الحمدُ شيءٍ من المخاليقِ في القرآن الكريم، وفي هذا معنًىٰ من معاني الهداية، وكذلك **حيثُ جاء الحمدُ في القرآنِ الكريم جاء معلقًا بهذا الاسمِ الأحسنِ "الله" دونَ غيرِه من الأسماء**، فلم يأتِ الحمدُ للرَّحمن، أو الحمدُ للرَّحيم، أو الحمدُ للكريم، وفي هذا معنىٰ مُستكنٌ من معاني الهداية، فهدايةُ القرآن الكريم هي أعظمُ ما ينبغي العنايةُ به، فالمراد بها كما سبق ما يُستنبط من القرآن لا ما يُحكَم به علىٰ القرآن الكريم، ومن جملة هذا ما عَمد إليه المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنَّ المصنِّف اعتنىٰ بما يُستنبطُ من القرآن ويُستخرجُ منه، ورتَّبه علىٰ هذه العلومِ الثلاثة، وإن كان هذا الترتيبُ ترتيبًا لبعضِ العلوم الثلاثةِ الأصلية، فإن العلومَ الثلاثةَ الأصلية في القرآن الكريم هي التي أرشدَ إليها النبي ﷺ في الحديث المخرَّجِ في الصحيح وغيرِه في قوله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلثُ القرآن». فإن هذا الحديثَ دالٌ علىٰ تَثليث علومِ القرآن.

وأصحُّ ما قيل في التثليث أن القرآن ثلاثةُ أثلاث:

أولها: ثلثٌ يتعلقُ بالخالق وهو التَّوحيد.

والثاني: ثلثٌ يتعلق بالمخلوق وهو القصصُ والجزاء، والوعدُ والوعيدُ، والثوابُ والعقاب.

والثالث: ثلثٌ يتعلقُ بالأمرِ والنهيِ الذي خُوطبَ به المخلوق في حق الخالق ﷻ وهو الأحكام.

فهذه الثلاثةُ الأثلاث هي علومِ القرآن المستنبطةُ منه، وقد صرح بهذا التثليث شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتلميذُه ابنُ القيم، وهو يَرجعُ إلىٰ كلامِ من هو أَقدمُ منهما وهو العباسُ بن سُريج الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فعلوم القرآن ترجع إلىٰ هذه الثلاثة: إما علومٌ تتعلقُ بالأحكام، وإما علومٌ تتعلق بالتوحيد، وإما علومٌ تتعلق بقصص المخلوق وجزائِه، ووعده، ووعيده.

ومن جملة هذه الثلاثة ما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فإنَّ علمَ التوحيد يَرجعُ إلىٰ حقِّ الخالق ﷻ، ثلث الخالق المذكور في القرآن، وعلمُ الأخلاق المرضية، وعلمُ الأحكام، والعباداتِ والمعاملات كلها ترجع إلىٰ الثلث الذي يتعلق بالأمر والنهي للمخلوق فيما يتعلق بحق الخالق ﷻ، فإن الأحكام من أحكامِ العبادات والمعاملات دائرةٌ مع الأمر والنهي، وكذلك الأخلاق هي من جملة الأمر والنهي الذي خُوطب به العباد، فاقتصر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ هذه العلومِ الثلاثة وأحسنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاختصارَ فيها، وبيانِ مقاصدِ القرآن الكريم في إيضاحها، فهذا الكتابُ من أنفع الكتب في فهمِ القرآن، **ولو صحَّ أن يُسمَّىٰ كتابٌ (المَدخلُ إلىٰ القرآن الكريم) لكانَ هذا الكتابُ هو المدخلُ إلىٰ القرآنِ الكريم، فإنَّه بَيَّن مجامعَ**

معانيه ومقاصدِ مَبانِيه في عبارةٍ سهلةٍ واضحة.

وقد سمىٰ المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه هاهنا فقال: (**وسميته فتح الرحيم العلام في علم العقائد والأخلاق والأحكام**) وهذا الموضع يُخالف ما أثبته هو علىٰ طرة كتابه فكما ترون في نسخةِ الكتاب الخطِّيَّة المدرجة في الصفحة الثامنة من هذه النشرة للكتاب أَثبته بخطه «فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن» وهذا الاسم يخالف الاسم الذي ذكره في أثناء كتابه، فأيهما يقدم؟ اللي في الكتاب، اللي ذكرها يعني في أثناء المخطوطة.

هو كتب علىٰ ظهر كتابه وأثبت هذا الاسم، وفي داخل كتابه قال: وسميتها كذا..، الاسم بخطه، الذي هنا بخطه، وكذلك في داخل الكتاب هذا بخطه قال: (**وسميته**).

أيهما الملاحظ دائمًا محَل العنوان- ما يُكتب علىٰ الطُّرة أو ما يكون في داخل الكتاب؟ علىٰ الطُّرة-، فالمحَل الأحرىٰ بالتقديم هو هذا، لأنه هو المحَل الذي جعل له مفردًا فهو جَعل هذا المحل مفردًا لبيان اسم الكتاب، فالأولىٰ أن يسمىٰ الكتاب بما سمَّاه به مصنفه في طرة كتابه وهو الذي طُبع به الكتاب، ولكن النَّاشر لم يتنبه إلىٰ الاختلاف بين التسمية اللي علىٰ ظهر الكتاب والتسمية الواردة في أثناء الكتاب.

النوعُ الأول من علوم القرآن:
علمُ العقائد وأصولِ التوحيد

وهذا هو أشرفُ العلومِ علىٰ الإطلاق وأفضلُها وأكملُها، وبه تستقيمُ القلوبُ علىٰ العقائدِ الصحيحةِ، وبه تَزكو الأخلاقُ وتنمُو، وبه تصحُّ الأعمالُ وتكمُل.

وموضوعُ هذا العلمِ: البحثُ عما يَجب للهِ من صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلال، وما يَمتنِعُ ويَستحيلُ عليه من أوصافِ النَّقصِ والعيَبِ والمِثال، وما يَجوز عليه من إِيجاد الكائناتِ، وأَنَّه الفعّال لما يُريد، ما شاءَ كانَ وما لم يَشأْ لم يَكُنْ.

وكذلك البحثُ عما يَجِبُ الإيمانُ به من الرُّسلِ وصفاتِهم، وما يَجبُ لهم ويَمتَنِعُ في حَقِّهم ويَجوز، والإيمانُ بالكتبِ المنزلةِ علىٰ الرُّسل، والإيمانُ بما أخبر اللهُ به، وأَخبرتْ به رسلُه عن الحوادثِ الماضيةِ والمستقبلةِ، وعن الإيمانِ باليوم الآخر، والجزاءِ والثوابِ والعقابِ، والجنةِ والنارِ، وما يتبعُ ذلك ويتعلقُ به.

فهذه مجملاتُ مواضيعِ هذا العلمِ الجليل، والقرآنُ العظيمُ قد بيَّنَ هذه الأمور غايةَ التبيين، ووضَّحَها توضيحًا لا يقاربُه شيءٌ من الكتب المنزلة، ولم يُبْقِ منها أصلًا إلا بيّنه وجمَعَ فيه بَينَ البيانِ والبُرهان، بيّن المسائلَ المهمةَ الجليلة، والبراهينَ القاطعةَ العقليّة والنقليّة والفطرية. وهذا النوعُ أقسامٌ:

أوَّلُها ومقدَّمها: علمُ التوحيد.

وهو العلمُ بما لله من جميعِ صفاتِ الكمال، وأنَّ الربَّ تفرَّد بها، وأنَّ له الكمالُ المطلَقُ الذي لا تَقدرُ القلوبُ أن تبلغَ كُنهَه، ولا الألسنَ علىٰ التعبيرِ عنه، ولا يقدرُ الخلقُ علىٰ الإحاطةِ ببعضِ صفاتِه فضلًا عن جميعها، وهذا العلمُ مبنيٌّ علىٰ اعتقادٍ وعلمٍ وعلىٰ تألُّهٍ وعملٍ.

أما الاعتقادُ والعلم، فأنْ يعتقدَ العبدُ أنَّ جميعَ ما وصفَ اللهُ به نفسَه من الصفاتِ الكاملةِ ثابتٌ لله علىٰ أكملِ الوُجوه، وأنّه ليسَ للهِ في شيءٍ من هذا الكمالِ مشاركٌ، وأنَّه منزّهٌ عن كلِّ ما يُنافي هذا الكمالَ ويناقِضُه، مما نزَّه به نفسَه أو نزّهَه رسولُه ﷺ.

وأما التَّألُّه والعَمَل، فأن يتقرَّبَ العبدُ إلىٰ ربِّه بأعمالِه الظاهرةِ والباطنةِ إلىٰ الله، ويخلِصَها لوجهِه ويُنيبَ إليه، ويتألهه محبةً وخوفًا ورجاءً وطلبًا وطمعًا، فيقصدُ وجهه الأعلىٰ بما يعتقدُه من العقائد الصحيحة، وبما يقصدُه ويريدُه من الإراداتِ الصالحة والمقاصدِ الحسنة التابعةِ لأعمال القلوب، وبما يعملُه من الأعمال الصالحة الراجعةِ للقيام بحقوقِ الله وحقوقِ عباده، وبما يقولُه ويتكلمُ به من ذكرِ الله والثناءِ عليه وقراءة كلامِه وكلامِ رسولِه ﷺ، وكلامِ أهلِ العلم الذي يرجعُ إلىٰ ذلك، ومن الكلامِ الطيِّب والنُّصحِ للعباد في أمورِ دينِهم ودنياهُم، ومن ذلك تعلمُ العلوم النافعة وتعليمُها، فكلُّ هذه الأشياء يَجب إخلاصُها لله وحده، وبتمامِ الإخلاص يتم التوحيد والإيمان.

فبهذا التقريرِ يكون التوحيدُ يرجعُ إلىٰ أمرين:

توحيدُ الأسماءِ والصفات، ويدخل فيه توحيدُ الربوبية، وهذا يرجعُ إلىٰ العلمِ والاعتقاد.

وتوحيدُ الإلهيةِ والعبادة، وهذا يرجعُ إلىٰ العمل والإرادة، عملِ القلوب وعملِ الأبدان كما تقدم، ويسمَّىٰ توحيدُ الإلهية؛ لأنَّ الإلهية وصفُ الباري تعالىٰ، ويسمَّىٰ توحيدُ العبادة؛ لأنَّ العبادة وصفُ العبد الموحّد المخلصِ لله في أقوالِه وأعمالِه وجميعِ شؤونه، والقرآن العظيم يكاد كلُّه أنْ يكونَ تقريرًا لهذه الأصول العظيمة، ودفعًا لما يُناقضُها ويضادُّها من التعطيلِ والتَّشبيه والتنقِيص، ومن الشِّرك الأكبرِ والأصغرِ والتَّنديد.

بعد أن بيّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن كتابَه حاوٍ لأنواعٍ ثلاثة من علومِ القرآن، شرعَ يبيِّنُ النوعُ الأول

من علوم القرآن وهو علمُ العقائدِ وأصولُ التوحيد، فذكرَ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: (أن هذا هو أشرفُ العلوم علىٰ الإطلاق وأفضلُها وأكملُها، وبه تستقيمُ القلوبُ علىٰ العقائدِ الصحيحةِ، وبه تزكو الأخلاقُ وتنمُو، وبه تصحُّ الأعمالُ وتكمُل).

وإنَّما كان علم الاعتقاد أشرفُ العلوم لأمرين اثنين:

أحدهما: بالنَّظرِ إلىٰ متعلَّقه، وهو العلمُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن العلمَ بالله أشرفُ من العلمِ بغيرِه.

والثاني: بالنَّظر إلىٰ الثمرةِ الناتجةِ منه، فإنَّ ما يثمرُه هذا العلم من خشيةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومحبتِه والإخباتِ له، وطلبِ الزلفىٰ عنده؛ يجعلُه مقدمًا علىٰ غيرِه من العلوم، فلأجلِ عِظَمِ مُتعلَّقِه وجلالةِ ثمرتِه صار علمُ الاعتقاد العلمُ المقدَّمُ علىٰ العلومِ كافةً.

وموضوعُ هذا العلم هو حقوقُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي نَشرَها المصنِّف بقوله: (وموضوعُ هذا العلمُ البحثُ عما يَجب لله من صفاتِ الكمالِ ونعوت الجلال) إلىٰ أن قال: (وكذلك البحثُ عما يجبُ الإيمانُ به من الرسل) إلىٰ أن قال: (فهذه مجملاتُ مواضيعِ هذا العلم).

والسِّمطُ الحاوي أن يُقال: إن موضوعَ علم التوحيد هو حقوقُ الله تعالىٰ، وما يندرجُ تبعًا لها ملحق بها كحق الملائكة، والرسل، والكتب، وأشباهِها من أصول الإيمان فإنها ترجعُ إلىٰ حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأن حقيقةَ التوحيد كما سلفَ هو إفراد الله بحقوقِه، فيكونُ موضوع هذا العلم أصالةً هو حقوق الله عَزَّوَجَلَّ، ويلحقُ بها ما كان تابعًا، فإن بقيةَ أصول الإيمان تابعةٌ للأصلِ الأعظمِ وهو الإيمانُ بالله، فإنَّ الإيمانَ بالله يتبعُه الإيمانُ بملائكتِه، وكتبِه، ورسلِه، واليومِ الآخر، وبالقدرِ خيرِه وشرِّه.

ثم بيَّن أن أعظم علمِ العقائد العلمُ بالتوحيد، **والعقائدُ قد تطلقُ ويرادُ بها معنًىٰ عام، وهو جميعُ الاعتقاداتِ الباطنةِ سواءًا ما تعلَّقَ بالله مما يُسمىٰ توحيدًا أو ما تَعلَّق بغيرِه**، فيطلقُ علمُ التوحيدِ علىٰ إرادةِ بعضِ علمِ العقيدة، ويكونُ علمُ العقيدة متعلقًا بجميع أنواع الاعتقادات الباطنة مما يَختص بالله وبغيرِه مما جاءت به الآي والأحاديث، ويكونُ من أفرادِ علم العقيدة العلم بتوحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعرَّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ علم التوحيد بقولِه: (وهو العلمُ بما لله من جميعِ صفاتِ الكَمال).

وباعتبار النَّظر إلىٰ تعريفِ التوحيد بكونه قواعدَ يُقال: **علمُ التوحيد هو: قواعدُ تُعرَفُ بها حقوق الله.**

فإن هذا تعريفَ للتوحيد باعتبار كونه علمًا.

وتقدم أن العلوم تعرف باعتبار كونها قواعد؛ فيُقال في مصطلح الحديث: هو قواعدُ يعرف بها حالُ الراوي والمروي... إلىٰ آخره.

ويُقال في علم العربية أي النحو: هو قواعدُ يعرف بها أحوالُ وأواخرِ الكلمات... إلىٰ آخره.

ويقال كذلك في علمِ التوحيد: هو قواعدُ تعرف بها حقوقُ الله ﷻ.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن هذا العلم مبني علىٰ اعتقادٍ وعلم، وعلىٰ تألُّه وعمل.

وبعبارة وجيزة: أمرُ توحيد الله ﷻ متعلق بشيئين اثنين:

أحدهما: معرفةٌ وإثباتٌ.

والثاني: قصدٌ وطلبٌ وإرادةٌ.

فالأول: وهو المعرفةُ والإثباتُ: معرفةُ أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ، وصفاتِه، وأفعالِه، وكمالاتِه، ويندرجُ في هذا توحيدُ الربوبية، وتوحيدُ الأسماء والصفات.

وأما **الثاني**: وهو ما يتعلقُ بالإرادةِ والطلبِ والقصدِ فهو ما يتعلقُ بأعمالِ الخلق، وإخلاصِها لله ﷻ، ويندرجُ فيه توحيدُ الإلهية.

فالتوحيدُ باعتبار ما يجبُ علىٰ العبد يقسَّم إلىٰ قسمين اثنين:

أحدهما: توحيدُ المعرفةِ والإثباتِ.

والثاني: توحيدُ الإرادةِ والقصدِ والطلبِ.

فتوحيد المعرفة والإثبات يراد به أن تعرف ما لله عَزَّوَجَلَّ من كمالٍ في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وذاته.

والثاني: وهو توحيدُ الإرادةِ والقصد والطلب: يراد به أن توحِّد الله ﷻ فيما له من عبادةٍ تتقرب بها إليه، وأن تخلص ذلك له ﷻ.

ومن يُقسِّم التوحيدَ ثلاثةَ أقسام فيقول: توحيدُ الربوبية، وتوحيدُ الأسماء والصفات، وتوحيدُ الألوهية، هذا تقسيمُ التوحيد باعتبار ما يجبُ لله عَزَّوَجَلَّ.

الأول: تقسيمُه باعتبار ما يجبُ علىٰ العبد، فأنتَ يجب عليك أن توحِّد في المعرفة والإثبات، وأن توحد في الطلب والإرادة والقصد.

وباعتبار ما يجب لله عَزَّوَجَلَّ من حق فإنه يجبُ توحيدُه في ربوبيته، ويجبُ توحيدُه في إلوهيته، ويجبُ توحيدُه في أسمائه وصفاته.

فالتقسيمان يصدِّق أحدُهما الآخر وهما غير متعارِضان، لكن المناطَ الذي علق به التقسيمُ الثنائي هو باعتبار ما يجب علىٰ العبد، والمناطُ الذي علق به التقسيم الثلاثي هو باعتبارِ ما يجبُ لله ﷻ.

❀❀◊❀❀

وجوب تصديق الله ورسوله في كل خبر وتقديمُ ذلك على غيره

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠]، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء]، وقال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[آل عمران].

والآياتُ في هذا المعنىٰ العظيمِ كثيرةٌ، تدلُ أوضحَ دلالةٍ، علىٰ أنَّ أفرضَ الفروض علىٰ العباد أن يصدقوا الله تعالىٰ في كلِّ ما أخبرَ به عن نفسه من صفاتِ الكمال وما تنزَّه عنه من صفاتِ النقص، وأنَّه أعلمُ بذلك من خلقه، وشهادته علىٰ ذلك أكبرُ شهادة، وخبرُه عن نفسِه وعن جميعِ ما يخبر به أعلىٰ درجات الصدق، وذلك يوجبُ للعبد ألا يدخل في قلبه أدنىٰ ريبٍ في أيِّ خبر يُخبر الله به، وأن يُنَزِّلَ ذلك من قلبه منزلة العقيدةِ الراسخة التي لا يمكن أن يعارضها معارض ولا يعتريها شك.

وأن يعلمَ علمًا يقينيًا أنَّه لا يُمكن أن يَرِدَ شيءٌ يناقضُ خبرَ الله وخبرَ رسوله، وأنَّ كلَّ ما عارضَ ذلك ونَافَاه من أيِّ علمٍ كان، فإنَّه باطلٌ في نفسِه وباطلٌ في حكمه، وأنَّه محالٌ أن يَرِدَ علمٌ صحيحٌ يُناقضُ ما أَخبرَ الله به، وتدلُ أكبرَ دلالةٍ أنَّ من بنىٰ عقيدتَه علىٰ مجردِ خبرِ الله وخبرِ رسوله فقد بناها علىٰ أساسٍ متينٍ، بل علىٰ أصلِ الأصولِ كلِّها، ولو فُرِض وقدِّر معارضةُ أيِّ معارضٍ كان، فكيف والأدلةُ العقليةُ والفطرية والأُفُقية والنفسية كلُّها تُؤيِّد خبرَ اللهِ وخبرَ رسلِه وتشهدُ بصدقِ ذلك ومنفعتِه؛ ولهذا مَدحَ اللهُ خواصَّ خلقِه وأولِي الألباب منهم حيثُ بنوا إيمانهم علىٰ هذا الأصلِ في قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران:١٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر].

وعُلِمَ من ذلك أنَّ ابتداع أهلِ الكلام الباطل لأقوالٍ وعقائدَ ما أنزل الله عليها من سلطان، ولم تُبْنَ علىٰ الكتاب والسنّة؛ بل علىٰ عقولٍ قد عُلمَ خطأ أصحابها وضلالُهم، أنَّه من أبطل الباطل وأسفهِ السَّفه، حيث رغِبوا عن خَبر الله وخَبرِ رُسُله إلىٰ حيثُ سوّلت لهم نفوسُهم الأمّارةُ بالسوء، ودعتهم عقولهم التي لم تَتزكَّ بحقائقِ الإيمان، ولا تغذَّت بالإيمان الصحيح واليقينِ الراسخ.

يكفي هذا الأصل في ردِّ جميع أقوالِ أهلِ الزَّيغ بقطع النَّظر عن معرفةِ بطلانها علىٰ وجه التفصيل،

لأنَّه متىٰ علمنَا مخالفتَها للقواطعِ الشَّرعية والبراهينِ السمعية علمنا بطلانها، لأنَّ كلَّ ما نـافىٰ الحـقَ فهُـو باطل، وما خَالفَ الصدِّق فهو كاذب.

من علوم القرآن المتعلقة بعلمِ العقائد والتوحيد (**وجـوبُ تصـديق الله وتصـديق رسـوله ﷺ في كـل خبر، وتقديمُ خبرهما علىٰ خبر غيرهما**)، وذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ آيًا عدةً دالة علىٰ الأول فقـال: قـال تعالىٰ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ إلىٰ آخر الآيات.

ولم يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يوجبُ تصديقَ خبر رسول الله ﷺ، **والأصلُ الجـامع في تصـديقِ خبـرِ رسـول الله ﷺ قوله تعالىٰ:** ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِـينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات]. فإن الله عَزَّوَجَلَّ نزَّه نفسَه عما وصفه به المشركون، ثم سلَّم علىٰ المرسلين لكمالِ خبرهم عـن ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبخصوصِ النبي ﷺ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَـذْنَا مِنْـهُ بِـٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُـمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِـزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الحاقـة] أي: ﴿لَقَطَعْنَـا مِنْـهُ ٱلْـوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهـو العِرْق المعروف في العنق، فهذه الآي مع الآي التي ذكرَها المصنِّف تدل علىٰ وجـوبِ تصـديقِ خـبرِ اللهِ وخبرِ رسولِه ﷺ فيما يتعلقُ بتوحيد الله، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أعلمُ بنفسه وأصدقُ قيلًا، وأحسنُ حديثًا، ورسولُه ﷺ إنَّما يُخبِر بخبره، فإن الله عَزَّوَجَلَّ جعلَ قوله وحيًا كما كان هذا وصـفًا لقولـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقـالَ في حـق النبـي ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[النجم] فسنةُ النبي ﷺ وحي كما القرآن وحي.

وإلىٰ ذلك أشارَ العلامة حافظُ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله:

فَسُـــنَّةُ النَّبِـــيِّ وَحـــيٌ ثَـــان   عَلَيهِمـــا قُـــلْ أُطْلِـــقَ الوَحَيَـــانِ

فالقرآن والسنة كلاهُما وحي من الله، فما تضمنَاه من الخبر أصدقُ وأحسن، وأتمُّ، وأكملُ مـن خـبرِ غيرهما، فالعلم الكاملُ المثمرُ للإيمان الصادق فيما يتعلقُ بتوحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو ما كان منظومًـا في دَلالات القرآن والسنة، ولا يأتي خبرٌ خارجَ خبرِ القرآن والسنة يخالفُ ما دلَّ عليه القرآنُ والسنة مـن كمـالاتٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبيانًا لحقه إلا كان ذلك الخبرُ موؤودًا مكذوبًا فإنَّ ما في كلامِ الله وكلامِ رسوله ﷺ وافٍ ببيان ما لَـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من كمالٍ وحق.

ومن خَرجَ عن هذه الطريقة وارتضىٰ غيرَ خبر الله وخبرِ رسوله ﷺ لـم يـزل في حيـرةٍ وشـكٍ، وتيـهٍ، وضلالة، بخلاف من أخذ بخبر الله عَزَّوَجَلَّ وخبرِ رسوله ﷺ وبنىٰ عليه إيمانَه فإنه يدل إلىٰ أحسـنِ الطـرق كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف المؤمنين آخر آل عمران: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَـمِعْنَا مُنَادِيًـا يُنَـادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُـوا

﴿بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ﴾[آل عمران:١٩٣]، في آيٍ أُخر في هذا المعنىٰ، وإذا عَدَل الإنسانُ إلىٰ غير خبرِ الله وخبرِ رسوله ﷺ كما فعلَ أهلُ الكلامِ والقياسِ والرأيِ فإن ذلك يورثهُم حيرةً، وشكًا، وضلالًا، كما عَرضَ لأبي المعالي الجويني لما سَأله الهمداني، وقد سمعه يتكلم في مسألةِ علو الله ﷻ، فقال له الهمداني: دعْ ما تقولُ، وأخبرني عما يجدُه الإنسانُ في نفسه من ضرورةِ علوِّ الله ﷻ إذا دعاه؟ فضربَ رأسَه، وقال: حيَّرني الهمداني، حيَّرني الهمداني.

وكلامهم كثيرٌ في بيان ما هم عليه من الشَّك والحيرة والشبهة، فالقرآنُ والسنةُ التِّرياقُ الكافي والدواءُ الشافي لمن التَمس الهدىٰ منهما فيما يتعلقُ بالخبر عن الله ﷻ في صفاتِه وكمالاتِه، وتوحيدِه، أو فيما يتعلقُ بغير ذلك من جميع الأمور، فأصحُّ العلوم هي العلوم التي ترجع إلىٰ القرآن والسنة، وأكملُ الخلق حالًا من سَلَّم أمره لما في الكتاب والسنَّة، فإن قدَمَ الإسلام لا تثبتُ إلا علىٰ ظَهرِ التَّسليم والاستسلام، ومن حقيقة التَّسليم الإذعان لما جاء في كلام اللهِ وكلامِ النبي ﷺ، والعدول عن ذلك يُوجب لأصحابِه كما سلف حيرةً، وشكًا، وزيغًا، وهلاكًا، وربما خَرجوا من الإسلامِ بسببِ ما جرَّوا إليه أنفسَهم كما قال الله ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾[النور] قال الإمام أحمد فيما رواه ابنُ بطة في كتاب «الإبانة»: أتدري ما الفتنة؟ الفتنةُ الشرك، لعلَّه إذا ردَّ بعض قولِه أن يزيغَ قلبُه فيهلك.

فإذا ردَّ الإنسان خبرَ الله أو خبر الرسول ﷺ أوجب ذلك زيغًا في قلبه فهلك كما وقعَ لأهلِ الكتاب، فإنهم لما زاغوا أزاغَ الله قلوبَهم واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقين.

فإدمانُ النَّظر في خبرِ الله وخبرِ النبي ﷺ فيه كمالُ العلم والعملِ والحال، والمقام في الدنيا والأُخرىٰ، ولا ينبغي أن يُحجب طالب العلم بل العِبادُ كافةً عن ما يُستنبط من القرآن والسنة، ففيه من أنواع الهداية واللُّطفِ والبيانِ ما ليس في كلام غيرهم، ولكن ذلك يحتاج إلىٰ آلةٍ تامة في كيفيةِ الاستنباطِ من القرآن والسنة، فإنَّه لما صابت الناسُ العُجمة، وكثُفت قلوبهم ومداركهم، وعجزِت عن الإحاطة بمداركِ العلم ومقاصدِه وآلاتِ استنباطه صارت آلتُهم ضعيفةً في فَهم كلامِ الله وكلامِ النبي ﷺ، وحُجبوا بما صنَّف بعض الناس من بيان معاني القرآن والسنة التي جعلها ألغازًا وطلاسمَ تحولُ بين حقائق ما في القرآن والسنة من الشفاء، وبين ما يذكره هؤلاء من إعرابٍ أو تشبيه، أو وجهِ بلاغة أو غير ذلك مع ترك ما يثمره القرآن والسنة من الحقائق الإيمانية، والكمالات الإنسانية في الدنيا والآخرة.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب، وبالله التوفيق، والله أعلم وصلىٰ الله علىٰ عبده ورسوله محمد

وآله وصحبه أجمعين.

شرحُ أسماءِ اللهِ الحسنى الواردةِ في القرآنِ على وجهِ الإيجازِ غير المخلِّ

هذا الأصلُ هو أعظمُ أصولِ التوحيد؛ بل لا يقومُ التوحيدُ ولا يتمُّ ولا يَكملُ حتىٰ يَنبَني علىٰ هذا الأصل، فإنَّ التوحيدَ يَقوىٰ بمعرفةِ الله، ومعرفةُ اللهِ أصلُها معرفةُ أسمائه الحُسنىٰ وما تَشتَمل عليه من المعاني العظيمةِ والتَّعبُّدُ لله بذلك.

وفي الحديثِ الصحيح: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، من أحصَاها دخَلَ الجنَّة».

وإحصاؤها تَحصيلُ معانِيها في القلبِ، وامتلاءُ القلبِ من آثارِ هذه المعرفةِ، فإنَّ كلَّ اسمٍ له في القلبِ الخاضعِ لله المؤمنِ به أثرٌ وحالٌ لا يُحَصِّلُ العبدُ في هذه الدارِ ولا في دارِ القرارِ أجلَّ وأعظمَ منها، فنسألُ [الله] تعالىٰ أن يَمنَّ علينا بمعرفتَه ومحبتَه والإنابةِ إليه.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة قسمًا ثانيًا مما يَرجعُ إلىٰ النوعِ الأولِ من العلومِ المتعلقةِ بالقرآن وهو **علمُ العقائد**، وهذا النوعُ وهو شرح أسماءِ الله الحسنىٰ الواردةِ في القرآنِ علىٰ وجهِ الإيجازِ غير المُخِلِّ، فاشترَطَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فيما يَذكره هَاهُنا شرطان اثنان:

أحدُهما: أن تكونَ هذه الأسماءُ واردةً في القرآن، وقد وقع في بعضِ المواضعِ خلافُ هذا، فأَدْخَل اسمًا ليس مذكورًا في القرآن.

والثاني: أن يكونَ بيانُها علىٰ وجه الإيجازِ دُونَ إخلالٍ.

وتقدَّم أنَّ **الاسمَ الإلهي**: **هو ما دلَّ علىٰ الذَّات مع صفةِ كمالٍ مُتعلقةٍ بها**، كالله، والرحمنِ، والرحيم، إلىٰ آخره. وأسماءُ الله سبحانَه حسنىٰ، أي بالغةٌ في الحسن غايتَه، وحسنُ أسمائه عَزَّ وَجَلَّ نوعان:

أحدُهما: حسنُ مباني.

والثاني: حسنُ معاني.

والمرادُ بحسنِ المباني: أن تكونَ موضوعةً علىٰ أتمِّ وجهٍ في لسان العرب، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ مثلًا من أسمائه **الحكيم دون الحاكِم والمُحكِم**، واستغني باسم الحكيم عنهما لدَلالته علىٰ المعنيين معًا.

فإنَّ حكيمٌ فَعِيل يَجوز أنْ يكونَ بمعنىٰ فاعلٌ أي حاكم، أو بمعنىٰ المُحْكِم.

وكذلكَ هي بالغةٌ في المعاني غايةَ الحسنِ فلا تشتملُ إلا علىٰ أكملِ الكمالات.

وذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ منزلةَ هذا الأصلِ بأنه لا يَقومُ التوحيدُ ولا يتمُّ ولا يكملُ إلا عليه، فإنَّ التوحيدَ

يَقوىٰ بمعرفةِ الله، ومعرفةُ الله مَردُّها إلىٰ معرفةِ أسمائه وما تشتملُ عليه من المعاني، والتعبدُ لله بذلك، وفي ذلك جاءَ الحديثُ المُخرَّجُ في «الصحيحين» من حديثِ أبي هريرة «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا من أحصاها دَخلَ الجنة**» فإن الإحصاءَ يشملُ ثلاثةَ أمور:

أوّلها: معرفةُ ألفاظها.

والثّاني: إدراكُ معانيها.

والثّالث: التعبدُ لله بها.

ذكرَ هذا الغزَّالي في «المقصدِ الأسنىٰ»، والقرطبي في «المُفهِم»، وابن قيم الجوزية في «بدائعِ الفوائد».

فما ذَكره المصنِّف في قوله: (**وإحصاؤها تحصيل معانيها في القلبِ وامتلاءُ القلب من آثار المعرفة..**) إلخ هو بعضُ ما يدخلُ في جملةِ الإحصاءِ المتقدمة، فإن الإحصاءَ يَرجعُ إلىٰ المعاني الثلاثة التي ذكرتُها.

❊❊❊

اللّه:

هذا الاسمُ الجليلُ الجميلُ هو أعظمُ الأسماءِ الحسنىٰ؛ بل قيل: إنَّه الاسمُ الأعظم، وسيأتي التنبيهُ علىٰ الاسمِ الأعظمِ عن قريبٍ إنْ شاء الله.

ولهذا تُضافُ جميعُ الأسماءِ الحسنىٰ إلىٰ هذا الاسمِ ويُوصف بها، فيقال: الرحمن، الرحيم، الخالق، الرَّازق، العزيز، الحكيم، إلىٰ آخرِها من أسماءِ الله. ولا يقال: اللهُ من أسماء الرحمنِ، الرحيمِ، إلىٰ آخرها.

فمعنىٰ الله كما قال ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «ذو الألوهية والعُبودية علىٰ خلقِه أجمعين»، فجمعَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في هذا التفسيرِ بين الوصفِ المتعلّق بالله من هذا الاسمِ الكريم، وهو الألوهيةُ التي هي وَصفُه الدَّالُ عليها لفظُ الله، كما دلَّ علىٰ العلمِ الذي هو وصفُه لفظُ العليم، وكما دلَّ علىٰ العزةِ التي هي وصفُه لفظُ العزيز، وكما دلَّ علىٰ الحكمةِ التي هي وصفُه لفظُ الحكيم، وكما دلَّ علىٰ الرَّحمةِ التي هي وصفه لفظُ الرَّحيم، وغيرُها من الأسماء الدالةِ علىٰ ما قام بالذاتِ من مدلولِ صفاتها.

فكذلك اللهُ هو ذو الألوهية، والألوهيةُ التي هي وَصفه هي الوَصفُ العظيم الذي استَحقَّ أنْ يكونَ به إلهًا؛ بل استحقَّ أنْ لا يُشاركَه في هذا الوصفِ العظيمِ مشارِكٌ بوجهٍ من الوجوه.

وأوصافُ الألوهيةِ هي جميعُ أوصافِ الكمالِ، وأوصافُ الجلالِ والعظمةِ والجمالِ، وأوصافُ

الرَّحمة والبرِّ والكرمِ والامتنانِ.

فإنَّ هذه الصفاتِ هي التي يَستحقُ أن يُؤلَّهَ ويُعبدَ لأجلِها، فيُؤلَّه لأنَّ له أوصافَ العظمـة والكبريـاء، ويُؤلَّه لأنَّه المُتفرِّدُ بالقيُّوميةِ والرُّبوبيةِ والملكِ والسلطانِ، ويؤلَّه لأنَّـه المتفـرِّدُ بالرحمـة وإيصـالِ الـنِّعم الظاهرةِ والباطنة إلىٰ جميع خلقه، ويؤلّه لأنَّه المحيطُ بكلِّ شيءٍ عِلمًا وحُكْمًا وحِكمةً وإِحسانًا ورَحمـة وقُدرةً وعِزةً وقهرًا، ويؤلّه لأنَّه المُتفرِّدُ بالغنىٰ المطلقِ التامِّ من جميعِ الوجوهِ، كما أنَّ ما سِواهُ مُفتَقِرٌ إليـه علىٰ الدَّوامِ مِن جميعِ الوُجوهِ، مُفتقرٌ إليه في إيجاده وتدبيرِه، مُفتقرٌ إليه في إمـدادِه ورزقِـه، مُفتقـرٌ إليـه في حاجاتِه كلِّها، مُفتَقِرٌ إليه في أعظمِ الحَاجاتِ وأشدِّ الضَّروراتِ، وهي افتِقارُه إلىٰ عبادتِه وحدَه والتَّألُّـه لـه وحدَه.

فالألوهيةُ تَتَضمنُ جميعَ الأسماءِ الحسنىٰ والصفاتِ العُليَا، وبهذا احتَجَّ من قـالَ: إنَّ اللهَ هـوَ الاسـمُ الأعظمُ، ومنهمْ من قال: إنَّه الصَّمد الذي تَصمُدُ إليهِ جميعُ المخلوقاتِ بحَاجتِها لكمالِ سِيَادتِه وعظمتِـه وسعةِ أوصافِه، ومنهم من قال: إنَّ الاسمَ الأعظم هو الحـيُّ القيُّـومُ؛ لـورودِه في بعـضِ الأحاديـث، ولأنَّ هَذين الاسمينِ العظيمينِ يتضمنانِ جميعَ الأسماءِ الحسنىٰ والصفاتِ الكاملةِ، فإنَّ الصفاتَ الذاتيةَ ترجعُ إلىٰ الحيِّ الذي قَد كَمُلتْ حياتُه فكمُلَت صفاتُه، وصفاتُ الأفعالِ ترجعُ إلىٰ القيُّوم؛ لأنَّه الذي قامَ بنفسِـه وقامَ بغيرِه، وافتقرَت إليه الكائناتُ بأسرِها.

وقيلَ في تعيينِ الاسمِ الأعظمِ أقوالُ أُخر، والتحقيقُ أنَّ الاسمَ الأعظمَ: اسمُ جـنسٍ لا يُـرادُ بـه اسـمٌ معين، فإنَّ أسماءَ اللهِ نوعان:

أحدُهما: ما دلَّ علىٰ صفةٍ واحدةٍ أو صفتين أو تضمنَ أوصافًا معدودة.

والثاني: ما دلَّ علىٰ جميعِ ما للهِ من صفاتِ الكمالِ، وتضـمَّنَ مـا لَـه مـن نُعـوتِ العظمـةِ والجـلالِ والجمالِ، فهذا النوعُ هو الاسمُ الأعظمُ لِما دلَّ عليه من المعاني التي هيَ أعظمُ المعاني وأوسعها.

فالله اسمٌ أعظمٌ، وكذلك الصَّمدُ، وكذلك الحيُّ القيُّوم، وكذلك الحَميـدُ المَجيـدُ، وكـذلك الكَبيـرُ العظيمُ، وكذلك المُحيطُ. وهذا التَّحقيق هو الذي تَدل عليه التَّسميةُ وهـو مُقتَضـىٰ الحِكمـة، وبـه أيضًـا تَجتمع الأقوالُ الصحيحةُ كلُّها، والله أعلم.

والمقصود أنَّ هذا التفسيرَ من ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يُدْخِلُ فيها وصفَه بالألوهيـةِ التـي نَبهنـا هـذا التنبيـه اللطيفَ علىٰ معنىٰ الألوهيةِ، ويُدْخِلُ فيها وصفَ العبادِ وهو العبودية، فالعبادُ يعبدُونَه ويُؤلِّهُونَه.

قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، أي: يَألَهُه أهـلُ السـماءِ وأهـلُ

الأرضِ طوعًا وكرهًا، الكلُّ خاضعونَ لعظمتِه، مُنقادونَ لإرادتِه ومشيئتِه، عانونَ لعزَّته وقيُّوميتِه.

وعبادُ الرحمنِ يُؤلِّهونَه ويَعبدونَه، ويَبذُلُونَ له مَقدورَهم بالتَّألُّه القَلبِيِّ والرُّوحيِّ، والقَوليِّ والفِعليِّ، بِحَسَبِ مقاماتِهم ومراتِبِهم، فيعرفونَ من نعوتِه وأوصافِه ما تتسِعُ قُواهم لمعرفتِه، ويُحبونَه من كلِّ قلوبِهم محبةً تَتضاءلُ جميعُ المحابِّ لَها، فلا يُعارضُ هذه المحبةَ في قلوبِهم محبةُ الأولادِ والوالدينَ وجميعَ محبوباتِ النُّفوسِ؛ بل خواصُّهم جعلوا كلَّ محبوباتِ النُّفوسِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة العاديَّة تبعًا لهذه المحبة، فلما تمَّتْ محبةُ اللهِ في قلوبِهم أحبُّوا ما أحبَّه من أشخاصٍ وأعمالٍ وأزمنةٍ وأمكنةٍ، فصارت محبتُهم وكراهتُهم تبعًا لإلههم وسيدِهم ومحبُوبِه.

ولما تمَّت محبةُ اللهِ في قلوبِهم التي هي أصلُ التَّألُّهِ والتَّعَبُّدِ أنَابُوا إليه فطلبُوا قُربَه ورِضوانَه، وتوَسَّلوا إلىٰ ذلك وإلىٰ ثوابِه بالجدِّ والاجتهادِ في فعلِ ما أمرَ اللهُ به ورسولُه، وفي تركِ جميعِ ما نهىٰ اللهُ عنه ورسولُه، وبهذا صاروا محبِّينَ محبُوبِينَ له، وبذلك تَحقَّقَت عُبوديتُهم وألوهيتُهم لربِّهم، وبذلك استَحقوا أن يكونُوا عبادَه حقًّا، وأن يُضيفَهم إليه بوصفِ الرَّحمةِ حيثُ قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣]، ثم ذكرَ أوصافَهم الجميلةَ التي إنَّما نالوُها برحمتِه وتبَوأُوا منازِلها بِرحمتِه، وجَازَاهُم بمحبتِه وقُربِه ورِضوانه وثوابِه وكرامتِه برحمتِه.

وقد عُلِمَ بهذا أنَّ من بَذَلَ هذه المحبةَ التي هي روحُ العبادةِ التي خُلِقَ الخلقُ لها لِغيرِ اللهِ؛ فقد وَضَعَها في غيرِ موضِعها، ولقد ضيَّعها أيضًا، ولقد ظَلَم نَفسَه أعظمَ الظُّلمِ، حيثُ هَضَمَها أعظمَ حُقوقِها، وبذلك استَحقَّ أن يكونَ الشركُ هو الظُّلمُ العظيمُ، وأن يكونَ المُشركُ مخلَّدًا في النار، محرومًا دخولَ الجنةِ مُحرَّمًا عليه، لأنها دارُ الطيِّبين الذين عَبدُوه حقَّ عبادتِه وأَخلَصُوا له الدِّين.

وقد جمعَ اللهُ هذينِ المعنيينِ في عدةِ مواضعَ مثلُ قوله تعالىٰ لموسىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم]، أي مُسامِيًا مماثلًا في صفاتِ الألوهية.

وكذلكَ كلمةُ الإخلاصِ وهي لا إلهَ إلا الله، تَتضمنُ نَفيَ الألوهيةِ عن غيرِ الله، وأنَّه لا يَستحقُّ أحدٌ مِنَ الخلقِ فيها مثقالَ ذرة، فلا يُصرفُ لغيرِ اللهِ شيءٌ من العباداتِ الظاهرةِ والباطنةِ، وتُقرِّرُ الألوهيةَ كلَّها لله وحدَه، فهو الذي يَستحقُّ أَن يُؤلَه محبةً ورغبةً ورهبةً وإنابةً إليه، وخضوعًا وخشوعًا له من جميعِ

الوجوه والاعتباراتِ، فهو المألوهُ وحدَه، المعبودُ، المَحمودُ، المعظّمُ، المُمَجّدُ، ذُو الجلالِ والإكرام.

لما بَيَّنَ المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ منِ الأنواعِ العَائدةِ إلىٰ قسمِ العقائدِ: شرحُ أسماءِ اللهِ الحسنىٰ، شَرعَ يُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جملةً من أسماءِ الحسنىٰ واحدًا واحدًا، وَابتدأَ باسم «الله» فإنَّ هذا الاسمَ هو أعظمُ أسماءِ الله الحُسنىٰ كما ذكرَ المصنِّف لأن جميعَ الأسماءِ الحسنىٰ تُضافُ إليهِ وتُوصفُ به، فيُقالُ: «اللهُ هوَ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ المَلكُ القُدُّوسُ» ولا يُقالُ: اللهُ من أسماءِ الرَّحمنِ أو الرَّحيمِ إلىٰ آخرها.

فلأجلِ كونِ جميعِ الأسماءِ تابعةً له مَوصوفًا بها صَار هو أَحقُّ أسماءِ الله الحسنىٰ بالتَّقديمِ، وقد بَيَّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ مَعناه بما نَقلَه عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قَال: «**اللهُ: ذو الألوهيةِ والعبوديةِ علىٰ خَلقِ أَجمعين**»، وهذا الأثرُ أخرَجه ابنُ جريرٍ في «تفسيره»، وهو في النُّسخِ المَطبوعةِ منه وهي غيرُ نسخةٍ بلفظِ «الألوهية والمَعبوديةِ علىٰ خلقه أجمعين»، ونقلَه جماعةٌ عنه كابنِ كثيرٍ في «تفسيره»، وكالسيوطيِّ في «الدُّرِ المنثورِ» وغيرِه بهذا اللَّفْظ الذي أوردَه المصنِّف، وهما بمعنىٰ واحدٍ في العبوديةِ والمعبودية معناهما واحد، وفي إسنادِه ضعفٌ؛ لكن دَلالةَ اللغةِ تصدِّقُه، فهو من جنسِ التَّفسيرِ اللُّغوي الذي يُتسامحُ فيه؛ لأن ابنَ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان من أئمةِ اللِّسان، والمنقولُ عنه في تفسيرِ كَلامِ العَربِ كثيرٌ، كما يُعلم في قصتِه مع ابنِ الأزرقِ وغيرِ ذلك، وقد بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن معنىٰ ما ذكرهُ ابنُ عباسٍ أنَّه قد جَمَع في هذا التفسيرِ بينَ الوَصفِ المتعلقِ بالله من هذا الاسمِ وهوَ الألوهية، وبينَ الوصفِ المناسبِ للخَلقِ وهو العُبودية، فإنَّ المرءَ لم يُسمَّ عبدًا إلا لأنَّه يُعظِّمُ اللهَ ويؤلِّهه، واللهُ عَزَّوَجَلَّ سُمِّيَ بهذا الاسمِ؛ لأن القلوبَ تُؤلِّهه، ومدارُ التأْليه علىٰ الحب والخضوع، فإن حقيقةَ تأليه القلبِ قيام هذينِ المعنيينِ في الحبِ والخضوعِ، ولهذا قلنا كما تَقدَّم: إنَّ **العبادةَ هي تألُّهُ القلبِ بالحبِ والخضوعِ**، فإن كَانتْ لله فهي تَوحيدٌ، وإنْ كانت لغيرِه فهي تنديدٌ، وهذا أَمثلُ حدٍ للعبادة، **فإذا أَرَدتَ أن تَعرِّفَ العبادةَ باعتبارِ اللَّفظِ نفسِه فتقول: العبادةُ هي تألُّه القلبِ بالحبِ والخضوعِ، وإن أردتَ أن تعرِّفَ عبادةَ الله فإن عبادةَ الله هي: تألُّه القلبِ للهِ بالحبِّ والخُضوع**.

ولم نقل: بالحبِّ والذُّل، لماذا؟ هذه من الوجُوه التي ذَكرها الإخوان، لم نقل: الذل. لأنه هل جَاء في الشَّرعِ الأمر بالذل؟ جاء فيه أنَّنا نتعبدُ الله بالذُّلِ أو جاءَ فيه بالحبِ والخضوعِ والخوفِ؟ **جاء بالخضوعِ، لم يأتِ بالذُّلِ**، فمُحالٌ أن يكونَ عبادةً أو منزلةً من منازلِ التَّعبُّدِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا وجه، فإنه لم يأتِ في خطابِ الشَّرع.

والثاني: أن الخضوعَ يَشتَمِلُ علىٰ معنىٰ إقبالِ القلب.

والثالث: أنَّ الذُّلَ فيه احتقارٌ وإزراءٌ، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في عقابِ الكافرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ [المجادلة]، ولذلك لا نُعَرِّف العبادةَ فنقولُ: العبادة هي تأله القلب لله بالحب والذل، بل نقول: بالحبِّ والخضوع.

ويكونُ قولُ ابنُ القيِّمِرَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وعبادةُ الرحمن غاية حُبِّه مع ذُلِّ عابدِه...............

متعقَّبٌ بأن الذُّل ليس من مراتبِ العبادةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنَّما الخضوعُ هو الذي من مَراتبِ العبادة.

ثم ذَكرَ أنَّ الألوهيةَ التي هي وَصفُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي التي استَحَقَّ بها أن يَكونَ إلهًا مُعظَّمًا، ثم فَسَّر أَوصافَ الألوهيةِ بأنَّها جميعُ أوصافِ الكَمالِ، وأوصافِ الجلال، والعظمةِ والجمالِ، وأوصافِ الرحمة، فأوصاف الألوهية هي جميعُ أوصافِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّه لهذِه الصفاتِ استَحقَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنْ يُؤلَّه ويُعبد، فيُؤلَّه لأن له أوصاف العظمة، ويُؤلَّه لأنَّه المُتفرِّدُ بالقَيُّومية، ويُؤلَّه لأنَّه المُتفرد بالغِنىٰ المُطلقِ إلىٰ آخرِ المعاني التي ذَكرَها المصنِّف.

ثم قال: (**فالألوهيةُ تتضمَّنُ جميعَ الأسماءِ الحسنىٰ والصفاتِ العُليا، فلأجلِ هذا احتَجَّ من قال: إنَّ اللهَ هو الاسمُ الأعظم**) فقالوا: الاسمُ الأعظمُ لله: هو اللهُ. لأنه يَشتملُ علىٰ جميعِ أوصافِ التعظيمِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهذا قولُ جَماعةٍ من القدماءِ، كأبي حنيفة، وابنِ مندَه رحمهما الله.

ثم ذَكرَ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أقوالًا أخرىٰ في الاسمِ الأعظم، وهذه الأقوالُ قد ذكرَ الشوكانيُ وغيرُه أنَّها تبلغُ أربعين قولًا، وصنَّف السيوطيُّ وغيرُه رسالةً مفردةً فيها عدَّ فيها السيوطيُّ عشرين قولًا، منها ما هو ظاهرُ الضَّعفِ لعدمِ قيامِ دليلٍ صحيحٍ عليه.

ثم بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ اختيارَه في الاسمِ الأعظمِ بقولِه: (**والتَّحقيقُ أن الاسمَ الأعظمَ..**) إلىٰ آخره، فالاسمُ الأعظمُ عند المصنِّف هو ما صرَّح به في مجموعِ الفوائدِ بكلامٍ أفضلَ من كلامِه هنا، فقال: (**الاسمُ الأعظمُ هو كل اسمٍ مفردٍ أو مقرونٍ مع غيرِه إذا دَلَّ علىٰ جميعِ الصفاتِ الذاتيَّةِ والفِعليةِ، أو دَلَّ علىٰ جميعِ معاني الصِّفات**) فهو يَرىٰ أنَّ ما كانَ من الأسماءِ من هذا الجِنسِ فهوَ اسمٌ أعظمٌ، فلذلك يَرىٰ أنَّ اللهَ اسمٌ أعظمٌ، والصمدَ اسمٌ أعظمٌ، والحيُّ القيُّومُ اسمٌ أعظمٌ.

فالأولُ مفردٌ: الله، والصمدُ: اسمٌ مفردٌ.

والحيُّ القيُّومُ، والحميدُ المجيدُ، والكبيرُ العظيمُ هذه أسماءٌ مقرونةٌ لكنَّها دالةٌ علىٰ جميعِ صفاتِ

الذَّاتِ والفعلِ لله، فتكونُ أيضًا اسمًا أعظمَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والصحيحُ أن الاسمَ الأعظمَ اسمٌ جنس دالٌّ علىٰ جميعِ أسماءِ الله عَزَّ وَجَلَّ**، فكما أنَّ أسماءَ الله كلَّها حُسنىٰ، فكذلك أسماءُ الله كلُّها عُظمىٰ وليست عظيمة**، لأن أَعظمَ مؤنثَه عُظمىٰ، فكُلُّ أسماءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عُظمىٰ، وهذا هو الذي تَجتَمِعُ به الأدلةُ الواردةُ في الأحاديثِ التي أَخبرَ بأنَّ الدَّاعِي دَعا فيها بالاسمِ الأعظمِ، وهي عدةُ أحاديث.

فالصحيحُ أنَّ الاسمَ الأعظمَ هو جنسٌ يطلقُ علىٰ جميعِ أسماءِ الله عَزَّ وَجَلَّ، فكما تُوصفُ أسماءُ الله جميعًا بأنها حُسنىٰ كذلك تُوصفُ بأنَّها عُظمىٰ، وقد اختَار هذا القولَ ابنُ جريرٍ الطَّبري، وشيخُنا ابنُ باز رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وإلىٰ ذلك أشرتُ بقولي:

لله اسمٌ أَعْظَمٌ مُعَرَّفُ	أَسماؤه الحُسنىٰ بِهِ تُوَصَّفُ
فَذا الَّذِي تَجتَمِعُ الأَدِلَّهْ	في نَصْرِه واختَارَه الأَجِلَّهْ
كابنِ جريرٍ واقْتَفَىٰ البَازيُّ	ما قَالَهُ وَإِنَّهُ القَويُّ

فالله اسمٌ أعظمٌ، والرَّحمنُ اسمٌ أعظمٌ، والكريمُ اسمٌ أعظمٌ، والمجيدُ اسمٌ أعظمٌ، والصَّمَدُ اسمٌ أَعظمٌ، فَكُلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هوَ موصوفٌ بِهذا الوَصفِ، **وإنَّما يَنتفِعُ الإنسانُ به في الدُّعاءِ إذا وَافقَ الدعاء بحالِه هو**، فإن الأعظمية تتحققُ هاهنا، فإذا كانَ الإنسانُ يُريدُ الرزقَ فالاسمُ الأعظمُ في حقِّه أنْ يَدعوَ باسمِ الرَّزاق، وإذا أرادَ العَفوَ يَدعوَ باسمِ اللهِ الأعظمِ في حقِّه هنا وهُو العفُوُّ، أما إذا دَعا بما يُخالف مَقصدَه من الدعاءِ فإنَّ الأعظميةَ تَتخلفُ باعتبارِ حالِ السائلِ، كأنْ يقولَ الإنسانُ: يا جَبارُ اغفرْ لي ذَنبي، فإنَّ الأعظميةَ متخلفةٌ في حقِّ السَّائلِ، فإذا وَاطأَ الاسمُ الدعاءَ والحالَ صارَ أعظمَ في حقِّ السَّائلِ.

فإذا قالَ السائلُ: يا غفورُ اغفرْ لي معَ انكسارِ القلبِ وافقَ هُنا الأعظميةَ المذكورةَ، وبهذا يُعلمُ السِّرُّ في تخلّفِ الدُّعاءِ بأسماءِ الله العُظمىٰ وعدمُ تَحقُّقِ الدعاءِ لأجلِ مخالفةِ الاسمِ لمُقتضىٰ الدعاءِ أو الحالِ علىٰ ما ذَكرنا.

ثم بيَّن بعدَ ذلك أنَّ تفسيرَ ابنَ عباسٍ فيه تَنبيهٌ علىٰ ما يَجبُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ من التَّأليه وعلىٰ ما يَجبُ علىٰ الخَلقِ من العُبوديةِ، فالله عَزَّ وَجَلَّ مُستحقٌ للتَّأليِه، والخلقُ مَأمورونَ بعبوديتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا التَّأليهُ كما سلفَ يدورُ علىٰ المحبةِ والخُضوعِ، ومن محبتِه عَزَّ وَجَلَّ محبةُ ما أحبَّه من أشخاصٍ، وأعمالٍ، وأزمنةٍ، وأماكنَ، **وبقدرِ تمامِ المحبةِ والخضوعِ في قلوبِ الخَلق تكمُلُ عبوديتُهم لربهم** عَزَّ وَجَلَّ، ومن كَمُلَت في قلبه عبوديةُ الرَّبِ عَزَّ وَجَلَّ استحَقَّ أن يكونَ عبدًا له فأُضيفَ إليه كما قال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فإنَّه أضافَهم إليه

لتحقُّقِ عبوديتِهم له، ثم كانت الإضافةُ باسمِ الرحمنِ لبيانِ استحقاقِهم لرحمةِ الله ﷻ.

ثم نبَّه المصنِّف أنَّ هذه المحبةَ هي روحُ العبادة، ومردُّها، وأصلُها، فمن وَضعَها في غيرِ هـذا الموضعِ وصَرَفَها لغيرِ الله ﷿ فقد ظَلَمَ نفسَه، واستَحقَّ أن يَكونَ ظالمًا لها ظُلمًا عظيمًا لوقوعِه في الشِّرك، فإنَّ تَألُّهَ القلبِ للهِ بالحُبِّ والخُضوعِ عبادةً، وتَألُّـهَهُ لغيرِ الله بالحبِّ والخضوعِ شركٌ وتنديدٌ.

وقد بيَّن اللهُ ﷿ هذا الأصلَ في عدةِ مواضعَ يُثبتُ فيها استحقاقَه للألوهيةِ وَنفيها عن غيره كالآيةِ التي ذكرَها المصنِّف؛ بل كلمةُ الإخلاصِ «لا إله إلا الله» جامعةٌ لهذا، فإنها تتضمنُ نَفي الألوهيةِ عن غيرِ الله، وأنَّه لا يستَحقُّها سِواه مع إثباتِ الألوهيةِ لـه ﷻ، فهـوَ المـألُوهُ وحـدَه، المعبـودُ، المحمـود، المعظَّـمُ، المُمجدُ ذوُ الجَلالِ والإكرام.

ومعاني الأسماءِ والصفاتِ من مسائلِ العلمِ التي يَنبغي أن يَتحققَ مُتَلَمِّسُه بمعرفتِها، فإنها دالّـةٌ علىٰ الله ﷿، **فَمن عَرفَ أسماء الله وصفاتِه عَرفَه، ومن جَهِل أسماءَ اللهِ وصفاتِه جَهلَه**، وإنَّمـا تكمـلُ العبـادةُ في القلوبِ والتأليهَ والتعظيم لله بمثلِ هذه المعارفِ العظيمة.

ومن ضَنائنِ العلمِ المُدَّخرةِ في هذا الكتابِ عنايتُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيانِ معانِي أسماءِ الله الحُسنىٰ وما يَنـدرج فيهـا مِن الصفاتِ، فيَنبغي أن يُنفقَ طالبَ العلمِ من نفسِه ووقتِـه في تَلمُّـسِ مَعـاني أسـماءِ اللهِ ﷿ ومعرفـةِ مـا يَترتَّبُ علىٰ التَّعبدِ لله بها، وهذا الأصلُ ضائعٌ بينَ إهمالِه في علومِ العقائدِ وفي علومِ الرَّقائقِ، فَقَلَّ أن يُعتنىٰ به في علومَ العقائد وقلَّ أن يُعتنىٰ به في عُلومِ [الرَّقائق].

ومن أنفسِ ما صنَّفه المتأخرونَ في هذا كتـابُ «الـنَّهجِ الأسـمىٰ في الأسـماءِ الحسـنىٰ» للشـيخ محمـد الحُمود فإنَّه اعتنىٰ ببيانِ المعاني مع ذكرِ الآثارِ المُترتبةِ علىٰ التَّعبدِ لله بها، فهذا كتابٌ نافعٌ يُنبغي أن يقـرأَه كلُّ طالبِ علم، بل كلُ مسلمٍ لما فيه من التَّعريفِ بمعاني أسماءِ الله وما يَترتبُ علىٰ التَّعبدِ لله ﷻ بها.

وبهذا انتهىٰ التقرير علىٰ هذا الكتاب، والله أعلم وصـلىٰ الله وسـلم علـىٰ عبـده ورسـوله محمـد وآلـه وصحبه أجمعين.

❁ ❁ ❁

الرَّحمنُ، الرَّحيمُ، البَرُّ، الكريمُ، الجوادُ، الوهابُ، الرؤوفُ

هذه الأسماءُ الكريمةُ مُتقارِبٌ معناها، وكلُّها تـدل علـىٰ أنَّـه موصـوفٌ بكمـالِ الرَّحمـةِ وسـعةِ البـرِّ والإحسانِ، وكثرةِ المَواهبِ والحَنانِ والرَّأْفَة.

فجميعُ ما فيه العَالمِ العُلوي والسُّفلي من حُصولِ المنافعِ والمحَابِّ والمَسارِّ والخَيـرات، فـإنَّ ذلـكَ

منه ومن رحمتِه وجُودِه وكرمِه وفضلِه، كما أنَّ ما صُرفَ عنهُم من المكارِه والنِّقمِ والمخاوفِ والأخطارِ والمضارِ، فإنَّها من رحمتِه وبِرِّه، فإنَّه لا يأتي بالحسناتِ إلا هُو، ولا يدفعُ السيئاتِ إلا هو.

ورحمتُه تعالىٰ سبقتْ غضبَه وغلبَتْه، وظهرتْ في خلقِه ظهورًا لا يُنْكَر، حتىٰ ملأتْ أقطارَ السمواتِ والأرضِ، وامتلأتْ منها القلوبُ حتىٰ حنَّت المخلوقاتُ بعضُها إلىٰ بعضٍ بهذه الرحمةِ التي نشَرَها عليهم وأودعَها في قلوبِهم، وحتىٰ حنَّت البهائمُ التي لا ترجُو نفعًا ولا عاقبةً ولا جزاءً علىٰ أولادِها، وشُوهدَ من رأفتِها بهم وشَفقتِها العظيمة ما يَشهدُ بِعناية بارِيها ورحمتِه الواسِعة، وعمَّت مواهبُه أهلَ السمواتِ والأرضِ، ويسَّر لهم المنافعَ والمعايشَ والأرزَاق وربطَها بأسبابٍ مُيسَّرةٍ وطُرُقٍ مسهَّلةٍ، فما مِن دابةٍ في الأرضِ إلا علىٰ اللهِ رزقُها ويعلمُ مستقرَّها ومُستودَعها.

وعلمَ تعالىٰ من مَصالِحهم ما لا يَعلمون، وقدَّر لهم فيها ما لا يُريدون، وما لا يَقدُرون، ورُبما أَجرىٰ عليهم مكارِه توصلُهم إلىٰ ما يُحبون؛ بل رَحِمَهم بالمصائبِ والآلامِ، فجعلَ الآلامَ كلَّها خيرًا للمؤمنِ الذي يَقومُ بوظيفةِ الصَّبر. «عجبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَه كلَّه خير، إن أصابَتْه سرَّاءُ شَكرَ فكانَ خيرًا له، وإن أَصابَته ضرَّاءُ صبرَ فكانَ خيرًا له، وليسَ ذلكَ إلا للمؤمنِ»، وَعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وَهو خيرٌ لكم وَاللهُ يَعلمُ وَأنتم لا تعلمون.

وكذلك ظَهرت رحمتُه في أمرِه وشرعِه ظهورًا تَشهدُه البَصائرُ والأبصارُ، ويَعترفُ به أُولو الألباب. فشَرْعُه نورٌ ورحمةٌ وهدايةٌ، وقد شَرَعَه محتويًا علىٰ الرحمةِ، ومُوصلًا إلىٰ أجلِّ رحمةٍ وكرامةٍ وسَعادةٍ وفلاحٍ. وشَرَعَ فِيه من التسهيلاتِ والتَّيسيراتِ ونفيِ الحرجِ والمشقاتِ ما يدلُّ أكبرَ دِلالةٍ علىٰ سعةِ رحمتِه وجودِه وكرمِه، ومناهيهِ كلُّها رحمةٌ لأنَّها لحفظِ أديانِ العباد، وحفظِ عقولِهم وأعراضِهم وأبدانِهم وأخلاقِهم وأموالِهم من الشُّرورِ والأضرارِ.

فكلُّ النَّواهي تَعودُ إلىٰ هذه الأمورِ، وأيضًا الأوامرُ سهَّلها وأَعانَ عليها بأسبابٍ شَرعيةٍ وأَسبابٍ قَدريةٍ، وذلك من تمامِ رَحمتِه، كما أنَّ النواهيَ جعلَ عليها من العَوائقِ والموانعِ ما يحجزُ العبادَ عن مواقعتِها إلا من أَبىٰ وشرَد، ولم يَكن فيه خيرٌ بالكليَّة. وشَرَع أيضًا من الرَّوادِعِ والزواجرِ والحُدودِ ما يمنعُ العبادَ ويَحجزَهم عنها، ويقلِّلَ من الشُّرورِ شيئًا كثيرًا.

وبالجملةِ فشرْعُه وأمرُه نزَلَ بالرحمةِ، واشتَمل علىٰ الرحمةِ، وأَوصلَ إلىٰ الرحمةِ الأبديةِ والسَّعادةِ السَّرمديةِ.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يبيِّن أسماءَ الله الحُسنىٰ الواردةَ في القرآن الكريم المنتظمةِ تحتَ قسمٍ من أقسام النَّوعِ الأولِ من عُلومِ القرآن وهو ما تَعلَّقَ بالعقائد، **وسَبَق أن عرفتَ أن شَرْطَه فيما يشرحُه من الأسماءِ هو ورودُها في القرآن، كما قالَ فيما سَلَف: شرحُ أسماءِ الله الحسنىٰ الواردةَ في القرآن.**

وقد عدَّ المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ **من أسماءِ الله اسمًا ليس في القرآن الكريم وهو «الجَواد»؛ بل هذا الاسمُ عندَ جمهورِ أهلِ العلم ليسَ من أسماءِ الله** عَزَّ وَجَلَّ **وهُو الصَّحيح**، وإنَّما ذَكرَه في عدِّ أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ ابنُ الوَزيرِ اليماني، ورُوي في بعض روايات عدِّ الأسماءِ في حديثِ أبي هريرة الطويل ولا يَصِحُ.

وما ذَكرَه المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالىٰ من أسماءِ الله هاهنا وهي (**الرَّحمنُ، والرَّحيمُ، والبرُّ، والكَريمُ، والوَهابُ، والرؤُوف**)، كلُّها تَتقارب في مَعناهَا وتدلُّ علىٰ اتِّصافِ الله عَزَّ وَجَلَّ بكمالِ الرحمةِ، وسعةِ البرِّ والإحسانِ، وكثرةِ المواهبِ والحنانِ، والرأفةِ بالخلقِ، فرحمةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسِعَت كلَّ شيءٍ، ومن جملةِ ذلكَ ما انتَظمَ في العالمِ العلويِّ والسفليِّ من تحصيلِ المطلوباتِ المرغُوبة، ودَفعِ المضارِّ المَغلوبةِ فإنَّ ما يُيسرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من حصولِ المنافعِ والمَسارِ والمحابِ والخَيراتِ وما يُهيئُه من صرفِ المكارِه والنِّقم، والمَخاوفِ، والأخطارِ، والسيئاتِ كلُّها من رحمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلقِه، ومن رحمتِه التي ملأَتْ أقطارَ السَّمٰواتِ والأرضِ ما بثَّه بين المخلوقاتِ من رحمةٍ، فإنَّ الوالدَ يَرحمُ ولدَه حتىٰ في البهائمِ العَجماءِ، ويسَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمخلوقاتِ أَسبابَ الرِّزق رحمةً بهم، فهيَّأ لهم من المنافعِ والمعايشِ والأرزاقِ ما به قَوامُ حياتِهم، ويسَّرَ أسبابَها، وبيَّن طُرُقَها؛ بل من رحمةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلقِه من المؤمنينَ أن يَجعلَ المصائبَ والآلامَ خيرًا لهم، كما في حديثِ صهيبٍ في «صحيح مسلمٍ» وفيه أنَّ النبي ﷺ قال: «عجبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَه كلَّه خير، إن أصابتْه سرَّاءُ شكرَ فكان خيرًا لـه، وإن أصابتْه ضرَّاءُ صَبَر فكانَ خيرًا لـه» فصَارت الضَّراءُ في حقِّ المؤمنِ من الرَّحمةِ التي يُجريها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، إذ يُهيئُ له المعونةَ علىٰ الصَّبرِ فيُؤجرُ العبدُ عليها، وكذلك رحمتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أمرِه وشرعِه، تَشهدُ بها البصائرُ والأبصار، فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما أَمرَنا بِه أو نهانَا عنه كلُّ ذلكَ جارٍ علىٰ نظامِ رحمتِه عَزَّ وَجَلَّ، وما أَحسنَ قول المصنِّف في آخرِ كلامِه: (**وبالجملةِ فشرعُه وأمرُه نزلَ بالرَّحمةِ واشتَمل علىٰ الرحمةِ وأَوصلَ إلىٰ الرحمةِ**) وجِماعُ ذلكَ أن يُقال: إنَّ اللهَ رحمانٌ رحيمٌ. وأرسلَ إلينا محمدًا ﷺ رحمةً مُهداة، وأنزلَ عليه كتابًا جعلَه رحمةً لنا كما قالَ تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦]، وأمرَنا بدينٍ هو رحمةٌ، وَجعلَ الجزاءَ: الوصولُ إلىٰ دارِ الرحمة، فانظر ما انتظَمَ في هذه المعاني، فَربُّنا موصوفٌ بكونِه رحمانًا رحيمًا،

وقد أنزلَ إلينا كتابًا هو رحمة، وأرسلَ إلينا رسولًا هو محمدٌ ﷺ جعلَه رحمةً مهداةً، واشتمَل شرعُه علىٰ الرحمةِ، ليُوصلَ الخلقَ إلىٰ دارِ الرَّحمةِ وهي الجنَّة، ولابنِ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ بَديعٌ في «الصَّواعقِ المُرسَلَة» ذكَرَ فيه – بكلامٍ مَبسوطٍ – آثارَ رحمةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وشَواهدَها في الخلقِ.

الخالقُ البارئُ المصوِّرُ

أي هُو المُنفَرِدُ بِخلقِ جميعِ المخلوقاتِ، وبرأَ بحكمتِه جميعَ البَريَّات، وصوَّر بإحكامِه وحُسنِ خلقِه جميعَ الكائناتِ، فَخلقَها وأبدَعَها وفطرَها في الوقتِ المُناسِب لها، وقدَّرَ خلقَها أَحسَنَ تَقديرٍ، وصنَعَها أَتقنَ صُنعٍ وهَدَاها لمَصالِحها، أعطىٰ كلَّ شيءٍ خَلْقَه اللائقَ به، ثم هَدىٰ كلَّ مخلوقٍ لما هُيِّئَ وخُلِقَ لَه.

وإذا كانَ هُوَ الخالقُ وَحدَه البارئُ المُصوِّر لا شَريكَ له في شيءٍ من ذَلك، فَهو الإلهُ الحقُّ الَّذي لا يَستحقُّ العبادةَ إلا هُو، وهُو الخالقُ للذَّواتِ والأفعالِ والصِّفاتِ، وهو الَّذي يَهدي مَن يَشاء ويُضلُّ من يَشاءُ، ويَجعلُ المؤمنَ مؤمنًا والكافرَ كافرًا، من غَيرِ أَنْ يُجبرَ العبادَ علىٰ غيرِ ما يُريدون.

ففي عمومِ خَلقِه ردٌّ علىٰ القَدَريَّة حيثُ أَخرجُوا أفعالَ العبادِ وطَاعاتِهم ومعاصيهم عن دخُولِها تحتَ خلقِه وتقديره، حذرًا منهم وفرارًا من الجَبْر، ولم يَدْرُوا أنَّ كَمَالَه وكمالَ قدرتِه يَنفِي الجَبْر، وأنَّه قادرٌ علىٰ جَعْلِ العبدِ يَفعلُ ما يَختارُه ويُريدُه جاريًا علىٰ قَدْرِه وَمشيئتِه، فُهوَ أَعظمُ من أَن يُجبِرَ العبادَ، وأعدلُ مِن أَنْ يَظلمِهم؛ بلْ همْ الَّذين يُريدونَ ويَختارُونَ واللهُ هو الَّذي جَعَلهم كَذلك، وإرادتُهم وقدرتُهم تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞﴾[التكوير].

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هُنا من أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثلاثةَ أسماءٍ وَقَعَت في القرآنِ علىٰ نسقٍ واحد في آخرِ سُورةِ الحَشرِ هي «الخَالقُ البارئُ المُصوِّر» وهذه الأسماءُ الثلاثةُ تَشتَرِكُ في أمرٍ مُقدَّرٍ وهو الإيجادُ، **فمعاني الخلق والبرء والتَّصوير كلها تَجتمعُ في أَصلِ الإيجادِ، إلا أَنَّها فرقًا لطيفًا.**

فالخلقُ يتعلقُ بالإيجادِ العامِ وهو التَقديرُ.

والبَرءُ يَتعلقُ بفصلِ المُقدَّراتِ من المَوجُودَاتِ بعضِها عن بعضٍ، فَهو أخصُّ مِن المعنىٰ العَام.

والتَّصويرُ تتميمٌ للفصلِ بالتَّفريقِ للصُّور.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ خَالقٌ بَارئٌ مُصورٌ، فهو خلقَ الأشياءَ بتقديرِها تقديرًا عامًّا في إيجادِها، ثم فصلَ نَظائرَها بعضِها عن بعضٍ ثم فرَّقَ بينها بالصُّور، فالحيواناتُ مثلًا قد قدَّرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ من موجوداتِه ثم فرَقَ بين هذه الحيواناتِ بما جَعَل من أنواعِها وبرَأ، فالأسدُ غيرُ الفهدِ غيرُ النّمرِ مع كونِها من السِّباعِ جميعًا، ثُم

في الجِنس الواحدِ كالأسودِ مثلًا أو الفهودِ مثلًا: جعلَ لكلِ واحدٍ من هذه الكائناتِ صورةً تَختَصُّ به، وهذا دَالٌّ علىٰ كمالِ قدرةِ اللهِ ﷻ، وإذا كانَ هُو الخَالقُ البارئُ المُصَوِّر - وهذا من أَعظمِ دلائلِ ربوبيتِه - فَهُو ﷿ المُستَحِقُّ للعبادةِ، كما قال المصنِّف: (وإذا كانَ هو الخَالقُ وحدَه البارئُ) حتىٰ قال: (فهُو الإلهُ الحقُّ الذي لا يَستَحقُ العبادةَ إلا هُو).

ثم ذَكرَ أنَّ في عُمومِ خلق اللهِ ﷻ الرَّد علىٰ القدريةِ الذِين أَخرجُوا أَفعالَ العبادِ وطاعاتِهم عن دخولِها تحتَ خلق فَزعمُوا أنَّ العبدَ يخلقُ فِعلَه، فررًا من الجَبرِ، ولم يعلَموا أنَّ كَمالَ قدرةِ اللهِ وكمالَ رحمتِه يَقتَضي نَفيَ الجَبرِ بأنِ يجعلَ للعبدِ مشيئةً واختيارًا يَختارُ بها ما يَشاءُ من طاعةٍ أو معصيةٍ.

وهذا آخر ما يتعلق بالتعقيب علىٰ هذا الكتاب في هذا المجلس، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

العَزيزُ، الجبَّارُ، المتكبِّرُ، القهَّارُ، القويُّ، المتينُ

فالعَزيزُ الذي لَه جميع معاني العِزّة قالَ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٦٥]، فهُو العزيز لكمالِ قوتِه وهذه عِزَّة القُوة، ويَرجع إلىٰ هذا المَعنىٰ القَويُّ المتينُ.

وعِزَّةُ الامتِناع عن مُغالبةِ أحدٍ، وعن أنْ يَقدرَ عليه أحدٌ، أو يَبلُغَ العبادَ ضرَّه فيَضرُّوه، أو نَفعَه فينفعُوه، وامتِناعُه وتكبُّره عن جميعِ ما لا يَليقُ بعظمتِه وجَلالِه من العُيوبِ والنقائِص، وعَن كلِّ ما يُنافي كمالَه، ويَرجعُ إليها مَعنىٰ المُتَكبِّر مع أنَّ المتكبِّر اسمٌ دالٌ علىٰ كَمالِ العظمةِ ونِهايةِ الكِبرياءِ، مع دِلالتِه علىٰ المعنىٰ المذكورِ وهو تكبُّره وتَنزُّهُه عمَّا لا يَليقُ بعَظمتِه ومَجدِه وجلالِه.

المَعنىٰ الثالثُ عزةُ القَهرِ، الدَّالّ عليها اسمُ القَهَّار الذي قَهر بقدرتِه جميعَ المخلوقاتِ، ودانَت له جميعُ الكائناتِ، فنَواصِي العبادِ كلِّهم بيدِه، وتَصاريفُ المُلكِ وتَدبيراتُه بيدِه، والملكُ بيده، فما شَاءَ كانَ، وما لم يَشأْ لم يَكنْ.

فالعالمُ العلويُّ والعالمُ السفليُّ بما فيها من المَخلوقاتِ العَظيمةِ كلُّها قد خَضَعت في حَركاتِها وسَكناتِها، وما تَأتي وما تَذرُ لمليكِها ومُدبِّرها، فليسَ لها من الأمرِ شيءٌ، ولا من الحُكمِ شيءٌ؛ بل الأمرُ كلُّه للهِ، والحكمُ الشَّرعيُّ والقَدريُّ والجَزائيُّ كلُّه لله، لا حَاكمَ إلا هُو، ولا ربَّ غيرُه، ولا إلهَ سِواه.

والعزَّةُ بمعنىٰ القهرِ هي أحدُ معاني الجَبَّار، ومن مَعاني الجَبَّار أَنَّه العليُّ الأعلىٰ، الَّذي علىٰ العرشِ استَوىٰ، وعلىٰ المُلك احْتوىٰ، وعلىٰ السُّلطان وأَنواعِ التَّصاريفِ استَولىٰ.

ومن معانِي الجبَّارِ معنىٰ يَرجع إلىٰ لُطفِ الرَّحمةِ والرَّأفةِ، وهو الـذي يُجبِـرُ الكَسِـير، ويُغنـي الفَقِيـر، ويَجبرُ المريضَ والمُبتَلىٰ، ويجبِرُ جبرًا خاصًّا قلوبَ المُنكسِرين لِجلالـه، الخاضِـعينَ لِكمالِـه، الـرَّاجِين لفضْلِه ونوالِه بما يُفيضُه علىٰ قُلوبِهم من المحبةِ وأنواعِ المعارفِ الرَّبانِيَّة، والفُتوحـاتِ الإلٰهيـةِ والِهدايـةِ والإرشادِ والتوفيقِ والسَّدادِ.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يبيِّن الأسماءَ ا لحُسنىٰ التي وَرَدتْ في القرآنِ الكريمِ ممَّـا يَنـدَرِجُ تحـتَ القسمِ الثالثِ الذي اختطَّه وهُو شرحُ الأسماءِ الحسنىٰ الواردة في القرآن مما يَرجع إلىٰ النَّوعِ الأولِ وهُـو العقائد، وقَد ذَكَر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا ستةَ أَسماءٍ مِنْ أَسـماءِ رَبنـا جـلَّ وَعـلا هِـيَ: (**العَزِيـزُ، والجَبَّـارُ، والمُتكبِّـرُ، والقَهَّارُ، والقَوِيُّ، والمَتينُ**). وبَيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أَوَّلَها وهُو العَزيزُ الَّذي جَمَع مَعاني العِـزَّةِ كلِّهـا، فـالعِّزةُ كلُّهـا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه المَعاني تَرجعُ إلىٰ ثلاثةٍ، فرَّقها المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

أولُها: عزّةُ القُوة.

وثانيها: عِزّةُ الامتِناع.

وثالثها: عِزّةُ القَهر.

وقد أَشرتُ إلىٰ هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ بقَولي:

أقسـامُ مَـا لِربِّنـا مِـن عِـزَّةِ ... عِـزَّةُ قَهْـرٍ وامتِنَـاعٍ قُـوَّةِ

وقد بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ **عِزَّةَ القُوَّةِ** ترجعُ إلىٰ معنىٰ القَويُّ المَتيـنُ، فـاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مـن أسـمائِه القَـويُّ، ومن أسمائِه المَتينُ، وإليهما تَرجعُ عِزةُ القُوة التي هي أحدُ معاني العِزة.

والفرق بين القويِّ والمتينُ أنَّ المَتينَ هُو وَاسعُ القُوة، فَوصفُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها يَشـتَمِلُ علـىٰ معنًـىٰ زائـدٍ عـن مُجرَّدِ وصفِه بالقَويِّ، فإنَّ القويَّ يشتمِلُ علىٰ إثباتِ اتِّصافِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقُوةِ، لكنَّه وَصفَه تعالىٰ باسـمِه المَتيـنُ دَالٌّ علىٰ سِعَةِ هَذه القُوَّة، وبهذا يَحصلُ الفَرقُ بين اسمِه المَتينُ وبينَ اسمِه الآخرَ الوَاسِـع، فكِلاهمـا دالٌّ علىٰ السَّعَة؛ لكنَّ المَتِينَ يَجمَعُ مع الدِّلالة علىٰ السِّعة الدلالةُ علىٰ قوَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم فَسَّر **عِزَّةَ الامتِناع** بأنها امتِناعُ الله عَزَّ وَجَلَّ عن مُغالبةِ أحدٍ له، وعن أنْ يَقـدِرَ عليـه أحـدٌ مـن عِبـادِه في ضَررٍ أو نَفعٍ.

ثم ذَكَر أنَّ عِزَّةَ الامتِناعِ يَرجعُ إليها مَعنىٰ المُتكبِّر، فإنَّ المُتكبِّر اسمٌ دالٌّ علـىٰ كَمـالِ العَظمـةِ ونِهايـةِ الكِبرياءِ، وهذا ممَّا يَتعلقُ بمعنىٰ الامتِناعِ، فـإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمـا بَلَـغَ الغَايَـةَ في الكِبريـاءِ وصَـارَ مـن أَسمائِه

المُتكبِّر عُلِمَ أنَّه ﷻ قد امتنَعَ علىٰ خَلقِه فلا حَولَ لهم وَلا قُوةَ علَيه.

ثم ذكرَ المعنىٰ الثَّالثِ من معانِي العِزَّةِ وهو عِزَّةُ القَهرِ، ويَدُلُّ عليها اسمُ القَهَّار، فإنَّ القَهَّار دالٌّ علىٰ هذا المعنىٰ من مَعانِي العِزةِ، فاللهُ ﷻ هوَ الَّذي قَهَرَ بقُدرتِه الخلقَ ودانَت له جميعُ المخلوقاتِ، فبيدِه ﷻ ملكُهم وتدبيرُهم، وتصريفُهم، ورزقُهم؛ فلا خُروجَ لهم عن أَمره ﷻ.

ثُمَّ ذكر بعدَ ذلك أنَّ العِزَّةَ بمعنىٰ القَهرِ هيَ أَحدُ معاني الجَبَّار، وما تضمَّنَه كلامُه رَحِمَهُ اللهُ فيما يتعلَّقُ بالجَبرِ دَالٌّ علىٰ أنَّ جبرَ اللهِ ﷻ ثلاثةُ أقسامٍ:

أولُها: جَبرُ قَهْرٍ.

وثانِيها: جَبرُ عُلُوٍّ.

وثالثُها: جَبرُ لُطفٍ.

وإلىٰ هذه الأقسام أشرت بقولي:

أَنواعُ جَبرِ رَبِّنَا فَلْتَدْرُوا ... هِيَ العُلُوْ وَلُطْفُهُ وَالقَهرُ

فجَبرُه ﷻ رَاجعٌ إلىٰ هذِه الأقسامِ الثلاثةِ: **فجبرُ القَهرِ** بقهرِه وقدرتِه علىٰ الخلقِ جميعًا.

وجبرُ **العُلُوِّ** بكونِه ﷻ علىٰ العرشِ استوىٰ، وعلىٰ المُلكِ احتَوىٰ.

وجَبرُ اللُّطفِ؛ أي: ما يَصدرُ عنه ﷻ مِن أَفعالِ اللُّطفِ والرَّحمة والرأفَةِ بخلقِه بجَبرِ الكَسِير، وإِغناءِ الفَقِير، ورَدِّ الضَّائعِ وأَشباهِ هذه الأفراد.

المَلِكُ المَالِكُ للمُلكِ

أي الَّذي لَه جميعُ النُّعوتِ العَظيمةِ الشَّأنِ، التي تَفرَّدَ بها مَلكُ المُلوكِ، من كمالِ القُوَّةِ والعِزَّةِ والقُدرَة، والعِلمِ المُحيطِ والحِكمةِ الوَاسعةِ ونُفوذِ المَشيئةِ، وكَمالِ التَّصرفِ وكَمالِ الرَّأفَةِ والرَّحمةِ، والحكمِ العَامِّ للعالمِ العُلويِّ والعالمِ السُّفليِّ، والحكمِ العامِّ فِي الدُّنيا والآخِرةِ، والحكمُ العام للأحكامِ الثلاثةِ التي لا تَخرجُ عنها جَميعُ المَوجودَات:

الأوَّلُ: الأَحكامُ القدَريَّة حيثُ جَرَت الأقدارُ كلُّها والإيجادُ والإعدامُ، والإحياءُ والإماتةُ، والإِيجادُ والإعدادُ والإمدادُ كلُّها علىٰ مُقتَضىٰ قَضائِه وقَدَرِه.

الثَّاني: والأَحكامُ الشَّرعيّة حيثُ أَرسلَ رُسُلَه، وأَنزَلَ كُتُبَه، وشَرَعَ شَرائِعه، وخلقَ الخَلقَ لهذا الحُكمِ، وأمرَهم أن يَمشُوا علىٰ حكمِه فِي عقائِدِهم وأَخلاقِهم، وأَقوالِهم وأَفعالِهم، وظاهرِهم وباطِنهم، ونهاهُم

عن مجاوزةِ هذا الحُكمِ الشَّرعي، كما أَخبَرهم أنَّ كلَّ حكمٍ يُناقضُ حُكمَه فَهو شرٌّ جاهليٌ مِن أحكامِ الطَّاغوتِ.

الثَّالثُ: والأحكامُ الجَزائية، وَهوَ الجَزاءُ علىٰ الأعمالِ خيرِها وشرِّها في الدنيا والآخرةِ، وإثابةُ الطائِعين، وعُقوبةُ العاصِين، وتلكَ الأحكامُ كلُّها تابعةٌ لعدلِه وحكمتِه وحمدِه العَام، فهذه النُّعوتُ كلُّها مِن مَعاني مُلكِه.

ومِن معاني مُلكِه: أنَّ جَميعَ المَوجوداتِ كلَّها مُلكُه وعبيدُه المُفتقرونَ إليه، المُضطرونَ إليه فِي جميعِ شُؤونِهم، ليسَ لأحدٍ خروجٌ عن مُلكِه، ولا لِمخلوقٍ غنًىٰ عن إيجادِه وإمدادِه، ونفعِه ودفعِه.

ومن معاني مُلكِه: إنزالُ كتُبه، وإرسالُ رُسلِه، وهِدايةُ العالِمين، وإرشادُ الضَّالينَ، وإقامةُ الحُجَّةِ والمَعذرةِ علىٰ المُعانِدينَ المُكابِرينَ، ووَضعُ الثَّوابِ والعِقاَبِ مَواضِعَها، وتَنزِيلُ الأُمورِ مَنازِلها.

كما أنَّ مِن معاني مُلكِه: أنَّه كلَّ يومٍ في شَأنٍ: يَغفرُ ذَنبًا، ويُفرِّجُ كربًا، ويَكشفُ غَمًّا، ويَزيلُ المَشقَّاتِ، ويُغيثُ اللَّهفاتِ، ويَجبُرُ الكَسِير، ويُغنِي الفَقِيرَ، ويَهدي ضَالًّا، ويَخذلُ مُعرِضًا مُولِّيًا، ويُعزُّ قومًا، ويُذلُّ آخرين، ويَرفعُ قَومًا، ويَضعُ آخرين، ويُغيِّر ما شاءَ مِن الأمورِ الجَاريةِ علىٰ نِظامٍ واحدٍ، ليَعرِفَ العِبادُ كمالَ مُلكِه، ونفوذَ مَشيئتِه، وعَظمةِ سُلطانِه.

فالمُلكُ يَرجعُ إلىٰ ثلاثةِ أمورٍ: صِفاتُ الملكِ التي هيَ صفاتُه العظيمة، وملكُه للتَّصاريفِ والشُّؤونِ في جميعِ العوالِمِ، وأنَّ جميعَ الخَلقِ مماليكُه وعبيدُه، فهُو المِلكُ الذي له ملكُ العالمِ العُلويِّ والسُّفلي، وله التدبيراتُ النافذةُ فيها، ليسَ لله في شيءٍ من ذلكَ مشاركٌ.

ذَكرَ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مما يرجعُ إلىٰ الأسماءِ الحُسنىٰ الواردةِ في القرآنِ اسمين اثنين:

أحدُهما: المَلكُ.

والثاني: المالكُ للمُلكِ.

وهذا من محاسنِ تَصرُّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ لم يُطلق اسمَ المالكِ؛ لأنَّ اسمَ المَالكِ لم يأتِ مطلقًا في القرآن الكريم، وإنَّما جاءَ مُضافًا كما في قولِه تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦]، وفي قولِه تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]، وتَقدمَ أنَّ الأسماءَ الحُسنىٰ تَنقسِمُ إلىٰ قسمينِ اثنينِ باعتبارِ الإفرادِ والإضافةِ:

أحدُهما: الأسماءُ المفردةُ مثل الله، والرَّحمن، والرَّحيم.

والثَّاني: الأسماءُ المضافةُ مثل: رَبِّ العالمين، ومالكِ المُلك.

ذَكَرَ هذا أبو العباسِ ابنُ تيميةَ الحفيدُ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في «الفتاوىٰ المِصريَّة»، **ويعلمُ به أنَّ ما كانَ من الأسماءِ مضافًا لا يكونُ اسمًا للهِ إلا علىٰ وَجهِ الإِضافةِ ما لَم يأتِ مفردًا في محلٍّ آخر**، فمثلًا رَبُّ العالمينَ جاءَ مضافًا، وجاءَ أيضًا مُفردًا باسمِ الربِّ، **ومن الأسماءِ المُضافةِ ما لم يأتِ إلا علىٰ وجهِ الإضافةِ، ولم يجئْ علىٰ وجهِ الإفرادِ فيُلتزمُ بهذا**، مثلُ تسميتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمُجرِي السَّحابِ كما ثَبتَ ذلكَ في الصَّحيحِ عن النَّبي ﷺ، فلا يُسمىٰ اللهُ بالمُجرِي، وإنَّما يُسمَّىٰ بمُجرِي السَّحابِ كما جاءَ في النَّص، وهذا اسمٌ وليسَ خَبرًا؛ لأنَّ الأسماءَ تُقصَدُ بالدُّعاءِ، والنبيُ ﷺ إنَّما دَعَا بهذا، فلا يُقالُ: إنَّه خبرٌ؛ بل هوَ اسمٌ مُضافٌ.

ثُمَّ فسَّر رَحِمَهُ اللهُ هَذينِ الاسمينِ العظيمينِ من أسماءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنَّ معناهما أي (**الَّذي لَه جميعُ النُّعوتِ العَظيمةِ التي تَفرَّدَ بها مَلكُ الملوك..**) إلىٰ آخِرِ ما ذَكَرَ، وقد لَخَّص رَحِمَهُ اللهُ تفسيرَه لهذَين الاسْمَين بقولِه: (**فالملكُ يرجعُ إلىٰ ثلاثةِ أُمورٍ: صفاتُ المُلكِ التي هي صفاتُه العظيمة...**) إلخ، وحاصل ما ذكرَ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ مُلكَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَرجعُ إلىٰ ثلاثةِ أشياء:

أحدُها: عظمةُ صفاتِه.

والثاني: تدبيرُ مخلوقاتِه.

والثالثُ: دخولُ جميعِ الخلقِ في مُلكِه.

فمُلكُ الله عَزَّوَجَلَّ يَرجعُ إلىٰ هذه الأقسامِ الثلاثةِ.

وقَد بيَّنَ المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ في صَدرِ كلامِه مما يتعلقُ بصفةِ المُلك أنَّ الخلقَ لا يَخرجُونَ عن حكمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقسَّمَ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ مُلك حُكمَ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ:

أَحدُها: الحُكمُ القدَري.

وثانيها: الحكمُ الشَّرعِي.

وثالثُها: الحكمُ الجزائي.

والمراد بالحكمِ القَدَري: ما جَرىٰ قَدرًا.

والمراد بالحكمِ الشَّرعي: ما أُمِرَ به شَرعًا.

والمراد بالحكمِ الجَزائي: ما وَقعَ بِه الثَّوابُ والعِقابُ في الآخرة.

ومن قواعدِ العلمِ كما سَبقَ أنَّ الرَّدَّ أولىٰ من المَدِّ، أي ردُّ الأشياءِ بعضِها إلىٰ بعضٍ عندَ الإمكان أَولىٰ مِن مَدِّ العبارةِ فيها، وهذا الَّذي نَحاه المصنِّف في هذا المَوضعِ وفي غيرِه من كتُبه من هذا الِجنس، فإنَّه مدَّ

فيما يَنبغي فيه الرَّد، فإن حكمَ الله ﷻ يَنقَسِم إلىٰ قِسمَين اثنَين لا ثالثَ لهما:

أحدُهما: الحُكمُ الشَّرعيُ: وَهوَ ما أُمِرَ به شرعًا، أي ما جاءَت فيه الشرائع.

والثاني: الحُكمُ القَدرِي: وهوَ ما جرتْ به المَقاديرُ، وهذا الحُكمُ القَدَري نوعان اثنان:

أحدُهما: حكمٌ قدريٌ في الدنيا.

والثاني: حُكمٌ قدريٌ في الآخرةِ، وهو الجزاءُ المرتَّب، فإن الجَزاءَ المُرتبُ كما ثبتَ في أحاديثَ كثيرةٍ عن النبي ﷺ هو من جملةِ المُقدَّرِعلىٰ العبدِ، فينبغي رَدُ الحكمِ إلىٰ هذين القِسمين، وَطَيُ الحكمِ الجَزائي في جملةِ الحُكمِ القَدَري، وإلىٰ هذا أشرتُ بقولي:

حُكمُ الإلهِ فاقْسِمَنْ لاثنَينِ   شَرْعِيِّه وقَدَرِ الدَّارَين
اثنَانِ لا ثَلاثَةٌ تُعَدُ   ومَا يُرَىٰ سِواهُما يُرَدُ

وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب وبالله التوفيق، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

القُدُّوس، السَّلام

أي الذي له كلُّ قُدس وطهارة وتعظيم، وتقدَّس عن صفات النَّقص. فالقُدوس يرجع إلىٰ صفات العظمة، وإلىٰ السَّلامة من العيوب والنقائص، كما أنَّ السَّلام يدلُّ علىٰ المعنىٰ الثاني، فهو السالم من كلِّ عيب وآفة ونقص.

ومجموع ما يُنزّه عنه شيئان:

أحدُهما: أنَّه منزّهٌ عن كلِّ ما ينافي صفات كماله، فإنَّ له المُنتهىٰ في كلِّ صفة كمال، فهو موصوف بكمال العلم وكمال القُدرة، منزّه عما ينافي ذلك من النِّسيان والغفلة، وأن يعزب عنه مثقال ذرة في السَّمٰوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ومنزّهٌ عن العجز والتعب والإعياء واللغوب، وموصوف بكمال الحياة والقيُّومية، منزّه عن ضدِّها من الموت والسِّنة والنوم، وموصوف بالعدل والغنىٰ التام، منزّه عن الظلم والحاجة إلىٰ أحد بوجه من الوجوه، وموصوف بكمال الحكمة والرحمة، منزّه عن ما يضاد ذلك من العبث والسفه، وأن يفعل أو يشرع ما ينافي الحكمة والرحمة.

وهكذا جميع صفاته منزّه عن كلِّ ما ينافيها ويضادها.

الثاني: أنَّه منزّه عن مماثلة أحدٍ من خلقه، أو أن يكون له نِدٌّ بوجه من الوجوه. فالمخلوقات كلُّها وإن

عظمت وشرفت وبلغت المنتهىٰ الذي يليق بها من العظمة والكمال اللّائق بها، فليس شيء منها يقارب أو يشابه الباري؛ بل جميع أوصافها تضمحل إذا نسبت إلىٰ صفات باريها وخالقها؛ بل جميع ما فيها من المعاني والنعوت والكمال، هو الذي أعطاها إياه، فهو الذي خلق فيها العقول والسمع والأبصار والقوىٰ الظاهرة والباطنة، وهو الذي علّمها وألهمها، وهو الذي نمّاها ظاهرًا وباطنًا وكمّلها، قالت الرسل والملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالىٰ: «يا عبادي كلُّكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلُّكم جائع إلا من أطعمته..» إلىٰ آخر الحديث.

فهو المنزّه عن كلِّ ما ينافي صفات المجد والعظمة والكمال، وهو المنزّه عن الضد والند والكفء والأمثال، وذلك داخل في اسمه القدوس السلام.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبين ما يتعلق بالقسم الثالث من النوع الأول نوع العقائد وهو شرح الأسماء الحسنىٰ لربنا عَزَّ وَجَلَّ المذكورة في القرآن، وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من أسمائه عَزَّ وَجَلَّ القدُّوس والسَّلام، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يسمىٰ بالقدوس والسلام، والفرق بينهما: أنَّ القدوسَ دالٌّ علىٰ التعظيم، وأن السلام دالٌّ علىٰ التَّنزيه، فيعظَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يوصف بكل كمال وذلك اسم القدوس، وينزَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كل نقصٍ وذلك باسم السلام، والنَّقص الذي ينزّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه نوعان:

أحدهما: ما هو نقصٌ في نفسه؛ كالبخل، الظلم، والطيش، والسَّفَه، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ منزه عنه.

والثاني: ما ليس نقصًا في نفسه؛ لكن ينزه الله عَزَّ وَجَلَّ عن عدم بلوغ الكمال منه، كالعلم، والكرم، والحلم، فإن هذه الأشياء ونظائرها ليست نقصًا؛ بل هي كمال، لكن ينزه الله عَزَّ وَجَلَّ عن عدم بلوغ الغاية منها، فالمقطوع به أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ له الغاية الكاملة العالية من كلِّ كمال؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] قال ابن عباس: ولله الوصف الأعلىٰ. فكلُّ كمال فلله عَزَّ وَجَلَّ منه الكمال والغاية، وينزه الله عَزَّ وَجَلَّ عن النقص فيه، فلا يَلحق الله عَزَّ وَجَلَّ نقص في علمه ولا نقص في حلمه، ولا نقص في كرمه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ مجموع ما ينزه عنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرجع إلىٰ شيئين، وهذان الشَّيئان مذكوران في كلام أبو العباس ابن تيمية الحفيد:

أحدهما: أنه منزه عن كل ما ينافي صفات كماله، فكلُّ شيء ينافي صفة كمال لله عَزَّ وَجَلَّ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ ينزَّه عنه، فإنَّ العجز ينافي قيومية الله عَزَّ وَجَلَّ، فينزَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، والموت ينافي حياة الله تعالىٰ فينزّه الله عَزَّ وَجَلَّ

عنه، وهكذا جميعُ صفاته منزه عن كل ما ينافيها ويضادها.

والثاني: أنه منزّه عن مماثلة خلقه، فليس فيهم من هو ندٌّ ولا كفءٌ ولا مثل ولا سَميّ لربنا ﷻ، فمهما بلغ شيء من المخلوقات الكمال فإنه لا يقارب الله ﷻ؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورىٰ]، فكل ما للخلق من كمال فإنه من كمال الله عَزَّوَجَلَّ الذي تفضل به علينا، فالعالم مثلًا من كماله العلم، والحاكم مثلًا من كماله الحُكم والعدل، وهذه الكمالات مهما بلغت في حقِّ المخلوق فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له كمالها البالغ مما لا يشابهه ولا يقاربه أحد من المخلوقات، فعلم الخلق يقصر عن علم الله، كما قالت الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، وقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، فقول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قالت الرسل والملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾) باعتبار المعنىٰ العام، وإلا الذي في الآية في المنسوب للملائكة هو ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ كما في سورة البقرة، وأما الرسل فإنَّما قالت: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾[المائدة]، وكذلك كل كمال من كمالات الصفات كالحلم، والكرم، والحياة، والقوة، والقدرة فلله سبحانه كمالها ولا يبلغ الخلق شيئًا يقاربه منها، فالله ﷻ منزه عن كل ما ينافي صفات مجده وكماله، ومنزَّه عن الضد والند، والكُفء، والأمثال.

المؤمن

الإيمان يرجع معناه إلىٰ التصديق والاعتراف، وما يقتضيه ذلك من الإرشاد وتصديق الصادقين وإقامة البراهين علىٰ صدقهم، فهو تعالىٰ المؤمن الذي هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وما عَرَّفه رسلَه وعبادَه من أسمائه وصفاته، وآثار ذلك مما هو أعظم أوصاف خيار الخلق من معرفته والإيمان به، هو شيء يسير بالنسبة إلىٰ ما له من الكمال المطلق من كلِّ وجه، فهو كما أثنىٰ علىٰ نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

وهو تعالىٰ الذي صدّق رسله وشهد بصدقهم بقوله وفعله وإقراره حيث أخبر عن صدقهم. وفعل تعالىٰ أفعالًا كثيرةً من معجزات وآيات وخوارق كثيرةٍ وبراهين متنوعة تُعَرِّفُ العباد بصدقهم وتشهد بالحقِّ الذي جاءوا به، فكلُّ المطالب والمسائل العظيمة لم يبق منها شيء إلّا أقام عليه من البراهين شيئًا كثيرًا. وقال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

فالإيمان الرَّاجع إلىٰ المعرفة والمحبة اللهُ أحق به وأولىٰ به، ولنقتصر علىٰ هذه الإشارة في هذا المحلِّ العظيم في تفسير المؤمن.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ شرح اسم آخر من أسماء الله ﷻ وهو (المؤمن) واسم المؤمن في حق ربنا

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرجع إلىٰ أصلين اثنين:

أحدها: مؤمن من الإيمان.

والثاني: مؤمن من الأمان.

فأما الأمر الأول وهو مؤمن من الإيمان قد بين المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الإيمان يرجع معناه إلىٰ التصديق والاعتراف، وينبغي زيادة الجازم كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في مواضع منها «الإيمان الكبير» فليس الإيمان هو مجرد التصديق والاعتراف؛ بل لابد أن يكون مقترنًا بمعنىٰ الجزم، واسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمن الراجع إلىٰ الإيمان يجمع معنيين اثنين:

أحدهما: مؤمن لنفسه.

والآخر: مؤمن لغيره.

فأما إيمانه لنفسه فبما يُظهره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من دلائل كماله وصفات جلاله، وشواهد ربوبيته، وحجج ألوهيته، وبراهين أسمائه وصفاته، مما يحمل النفوس علىٰ الإيمان به.

وأما إيمانه لغيره فبما يُجريه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنبيائه، وأوليائه من دلائل وبيِّنات وحُجج وخوارق تعرِّف الناس بصدقهم وتشهد بالحق الذي جاءوا به.

فالمؤمن الذي هو من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ مما يتعلَّق بالإيمان يرجع إلىٰ هذين الأصلين:

أحدهما: أنه مؤمنٌ لنفسه بما يبديه من كمالاته.

والثَّاني: أنه مؤمن لغيره بما يظهره من حجج صدقهم.

وأما الأصل الثاني: وهو المؤمن من الأمان، فذلك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمان الخائفين، فمن لجأ إليه وفرَّ منه إليه، والتجأ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خوفه وأزال رهَبه، وفرّج كربته، فصار الله عَزَّ وَجَلَّ مؤمنًا بهذا الاعتبار.

الشهيد، المهيمن، المحيط

أي المطّلع علىٰ جميع الأشياء، الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والخفيات والجليَّات، والماضيات والمستقبَلات، وسمع جميع الأصوات خفيها والجليَّات، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها، وصغيرها وكبيرها، وأحاط علمُه وقدرته وسلطانه، وأوليته وآخريته، وظاهريته وباطنيته بجميع الموجودات، فلا يحجبه عن خلقه ظاهر عن باطن، ولا كبير عن صغير، ولا قريب عن بعيد، ولا يخفىٰ علىٰ علمه شيء، ولا يشذ عن ملكه وسلطانه شيء، ولا ينفلت عن قدرته وعزته شيء، ولا

يتعاصىٰ عليه شيء، ولا يتعاظمه شيء.

وجميع أعمال العباد قد أحصاها وقد علم مقدارها ومقدار جزائها في الخير والشر، وسيجازيهم بما تقتضيه حكمته وحمده وعدله ورحمته، والملوك والجبابرة وإن عظمت سطوتهم، وعظم ملكهم، واشتد جبروتهم، وتفاقم طغيانهم، فإنَّ الله لهم بالمرصاد قد أحاط بأحوالهم، وأحصىٰ وراقب كلَّ حركاتهم وسكناتهم، ونواصيهم بيده، وليس لهم خروج عن تصرفه وإرادته ومشيئته.

أيـن المفـرُ والإلـهُ الطالـب   والمجـرمُ المغلـوبُ لـيس الغالـب

فهذه الأسماء الثلاثة ترجع إلىٰ سعة علمه، وإحاطته بكلِّ شيء، وإلىٰ عظمة ملكه وسلطانه، وإلىٰ شهادته لعباده وعلىٰ عباده بأعمالهم، وإلىٰ الجزاء وانفراد الرب بتصريف العباد، وإجرائهم علىٰ أحكام القدر، وأحكام الشرع، وأحكام الجزاء، والله أعلم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هنا مما يرجع إلىٰ هذا الأصل ثلاثة أسماء في نسق واحد من أسماء الله هي (**الشهيد، والمهيمن، والمحيط**) وتجتمع هذه الأسماء في دلالتها علىٰ علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتفترق من جهة متعلَّق العلم، فإنَّ الشهادة تتضمن علمًا يصحبه الاطلاع فإنَّ معنىٰ الشهادة في لسان العرب يقترن باطلاعٍ وشهود ومعرفة بما يُشهد عليه، فعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باطِّلاعه علىٰ جميع الأشياء أوجب له اسم الشهيد.

والمهيمن هو علم مقترنٌ بالقدرة، فالله عَزَّ وَجَلَّ عليمٌ بالخلق مع القدرة عليهم، فلا يخرج عن علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيءٌ لكمال قدرته.

والمحيط دالٌّ علىٰ علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع سَعَته، فإحاطته بكلِّ شيء تقتضي إحاطة سِعَة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه لا يخرج عن علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صغير ولا كبير، ولا دقيق ولا جليل.

وتقدَّم أن من قواعد باب الصفات أن تعلم أن كلَّ اسم من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإن دلَّ علىٰ صفة وقع لغيرها معها اشتراكٌ فلابد من وجود افتراق بينها، فمثلًا صفة الغضب ليست كصفة الانتقام، ليست كصفة الأسف، وإن وجد بينها معنًىٰ مشترك إلا أن اعتقاد كمال الله عَزَّ وَجَلَّ يوجب الأخذ بهذا، إذ لا يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بصفة إلا وفيها معنًىٰ زائدٌ عن الصفة الأخرىٰ، وهذا مقتضىٰ كل اسم من أسمائه عَزَّ وَجَلَّ، فالشهيد، والمهيمن، والمحيط وإن اشتركت في الدلالة علىٰ العلم لكن بينها فرق علىٰ ما ذكر، وهذا هو اللائق بكمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأصل الترادف في لسان العرب قليل؛ بل أنكره بعض أهل اللغة رحمهم الله تعالىٰ، وهو فيما يوجب

الكمال لله عَزَّ وَجَلَّ أولىٰ بنفيه، فالأسماء ليست مترادفة إلا باعتبار دلالتها علىٰ ذات واحدة، أما باعتبار المعاني فلكل اسم من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معنىٰ غير معنىٰ الاسم الآخر، وكذلك في كل صفة من صفاته، فمن فسر شيئًا من أسمائه لآخر منها أو صفة من صفاته بأخرىٰ منها فقد غلط، كمن فسر مثلًا الأسف بالغضب فإن الغضب شيء والأسف شيء آخر، وقُل مثله في سائر صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الحميد، المجيد

أي: الذي له جميع المحامد والمدائح كلِّها، وهي جميع صفات الكمال، فكلُّ صفة من صفاته يُحمد عليها، ويحمد علىٰ آثارها ومتعلقاتها، فيُحمد علىٰ كلِّ تدبير دبّره ويدبره في الكائنات، ويُحمد علىٰ ما شرعه من الشرائع وأحكمه من الأحكام، ويحمد علىٰ توفيقه أولياءه وعلىٰ خذلانه لأعدائه، كما يحمد علىٰ إثابته للطائعين وعقوبته للعاصين، وله الحمد علىٰ ما تفضَّل به علىٰ العباد من النعم والخيرات والبركات التي لا يمكن للعباد إحصاؤها ويتعذّر عليهم استقصاؤها.

فحمده تعالىٰ قد ملأ العالم العُلوي والسفلي، وله الحمد في الأولىٰ والآخرة، وقد عمَّ حمده كلَّما يتقلَّب فيه العباد، لكون ذلك راجعًا إلىٰ حكمته وعدله وفضله وإحسانه، ووضعه الأمور مواضعها، وهو الحميد الذي يحمده أنبياؤه وأصفياؤه وخيار خلقه، وهو تعالىٰ الحميد الذي يحمدهم علىٰ ما أنعم به عليهم فمنه السبب والمسبب.

وأما المجد فهو سعة الصفات وعظمتها، فالمجيد يرجع إلىٰ عظمة أوصافه وكثرتها وسعتها، وإلىٰ عظمة ملكه وسلطانه، وإلىٰ تفرُّده بالكمال المطلق والجلال المطلق والجمال المطلق، الذي لا يمكن العباد أن يحيطوا بشيء من ذلك، فإذا جُمع بين الحميد المجيد صار اسمُ الحميد أخصَّ بكثرة الأوصاف وسِعتها، واسم المجيد أخصَّ بعظمتها وتوحُّده بالمجد.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن ما التزمه في القسم الثالث من العقائد وهو شرح أسماء الله الحسنىٰ الواردة في القرآن، وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عنا قسمين جاءا مقرونين في القرآن الكريم وهما: (**الحميد، المجيد**).

وبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن **الحميد** هو الذي له جميع المحامد، والمراد بالمحامد: **المحاسن التي توجب**

الحمد، فإن لله ﷻ محاسنَ أوجبت حمده وهي صفات كماله ﷻ، فهو ﷻ محمودٌ علىٰ هذه المحاسن ممَّا يتعلق بذاته أو يتعلَّق بخلقه، فإنَّ الله ﷻ له كمالٌ متعلق بذاته كحياته، وعلمه، وله كمالٌ متعلق بخلقه ككرمه، وعفوه ﷻ، فيُحمد الله ﷻ علىٰ هذا وهذا من محاسنه، فقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أفرادًا من هذه المحامد؛ فإن الله يُحمد علىٰ كل تدبير دبره، ويُحمد علىٰ كل شرع شرعه، ويُحمد علىٰ توفيقه أوليائه، وعلىٰ خذلانه لأعدائه.. إلىٰ آخر ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المحاسن.

ثم بيَّن أن المجد هو (**سعة الصفات وعظمتها**)، أي سعة صفات الكمال وعظمتها، فالمجيد يرجع إلىٰ عظمة أوصافه وكثرتها وسعتها، فلاتساع تلك الصفات وكثرتها مع لزوم العظمة لها سمي الله ﷻ مجيدًا.

فالملاحظ في الحمد كون المحمود عليه من محاسنه.

والملاحظ في المجد كون ما مجد به مما دل علىٰ عظمته.

وإلىٰ هذا أشار المصنِّف بقوله: (**فإذا جمع بين الحميد المجيد صار اسم الحميد أخص بكثرة الأوصاف وسعتها**) أي بالمحاسن، (**واسم المجيد أخصّ بعظمتها وتوحده بالمجد**). فإذا كثرت الصفات واتسعت محاسنه صار الحمد ألصق به اسمًا، وإذا كان ما ذكر به من صفاته عظيمًا كصفة الجلال والعظمة وغيرهما من صفاته ﷻ كان اسم المجيد ألصَقَ بصفته ﷻ.

❊❊❊

الحكيم

أي الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين عباده. فالحكمة هي سعة العلم والاطِّلاع علىٰ مبادئ الأمور وعواقبها، وعلىٰ سعةِ العدل حيث يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

الحكمة ذكرها قبل، ما هو تعريف الظلم؟ **وضع الشيء في غير موضعه**، مقابله؟ العدل الذي فسر به، (**وعلىٰ سعة العدل حيث يضع الأشياء مواضعها**).

والتعليل بحيث ليس صحيحًا لغة، وهو شائع عند المتأخرين، وأورده مساق التعليل قال: (**حيث يضع الأشياء**) يعني بتقدير (لأنه) يضع الأشياء، هذا التركيب غلط في اللغة لكن هو أراد هذا المعنىٰ.

❊❊❊

وعلىٰ سعةِ العدل حيث يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، ولا يتوجه إليه سؤال ولا يقدح في حكمته مقال، فله الحكمة في خلقه وأمره.

أما الحكمة في خلقه فإنَّه خلق الخلق بالحق، ومشتملًا علىٰ الحق، وكان غايته ونهايته الحق، خلقها بأحسن نظام، ورتَّبها بأكمل إتقان، وأعطىٰ كلَّ مخلوق خلْقه اللائق به؛ بل أعطىٰ كلَّ جزء من أجزاء المخلوقات، وكلَّ عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته اللائقة به، بحيث لا يرىٰ الخلقُ في خلق الرحمن تفاوتًا ولا فطورًا، ولا خللًا ولا نقصًا؛ بل لو اجتمعت عقول الخلق ليقترحوا مثلًا وأحسن من هذه الموجودات لم يقدروا.

وهذا أمر معلوم قطعًا من العلم بصفاته، فإذا كان من المعلوم لكلِّ مُنصف مؤمن أنَّ الله له الكمال الذي لا يحيط به العباد، وأنَّه ما من كمالٍ تفرضه الأذهان ويقدِّره المقدرون إلا والله أعظمُ من ذلك وأجلّ، كانت أفعاله ومخلوقاته وجميع ما أوصله إلىٰ الخلق أكملَ الأمور وأحسنها، وأنظمها وأتقنها، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

فالفعل يتبع في كماله وحسنه فاعله، والتَّدبير منسوب إلىٰ مدبِّره، والله تعالىٰ كما لا يشبهه أحد في صفاته في العظمة والحسن والجمال، فكذلك لا يشبهه أحدٌ في أفعاله. وقد تحدَّىٰ عباده في مواضع كثيرة من كتابه، هل يجدون أو يشاهدون في مخلوقاته نقصًا وخللًا، ومن ادَّعىٰ شيئًا من ذلك بسفاهة عقله وعظم جراءته، فقد نادىٰ علىٰ عقله بين العقلاء بالحُمق والجنون.

وأما الحكمة في شرعه وأمره، فإنَّه تعالىٰ شرع الشرائع وأنزل الكتب، وأرسل الرُّسل ليعرفه العبادُ ويعبدوه، فأيُّ حكمة أجلّ من هذا، وأيُّ فضل وكرم أعظم من هذا.

فإنَّ معرفته تعالىٰ وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له، وحمده وذكره، وشكره والثناء عليه أفضلُ العطايا منه لعباده علىٰ الإطلاق، وأجلُّ المناقب لمن يمنُّ الله عليه بها، وأكمل السَّعادة والفلاح والسرور للقلوب والأرواح، كما أنَّها هي السَّبب الوحيد للوصول إلىٰ السعادة الأبدية والفلاح السَّرمدي.

فلو لم يكن في أمره وشرعه إلا هذه الحكمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللَّذات، وأكبر الوسائل والمقاصد، ولأجلها خُلقت الخليقة، ولأجلها حَقَّ الجزاء، ولأجلها خلقت الجنة والنار، ولأجلها جرت علىٰ الخليقة أحكامُ المَلكِ الجبارِ الشرعيةُ والجزائيةُ لكانت كافيةً شافيةً.

هذا وقد اشتمل شرعه علىٰ كلِّ خير، فأخباره تملأ القلوب علمًا وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، ويحصل لها من المعارف أفضل الغنائم والمكاسب. وأوامره كلُّها منافع ومصالح، وتثمر من الأخلاق الجميلة والمناقب الثمينة، والأعمال الصالحة، والهدي الكامل، والأجر

العظيم، والثواب الجسيم. ونواهيه كلُّها موافقة للعقول الصحيحة والفطر المستقيمة، لأنَّها لا تنهىٰ إلا عما يضر الناس في عقولهم وأخلاقهم وأعراضهم وأبدانهم وأموالهم.

وبالجملة فالمصالح الخالصة أو الراجحة تأمر بها، والمفاسد الخالصة أو الراجحة تنهىٰ عنها، فهو الحكيم في خلقه وأمره. وكذلك أحكام الجزاء علىٰ الأعمال في غاية المناسبة والموافقة للحكمة جملة وتفصيلًا، والله أعلم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ اسمًا آخر من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو اسم (**الحكيم**) وفسره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (**أي الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين عباده**)؛ لأن هذا الأصل وهو الحاء والكاف والميم دالَّان علىٰ حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحُكمه، فالحكيم إما أن يكون متعلقًا بالفعل الثلاثي "حَكَمَ" فتكون الصفة الحُكُم، وإما أن يكون متعلقًا بالرُّباعي "أحكَمَ" فتكون الصفة الحكمية، فهذا الاسم دالٌّ علىٰ صفتين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هما صفة الحكمة والحكم، وإلىٰ الأول أشار بقوله: (**الموصوف بكمال الحكمة**)، وإلىٰ الثاني أشار بقوله: (**وبكمال الحكم بين عباده**) وهذه الإشارة في الجملة الثانية دالة علىٰ صواب التصحيح الذي ذكرناه في (**وعلىٰ سعة العدل**) لأن متعلَّق الحُكم هو العدل، كما أن متعلق الحكمة هو العلم، كما قال المصنِّف: (**فالحكمة هي سعة العلم والاطلاع علىٰ مبادئ الأمور وعواقبها**) فالمناسب أن يكون ما بعده (**وعلىٰ سعة العدل حيث يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها**) فحكمة الله سبحانه مبنيَّة علىٰ علمه، وحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للفصل بين المخلوقين مبنيٌّ علىٰ عدله، وقد أفاض المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان متعَلَق الصفة الأولىٰ وهي الحكمة، ثم أهمل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بيان ما يتعلق بالصفة الثانية وهي الحكم مع كونها أشار إليها في صدر كلامه، فبين بعدُ أن حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جارية في خلقه وشرعه، وهذا موجب لقسمة الحكمة إلىٰ قسمين اثنين:

أحدهما: حكمة قدرية، محلُّها القدر.

والثاني: حكمة شرعية، محلُّها الشرع.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أتقن قَدَره في هذا الكون خلقًا وتدبيرًا علىٰ أكمل وجه، وكذلك جاء شرعه وما أمرنا به من الدين علىٰ أكمل وجهٍ، فإن حكمته في خلقه أوجبت أن يجري هذا الخلق علىٰ ما فيه صلاح المخلوقين وتدبير أمورهم.

وكذلك جاء شرعه لإيصال الناس إلىٰ أعظم الكمالات وأجل المكاسب والغنائم، فحُشِي هذا

الشرع بأعظم المنافع والمصالح المثمرة للأخلاق الجميلة والمناقب الجليلة من العلم النافع والعمل الصالح.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أعظم الحكمة في شرعه وأمره ما أمر به الخلق من عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنها أعظم حكمة خُلق لأجلها الخلق وأنزلت لأجلها الشرائع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، فإنَّ اللام هاهنا هي لام التعليل الكاشفة عن الحِكمة من خلق المخلوقين خلافًا للأشاعرة، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنَّما خلق الخلق وأنزل عليهم الشَّرائع بإرسال الرسل وإنزال الكتب لعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنَّما وقع هذا الأمر لكمال الحكمة فإنَّ سعادة الخلق وبلوغهم أجل الخيرات وأكمل اللذَّات إنَّما يكون بعبادتهم لربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لاضطراهم إليه وفقرهم، ولا يُسدّ هذا الفقر والحاجة والفاقة إلا بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأهمل المصنِّف كما ذكرنا الإشارة إلىٰ حُكُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الحكم كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾[الرعد:٤١] وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أفضل الحاكمين كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأعراف]، والأفضلية هنا المشار إليها بقوله تعالىٰ وهو (أخير) ليست علىٰ وجهها، الذي يراد به تفضيل أحد علىٰ ما يقاربه، بل المراد بها إثبات الكمال من غير مقاربة، وهذا معروف في كلام العرب، لأن خير أصلها في لسانهم هي أخير فهي صيغة تفضيل، لكن العرب لكثرة استعمالها هاتين الكلمتين: "خير، وشر" حذفت الهمزة تخفيفًا كما قال ابن مالك في «الكافية» قال:

وغالبًا أغناهمُ خير وشر ... عن قولهم أخير منه وأشر

فتقدير الآية ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝٨٧﴾ أي: وهو أخير الحاكمين، فهي صيغة تفضيل لكن لا يراد بها وجهها، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقاربه أحد في حكمه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحكم ما يريد كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾[المائدة] وكما ذكرت لكم فإن **الاطلاع علىٰ ما تتضمنه الأسماء من الصفات وما انتظم فيها من المعاني من أعظم ما يقرِّب العبد إلىٰ ربه** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد تجد اسمًا من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ يتضمن صفة أو أكثر، ثم تلك الصفات تتضمن معانٍ عظيمة، فإذا أفرغ الإنسان وَسْعه وجعل من وقته ما يحصل به إدراك هذه المعاني حصل له من الاطِّلاع علىٰ عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإجلاله وامتثال قلبه لعبوديته ما لا يكون لغيره.

ومما آل إليه أمر الناس بأخره أن غالب ما يدرَّس في توحيد الأسماء والصفات هو بيان عقيدة أهل السنة مع بيان عقيدة المخالفين، وإنَّما يقصدون بهذا البيان إنَّما هو بيان الإثبات والنفي، أما بيان المعاني الذي هو من عقيدة أهل السنة والجماعة فقد أهمله كثيرٌ من المصنِّفين أو المتكلمين في المعتقد، فإذا

أراد امرؤٌ أن يبين عقيدة أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات فليس محطُّ النظر ومنتهاه أن يبين الإثبات والنفي عندهم وما يقابله من أقوال المخالفين؛ بل ينبغي أن يكون له شغلٌ في بيان معاني هذه الصفات التي تتضمنها هذه الأسماء، ولأجل هذا صارت بعض أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تتضمَّن صفات قَلَّ من يذكرها، كما ذكرنا سابقًا أنَّ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ المستكنة باسمه البصير وصفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالبصيرة وهذه الصِّفة قل من ذكرها، وممَّن ذكرها العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في تفسيره، والمراد بها كمال الاطِّلاع علىٰ المعلوم اطلاعًا يجعل الأمر بيِّنًا غير خفي له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السميع، البصير، العليم، الخبير

أي السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات علىٰ تفنن الحاجات، سرها وجهرها، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد:١٠].

البصير الذي أبصر كلَّ شيء دقَّ وجلَّ، فيبصر دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في ظلمة الليل، ويبصر جريان الأغذية في عروق الحيوانات وأغصان النباتات. ولقد أحسن من قال:

يا مَنْ يرىٰ مدَّ البعوضِ جناحها ... في ظلمةِ الليلِ البهيمِ الأليلِ
ويرىٰ نياطَ عروقِها في نحرِها ... والمخَّ من بين العظامِ النُّحَّلِ
امنن عليَّ بتوبةٍ تمحو بها ... ما كان مني في الزمانِ الأولِ

العليم بكلِّ شيء، الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عن علمه شيء، أحاط علمه بالواجبات والمستحيلات والجائزات، وبالماضيات والحاضرات والمستقبلات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالخفيات والجليات، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام]. يعلم السِّرّ وأخفىٰ، ويعلم ما أكنته الصدور وما توسوس به النفوس، وما فوق السَّمٰوات العلىٰ وما تحت الثرىٰ.

الخبير الذي أدرك علمه السرائر، واطّلع علىٰ مكنون الضمائر، وعلم خفيات البذور ولطائفَ الأمور، ودقائق الذرَّات في ظلمات الدَّيْجور.

فالخبير يرجع إلىٰ العلم بالأمور الخفية التي هي في غاية اللطف والصغر، وفي غاية الخفا ومن باب أولىٰ وأحرىٰ علمه بالظواهر والأمور الجلية، والعليم يدل بالمطابقة علىٰ الأمرين، وكثيرًا ما يأتي ذكر

هذه الأسماء الكريمة في سياق الأعمال وجزائها، ليوقظ القلوب وينبهها على إكمالها وإحسانها وإتقانها وإخلاصها وليرغِّبهم ويُرهِّبهم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا أربعة أسماء أخرىٰ من أسماء ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي «السَّميع، والبصير، والعليم، والخبير» ثم فسّر السميع بقوله: (أي السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات علىٰ تفنن الحاجات) أي اختلاف الحاجات فإن التفنن هو الاختلاف، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسمَعُ جميع الأصوات مهما اختلفت اللغات وتعدد الحاجات في سر أو جهر كما قال تعالىٰ: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد:١٠]، فسمعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمن أسرَّ كسمعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمن جهر.

ثم فسر البصير بقول: (البصير الذي أبصر كل شيء دقَّ وجلَّ فيبصر دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في ظلمة الليل، ويبصر جريان الأغذية في عروق الحيوانات، وأغصان النباتات) كما قال القائل – وهذه الأبيات تنسب إلىٰ أبي العتاهيةِ ونُسبت لغيره وهي قوله:

(يا مَنْ يرىٰ مدَّ البعوضِ جناحَها ... في ظلمةِ الليلِ البهيمِ الأليلِ)

الحالك: أي الحالك شديد السواد.

(ويرىٰ نياطَ عروقِها في نحرِها ... والمخَّ من بين العظامِ النُّحَّلِ)

وفي رواية: (والمخَّ في تلك العظام النحل)

(امنن عليَّ بتوبةٍ تمحو بها ... ما كان مني في الزمانِ الأولِ)

فهو توسل إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكمال بصره واطلاعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ ما دق.

ثم فسر العليم بقوله: (العليم بكلِّ شيء الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزُب عن علمه) أي: لا يغيب عن علمه شيء، (أحاط علمه بالواجبات والمستحيلات والجائزات، وبالماضيات وبالحاضرات وبالمستقبلات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالخفيات والجليات...) إلىٰ آخر ما ذكر.

ثم فسر الخبير بقوله: (فالخبير يرجع إلىٰ العلم بالأمور الخفية التي هي في غاية اللطف والصغر) وهذا يدل علىٰ أن اسم العليم والخبير يشتركان في قدرٍ وهو إدراك المعلومات؛ لكن الخبير ألصق بأمر دقيق من إدراك المعلومات وهو إدراك ما لطُف وصغُر وخفي، فإن الخبرة بعض العلم، ولهذا يخصّ الناس اسم الخبير بمن له اطلاع علىٰ خفايا الشيء المشتغل به، وإن كان غيرُه يشاركه في أصل العلم

بذلك الشيء.

ثم بين رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ من أسرار السياق القرآني أن هذا الاسم وهو الخبير يأتي غالبًا في سياق الأعمال وجزائها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾[العاديات] فذكر اسم الخبير بعد ذكر الأعمال والجزاء عليها المراد به إيقاظ القلوب وتنبيهها إلىٰ ما ينبغي أن تكون عليه من حال الكمال والإحسان، والإتقان، والإخلاص، والله سبحانه قد نشر أسمائه الحسنىٰ في آيات كتابه، وكل آية ختمت باسم من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو عُلِّق فيها فعل باسم من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن لذلك التعلُّق أو الختم معنًىٰ روعي في السياق، فإذا لاحظ الإنسان هذه القاعدة في سياقات القرآن باعتبار المعاني فإنه يطَّلع من معاني القرآن والفهم عنه ما لا يطلع عليه غيره.

ومن ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثلًا حيث جاء ذِكر الحمد قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يأت غيره الحمد للرحمن أو غيره من الأسماء، وإنَّما جُعل اسم الله متعلقًا بالحمد؛ لأن الحمد الكامل الذي وقع له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو على الوصف الكامل الذي له عَزَّوَجَلَّ وهو وصف الألوهية؛ فإنَّ وصف الألوهية هو أكمل صفات ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجميع الصفات ترجع إليه، ولذلك جاء هذا الاسم متبوعًا لغيره ولم يأت تابعًا لغيره؛ بل الأسماء تتبعه ولا يتبع شيئًا منها، فلأجل كونه أدل في كمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جاء الحمد معلقًا به.

وإذا فهم الإنسان كلياتِ المعاني في القرآن أعانه ذلك علىٰ فهمه، فإن كليات القرآن الكريم نوعان اثنان:

أحدهما: كليات مباني.

والآخر: كليات معاني.

والمراد بالكليات المباني: أن يأتي اللفظ علىٰ معنىٰ مطرد كما روىٰ الفريابي وغيره بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال: (**كل سلطان في القرآن فهو حجة**) حيث ما تصرف هذا اللفظ في القرآن فالمراد به هذا المعنىٰ.

وكليات المعاني: هو أن يطرد سياق الآي علىٰ معنًىٰ معين مراد، فيعلم به إذا تصرف هذا السياق أنه يحمل علىٰ هذا المعنىٰ، فمن كليات المعاني مثلًا في القرآن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا ذكر جزاء أهل الجنة ذكر جزاء أهل النار، وإنَّما قرن بينهما لتبيين الفرق في المآل فمن أطاع أثابه الله وجزاه بجزاء أهل الجنة، من عصىٰ أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عاقبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجزاه بجزاء أهل النار، وهذا الباب من أبواب فهم القرآن الكلام فيه قليل عند المتأخرين ويوجد منثورًا في كلام ابن جرير الطبري، ثم في كلام أبي العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم،

وكلام الشاطبي رحمهم الله تعالىٰ، وإذا جعله الإنسان أصلًا فاعتنىٰ بكليات القرآن في مبانيه أو معانيه أعانه علىٰ فهم كتاب الله ﷻ فهمًا يطَّلع به علىٰ أسراره ويتبين له منه أغْواره فتكون لذته بقراءة القرآن وفهمه أعظم من لذَّته بغيره من الكتب.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب في هذا المجلس، وإن شاء الله تعالىٰ نبدأ بعد العشاء الليلة في الكتابين المزيدين بعد الصلاة، والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

اللطيف

من أسمائه الحسنىٰ، له معنيان:

أحدهما: بمعنىٰ الخبير، وهو أنَّ علمه دقَّ ولَطف حتىٰ أدرك السرائر والضمائر والخفيَّات.

والمعنىٰ الثاني: اللطيف الذي يوصل أولياءه وعباده المؤمنين إلىٰ الكرامات والخيرات بالطرق التي يعرفون والتي لا يعرفون، والتي يريدون وما لا يريدون، وبالذي يحبون والذين يكرهون، فيلطف بأوليائه، فييسرهم لليسرىٰ ويجنبهم العُسرىٰ، ويلطف لهم فيقدر أمورًا خارجية عاقبتها تعود إلىٰ مصالحهم ومنافعهم. قال يوسف ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ [يوسف:١٠٠]، أي حيث قدَّر أمورًا كثيرة خارجية عادت عاقبتها الحميدة إلىٰ يوسف وأبيه، وكانت في مبادئها مكروهة للنفوس ولكن صارت عواقبها أحمدَ العواقب، وفوائدها أجلَّ الفوائد.

لا يزال المصنِّف ﵀ تعالىٰ يذكر أفرادًا تندرج تحت القسم الثالث وهو شرح الأسماء الحسنىٰ الواردة في القرآن، ومن جملة تلك الأسماء اسمه ﷻ «اللطيف» فقد ذكر المصنِّف ﵀ تبعًا لابن القيم وغيره أن اسم اللطيف له معنيان اثنان:

أحدهما: بمعنىٰ الخبير، وهو أن علمه دقَّ ولطف حتىٰ أدرك السرائر والضمائر والخفيات، فهو بهذا المعنىٰ يرجع إلىٰ أصل صفة العلم، لكن الخبرة فيها تختصُّ بالاطلاع علىٰ الأمور الخفية فيسمىٰ الله ﷻ خبيرًا ويوصف بالخبرة للدلالة علىٰ كمال علمه الذي عمَّ حتىٰ اطَّلع ﷻ علىٰ ما دق ولطُف من السرائر والضمائر والخفيات.

والمعنىٰ الثاني اللطيف: (**الذي يوصل أولياءه وعباده المؤمنين إلىٰ الكرامات والخيرات بالطرق التي يعرفون والتي لا يعرفون، والتي يريدون وما لا يريدون وبالذي يحبون والذي يكرهون**) هو ﷻ يعاملهم

بما هو أقوم لهم وإن لم يطلعوا علىٰ أسبابه، وهذا هو سر اللطف فإن الإنسان يُصرّف في أمور لا يعرف أسبابها، وينقّله الله ﷻ من حال إلىٰ حال تكمل بها نفسه وترضاها، كل ذلك بخفاء ولطف لا يطلع الإنسان عليه ولا يعرف عاقبته كما قال ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢١٦]، فإن النفوس تكره الموت، ثم قال المولىٰ ﷻ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجري اللطف علىٰ عباده فيقدِّر لهم أمورًا هي في الظاهر مبغوضةٌ لهم مرة العواقب ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل عواقبها حميدةً، ومن تمسك بما أمرت به الشريعة في كلِّ أمر آلت به إلىٰ العاقبة الحميدة، فمهما تراءىٰ للإنسان أنَّ الصواب وقوام الأمر في غير ما أمرت به الشَّريعة فليقطع أن علم الله ﷻ أحكم وأتم، وأنَّ ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ هو أولىٰ بالامتثال وهو الذي به كمال الحال، فينبغي أن يُعمله علىٰ نفسه وأن يجري معه لأنه يؤول به إلىٰ مآل حميد يعرف به حينئذ عاقبة الشَّريعة وأن الله ﷻ لطيف بعباده ولا يضيِّع الله أجر من أحسن عملًا.

وكلام المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعًا لابن القيم في هذين المعنين للطيف مؤذن بأن اللطيف بمعناه الأول عام للخلق جميعًا، وأما اللطيف بالمعنىٰ الثاني فهو مختص بأولياء الله من المؤمنين، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يتكرم علىٰ عباده المؤمنين فيلطف بهم بإيصالهم إلىٰ ما فيه الخير والكرامة لهم بطرق خفية لا يطلعون عليها.

المبدئ المعيد

قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧]، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

فهو تعالىٰ الذي ابتدأ خلق المكلَّفين ثم يعيدهم بعد موتهم، ابتدأهم ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، وليرسل إليهم الرسل وينزل عليهم الكتب ويأمرهم وينهاهم، لم يخلقهم عبثًا ولا سدىٰ، ثم إذا انقضت هذه الدار وظهر الأبرار من الفجار، وتمَّت هذه الأعمار، أعادهم بعدما أماتهم ليجزيهم الثواب علىٰ إيمانهم وطاعاتهم، والعقاب علىٰ كفرهم وعصيانهم جزاءً دائمًا بدوام الله، وإعادةُ الخلق أهون عليه من ابتدائه وذلك كلُّه علىٰ الله يسير.

وعموم ما دل عليه هذان الاسمان الكريمان يشمل كلَّ إبداء وإعادة لهذه المخلوقات، فالناس في هذه الدار في إبداء وإعادة في نومهم ويقظتهم، كلَّ يوم يعادون ويبدءون. وهذه الأرض كلَّ عام في إبداء وإعادة، يحييها بالماء والأمطار، ثم يعود النبت هشيمًا والأخضر رميمًا، ثم هكذا أبدًا ما داموا في هذه الدار رحمة بهم ومتاعًا لهم ولأنعامهم، وذلك كلُّه تابعٌ لحكمته ورحمته.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ اسمين آخرين من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحسنىٰ وهي علىٰ الشريطة التي اشترطها علىٰ نفسه واردة في القرآن، وهذان الاسمان بهذا البناء لم يرِدَا في القرآن، ولمّا ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الآية الدالة علىٰ ذلك إنَّما ذكر آيتين تضمَّنتا إثبات هذين الفعلين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما أن يكون في القرآن شيءٌ من الآي التي تضمنت الاسم صريحًا فليس في القرآن شيءٌ من ذلك، ولم يثبت عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثٌ في ذلك، وجمهور أهل العلم؛ بل يكاد يكون إجماعًا من المتقدِّمين عدم عد هذين الاسمين في أسماء الله الحسنىٰ، وإنَّما عدهما ابن الوزير اليماني ثم تبعه من تبعه من المتأخِّرين، فهما ليسا من أسماء الله الحسنىٰ علىٰ التحقيق وإنَّما يثبت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك الفعل وهو في آي عدة منها الآيات التي ذكرها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وليس كلُّ فعل أثبت لله عَزَّ وَجَلَّ يُشتقّ منه اسم كما نبه علىٰ ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «بدائع الفوائد»، وتبعه المصنِّف في عدة كتبٍ، ففعل: يمكر، وفعل: يشاء، ومثله فعل: يبدأ وفعل: يعيد لا تستوجب أن يستخرج الإنسان منها تسمية الله بالماكر، أو الشائي، أو المبدئ، أو المعيد، فليست هذه من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ معنىٰ هذين الاسمين علىٰ ما ذَكر هو، وأما علىٰ ما تحرر فإنه بيان لمعنىٰ هذين الفعلين، فأما فعل الابتداء فذلك بأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي ابتدأ خلق المكلَّفين، وأما فعل الإعادة فهو يعيدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد موتهم.

وهذان الاسمان الكريمان لو صحا وعلىٰ ما ذكرنا هذان الفعلان يتضمَّنان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبدئ ويعيد المخلوقات جميعًا ممَّا حكم الله عَزَّ وَجَلَّ بخلقه وفنائه، وهذا أمرٌ ظاهر في ملكوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومما يُنبَّه إليه أن هذا البيان لاسم المبدئ إنَّما هو علىٰ ردّه إلىٰ الابتداء وذلك بالهمز، وأما علىٰ رده إلىٰ الإبداء وذلك بالياء بأن يقال: المبدي. فذلك بمعنىٰ المُظهر، فعلىٰ من عدَّ هذا اسمًا فإنه إما أن يكون مهموزًا ويرجع إلىٰ الابتداء، وإما أن يكون غير مهموزٍ ويرجع إلىٰ الإبداء وهو الإظهار، وهذا هو الفرق بينهما، وهذان مذكوران في عدة نصوص من الآي والأحاديث، ومنها حديث أبي هريرة في صحيح مسلم أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بدأ الإسلام غريبًا» فإنه يهمز ويكون معناه من الابتداء، ولا يهمز ويكون معناه من البُدُوِ وهو الإظهار أي ظهر الإسلام غريبًا، فكلام المعنيين صحيح، وكذلك هذان المعنيان في الاسم بهذين الضبطين صحيح علىٰ ما ذكرنا لو ثبت هذا الاسم علىٰ ما سبق.

الفعَّال لما يريد

وهذا من كمال قوته ونفوذ قدرته، أنَّ كلَّ أمر يريده فَعَلَه، لا يتعاصىٰ عليه شيء، ولا يعارضه أحد، وليس له ظهير ولا عوين ولا مساعد علىٰ أيِّ أمر يكون، بل إذا أراد أمرًا قال له كن فيكون.

ومع أنَّه الفعَّال لما يريد، فلا يريد إلا ما تقتضيه حكمته وحمده، فجميع أفعاله تابعة لحكمته، فهو موصوف بالكمال من الجهتين، من جهة كمال القدرة ونفوذ الإرادة، وأنَّ جميع الكائنات قد انقادت لمشيئته وإرادته. ومن جهة الحكمة، فإنَّه الحكيم في كلِّ ما يصدر منه من قول وفعل، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود]، أي في أقواله وأفعاله.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسمًا آخر من أسماء الله الحسنىٰ عنده وهو (**الفعال لما يريد**) ولم يأت هذا اسمًا في القرآن الكريم، وتَجَافىٰ عده اسمًا أكثر أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ، والصحيح أنه ليس من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ؛ بل يخبر عن الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه فعال لما يريد، وأصل هذا الاسم علىٰ البناء الذي ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ راجع إلىٰ صفتين اثنتين:

إحداهما: صفة الفعل، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يفعل.

والثاني: صفة الإرادة فإن الله عَزَّ وَجَلَّ موصوف بها، وقد ركَّب منها بعض أهل العلم هذا الاسم المتضمن لوصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه فعَّال لما يريد، وهو دال علىٰ كمال قوّة الله عَزَّ وَجَلَّ ونفوذ قدرته بما تقتضيه حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

العفو، الغفور، الغفار، التوَّاب

العَفْوُ والمغفرة من لوازم ذاته لا يكون إلا كذلك، ولا تزال آثارُ ذلك

ومتعلقاتُهُ تشمل الخليقة آناء الليل والنهار، فعفوه ومغفرته وسعت المخلوقات والذنوب والجرائم.

والتقصير الواقع من الخلق يقتضي العقوبات المتنوعة، ولكن عفو الله ومغفرته تدفع هذه الموجَبَات والعقوبات، فلو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك علىٰ ظهرها من دابة.

وعفوه تعالىٰ نوعان:

عفوه العام عن جميع المجرمين من الكفار وغيرهم، بدفع العقوبات المنعقدة أسبابها والمقتضية لقطع النعم عنهم، فهم يؤذونه بالسب والشرك وغيرها من أصناف المخالفات، وهو يعافيهم ويرزقهم ويُدِرُّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، ويبسط لهم الدنيا، ويعطيهم من نعيمها ومنافعها، ويمهلهم ولا يهملهم بعفوه وحلمه.

والنوع الثاني: عفوه الخاص ومغفرته الخاصة للتائبين والمستغفرين، والداعين والعابدين، والمصابين بالمصائب المحتسبين، فكلُّ من تاب إليه توبة نصوحًا وهي الخالصة لوجه الله، العامة الشاملة التي لا يصحبها تردد ولا إصرار، فإنَّ الله يغفر له من أيِّ ذنب كان، من كفر وفسوق وعصيان، وكلُّها داخلة في قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر:٥٣].

وقد تواترت النصوص من الكتاب والسنّة في قَبول توبة الله من عباده من أيِّ ذنب يكون. وكذلك الاستغفار المجرد يحصل به من مغفرة الذنوب والسيئات بحسبه، وكذلك فعل الحسنات والأعمال الصالحة تكفر بها الخطايا، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود:١١٤].

وقد وردت أحاديث كثيرة في تكفير كثير من الأعمال للسيئات مع اقتضائها لزيادة الحسنات والدرجات، كما وردت نصوص كثيرة في تكفير المصائب للسيئات، خصوصًا الذي يحتسب ثوابها ويقوم بوظيفة الصبر أو الرضىٰ، فإنَّه يحصل له التكفير من جهتين:

من جهة نفس المصيبة وألمها القلبي والبدني.

ومن جهة مقابلة العبد لها بالصبر والرضىٰ اللذين هما من أعظم أعمال القلوب، فإنَّ أعمال القلوب في تكفيرها السيئات أعظمُ من أعمال الأبدان.

واعلم أنَّ توبة الله علىٰ عبده تتقدَّمها توبة منه عليه، حيث أذن له ووفَّقه وحرَّك دواعي قلبه لذلك، حتىٰ قام بالتَّوبة توفيقًا من الله، ثم لما تاب بالفعل تاب الله عليه فَقَبِلَ توبته، وعفا عن خطاياه وذنوبه، وكلُّ الأعمال الصالحة بهذه المثابة، فالله هو الذي ألهمها للعبد وحرَّك دواعيه لفعلها وهيَّأ له أسبابها، وصرف عنه موانعها، والله تعالىٰ هو الذي يتقبَّلها منه ويُثيبه عليها أفضل الثواب، فعلىٰ العبد أن يعلم أنَّ الله هو الأوَّل الآخر، وأنَّه المبتدئ بالإحسان والنِّعم، المتفضل بالجود والكرم، بالأسباب والمسبَّبات، بالوسائل والمقاصد.

ومن أخص أسباب العفو والمغفرة أنَّ الله يجازي عبده بما يفعله العبد مع عباد الله، فمن عفا عنهم عفا الله عنه، ومن غفر لهم إساءتهم إليه وتغاضىٰ عن هفواتهم نحوه غَفر له، ومن سامحهم سامحه الله.

ومن أسبابه التوسل إلىٰ الله بصفات عفوه ومغفرته كقول العبد: اللَّهُمَّ إنَّك عفو تحب العفو فاعف عني، يا واسع المغفرة اغفر لي، اللَّهُمَّ اغفر لي وارحمني إنَّك أنت العفو الغفور.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أربعة من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي: (العفو، والغفور، والغفار، والتواب)، والغفور والغفار يشتركان في ردِّهما إلىٰ أصل واحد لكنهما يفترقان في كون الغفور اسمًا لله عَزَّ وَجَلَّ دالًّا علىٰ مغفرته لخلقه، وأنَّ الغفار اسم علىٰ وصف الله عَزَّ وَجَلَّ بالمبالغة في ذلك، فإنه لا يزال يغفر لعباده أكثر فأكثر، فإن بناء فعّال في لسان العرب موضوع للمبالغة، ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العفو والمغفرة من لوازم ذاته لا يكون إلا كذلك، فإن من صفات ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدالة علىٰ كماله اتصافه بالعفو والمغفرة، ولا تزال آثار ذلك ومتعلقاته تشمل الخليقة آناء الليل والنهار.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن عفو الله عَزَّ وَجَلَّ عن خلق نوعان اثنان:

أولهما: عفوه العام عن جميع المجرمين من الكفار وغيرهم، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «ليس شيءٌ أصبرَ علىٰ أذًىٰ يسمعه من الله إنهم ليدعون له الولد وإنه ليرزقهم ويعافيهم» أي: أن أهل الشرك والكفران ينسبون إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ الولد ويشركون به، وخيره مغدِقٌ عليهم وواصل إليهم فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعافيهم، يعفو عنهم، ويوصل إليهم نعمهم مع أنه يؤذونه بالسب والشرك وغير ذلك من النقائص التي ينسبونها إليه.

وأما النوع الثاني: فهو عفوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يختص بأوليائه المؤمنين من التائبين، والمستغفرين، والداعين، والعابدين، والمصابين بالمصائب المحتسبين، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يفيض عليهم من أنواع العفو والمغفرة واللطف الذي تختص بهم ما لا يكون لغيرهم، ولذلك ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر:٥٣].

فهذه الآية العظيمة دالة علىٰ أن الله يعامل عباده المؤمنين إذا أذنبوا فتابوا واستغفروا وأنابوا إلىٰ ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمغفرة والتوبة عليهم، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وهذه الآية جاءت فيها النداء بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ ولم يأت قط في القرآن الكريم النداء بهذا إلا في هذه الآية، ولمّا جاء النداء بها أضيفوا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن الله لم ينادِ أولياءه إلا بلقب مكرّم وهو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فلما عُدِل عنه هاهنا وقال الله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ لم ينادهم الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: قُلْ يَا عِبَاد، دون إضافة ولا بقوله: قل يا عباد الله. بل أضافهم إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دلالة علىٰ كمال حالهم، فهو بمنزلة النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذي فاض في القرآن الكريم.

ثم ذكر بعد ذلك أن النصوص تواترت بقبول توبة الله عَزَّ وَجَلَّ من عباده من أي ذنب كان، فكل ذنب أذنبه العبد ثم تاب إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ فإن الله يقبل توبته، ثم استطرد المصنِّفُ فذكر جملة من مكفرات

الذنوب، كالاستغفار وفعل الحسنات، والأعمال الصَّالحة، والمصائب النازلة، ولأبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاعدةٌ نافعة عدَّد فيها عشرة من الأسباب التي تحصل بها مغفرة الذنوب، من جملتها ما ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المصيبة تكفِّر الذنب من جهتين اثنتين:

أولاهما: من جهة المصيبة نفسها، وما يُحيط المرء من ألم قلبي وبدني إذا حلَّت به.

وثانيهما: من جهة مقابلة العبد لها بالصبر والرضا اللذين هما من أعظم أعمال القلوب فإذا وُجدت هاتان الجهتان كانتا موجبة أن تكون المُصيبة النازلة علىٰ العبد مكفِّرة لذنوبه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك أن توبة الله علىٰ عبده تتقدَّمها توبة منه عليه، وهذا محصَّلُ ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحفيده في التلمذة ابن رجب أن توبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ عباده تشمل أمرين اثنين:

أحدهما: توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ العبد إلىٰ التوبة.

وثانيهما: قبول الله عَزَّ وَجَلَّ التوبة منه.

فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يتوب علىٰ عبده فيوفقه إلىٰ أن يتوب من ذنبه ثم يقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه التوبة منه، وهذا مصداق تسميته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتواب، فإنه توَّاب علىٰ خلقه؛ لأنه يوفقهم إلىٰ أسباب التوبة، ثم يقبلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منهم.

ثم بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ طرفًا من أسباب العفو والمغفرة فذكر أن من أخص أسباب العفو والمغفرة من الله أنَّ الله يجازي عبده بما يفعله العبد مع عباده، فمن عفا عن خلق الله عفا الله عنه، ومن غفر لهم غفر الله له، ومن سامحهم سامحه الله، كما في قصَّة صاحب الدين الذي كان يتجاوز عن الناس في الصحيح، وتجاوز الله عنه، فإنه لما عفا عن خلق الله عَزَّ وَجَلَّ استحقَّ أن يعفو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه فعفا الله عَزَّ وَجَلَّ عنه وغفر له.

ثم ذكر من أسباب ذلك أن يتوسَّل العبد إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ بصفات عفوه ومغفرته بأن يدعو الله بقوله: اللَّهُمَّ إنك عفو تحب العفو عني. أو يقول: يا واسع المغفرة اغفر لي. أو يقول: اللَّهُمَّ اغفر لي وارحمني إنك أنت العفو الغفور.

فإذا توسل العبد إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الأسماء المتضمنة لصفات عفو ومغفرة الله عَزَّ وَجَلَّ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يعفو عنه ويغفر له.

وهذا آخر التقرير بهذا المجلس، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله

وصحبه أجمعين.

العليُّ، الأعلى

أي: الذي له العلو المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات:

فهو العليّ بذاته قد استوىٰ علىٰ العرش، وعلا علىٰ جميع الكائنات، وبايَنَها.

العليُّ بقدْره وهو علو صفاته وعظمتُها، فإنَّ صفاته عظيمةٌ لا يماثلها ولا يقاربها صفة أحد، بل لا يطيق العباد أن يحيطوا بصفة واحدة من صفاته.

العلي بقهره حيث قهر كلَّ شيء ودانت له الكائنات بأسرها، فجميع الخلق نواصيهم بيده فلا يتحرَّك منهم متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

والفرق بين العلي والأعلىٰ(١) أنَّ العلي يدل علىٰ كثرة الصفات ومتعلقاتها وتنوُّعها، والأعلىٰ يدل علىٰ عظمتها.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا اسمين آخرين من أسماء الله الحسنىٰ الواردة في القرآن الكريم، فإنَّه لا يزال يبيِّن أفرادًا من الأسماء الحسنىٰ المندرجة تحت النوع الثالث من القسم الأول الذي وضع له كتابه، وهذان اسمان وهما العلي والأعلىٰ من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الواردة في القرآن، وقد بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن معناهما إثبات العلو المطلق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بجميع الوجوه والاعتبارات، وجعل رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذه الوجوه ثلاثةً تبعًا لغيره:

أولها: علوُّه بذاته، وأشار إليه بقوله: (**فهو العلي بذاته..**) إلىٰ آخره.

وثانيهما: علوُّه بقدره، وأشار إليه بقوله: (**العلي بقدره وهو علو صفاته وعظمتها**).

وثالثها: علوه بقهره، وأشار إليه بقوله: (**العلي بقهره حيث قهر كل شيء..**) إلىٰ آخره، وهذه طريقة جماعة من المتكلمين علىٰ هذه الصفة من أهل السنة رحمهم الله تعالىٰ.

والتحقيق أن علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ راجع إلىٰ وجهين اثنين:

---

(١) الواو تنفرد وحدها أم تكون عاطفة؟ حرف عطف ولا ما تكون حرف عطف؟ حرف عطف، حقيقة العطف أن تكون ملازمة للكلمة السابقة أم التالية أم مباعدة لهما جميعًا؟ تكون للكلمة التالية، فالذي فعله المحقق جعلها مباعدة لهما جميعًا هذا غلط بإجماع أهل العربية، فلابد أن تتصل بالكلمة التالية، فتكون في ضمنها تقول: العلي والأعلىٰ، وإذا عسر ذلك بسبب هيئة الطباعة فإنه ينبه في الحاشية ويقول: في الأصل العلي [و] والأعلىٰ، والصواب: العلي والأعلىٰ. لعدم صحة الفصل بها علىٰ هذه الصورة.

أحدهما: علو الذات، فإنَّ الله ﷻ مستوٍ علىٰ عرشه بائنٌ من خلقه.

والثاني: علو الصِّفات، وهو عظمتها وجلالة قدرها.

وأما علو القهر فإنه مندرجٌ في جملة علو الصفات؛ لأن القهر فرد من أفراد صفاته ﷻ، فكما أن له العلو في صفاته جميعًا فإنّ من أفراد تلك الصفات قهره ﷻ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] قال ابن عباس: (ولله الوصف الأعلىٰ) أي: له القدر الأعظم من كل صفة اتصف الله ﷻ بها، والقهر صفةٌ من صفاته، فيكون علوه فيها راجعًا إلىٰ علو صفاته.

وقد أشرتُ إلىٰ هذا بقولي:

علـــو ربنـــا لـــدىٰ الثقـــات	علـــو ذاتـــه مـــع الصـــفات
أمّـــا علـــو قَهْـــره فـــرُدُّوا	إذ ســـابق إذ منـــه يســـتمد

أي: ردوه إلىٰ علو الصفات؛ لأنه مستمد منه.

ثم ذكر المصنِّف ﵀ من دقائق المسائل المتعلِّقة بأسماء ربِّنا ﷻ التَّفريقَ بين اسمين يشتركان في أصل واحد هما هنا «العلي والأعلىٰ» فإن العلي والأعلىٰ يشتركان في أصل واحد إذ يدلان علىٰ علو الله ﷻ لكن بينهما فرقًا بيّنه بقوله: (**والفرق بين العلي والأعلىٰ أنَّ العلي يدل علىٰ كثرة الصفات ومتعلقاته وتنوعها**) أي: ثبوتها واستقرارها لله ﷻ، (**والأعلىٰ يدل علىٰ عظمتها**) أي: بلوغه ﷻ العظمة فيها، فالأعلىٰ متعلقٌ بالنظر إلىٰ غيره من المتصفين بهذه الصفة، والعلي متعلق بذاته ﷻ، لأن هذا البناء موضوع للتفضيل الذي ينظر فيه للحكم بين اثنين فأكثر، ولذلك سماها النحاة بباب أفعل التفضيل أي الموضوع للتفضيل بين شيئين فأكثر.

وهذه قاعدة في كل اسمين من أسماء الله ﷻ يرجعان إلىٰ أصل واحد، فإن ما كان موضوعًا علىٰ بناء أفعل فهو دال علىٰ عظمة اتصاف الله بتلك الصفة، وما لم يكن علىٰ هذا البناء فهو دال علىٰ ثبوت تلك الصفة لله ﷻ، ومنه الكريم، والأكرم، والواحد والأحد، والعزيز والأعز، فإن البناء فيهن واحد، فالأول من كل دال علىٰ ثبوت تلك الصفة، والثاني دال علىٰ عظمتها في حق ربنا ﷻ، فالعزيز مثلًا دال علىٰ اتصاف الله ﷻ بصفة العزة، والأعز دال علىٰ عظمة اتصافه ﷻ بها.

الكبير، العظيم

وهو الذي له الكبرياء نعتًا، والعظمة وصفًا.

قال تعالىٰ في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئًا منهما عذّبته».

ومعاني الكبرياء والعظمة نوعان:

أحدهما: يرجع إلىٰ صفاته وأنَّ له جميع معاني العظمة والجلال، كالقوة والعزة، وكمال القدرة، وسَعة العلم، وكمال المجد وغيرها من أوصاف العظمة والكبرياء. ومن عظمته أنَّ السَّمٰوات والأرض جميعها كخردلة في كف الرحمن كما قال ذلك ابن عباس، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]. فله تعالىٰ العظمة والكبرياء الوصفان اللذان لا يُقَادَرُ قدرهما، ولا يبلغ العباد كنههما.

النوع الثاني: أنَّه لا يستحق أحد التعظيم والتكبير والإجلال والتمجيد غيره، فيستحق علىٰ العباد أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له والخوف منه، وإعمال اللسان بذكره والثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه أن يطاع فلا يعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويشكر فلا يُكفر. ومن تعظيمه وإجلاله أن يُخضع لأوامره وما شرعه وحكم به، وألا يُعترض علىٰ شيء من مخلوقاته، أو علىٰ شيء من شرعه. ومن تعظيمه تعظيم ما عظَّمه واحترمه من زمان ومكان وأشخاص وأعمال.

والعبادة روحها تعظيم الباري وتكبيره، ولهذا شُرعت التكبيرات في الصلاة في افتتاحها وتنقلاتها، ليستحضر العبد معنىٰ تعظيمه في هذه العبادة التي هي أجلّ العبادات، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء].

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا اسمين آخرين من أسماء الله الحسنىٰ هما (الكبير)، و(العظيم) وكان حقيقًا بالمصنِّف أن يقرن اسم الكبير باسم آخر يشاركه في الأصل وهو اسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «المتكبر» فإن المتكبر من أسماء الله الحسنىٰ كما جاء في آخر سورة «الحشر» في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر:٢٣].

وهذه الأسماء الثلاثة: «الكبير، والمتكبر، والعظيم» دالة علىٰ إثبات الكبرياء والعظمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نعتًا ووصفًا كما قال المصنِّف: (وهو الذي له الكبرياء نعتًا والعظمة وصفًا) فإن النعت والوصف في الأصل موضوعان للدلالة علىٰ معنىٰ واحد وقد يقعان علىٰ معنيين مفترقين كما بينه ابن القيم في «مدارج السالكين» لكن هاهنا حيث أطلق النعت فالمراد به الصفة، وقد سمىٰ النسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتاب المتعلق

بأسمائه الله وصفاته من كتاب «السنن الكبرىٰ» بكتاب «النعوت» أي: نعوت الله ﷻ، وهي بمعنىٰ الأوصاف.

وأورد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ حديثًا دالًا علىٰ ذلك وهو الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئًا منهما عذبته» فقد عزاه ناشر الكتاب إلىٰ أحمد وأبي داود وابن ماجه، ولا يوجد في هذه الكتب ولا في غيرها بهذا اللفظ، وإنَّما الموجود فيها «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئًا منهما قذفته في النار» وفي لفظ «ألقيته في جهنم» وإنَّما ورد هذا في حديث آخر في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مقرونين أن النبي ﷺ قال: «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته» فذكر التعذيب إنَّما ورد في الحديث الذي أخرجه مسلم بهذا اللفظ.

أما باللفظ المشهور عند أبي داود وابن ماجه بسند صحيح «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئًا منهما ألقيته في جهنم» وفي رواية «قذفته في النار».

ثم بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن معاني الكبرياء والعظمة نوعان اثنان:

أحدهما: يرجع إلىٰ صفاته عَزَّ وَجَلَّ وأن له جميع معاني العظمة والجلال، فالقوة والعزة، والقدرة وسعة العلم والمجد، ومن عظمته سبحانه أن السماوات والأرض جميعها كخردلة في كف الرحمن كما قال ذلك ابن عباس فيما رواه ابن جرير بسند لا بأس به، ومعنىٰ هذا النوع اتصاف الله ﷻ بالعظمة والكبرياء فهو العظيم والكبير.

وأما النوع الثاني: فهو أنه لا يستحق أحد التعظيم والتكبير، والإجلال والتمجيد غيره فهو الذي يستحق ذلك، فمعنىٰ هذا النوع أنه المعظم، فيعلم بهذا التقرير أن معاني الكبرياء والعظمة نوعان اثنان:

أحدهما: أنه الكبير العظيم الذي له العظمة والكبرياء.

والثاني: أنه المعظم المكبر المستحق للتكبير والتعظيم ﷻ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئًا من تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ الذي يستحقه علىٰ العباد، فيستحق علىٰ العباد أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له، أي الخضوع له، فإنه المعروف في لسان الشرع هو أعمال اللسان بذكره والثناء عليه، ومن جملة ذلك أن يطاع فلا يعصىٰ، ويذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر، ومن تعظيمه الخضوع لأمره وما شرعه ﷻ، وألا يُعترض في شيء من خلقه ولا شيء من أمره؛ لأن الله سبحانه يفعل ما يشاء ويختار، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء].

وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ أن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أصول عبادته، وقد عاب الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ خلقه ذلك وأخبر أن سبب ما يؤولون إليه من الشرك والمعصية ترك التعظيم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[الزمر:٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾[نوح] صح عن ابن عباس عند ابن جرير وغيره أنه قال: (ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته) وطلبًا لهذا الأصل العظيم فإن العبادات بُنيت علىٰ التعظيم، فعُظِّمت تلك العبادات وعظمت أزمانها، وعظمت محالُّها من الأماكن تعظيمًا للعبادة، فإن تعظيم العبادة هو روحها، أي قوامها التي تقوم به، فمعنىٰ قلب المصنِّف: (**والعبادة روحها تعظيم الباري**) أي: قوامها الذي تقوم به تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا شرعت التكبيرات في الصلاة في افتتاحها وتنقلاتها ليستحضر العبد معنىٰ تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في الصلاة، فإن الإنسان إذا قال: «الله أكبر» كان في ذلك تعظيمٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باختيار البداءة في هذا، وكل قول أو فعل من أفعال الصلاة فإنه مبني علىٰ التعظيم، فإن الصلاة هي أجل صلة بين العبد وبين ربه، فبنيت علىٰ التعظيم ابتغاء تحصيل هذا الأصل في نفوس الخلق.

كما قال الإمام أحمد وقبله جماعة من السلف في ذكر وضع اليمين علىٰ الشمال قالوا: ذل بين يدي عزيز. وهذا الذل المقصود به التعظيم، فإن الإنسان لا يضع يده علىٰ هذه الصفة إلا متذللًا لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الجليل، الجميل

أما الجليل فهو الذي له معاني الكبرياء والعظمة كما تقدَّم التنبيه عليها.

وأما الجميل فإنَّه جميل بذاته، جميل بأسمائه، جميل بصفاته، جميل بأفعاله. فأسماؤه كلُّها حُسنىٰ وهي في غاية الحسن والجمال، فلا يسمَّىٰ إلا بأحسن الأسماء، وإذا كان الاسم يحتمل المدح وغيرَه لم يدخُل في أسمائه، كما يُعلم من استقراء أسمائه الحسنىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم].

وذاته تعالىٰ أكمل الذَّوات وأجمل من كلِّ شيء، ولا يمكن أن يُعَبَّر عن كنه جماله، كما لا يمكن التعبير عن كنه جلاله، حتىٰ إنَّ أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم الذي لا يوصف، والسرور والأفراح واللذات التي لا يقادر قدرها إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله، نسوا ما هم فيه من النَّعيم، وتلاشىٰ ما هم فيه من الأفراح، ووَدُّوا أن لو تدوم لهم هذه الحال التي هي أعلىٰ نعيم ولذّة، واكتَسَوا من جماله جمالًا إلىٰ ما هم فيه من الجمال، وكانت قلوبهم دائمًا في شوقٍ عظيم ونزوع شديد إلىٰ رؤية ربهم، حتىٰ إنَّهم

ليفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب، مع أنَّ هذه اللذَّة وإن كانت تبعًا لمعرفتهم بربهم ومحبَّته والشوق إليه، ولكن عند رؤية محبوبهم ومشاهدة جماله وجلاله، تتضاعف اللذة وتقوىٰ المعرفة والحب.

وكذلك هو الجميل في صفاته، فإنَّها صفات حمد وثناء ومدح، فهي أوسع الصِّفات وأعمُّها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والإحسان والجود والكرم، فإنَّها من آثار جماله. ولذلك كانت أفعالُه كلُّها جميلة لأنَّها دائرةٌ بين أفعال البر والإحسان، التي يُحمد عليها ويثنىٰ عليها ويشكر عليها، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها الحكمة والحمد.

فليس في أفعاله عبثٌ ولا سفه ولا ظلم، بل كلُّها هدىٰ ورحمةٌ وعدلٌ ورشد ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٦﴾ [هود].

فأفعاله كلُّها في غاية الحسن والجمال، وشرعه كلُّه رحمة ونور وهدىٰ وجمال، وكلُّ جمالٍ في الدنيا وفي دار النعيم فإنَّه أثرٌ من آثار جماله.

وهو تعالىٰ له المثل الأعلىٰ، فمُعطي الجمال أحق بالجمال، وكيف يقدِر أحد أن يعبر عن جماله وقد قال أعرف الخلق به: «لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك».

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا اسمين آخرين من أسماء الله الحسنىٰ الواردة في القرآن وهما: (**الجليل**)، و(**الجميل**) وعده هذين الاسمين متعقب من جهتين:

أولاهما: أن كلاهما لم يأت ذكره في القرآن الكريم من أسماء الله الحسنىٰ.

وثانيهما: أن الجليل ليس من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلم يثبُت من الأدلة في القرآن ولا في السنة تسمية الله بالجليل، وأما الجميل فإنه من أسماء الله الحسنىٰ التي صحَّت في السنة كما ثبتت في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن الله جميل يحب الجمال» فالجميل من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الواردة في السنة، بخلاف الجليل فإنه لم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة، وإنَّما ورد في بعض ألفاظ حديث عدِّ أسماء الله الحسنىٰ الطويل عند الترمذي وغيره، وهو حديث ضعيف.

ثم بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الجليل هو الذي له معاني الكبرياء والعظمة، فهو بمعنىٰ الكبير والمتكبر، والعظيم التي تقدم ذكرها، وعلىٰ ما تحرر من أنه ليس من أسماء الله الحسنىٰ فإنه يُستغنىٰ بتلك الأسماء الثابتة عن هذا الاسم.

وأما الجميل فبيَّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقته وأن تسمية الله بالجميل تقتضي أنه جميل بذاته، جميل بأسمائه، جميل بصفاته، جميل بأفعاله، فجمال الله عَزَّوَجَلَّ يرجع إلىٰ أربعة أصول:

أولاها: جمال ذاته.

وثانيها: جمال أسمائه.

وثالثها: جمال صفاته.

ورابعها: جمال أفعاله.

وقد عد هذه الأنواع الأربعة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية إذ قال:

فجماله بالذَّات والأوصاف وال ... أفعال والأسماء بالبُرهان

وقد فصَّل المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ معاني الجمال فيها، فذكر أنَّ جماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه هو في كون أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلُّها حسنىٰ، أي: في غاية الحسن والجمال، فلا يسمَّىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلا بأحسن الأسماء، وإذا كان الاسم محتملًا للمدح وغيره لم يسمَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به؛ بل الله عَزَّوَجَلَّ مسمًّى بالأسماء الحسنىٰ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، فعُلم أنَّ أسماءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تختص بهذا الوصف، وأمَّا جمال ذاته عَزَّوَجَلَّ فبيَّنه المصنِّف بقوله: (**وذاته تعالىٰ أكمل الذوات وأجمل من كل شيء ولا يمكن أن يعبَّر عن كنه جماله**) أي: عن حقيقة جماله، وذلك لأن كل جمال في الوجود مما تطرب له البصائر أو الأبصار فإن جمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظم منه، ولمَّا كان أهل الجنة من أعظم الناس فوزًا بلذَّات النفوس وقرة العيون وسرور الأرواح فإنَّهم مع ذلك إذا اطَّلع عليهم ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فرأوه بأبصارهم لهَوْا بجماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن غير ذلك من أنواع اللذات التي هم مشتغلون بها.

وأما جمال صفاته فبيَّنه بقوله: (**وكذلك هو الجميل في صفاته، فإن صفاته عَزَّوَجَلَّ كلها صفات حمد وثناء ومدح**) لا فرق بين أوصاف الرحمة والبر ولا بين أوصاف العظمة والإجلال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ممدوح في صفاته جميعًا.

وأما جمال الأفعال فذكره بقوله: (**ولذلك كانت أفعاله كلها جميلة؛ لأنها دائرة بين أفعال البر والإحسان**)، أي: التي يوصل الله عَزَّوَجَلَّ فيها برَّه وإحسانه وكرمه إلىٰ الخلق.

وكذلك أفعال العدل ومن جملتها إنزال العقوبات فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُحمد عليها بموافقتها مقتضىٰ الحكمة والحمد فتكون جمالًا في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فليس في أفعاله عبث، ولا سفهٌ، ولا ظلم، فيجتمع لربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الجمال ما ليس لغيره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم]، فله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جمال الذات،

وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، وجمال الصِّفات، فهو الجميل وهو حقيقٌ بكل جميل ﷻ.

وهذا آخر التَّقرير علىٰ هذا المجلس من هذا الكتاب، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الحَكَمُ، العدل

أي هو تعالىٰ الملك الحكَمُ الذي له الحكم في الدنيا والآخرة.

ففي هذه الدار لا يخرج الخلق عن أحكامه القدرية؛ بل ما حكم به قدرًا نفذ من غير مانع ولا منازع، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يخرج المكلفون عن أحكامه الشرعية التي هي أحسن الأحكام، والتي هي صلاح الأمور وكمالها، ولا يستقيم لهم دينٌ ورشد إلا باتباع هذه الأحكام التي شرعها علىٰ ألسنة رُسله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ [الأنعام:١١٤].

وفي الآخرة لا يَحكم علىٰ العباد إلا هو، ولا يبقىٰ لأحد قولٌ ولا حكم، حتىٰ الشفاعاتُ كلُّها منطويةٌ تحت إرادته وإذنه، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا إذا حكم بالشفاعة.

وهذه الأحكام كلُّها بالحِكمة والعدل، فهو الحكم العدل الذي تمَّت كلماته صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي. فأوامره كلُّها عدلٌ لأنَّها منافع ومصالح، فهي عدل ممزوجة بالرحمة، ونواهيه كلُّها عدل لكونه لا ينهىٰ إلا عن الشرور والأضرار. وهي أيضًا مقرونة برحمته وحكمته، ومجازاته للعباد بأعمالهم، عدلٌ لا يهضم أحدًا من حسناته، ولا يزيد في سيئاتهم أو يعذبهم بغير جرم اجترحوه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ﴾ [الإسراء:١٥].

وحُكمه بين العباد كلُّه مربوطٌ بالعدل، فلا يمنع أحدًا حقَّه، ولا يغفل عن الظالمين، ولا يضيع حقوق المظلومين، فعدله تعالىٰ شاملٌ للخليقة كلِّها حتىٰ الحيوانات غير المكلَّفة فإنَّه يقتص للشاة الجمَّاء من الشاة القرناء من كمال عدله.

ومن كمال عدله: أنَّه أرسل الرسل مبشِّرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجةٌ، ولئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء].

ومن كمال عدله: أنَّه أعطىٰ عباده الأسماع والأبصار والعقول والقدرة علىٰ أفعالهم والإرادة، ومكنهم من جميع ما يريدون ولم يجبرهم علىٰ أفعالهم.

فَعَدْلُهُ وحكمته ورحمته يبطل بها مذهبُ الجبرية، كما أنَّ كمال قدرته ومشيئته وشمولَها لكلِّ شيء حتىٰ أفعال العباد تُبطل مذهب القدرية الذين يزعمون أنَّهم أهل العدل وهم في الحقيقة أهل الظُّلم.

فالحق هو ما ذهب إليه أهل السنة، وهو ما دلَّت عليه البراهين العقلية والبراهين النَّقلية ودلت عليه أسماؤه الحسنىٰ، كما نبّهنا عليه أنَّ أفعال العباد واقعةٌ تحت اختيارهم وإرادتهم خيرَها وشرَها، ومع ذلك فلا خروج لها عن قضائه وقَدَره.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفيض في بيان النوع الثالث من القسم الأول وهو من بيان ما تضمنه القرآن من أسماء الله الحسنىٰ، وقد عدَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا من أسماء ربنا اسمين اثنين هما: (الحكم)، و(العدل) فقال: (**الحكم العدل**) فأما الاسم الأول فإنه من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤]، وعند أبي داود والنسائي بسند صحيح من حديث هانئ بن يزيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إن الله هو الحَكَم».

وأما (العدل) فإنه ليس من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الواردة في القرآن ولا من الأسماء التي جاء عليها برهان، فالعدل في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المبينة لنا غلطٌ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يسمِّ نفسه عدلًا ولا عادلًا، لماذا؟ أنا ذكرت لكم فيها فائدة لطيفة، ذكرنا لكم هذا، وهذه فائدة شريفة تساوي رحلة عند من يعقل بهذه الفوائد قلنا: لأن العرب كانت تَتَمدح بالظلم ولا تَتمدح بالعدل، كما قال شاعرهم: (ومن لا يظلم الناس يُظْلَمِ). فلتمدُّحهم بهذا جاء القرآن بما يحقِّق المقصد الأعظم في كفِّهم عنه بمدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدم الظُّلم، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت]، وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ [ق] في آي أخر في هذا المعنىٰ، فعُدل عن اسم العدل والعادل إلىٰ نفي الظلم عن الله عَزَّ وَجَلَّ لإظهار كماله وإبطال ما يعتقده المشركون من الكمال، فإنهم كانوا يتمدَّحون بالظلم كما سبق فتمدَّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدم الظلم تقريرًا لهذا الكمال في نفوسهم.

ثم بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ هذا الاسم فقال: (**أي هو تعالىٰ الملك الحكم الذي هو له الحكم في الدنيا والآخرة**).

ثم أفاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان حكمه عَزَّ وَجَلَّ، وقد تقدَّم أن حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرجع إلىٰ نوعين اثنين:

أحدهما: حُكمه الشرعي.

والآخر: حُكمه القدري، وما يذكر المصنِّف في كتبه من تثليثهما بالحكم الجزائي، وإليه أشار هاهنا

بقوله: (**وفي الآخرة لا يحكم علىٰ العباد إلا هو..**) إلىٰ آخر ما قال، وسبق أن بيَّنّا أن الحكم الجزائي راجع إلىٰ الحكم القدري، فإنَّ قدر الله نافذ في الدنيا والآخرة، وقلنا:

حكم الإله فاقسمن لاثنين ... شرعيه وقدر الدَّارين

ثم بين رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الأحكام كلها بالحكمة والعدل، فهو الحكم العدل الذي تمت كلمته صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأوامر والنواهي، فأوامره ونواهيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلها عدل لأنه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة ولا ينهىٰ إلا عما فيه مفسدة، فالخير والعدل كله في أمره ونهيه المستبطن في حكمه الشرعي.

ثم بيَّن أن حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقرون برحمته وحكمته ومجازاته لعباده بأعمالهم، عدل لا يهضم أحدًا من حسناته؛ أي: لا ينقصه شيئًا له، ولا يدفعه عنه، ولا يزيد في سيِّئاتهم ولا يعذبهم بغير جرم اجترحوه.

ثم بيَّن أن حكم الله عَزَّ وَجَلَّ كله مربوطٌ بالعدل فلا يمنع أحدًا حقه ولا يغفل عن الظالمين، ولا يضيع حقوق المظلومين.

ثم ذكر من صور كمال عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل، ولئلا لا يقولوا: ما جاءنا من قبله من بشير ولا نذير، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في تقرير ذلك: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء].

ومن كمال عدله أيضًا أنه أعطىٰ عباده الأسماع، والأبصار، والعقول، وأقدرهم علىٰ أفعالهم وجعل لهم إرادة يتخيَّرون بها ما يشاءون، ومكنهم من جميع ما يريدون ولم يجبرهم علىٰ شيءٍ من أفعالهم، فعدله وحكمته تُبطل مذهبين مردودين متقابلين:

أحدهما: مذهب الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور علىٰ أفعاله لا اختيار له.

والآخر: مذهب القدرية الذين يسمُّون أنفسهم أهل العدل فيزعمون أن العبد يخلُق فعله، وكلا هذين المذهبين مخالفٌ لمقتضىٰ لعدل ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والحقُّ هو ما ذهب إليه أهل السنة بدلائله أن أفعال العباد تحت اختيارهم وإرادتهم فلهم مشيئة واختيار وإرادة فيما يفعلون، وهم بتلك الإرادة والاختيار والمشيئة لا يخرجون عن قدر الله عَزَّ وَجَلَّ وقضائه، وهذا هو عين العدل في أفعالهم التي يفعلون، فلم يُجبرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ أفعالهم، ولا خرجوا بما لهم من إرادة عن حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العام الشامل.

الفتاح

للفتَّاح معنيان:

أحدهما: يرجع إلىٰ معنىٰ الحَكَم الذي يفتح بين عباده، ويحكم بينهم بشرعه، ويحكم بينهم بإثابة الطائعين وعقوبة العاصين في الدنيا والآخرة، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ]، وقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف]. فالآية الأولىٰ فتحه بين العباد يوم القيامة، وهذا في الدنيا بأن ينصر الحق وأهله، ويُذل الباطل وأهله، ويوقع بهم العقوبات.

المعنىٰ الثاني: فتحه لعباده جميع أبواب الخيرات، قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢] الآية. يفتح لعباده منافع الدُّنيا والدين، فيفتح لمن اختصهم بلطفه وعنايته أقفال القلوب، ويُدِرُّ عليها من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية ما يُصلح أحوالها وتستقيم به علىٰ الصراط المستقيم، وأخصُّ من ذلك أنَّه يفتح لأرباب محبته والإقبال عليه علومًا ربانية، وأحوالًا روحانية، وأنوارًا ساطعة، وفهومًا وأذواقًا صادقة.

ويفتح أيضًا لعباده أبواب الأرزاق وطُرق الأسباب، ويهيئ للمتَّقين من الأرزاق وأسبابها ما لا يحتسبون، ويعطي المتوكِّلين فوق ما يطلبون ويؤملون، وييسّر لهم الأمور العسيرة، ويفتح لهم الأبواب المغلقة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ هنا اسمًا آخر من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو اسم «الفتاح» وجاء علىٰ بناء المبالغة للإمعان في وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الصفة ولم يأت علىٰ بناء اسم الفاعل فاتح وإنَّما جاء علىٰ بناء اسم المبالغة الفتَّاح، وأما مع الإضافة كما في قوله تعالىٰ فقد جاء علىٰ بناء ذلك في اسمه ﴿خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف] فإنَّ أسماء الله كما سلف باعتبار الإفراد والإضافة تنقسم إلىٰ نوعين اثنين:

أحدهما: الأسماء المفردة مثل الله، والرحمن، والرحيم.

والثاني: الأسماء المضافة مثل: مالك الملك، وأحكم الحاكمين، وخير الفاتحين.

ذكر هذا الأصل أبو العباس ابن تيمية في «الفتاوىٰ المصرية».

وهذا الاسم الفتاح له معنيان اثنان:

أحدهما: أنه يرجع إلىٰ معنىٰ الحَكم، أي: الذي يفصل بين عباده ويحكم بينهم.

والآخر: أنه هو الذي يجري عليهم أنعامه ويُفْضِل عليهم بمواهبه الجزيلة مما تضطر إليه الأرواح والأشباح.

وقد ذكر هذين المعنيين جماعة منهم الخطابي في «شأن الدعاة»، وابن القيم في «النونية»، وأشار إلىٰ ذلك بقوله:

فتح بحكمٍ وهو شرع إلهنا ... والفتح بالأقدار فتحٌ ثانِ

وفي بيت ابن القيم إشارة إلىٰ الفرق بين النوعين بأن أحدهما متعلقه هو الشرع، وأن الآخر متعلقه هو القدر.

الرزاق

الذي تكفَّل بأرزاق المخلوقات كلِّها، وأوصل إليها أرزاقها ومعائشها، وعلم أحوالها وأماكنها، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود] يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وقد هيأ لعباده في الأرض جميع الأرزاق.

قال تعالىٰ: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢﴾ [عبس].

والله تعالىٰ هو الرزاق الذي يرزق قلوب خيار المؤمنين من العلوم والمعارف وحقائق الإيمان، ما تتغذىٰ به وتنمو وتكمل، ويرزق الحيوانات كلَّها من أصناف الأغذية ما تتغذىٰ به وتنمو نموها اللائق بها. فينبغي للعبد إذا سأل الله الرزق أن يستحضر الأمرين بأن يرزقه رزقًا حلالًا واسعًا، ويرزق قلبه العلم والإيمان والعرفان.

ورزقه لعباده أيضًا نوعان:

نوع له سبب، كما جعل الله الحراثة والتجارة والصناعة وتنمية المواشي والخدمة ونحوها طرقًا يرتزق بها جمهور الناس. قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الحجر:٢٠] أي: أسبابًا ترتزقون بها.

ونوع يرزق الله به عبده بغير سبب منه، كأن يقيض الله له رزقًا قدريًّا سماويًّا محضًا، أو علىٰ يد غيره من غير أن يكون من المرتزق سعيٌ في ذلك، لأجل الاحتراز عن السؤال فإنَّه من جملة الحِرف، ولأجل الاحتراز عمن تجب نفقته عليه من زوج أو قريب أو سيد أو مالك، فإنَّ هذه إما من عمل الإنسان ـ يعني من آثار عمله ـ وإما أن يكون تابعًا لغيره.

ولكن نريد أنَّه يوجد بعض المخلوقات لا شيء عندها، ولا عمل لها ولا سعي منها، إما عاجزة

عجزًا كليًا، أو كسلانة عن طلب معيشتها. والله تعالىٰ قد قدّر لها من ألطاف رزقه ما تستغني به من وجوه لا تحتسبها وطرق لا ترتقبها، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾ [العنكبوت].

ومن لطائف رزقه أنَّه قد يرِد علىٰ الإنسان العاجز عن إدراك رزقه قوةُ حال وقوة توكل، ييسّر الله له بسببها رزقًا عاجلًا، وقد يأتيه ذلك بدعوة مستجابة وخصوصًا عند الاضطرار، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢].

فكما أنَّ الباري إذا رأىٰ عبده مضطرًا إلىٰ كفايته، منقطعًا تعلقه بغيره أجاب دعوته وفرّج كربته، فكذلك المضطر إلىٰ طعام أو شراب متىٰ وصل إلىٰ حالة ييأس فيها من كلِّ أحد ويوقن بالهلاك، أتاه من رزق ربه وألطافه ما به يعرف غاية المعرفة أنَّ الله هو المرجو وحده لكشف الشدائد والكروب، فكم من الوقائع الكثيرة في هذا الباب الدالة علىٰ لطف الملك الوهاب.

ومن ألطاف رزقه أنَّ كثيرًا من المرضىٰ يبقون مدة طويلة لا يتناولون طعامًا ولا شرابًا، والله تعالىٰ يعينهم علىٰ تماسك أبدانهم فضلًا منه وكرمًا، ولو بقي الصحيح بعض هذه المدة عن الطعام والشراب لهلك.

ومن لطائف رزقه أنَّ الأجنَّةَ في بطون الأمهات جعل غذاءها في أرحام الأمهات بالدم الذي يجري مع عروقها، لأنَّها لا تحتمل غذاء تأكله وتشربه، ولو فرض ذلك لأضرّ به في الرحم، وأضرّ بأمه بما يخرج منه من الفضلات، ثم لما وضعت الحوامل أولادها وكان من ضعفه لا يحتمل الأغذية العادية، أجرىٰ له الباري من ثديي أمه لبنًا لطيفًا خالصًا سائغًا للشاربين، فيه الغذاء الطعامي والغذاء الشرابي، فلم يزل كذلك حتىٰ قوي علىٰ تناول الأطعمة الغليظة.

وكذلك لما كان في حال وضعِه غيرَ مقتدر علىٰ مباشرة ذلك بنفسه، حنّن اللّهُ الأمهاتِ من الآدميين والحيوانات، وأوقع في قلوبها الرحمة العظيمة والرقة علىٰ أولادها، فأعانت أولادها علىٰ تناول الأرزاق والأغذية. فتبارك الله اللطيف الخبير.

وتنوعُ الأرزاق وكثرة فنونها لا يحصيها وصف الواصفين، ولا تحيط بها عبارات المعبِّرين.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا اسمًا آخر من أسماء الله الحسنىٰ وهو (الرزاق) كما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات]، ولله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ اسم آخر يلاقيه في أصله وهو «الرازق»

وبه قرئ خارج العشر في هذه الآية، وصحَّ عن النبي ﷺ تسمية الله ﷻ بالرازق، فالله يسمَّىٰ بالرزّاق والرّازق، فقد بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الاسم أن الله هو (**الذي تكفل بأرزاق المخلوقات كلِّها، وأوصل إليها أرزاقها ومعائشها وعلم أحوالها وأماكنها**) لا يغادر ذلك دابة من دواب الأرض.

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الرزق الذي ينعم الله ﷻ به علىٰ خلقه نوعان اثنان:

أحدهما: رَزق الأرواح بالعلم والإيمان.

والثاني: رَزقُ الأشباح وهي الأبدان بما تفتقر إليه من غذاء تتغذىٰ وتحفظ قوتها به، فكل ذلك من رزق الله ﷻ.

وهذا الرَّزق باعتبار تسبيبه نوعان اثنان كما ذكر المصنِّف:

أحدهما: نوع له سبب، كما جعل الله الحراثة والتجارة والصناعة وغيره من أسباب الرزق، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**﴾ أي: أسبابًا ترتزقون بها.

والآخر: رَزق يجريه الله ﷻ بغير سبب من العبد، بل يقيِّض الله عَزَّ وَجَلَّ له رَزقًا قدريًا أو علىٰ يد غيره من الخلق.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوهًا من ألطاف رزق الله ﷻ خلقه، فذكر من ذلك أن الله ﷻ قد يُرد علىٰ الإنسان العاجز عن إدراك رزقه قوة حالٍ وقوة توكّل أن يمده بذلك، فيتيسر له بسببها رزقًا عاجلًا فإن العبد إذا صدق في توكله وأكمل إقبال قلبه علىٰ ربه أجرىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ له مطلوبه كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ فإذا كان العبد مضطرًا إلىٰ كفايته من طعام أو شراب أو غير ذلك من أنواع المعايش فإن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا نظر إلىٰ صدق قلبه وكمال توكُّله أخذ بيده ويسر له سبب رِزقه، ومن ألطاف رَزق الله للمخلوقات أنَّ كثيرًا من المرضىٰ يبقون مدَّةً طويلة لا يتناولون طعامًا ولا شرابًا فيمدُّهم الله عَزَّ وَجَلَّ بأسباب من القوة تعينهم علىٰ تماسك أبدانهم فضلًا منه وكرمًا، ولو أنَّ الصحيح كان في مقامهم لما استطاع أن يُمسك تلك المدة التي أمسكوا فيها عن الطعام والشراب؛ ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أجرىٰ عليهم البلاء بالمرض فإنه يأخذ بأيديهم ويمدُّهم بأسباب القوة فيعينهم علىٰ تقوية أبدانهم وإن فُقد الطعام والشراب.

ثم ذكر من لطائف رَزق الله جل وعلا خلقه ما يتفق للأجنة في بطون الأمهات فإن الله جعل غذائها في أرحام أماتهما بالدم الذي يجري مع العروق لأن تلك الأجنة لا تَحتمل الغذاء ولا الشراب، ولو أنها أكلت وشربت لأضرت بالرحم وتولَّد من ذلك الإضرار، إضرار بالأم بما يخرج من الجنين من

الفضلات، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يسَّر إمداد الجنين بغذاء أمِّه برباط العروق بينه وبينها، ثم إذا ولدته أمه وكان عاجزًا عن الأكل والشراب فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُجري عليه الهدي والجبلة الأولىٰ من التقام ثدي أمه ليشرب لبنا لطيفًا سائغًا للشاربين فيه كفايته من الطعام والشراب ولا يزال عليه حتىٰ يتقوىٰ وتكون له قدرة علىٰ تناول الأطعمة الغليظة.

ثم ذكر كذلك من ألطاف رَزق الله للخلق أن الجنين في حال وضعه لا قدرة له علىٰ الاكتساب بنفسه ولا مباشرة ما يَحتاج إليه من شرب حليب أمِّه، فيحنِّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قلوب الأمهات من الآدميين والبهائم العجماوات علىٰ أولادها ويقع في قلوبها رحمةٌ لها فتعين أولادها علىٰ تناول الأرزاق والأغذية، فتبارك الله اللطيف الخبير، والأمر كما ذكر المصنِّف: (**وتنوعُ الأرزاق وكثرة فنونها**) أي: أنواعها المختلفة (**لا يحصيها وصف الواصفين**) أي من الخلق، (**ولا تحيط بها عبارات المعبِّرين**) من البلغاء؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، فإذا كان الأمر كذلك فأنّىٰ يحاط بالأرزاق التي يُجريها الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده؟ وإنَّما يكافئها العبد بما استطاع بشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] فأمرهم بشكر إنعامه بالتزام العمل الصالح، وأخبر عن حال الناس فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

وهذا آخر التقرير علىٰ هذا الكتاب، وبالله التوفيق، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين

الواحد، الأحد، الفرد

أي هو الواحد المتفرد بصفات المجد والجلال المتوحّد بنعوت العظمة والكبرياء والجمال فهو واحد في ذاته وواحد في أسمائه لا سمي له، وواحد في صفاته لا مثيل له، وواحد في أفعاله لا شريك له ولا ظهير له ولا عوين، وواحد في إلوهيته فليس له ندا في المحبة والتعظيم ولا له مثيل في التعبد له والتأله وإخلاص الدين له وهو الذي عظمة صفاته ونعوته حتىٰ تفرد بكل كمال وتعذر علىٰ جميع الخلق أن يحيطوا بشيءِ من صفاته، أو يدركوا شيءِ من نعوته فضلا عن أن يماثله أحد في شيء منها، فأحديته تعالىٰ تدل علىٰ ثلاثة أمور عظيمة:

أولا: نفي المثل والند والكفؤ من جميعاَ الوجوه.

ثانيا: وإثبات جميع صفات الكمال بحيث لا يفوته منها صفة، ولا نعت دال علىٰ الجلال والجمال.

ثالثا: وأنَّ له من كل صفة من تلك الصفات أعظمها وغايتها ومنتهاها ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم].

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يذكر من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحسنىٰ الواردة في القرآن ما يرجع إلىٰ القسم الثالث من النوع الأول من أنواع علوم القران وهو علم الاعتقاد والتوحيد.

فقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا ثلاثة أسماء من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الواردة في القرآن هي (**الواحد والأحد والفرد**)، وهذا الذكر متعقب بالاسم الأخير من وجهين اثنين:

أحدهما: أن الفرد لم يرد في القران اسما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والثاني: أنه أصح قولي أهل العلم في هذا الاسم أنه ليس من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ إذ لم يثبت فيه دليلا قرآني أو نبوي، وذكره في عد الأسماء الحسنىٰ في الحديث الطويل ضعيف كما سبق بيانه.

والثابت لله عَزَّ وَجَلَّ من هٰذا الأصل هو هذان الاسمان الأحد والواحد. وقد بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ حقيقة معناهما بقوله: (**أي: هو الواحد المتفرد بصفات المجد والجلال المتوحد بنعوت العظمة والكبرياء والجمال**) ثم رجع إلىٰ بيان هذه الأحدية بثلاثة أمور كُتبت عدًّا حسابيًا، وليس هذا من طريقة أهل العلم فإن أهل العلم لم يكن يدخلون الأرقام في كتابة العلم، فإن الأرقام للحساب والعلم فنُّ كتابة وليس فنُّ حساب وإنَّما كان يشيرون بقولهم الأول الثاني الثالث أو أولا ثانيا ثالثا أو ما قام مقامها فينبغي لمن قرأ أن يحولها من عد حُساب الىٰ عد كُتاب بأن يقول الأول الثاني الثالث.

وهذا الذي ذكره المصنِّف رحمة الله تعالىٰ من العد أنسق منه وأولىٰ وأجمع أن يقال: إنَّ أحدية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تجمع معنيين اثنين:

أحدهما: أحديّة الإثبات؛ ولها ركنان اثنان:

أولهما: إثبات جميع صفات الكمال لله.

وثانيهما: إثبات الكمال له في كل صفة من تلك الصفات.

أما الثاني: فأحدية النفي؛ ولها ركنان اثنان:

أولهما: نفي المثل والند والكفء عن الله عَزَّ وَجَلَّ.

وثانيهما نفي العيوب والنقائص عن الله عَزَّ وَجَلَّ.

فإذا انتظمت هذه الأحدية إثباتا ونفيًا فقد اجتمع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مايقتضي أنه واحدا في ذاته وواحد في إسمائه

وواحد في صفاته وواحد في الوهيته ﷻ لا شريك له.

وهذه آخر التقرير علىٰ هذه الكتاب في هذه المجلس.

الصمد

أي السيد العظيم الذي قد كمل في علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعزَّته وعظمته وجميع صفاته، فهو واسع الصفات عظيمُها، الذي صَمَدَت إليه جميعُ المخلوقات، وقصدته كلُّ الكائنات بأسرها في جميع شؤونها، فليس لها ربٌّ سواه، ولا مقصود غيره تقصده وتلجأ إليه في إصلاح أمورها الدينية، وفي إصلاح أمورها الدنيوية، تقصده عند النوائب والمزعجات، وتضرع إليه إذا عرتها الشدَّات والكُربات، وتستغيث به إذا مسَّتها المصاعب والمشقات، لأنَّها تعلم أنَّ عنده حاجاتها، ولديه تفريج كرباتها لكمال علمه وسعة رحمته، ورأفته وحنانه، وعظيم قدرته وعزته وسلطانه.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يذكر أسماء الله الحسنىٰ الواردة في القرآن مما يرجع إلىٰ القسم الثالث من النوع الأول من أنواع علوم القرآن وهو علم الاعتقاد والتوحيد، وقد ذكر هنا منها اسم «الصمد» وفسره رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بأنه (السيد العظيم الذي قد كمل في علمه [وحكمته] وحلمه) حتىٰ قال: (الذي صَمدت إليه جميع المخلوقات وقصدته كل الكائنات..) إلىٰ آخر ما ذكر وحاصل ما ذكره هو وغيره من القدماء كالزّجّاج في «تفسير الأسماء الحسنىٰ» وأبي جعفر ابن جرير رحمهما الله ومن تبعهم بعد ذلك أن (الصمد) يرجع إلىٰ معنىٰ السيد الذي يصمد إليه الخلق في حوائجهم.

فصمدية الله ﷻ مركبة من شيئين:

أولهما: صمديته بنفسه؛ وهي المشار إليها بقولهم: "السيد الذي كمُل سُؤْدده" فإن الله ﷻ كمُل بعلمه وحكمته وقدرته وسلطانه وعزته وجميع صفاته؛ فاستغنىٰ عن غيره، فهو صمد ﷻ. وهذا المعنىٰ تنوَّعت عبارات السلف في الخبر عنه، فمنهم: من يقول: "هو المصمت الذي لا جوف له، ومنهم من يقول: "هو الذي لا يأكل ولا يشرب" ومردُّ ما ذكروه من المعاني إلىٰ إثبات كماله ﷻ.

وثانيهما: صمدية الخلق إليه برفعهم حوائجهم إليه والتماسهم قضاء مطلوباتهم عنده ﷻ.

فعلىٰ هذين الأمرين صمدية الله ﷻ، فهو قد صمد فصمد إليه الخلق؛ أي: كمل فرفَع الخلق إليه حوائجهم.

الغني، المغني

قوله: قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[فاطر]، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾ [النجم]، فهو تعالىٰ الغني بذاته، الذي له الغنىٰ التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرَّق إليها نقص بوجه، ولا يمكن إلا أن يكون غنيًّا؛ لأنَّ غناه من لوازم ذاته، فكما لا يكون إلا خالقًا رازقًا رحيمًا محسنًا، فلا يكون إلا غنيًّا عن جميع الخلق لا يحتاج إليهم بوجهٍ من الوجوه، ولا يُمكن أن يكونوا كلُّهم إلا مفتقرين إليه من كلِّ وجه، لا يستغنون عن إحسانه وكرمه وتدبيره وتربيته العامَّة والخاصَّة طرفة عين.

ومن كمال غناه: أنَّ خزائن السَّمٰوات والأرض بيده، وأنَّ جوده علىٰ خلقه متواصلٌ آناء الليل والنهار، وأنَّ يديه سحاء في كلِّ وقت.

ومن كمال غناه: أنَّه يدعو عباده إلىٰ سؤاله كلَّ وقت ويعدهم عند ذلك بالإجابة، فيأمرهم بعبادته، ويعدهم القبول والإثابة، وقد آتاهم من كلِّ ما سألوه، وأعطاهم كلَّ ما أرادوه وتمنوه.

ومن كمال غناه: أنَّه لو اجتمع أهل السَّمٰوات والأرض، وأول الخلق وآخرهم في صعيد واحد، فسألوه كلَّما تعلقت به مطالبهم، فأعطاهم سؤلهم، لم ينقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر.

ومن كمال غناه: العظيم الذي لا يقادر قدره ولا يمكن وصفه، ما يبسطه علىٰ أهل دار كرامته من اللذات المتتابعات والكرامات المتنوعات، والنعم المتفننات مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

فهو الغني بذاته، المُغني جميع مخلوقاته، أغنىٰ عباده بما بسط لهم من الأرزاق، وما تابع عليهم من النِّعم التي لا تعد ولا تحصىٰ، وبما يسَّره من الأسباب الموصلة إلىٰ الغنىٰ.

وأخصُّ من ذلك أنَّه أغنىٰ خواصَّ عباده بما أفاضه علىٰ قلوبهم من المعارف والعلوم الربَّانية والحقائق الإيمانية، حتىٰ تعلَّقت قلوبهم به ولم يلتفتوا إلىٰ أحد سواه.

وهذا هو الغنىٰ العالي كما قال ﷺ: «ليس الغنىٰ عن كثرة العرض، إنَّما الغنىٰ غنىٰ القلب». فمتىٰ غَنِيَ القلبُ بالله وبما فيه من المعارف وحقائق الإيمان، وغني برزقه وقنع به وفرح بما أعطاه الله، صار العبدُ الذي وصل إلىٰ هذه الحال لا يَغْبِطُ الملوكَ وأهلَ الرئاسات، لأنَّه حصل له الغنىٰ الذي لا يبغي به بدلًا، والذي به يطمئن القلبُ وتسرُّ به الروح، وتفرح به النفس.

فنسأل الله أن يُغني قلوبنا بالهدىٰ والنور والمعرفة والقناعة، وأن يمدَّنا من واسع فضله وحلاله.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ اسمين من أسماء الله تعالىٰ هما (**الغني**) و(**المغني**)، وتُعُقِّبَ في ثانيهما من وجهين:

أحدهما: أنه لم يرد في القرآن الكريم، فليس من الأسماء المذكورة وَفق ما اشترطه المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في القرآن هذا الاسم.

وثانيهما: أنَّ التحقيق أن «المغني» ليس من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنَّما هو استنباط بالاشتقاق من الفعل في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨﴾.

والمعتمد عند المحققين من أهل العلم كما ذكره أبو العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في «بدائع الفوائد» والمصنِّف في جمل من كتبه أن الأسماء لا تشتق دوما من الأفعال فقد يأتي الاسم صريحا ويأتي ذكر فعله في القرآن، وقد لا يذكر الاسم وإنَّما يذكر لله فعلٌ من أفعاله، فلا يصح أن يُشتَق له من الأفعال الواردة في القرآن أسماء كهذا الاسم، وهو اسم (المغني).

فالثابت من هذين الاسمين هو اسم (الغني) وهو دال علىٰ الثاني؛ لأن غنىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ نوعان اثنان:

أحدهما: غناه بنفسه فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الغنىٰ التام كما أن العبد له الفقر التام كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥﴾[فاطر] فالغنىٰ وصف ذاتي ملازم لله، كما أنَّ الفقر وصف ذاتي ملازمٌ للمخلوق، وفي ذلك يقول أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «تائيته»:

والفقر لي وصفُ ذات لازم أبدا ... كما الغنىٰ أبدا وصفٌ له ذاتي

وثانيهما: إغناؤه غيرَه، فإن الفقر الذي جُعِلَ وصفا للمخلوق لا يندفع إلا برَزق الله عَزَّ وَجَلَّ له، فلا يوجد في الخلق غنيٌّ إلا من أغناه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والخلق كلُّهم مفتقرون إليه، لا يستغنون عن إحسانه وكرمه وتدبيره وعنايته ورعايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فنونا من غنىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

فـ(**من كمال غناه: أن خزائن السَّمٰوات والأرض بيده، وأن جوده علىٰ خلقه متواصل آناء الليل والنهار، وأن يده سحاء في كل وقت**) لا تغيضها نفقة.

(**ومن كمال غناه أنه يدعو عباده إلىٰ سؤاله**) ليغيث ملهوفهم، ويجيب مضطرهم، ويؤتيهم من كل ما سألوه، ويُنوّلهم كل ما أمّلوه ومنها: (**أنه لو اجتمع أهل السَّمٰوات والأرض وأول الخلق وآخرهم**)

وجنهم وإنسهم (**في صعيد واحد**) فسألوا الله عَزَّوَجَلَّ (**ما تعلقت به مطالبهم**) وسمت إليه نفوسهم (**فأعطاهم**) الله عَزَّوَجَلَّ (**سُؤْلهم**) فإن ذلك لا ينقص مما عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا ما يُنقصه (**المخيط إذا غمس في البحر**) فكما أنَّ المخيط إذا وُضع في ماء البحر ثم أخرج لم يَعبأ البحر بما فات من ماء لصِقَ به فكذلك لا يأبه الله عَزَّوَجَلَّ بما يعطيه الخلقَ جميعا إذا سألوه.

(**ومن كمال غناه**) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ما يبسطه علىٰ أهل كرامته من اللذات المتتابعة والكرامات المتنوعة والنعم المتفننة (**مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر**) فإن أنواع النعيم واللذة التي يقلَّب فيها أهل الجنة فيض كريم غني هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يقدر عليها إلا هو عَزَّوَجَلَّ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غني بذاته مُغنٍ لمخلوقاته علىٰ ما ذكرنا من نوعي غناه عَزَّوَجَلَّ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن من أخص إغناء الله عَزَّوَجَلَّ خلقه (**إغناؤه خواص عباده بما**) يفيض (**علىٰ قلوبهم من المعارف والعلوم الربانية والحقائق الإيمانية حتىٰ تعلَّقت قلوبهم به ولم يلتفتوا إلىٰ أحدٍ سواه**) فإن هذا أعظم غنىٰ، وبه يحصل للإنسان الاستغناء عن ما يُحتاج إليه عادة كما كانت حال النبي ﷺ، فقد ثبت في قصة وصاله في «الصحيحين» أنه عللها بقوله: «إني أبيت يطعمني ربي ويسقين»، وهذا الإطعام والإسقاء هو بما يفتح عليه من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية التي يستغني بها عما يعتاده الناس من طعام وشراب، فإنَّ القلب إذا أقبل علىٰ مطلوبٍ عظم اشتغاله به فألهاه عما سواه، فإذا أقبل المرء إقبالا صادقا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فتح الله عَزَّوَجَلَّ له من أنواع التلذُّذ بالإقبال عليه، وأحوال التعرف عليه ما لا يكون لغيره، (**وهذا هو الغنىٰ العالي**) فإنَّ الغنىٰ ليس عن كثرة أعراض الدنيا وحطامها، وإنَّما بامتلاء القلب بالمعارف الربانية والحقائق الإيمانية، (**كما قال النبي ﷺ**) في الحديث المخرَّج في «الصحيحين» (: **ليس الغنىٰ عن كثرة العرَض**) أي عن حطام الدنيا وزخرفتها (**وإنَّما الغنىٰ غنىٰ القلب**) أي: غناه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وغناه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنَّما يكون بما يجري عليه (**من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية**)، فإذا صار العبد من أهل هذا الحظ والجد فإنه يصل إلىٰ مرتبة لا يُدركها أحدٌ إلا من شاركه فيها، وتفوت كبار الناس من (**الملوك وأهل الرئاسات**)، فإنهم يطلبون بما يجمعون من الدنيا لذة قلوبهم وأُنْسَ نفوسهم، فلا يجدون فيها غُنية ويتطلّبون سواها بدلا، فلا يزالون يتقلبون بين أنواع حطام الدنيا يظنون أن في هذا النوع ما ليس في هذا النوع مما يحصل به غنىٰ أرواحهم، وعلىٰ التحقيق فإن الغنىٰ إنَّما يكون بامتلاء القلوب بالإقبال علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالغني هو الذي يَعْمُرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قلبَه بالهدىٰ، ويفْسَح له في النور، فيكون علىٰ بصيرة وبينة من أمره، ويقنعه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يرزقه «ومن استغنىٰ بالله أغناه الله» كما صح عن

النبي ﷺ، وأعظم الاستغناء بالله أن تسأله غنىٰ قلبك فإن الملبس والمطعم والمشرب تُسَدُّ حاجة المرء فيها؛ ولكن فقر القلوب وحاجتها لا يسدُّها إلا الإقبال علىٰ الله ﷻ والتضرُّع إليه والاشتغال بمحابِّه ومراضيه، فإذا أصاب المرء من هذا حظَّه غني قلبه بقدر ما أصاب، ولأجل هذا شَرُف العلم؛ لأن العلم يوقف قلبك علىٰ قدر ربك ﷻ، فتعظِّمه حق عظمته، وأما الجاهل فيفوته تعظيم ربه كما قال الله ﷷ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزُّمَر:٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣﴾[نوح] قال ابن عباس فيما رواه ابن جرير بسند صحيح: «ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته» فمن امتلأ قلبه بتعظيم الله حصَّل غناه وكانت له هيبة لا تُجْتَلَب بسلطان ولا أجناد ولا أموال، كما قال عُبَيْد بن عُمَيْر فيما رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح في كتاب«الإيمان»: "الإيمان أَيُوب"، فإذا امتلأ القلب بالإيمان حصَل للإنسان الغنىٰ حتىٰ استغناؤه عن الأجناد والأعوان والمساعدين لأن من كان الله معه لم يفته شيء ومن لم يكن الله معه فما أدرك شيئا.

وهذا آخر البيان علىٰ [هذه الجملة من] الكتاب وبالله التوفيق.

ذو الجلال والإكرام

وردت في القرآن مقرونة في عدة مواضع. وقال ﷺ: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام». وهذان الوصفان العظيمان للرب يدلان علىٰ كمال العظمة والكبرياء والمجد والهيبة، وعلىٰ سعة الأوصاف وكثرة الهبات والعطايا، وعلىٰ الجلال والجمال، ويقتضيان من العباد أن يكون الله هو المعظَّم المحبوب الممجَّد المحمود المخضوع له المشكور، وأن تمتلئ القلوب من هيبته وتعظيمه وإجلاله ومحبته والشوق إليه

ذكر المصنِّف ﵀ تعالىٰ اسما آخر من أسماء الله ﷻ المذكورة في القرآن الكريم علىٰ ما اشترطه في كتابه وهو اسمه سبحانه «ذو الجلال والإكرام»، والوارد في قول الله تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن]، وهذا الاسم من جملة الأسماء المضافة كما ذكر قاعدتها أبو العباس ابن تيمية الحفيد في «الفتاوىٰ المصرية» فإن أسماء الله باعتبار الإفراد والإضافة تنقسم إلىٰ **نوعين اثنين**:

أحدهما: الأسماء المفردة؛ كاسمه: الله، والرحمن، والرحيم.

والثاني: الأسماء المضافة؛ كاسمه: رب العالمين، ومالك يوم الدين.

ومن جملة الأسماء المضافة في القرآن الكريم الأسماء المضافة إلىٰ (ذو) ومنها هذا الاسم (ذو

الجلال والإكرام) والأسماء المنسوجة على هذا النحو في القرآن الكريم عدة أسماء كاسمه ﷻ (ذو العرش)، واسمه ﷻ (ذو الرحمة)، واسمه ﷻ (ذو انتقام)؛ فإن هذه جميعًا من أسماء الله ﷻ التي أضيفت على هذا النحو.

وقد ذكر المصنِّف رحمه الله تعالى في بيان عظمة هذا الاسم الحديث الذي رواه أحمد وغيره بسند حسن أن النبي ﷺ قال: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام» أي: الزموا سؤال الله ﷻ بهذا الاسم الأحسن وهو «ذو الجلال والإكرام»، وإرشاده ﷺ إلى لزوم هذا الاسم في الدُّعاء والسؤال مُنْبِئٌ عن عظيم رُتبته، وهذان الوصفان دالّان على عظمة الله عز وجل كما قال المصنِّف، فإن الجلال هو العظمة ولم يثبت تسمية الله عز وجل بـ"الجليل" كما تقدم، والحديث المروي في ذلك ضعيف، ولكن ثبت له في هذا الأصل تسميته ﷻ بـ"ذي الجلال"، وتقدم تسميته ﷻ بـ"الأكرم" و"الكريم" وهي راجعة إلى أصل المضاف الثاني وهو "ذو الإكرام"، وهذان الوصفان جامعان لكمال الله عز وجل دالان على سعة أوصافه وكثرة هباته وتقتضي من العباد كما قال المصنِّف: (أن يكون الله هو المعظم المحبوب..) إلى آخر ما ذكر (وأن تمتلئ القلوب من هيبته وتعظيمه وإجلاله ومحبته والشوق إليه).

بديع السَّموات والأرض

أي خالقهما ومبدعهما بأحسن خلقة ونظام، وأبدع هيئة وصفة، قد تمت فيهما أوصاف الحسن ونهاية الحكمة، وأُودع فيهما من لطائف صنعته وعجائب قدرته وأسرار خلقته ما يشهد لمبدعها بكمال الحكمة، وسعة الحمد، وواسع العلم، ولطيف اللطف، ودقيق الخبرة.

ذكر المصنِّف رحمه الله تعالى اسما آخر من أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن وهو (بديع السَّمٰوات والأرض) وهو من الأسماء المضافة ولم يأت من وجه صحيح تسمية الله ﷻ بـ«البديع» وإنَّما وقعت تسميته ﷻ على وجه الإضافة (بديع السَّمٰوات والأرض) أي: الخالق لهما على أحسن خلق ونظام وأبدع هيئة وصفة بما لم يُسْبَق إليه ﷻ فإن الإبداع لا يشتمل على معنى الخلق فقط بل يشتمل على شيئين اثنين:

أحدهما: الخَلَق المنتظم.

والثاني: السبق إليه. بحيث لم يسبقه إليه سابق ولا يلحقه فيه لكماله لاحق فاسم «بديع السَّمٰوات والأرض» جامع لهذين المعنيين، وقد خلق الله ﷻ السَّمٰوات والأرض على أتمّ أوصاف الحسن ونهاية

الحكمة؛ بل مخلوقاته ﷻ مشتملة علىٰ ذلك واقعةٌ علىٰ هذا المعنىٰ.

وقد ذكر المتكلِّمون في تفسير أسماء الله ﷻ معانٍ أخرىٰ للبديع كـ«الأول» و«العجيب» إلا أنها لا تصلح في هذا المحل وإنَّما تصلح فيما لو كان من أسماء الله ﷻ اسم «البديع» فيفسر بـ«الأول» أو«العجيب» الذي لا يشاركه في وصفه أحد أما حيث تقرر أن اسمه من هذا الأصل هو «بديع السموات والأرض» دون غيره فلا يحمل إلا علىٰ المعنىٰ الذي ذكرناه آنفا لأنه الخالق لهما علىٰ أتم وجه لم يسبق إليه سبحانه.

الرب، ورب العالمين

الذي ربّىٰ جميع المخلوقات بنعمه، وأوجدها وأعدّها لكلِّ كمال يليق بها، وأمدها بما تحتاج إليه. أعطىٰ كلَّ شيء خلْقه اللائق به، ثم هدىٰ كلَّ مخلوق لما خلق له، وأغدق علىٰ عباده النعم، ونمّاهم وغذّاهم وربّاهم بأكمل تربية.

وتربيته وربوبيته تعالىٰ نوعان:

ربوبية عامة لكلِّ مخلوق برّ وفاجر، وهو عموم الخلق والرِّزق والتدبير والإنعام بكلِّ نعمة، فليس له شريك في شيء من ذلك.

وتربية خاصة لأوليائه، ربّاهم فوفقهم للإيمان به والقيام بعبوديته، وغذّاهم بمعرفته ونمّىٰ ذلك بالإنابة إليه، وأخرجهم من الظُّلمات إلىٰ النور، ويسّرهم لليسرىٰ، وجنّبهم العسرىٰ، ويسّرهم لكلِّ خير، وحفظهم من كلِّ شر.

ولهذا كانت أدعيةُ الأنبياء وأولي الألباب والأصفياء الواردةُ في القرآن باسم الرب استحضارًا لهذا المطلب، وطلبًا منهم لهذه التربية الخاصة، فتجد مطالبهم كلَّها من هذا النوع، واستحضار هذا المعنىٰ عند السؤال نافعٌ جدًّا.

ومن أسمائه تعالىٰ: المُعِزّ، المُذِل، الخافض الرافع، المعطي المانع، المحيي المميت، القابض الباسط.

وهي من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق كلُّ واحد منها إلا مع الآخر، لأنَّ الكمال المطلق باجتماعها. ووردت هذه في القرآن علىٰ وجه الإخبار عنه بها بالفعل، لأنَّها من معاني الربوبية، ومن معاني الملك، فيغني عنها اسم الرب والملك، فإنَّ هذه المعاني العظيمة من معاني الملك، فإنَّ الملِك من صفاته

أنّه يعزّ ويذل، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، بحسب علمه وحكمته ورحمته، كما أنّـه يحيـي ويميـت ويداول الأيام بين الخليقة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ اسمين آخرين من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هما اسما "الرب" و"رب العالمين" والاسم الثاني من الأسماء المضافة وهو أكثر ما جاء في القرآن الكريم مما أضيف إلىٰ "الرب" فإن "الرب" أضيف في القرآن إلىٰ ألفاظ متعددة كما في قوله تعالىٰ: ﴿سُبۡحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ [الصافات:١٨٠] فأضيف إليها وأكثر ما أضيف في القرآن هو إضافته إلىٰ (ربِّ العالمين).

وقد بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن معنىٰ هذا أي (**الذي ربّىٰ جميع المخلوقات بنعمه وأوجدها وأعدَّها لكل كمال يليق بها**) وهذا الإعداد لتلك المخلوقات وهدايتها لما خلقت له وإغداق النِّعم عليها هو معنىٰ عامٌّ يشترك فيه البر والفاجر والمؤمن والكافر، ولذلك جاء إطلاق اسم "الرب" علىٰ هذا المعنىٰ؛ لأن تربيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعمُّ الخلق جميعا، بخلاف تزكيته فإن تزكيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تختص بالمؤمنين، بخلاف "التربية" فإن "التربية" اسم عام يقع علىٰ كل أحد من الخلق عاقل أو غير عاقل؛ فصيح أو أعجم بهيم؛ مؤمن أو كافر؛ بر أو فاجر؛ وأما "التزكية" فإنها تختص بصفوة عباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ [النور:٢١] فربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باعتبار اسم "التربية" بمعنىٰ التغذية والهداية لما يصلح به الخلق جميعا وأما باعتبار التربية الخاصة للأولياء وذلك بتوفيقهم للإيمان والقيام بالعبودية فهذا لا يسمىٰ "تربية" وإنَّما يسمىٰ "تزكية" ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم:٣٢] وقال كما سلف: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ وقال: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩﴾[الشمس] وما جاء قط نسبة ذلك إلىٰ "التربية" فكان ينبغي أن يقال: "إن ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **نوعان**:

أحدهما: ربوبية عامة لكل مخلوق وذلك بتربيتهم بكل ما يصلحهم ويقوم به أمرهم.

والثاني: ربوبية خاصة وهي تزكية أوليائه بالعلم والعمل والإيمان واليقين والهدىٰ.

ففرق بين "التربية" و"التزكية" فـ"التربية" تصلح معنىٰ عاما وأما حملها علىٰ معنىٰ خاص بمعنىٰ تهذيب السلوك وتهذيب الأخلاق فهذا لا يصلح في الشرع ولا في اللغة، وإنَّما المناسب لـه مما وُضع شرعا هو (تزكية النفوس) لا (تربيتها) فإن (تزكية النفوس) أي: تطهيرها بجعلها زكية وإنَّما يكون ذلك بإمدادها بما يقوي إيمانها من العلم والهدىٰ واليقين والبصيرة والعمل وغير ذلك من مُمدَّات اليقين والإيمان.

ثم قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (ولهذا كانت أدعية الأنبياء وأولىٰ الألباب والأصفياء الواردة في القرآن باسم "الرب" استحضارا لهذا المطلب وطلبا منهم لهذه التربية الخاصة) أي: أن الأنبياء كانوا يسألون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باسم " الرب" كما في قوله تعالىٰ عن آدم وحواء : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف:٢٣]، وقول موسىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤﴾[القصص] إلا أنه ليس الحامل لهم كما ذكر المصنِّف طلب هذه التربية الخاصة؛ لأن هذا المعنىٰ غير موجود في الشرائع، وإنَّما الموجود التزكية، وإنَّما لعلمهم بأن موجِب العبودية هو الربوبية، فألَظّوا بهذا الاسم وهو "الرب" لعلمهم أنَّ الذي أوجب عليهم أن يكونوا عبيدا متألِّهين له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو أنه ربهم، وهذا أصل عظيم ثُبِّتَ في القرآن الكريم من وجوه كثيرة كما ذكر ابن الوزير في «ترجيح أساليب القرآن علىٰ أساليب اليونان» أن صاحب كتاب «مذاهب السلف» ولم يسمه ولم أعرفه أنه ذَكَرَ أن في القرآن خمسمائة آية تدل علىٰ الربوبية وإنَّما طفح القرآن بهذا القدر من آيات الربوبية لتقرير الألوهية؛ فلأجل هذا كان دعاء الأنبياء بهذا الاسم للإعلام بأن موجب عبوديتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو كونه ربًّا لهم.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ مدًّا لأسماء من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ترجع إلىٰ الربوبية كما بيَّن فقال: (ومن أسمائه تعالىٰ: المعز المذل الخافض الرافع المعطي المانع المحيي المميت القابض الباسط) وهذه الأسماء تسمىٰ بالأسماء المزدوجة المتقابلة كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «بدائع الفوائد» وفي «شفاء العليل» فهي تجمع معنيين اثنين:

أحدهما: الازدواج فلا يُطلق أحدهما دون الآخر؛ بل هما زوجٌ أي: مُؤلّف من اثنين.

والآخر: أنَّهما متقابلان؛ أي: في المعنىٰ. فمثلا المعز يقابله المذل، والخافض يقابله الرافع، وقس علىٰ هذا بقية الأسماء.

وهذه الأسماء المزدوجة المتقابلة لا يطلق كل واحد منها إلا مع الآخر كما ذكر المصنِّف تبعا لابن القيم في «بدائع الفوائد»، وعلة ذلك هو أن الكمال المطلق لا يُتَصوَّر إلا باجتماعها؛ فإنك إذا قلت : "المذل" ربما وقع في بعض النفوس أنه قادر علىٰ الإذلال لكنه ليس قادرا علىٰ الإعزاز فذُكر مقابله فيقال: "المعز والمذل والخافض والرافع والمحيي والمميت " إلا أن هذا النوع من الأسماء التي ذكرها ابن القيم وتبعه المصنِّف وغيره لم يأت ما يصدِّقها من الدلائل إلا اسم "القابض الباسط" فإن هذا وقع في حديث صحيح عند أبي داود وغيره أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله هو المسعر القابض الباسط» أي: الذي يقبض ويبسط سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كيفما يشاء، فوقع في هذا.

وأما المعز والمذل والخافض والرافع والمعطي والمانع والمحيي والمميت = فوقعت في أحاديث لا تصح، وإنَّما جاءت في القرآن علىٰ وجه الأفعال كما ذكر المصنِّف لأنها من معاني الربوبية، وليس كل فعل جاء في القرآن يشتق منه اسم من أسماء الله ﷻ كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «بدائع الفوائد»، وتبعه أمم من العلماء المتأخرين كأئمة الدعوة النجدية والمصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر عن نفسه بأنه يمكر ويكيد فلا يجوز للإنسان أن يشتق من الفعل اسما له فيسميه الماكر أو الكائد تعالىٰ الله ﷻ؛ لأن أمر الاسم غير أمر الفعل، لكن هذه الأسماء المذكورة جاءت علىٰ وجه الأفعال في القرآن لأنها من معاني الربوبية ومن معاني مُلك الله ﷻ، ولهذا يُستغنىٰ عنها كما ذكر المصنِّف باسم الرب والملك، وهذه قاعدة نافعةٌ في معرفة الحامل علىٰ ترك تسمية الله ﷻ بأسماء ترجع إلىٰ الأفعال المخبر بها عنه ﷻ، فالله عَزَّ وَجَلَّ أُخْبِرَ عنه بأنه يغني كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾[النجم]؛ لكن لم يثبت تسميته ﷻ بالمغني.

فإنَّما تُرِك تسمية الله ﷻ بفعل جاء في القرآن والسنة لأحد شيئين اثنين:

أحدهما: أن يُستغنىٰ عن هذا الاسم المشتق من الفعل باسم آخر كالاستغناء باسم الغني عن المغني.

والثاني: أن يكون ذلك الفعل راجعًا إلىٰ اسمٍ آخر من أسماء الله ﷻ، فيندرج فيه أي: يكون هذا الفعل من جملة ما يكون داخلا تحت اسم من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ كفعل الإعزاز والإذلال، فإن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء كما أخبر ﷻ عن نفسه، وهذا راجع إلىٰ معنىٰ الملك والربوبية، فيستغنىٰ بهذا الرجوع عن إيجاد اسم جديد من أسماء الله ﷻ.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذه الجملة من الكتاب وبالله التوفيق.

الودود

أي المتودد إلىٰ خلقه بنعوته الجميلة، وآلائه الواسعة، وألطافه الخفية، ونِعَمِه الخفية والجليَّة، فهو الودود بمعنىٰ الواد، وبمعنىٰ المودود، يحب أولياءه وأصفياءه ويحبونه، فهو الذي أحبهم وجعل في قلوبهم المحبة، فلمّا أحبوه أحبهم حبًّا آخر جزاء لهم علىٰ حبِّهم.

فالفضل كلُّه راجع إليه، فهو الذي وضع كلَّ سبب يتودَّدهم به، ويجلب ويجذب قلوبهم إلىٰ ودِّه. تودَّد إليهم بذكر ما له من النُّعوت الواسعة العظيمة الجميلة، الجاذبة للقلوب السَّليمة والأفئدة المستقيمة، فإنَّ القلوب والأرواح الصحيحة مجبولة علىٰ محبة الكمال.

والله تعالىٰ له الكمال التام المطلق، فكلُّ وصف من صفاته له خاصية في العبودية، وانجذاب القلوب إلىٰ مولاها، ثم تودَّد لهم بآلائه ونعمه العظيمة التي بها أوجدهم، وبها أبقاهم وأحياهم، وبها أصلحهم، وبها أتم لهم الأمور، وبها كَمَّلَ لهم الضروريات والحاجيات والكماليات، وبها هداهم للإيمان والإسلام، وبها هداهم لحقائق الإحسان، وبها يسّر لهم الأمور، وبها فرّج عنهم الكربات وأزال المشقات، وبها شرع لهم الشرائع ويسّرها ونفىٰ عنهم الحرج، وبها بيّن لهم الصراط المستقيم وأعماله وأقواله، وبها يسّر لهم سلوكه وأعانهم علىٰ ذلك شرعًا وقدرًا، وبها دفع عنهم المكاره والمضار كما جلب لهم المنافع والمسارّ، وبها لطف بهم ألطافًا شاهدوا بعضها وما خفي عليهم منها أعظم.

فجميع ما فيه الخليقة من محبوبات القلوب والأرواح والأبدان الداخلية والخارجية الظاهرة والباطنة، فإنَّها من كرمه وجوده، يتودد بها إليهم، فإنَّ القلوب مجبولة علىٰ محبة المحسن إليها، فأيُّ إحسانٍ أعظم من هذا الإحسان الذي يتعذَّر إحصاء أجناسه فضلًا عن أنواعه، فضلًا عن أفراده، وكلُّ نعمةٍ منه تطلب من العباد أن تمتلئ قلوبُهم من مودته وحمده وشكره والثناء عليه.

ومن تودُّده أنَّ العبد يشرد عنه فيتجرأ علىٰ المحرَّمات، ويقصِّر في الواجبات. والله يستره ويحلم عنه ويمدُّه بالنِّعم، ولا يقطع عنه منها شيئًا، ثم يقيّض له من الأسباب والتذكيرات والمواعظ والإرشادات ما يجلبه إليه، فيتوب إليه وينيب، فيغفر له تلك الجرائم، ويمحو عنه ما أسلفه من الذنوب العظائم، ويعيد عليه ودَّه وحبه. ولعل هذا والله أعلم سر اقتران الودود بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾ [البروج].

ومن كمال مودته للتائبين: أنَّه يفرح بتوبتهم أعظم فرح يُقَدَّر، وأنَّه أرحم بهم من والديهم وأولادهم والناس أجمعين. وأنَّ من أحبّه من أوليائه كان معه وسدَّده في حركاته وسكناته، وجعله مجاب الدعوة وجيهًا عنده، كما في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما تردَّدت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته».

وآثار حبِّه لأوليائه وأصفيائه عليهم لا تخطر ببال، ولا تحصيها الأقلام. وأما مودة أوليائه له فهي رُوْحهم ورَوْحهم وحياتهم وسرورهم، وبها فلاحهم وسعادتهم، بها قاموا بعبوديته، وبها حمدوه وشكروه، وبها لهجت ألسنتهم بذكره، وسعت جوارحهم لخدمته، وبها قاموا بما عليهم من

الحقوق المتنوِّعة، وبها كفّوا قلوبهم عن التعلق بغيره وخوفه ورجائه وجوارحَهم عن مخالفته، وبها صارت جميعُ محابِّهم الدينيةِ والطبيعيةِ تبعًا لهذه المحبة.

أما الدينية فإنَّهم لما أحبوا ربهم أحبوا أنبياءه ورسله وأولياءه، وأحبّوا كلَّ عمل يقرِّب إليه، وأحبّوا ما أحبه من زمان ومكان، وعمل وعامل.

وأما المحبَّة الطبيعية فإنَّهم تناولوا شهواتهم التي جُبلت النفوس علىٰ محبتها من مأكل ومشرب، وملبس وراحة علىٰ وجه الاستعانة بها علىٰ ما يحبُّه مولاهم. وأيضًا فكما قصدُوا بها هذه الغاية الجليلة فإنَّهم تناولوها بحكم امتثال الأوامر المطلقة في مثل قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [الأعراف:٣١]، ونحوها من الأوامر والترغيبات المتعلقة بالمباحات والراحات، فصار السبب الحامل لها امتثال الأمر، والغاية التي قصدت لها الاستعانة بها علىٰ محبوبات الرَّب، فصارت عاداتهم عبادات، وصارت أوقاتهم كلُّها مشغولة بالتقرّب إلىٰ محبوبهم.

وكلُّ هذه الآثار الجميلة الجليلة من آثار المحبة التي تفضّل بها عليهم محبوبهم، وتقوىٰ هذه الأمور بحسب ما في القلب من الحُب الذي هو روح الإيمان، وحقيقة التوحيد، وعين التعبُّد، وأساس التقرب.

فكما أنَّ الله ليس له مثيلٌ في ذاته وأوصافه، فمحبَّته في قلوب أوليائه ليس لها مثيل ولا نظير في أسبابها وغاياتها، ولا في قدرها وآثارها، ولا في لـذَّتها وسرورها، وفي بقائها ودوامها، ولا في سلامتها من المنكِّدات والمكدِّرات من كلِّ وجه.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يذكر الأسماء الحسنىٰ الواردة في القرآن، فذكر من جملة أسماء ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اسم (الوَدود) وهذا الاسم جاء علىٰ زنة "فَعول" ويراد به أحد معنيين:

أولهما: أنه (فعول) بمعنىٰ (فاعل)؛ أي (ودود) بمعنىٰ (وادّ) فهو يحب مَنْ يحب مِنْ خلقه.

والثاني: أنه (فعول) بمعنىٰ (مفعول)، فهو (ودود) بمعنىٰ (مودود) أي: يحبه أولياؤه.

وقد ذكر هذين المعنيين جماعة من المتكلمين في تفسير أسماء الله الحسنىٰ كالزجاج والخطابي في «شأن الدعاء» وابن القيم في مواضع من كتبه.

وقد بيَّنَ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ معاني ذلك؛ فبيَّن تودد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ خلقه بأنواع من التودد، منها: تودده إليهم بذكر نعوت كماله وصفات جلاله وجماله، فإن سماع هذه النعوت وإدراك هذه الأوصاف يجذب القلوب السليمة والأفئدة المستقيمة؛ لأن القلوب الكاملة والأرواح الفاضلة مجبولةٌ علىٰ محبَّة الكمال

ومن اتصف به، فلمَّا اطلعت قلوبهم علىٰ مبلغ كمال الله ﷻ بما له من صفات الجلال والجمال أحبَّت الله ﷻ وانجذبت قلوبهم إليه.

ومنها: تودُّده ﷻ إليهم بآلائه ونعمائه التي يُسديها إليهم، فإن الله ﷻ هدىٰ الخلق إلىٰ مصالحهم الآجلة والعاجلة، وعرّفهم طرائق إدراكها، وجلب لهم المنافع والمسار، ووقّاهم معارج الفساد والأضرار، وذلك مما يوجب محبة القلوب له.

ومن ذلك: تودُّده ﷻ إليهم بالسِّتر علىٰ الخاطئين منهم فإن العبد يشرد عن ربه ويتجرأ علىٰ المحرمات ويقصِّر في الواجبات والله يستره ويحلم عنه، ويُمِدُّه بالنعم، ولا يقطع عنه جوده وكرمه، ثم يقيِّض له أسباب اليقظة من غفلته والانتباه من نومته، فيتوب إلىٰ الله ويُنِيب إليه، فيغفر الله ﷻ ذنوبه العظائم، وذلك من تودده ﷻ إلىٰ خلقه.

وقد ذكر المصنِّف رحمه الله تعالىٰ من لطائف التصرف القرآني السر في اقتران "الودود" بـ"الغفور" في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾[البروج] وذلك أن من طرائق تودده للخلق مغفرته ذنوبهم، فناسب ذلك القَرْن بين الاسمين الأحسنين "الغفور" و"الودود"، والله ﷻ له في القرآن تصرف عجيب، وهذا العلم وهو علم التصرف القرآني مع أن الله أشاد به في أربع آيات منه إلا أن العناية به قليلة مع أنه من أعظم مظاهر عظمة القرآن وبيان علوه والوقوف علىٰ حكمه ومقاصده، فقد يُزاد حرف، أو قد يزاد لفظ، أو تُغير جملة، أو يُقرن بين لفظين لمعنًىٰ مقتضٍ ذلك، فمن فقِه هذا أدرك شيئا عظيما من مقاصد القرآن، ومن ذلك مثلا في قوله تعالىٰ: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[البقرة:٣٠] في سورة «البقرة» فإن الكلام يستقيم لغة بقوله: (ونقدسك) فأمكن ترك "اللام" لكن جاء التصرف القرآني علىٰ هذا النحو للمبالغة في تأكيد تنزيه الملائكة وتعظيمهم لربهم ﷻ، وهذا المُدْرَك من أعظم مدارك فهم القرآن إلا أن الناس مقصرون في فهمه، وقد كان عامة ما يُعرف به بيان القرآن في السلف هو الفهم، وصنَّف جماعة من الأوائل كتبا باسم "فهم القرآن" ومن مقاصد الفهم الاطلاع علىٰ التصرف القرآني.

وينبغي أن يعتني طالب العلم بهذا فإن هذا العلم لم يُقم علىٰ سوقه ولا تنقضي عجائبه أبدا؛ بل بحسب ما يفتح الله ﷻ للعبد من الفهم في تصرف القرآن الكريم، فإن التصرف في القرآن الكريم يأتي علىٰ طرائق قددا ولمقاصد مختلفة، ولعل الله يهيئ مقاما آخر نبسط القول فيه.

لكن المقصود أن تعلم أن من طرائق التصرف القرآني الاقتران بين الأسماء الحسنىٰ، ومن جملتها اقتران هذين الاسمين أحدهما بالآخر وهما "الودود" و"الغفور".

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من مسالك تودد الله عَزَّوَجَلَّ لخلقه: مودته للتائبين، فهو يفرح بتوبتهم أعظم فرحٍ يُقَدَّر، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرحم بهم من الخلق جميعًا، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوفِّقهم للتوبة ثم يقبلها منهم ويفرح بتوبتهم، ومَنْ عَظُم قَدْرُه عند الله فأحبَّه وكان من أوليائه سدده الله عَزَّوَجَلَّ في حركاته وسكناته، وجعله مجاب الدعوة وجيها معظَّما عنده، كما في حديث أبي هريرة عند البخاري وهو حديث قدسي أي: إلهي ففيه: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه » ثم ذكر آثار المحبة فقال: «فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»، والمعنىٰ: أنني أسدده فلا يقع منه شيء إلا وَفْق مراداتي المحبوبة عندي المرضية لي. ثم قال: «ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه» وهذا من تعظيم قدره.. إلىٰ آخر الحديث.

ثم قال المصنِّف: (**وآثار حبه لأوليائه وأصفيائه عليهم لا تخطر ببال ولا تحصيها الأقلام**).

ولما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من بيان تودُّد الله لخلقه أتبعه بمودة أوليائه ومحبتهم له، فأخبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن مودة أوليائه؛ أي خالص محبتهم له فإنَّ المودة من الود، والوِد هو خالص الحب، فهي ليست محبة مجردة؛ بل محبة خالصة لا يشركها غيرها، ومودة أولياء الله له هي رُوحُهم الذي تُحفظ به حياتهم، ورَوْحهم أي: راحتهم (**وحياتهم وسرورهم وبها فلاحهم وسعادتهم [و]بها قاموا بعبوديته وبها حمدوه وشكروه**) فمدار كمالهم كلُّه إلىٰ محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولأبي العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وحفيده بالتلمذة أبي الفرج ابن رجب عجب عجاب في هذا الباب، فإن هؤلاء الثلاثة هم أحسن من تكلم من محققي أهل السنة في أبواب السلوك والرقائق علىٰ محبة الله وآثارها، وقد أفردها أبو العباس ابن تيمية بقواعد عدّة وُجدت جملة منها، وله كلام منثور في كتب أخرىٰ كـ«التحفة العراقية»، وأما تلميذه ابن القيم فله كلام متفرق وله كتاب مفرد هو «روضة المحبين»، وأما ابن رجب فله كلام كثير متفرق وله كتاب مفرد هو «استنشاق نسيم الأنس» وينبغي أن يطالع طالب العلم ما كتبه هؤلاء في المحبة، فإن المحبة هي أعظم محرك إلىٰ امتثال الأمر واجتناب النهي، والقراءة فيها مما يقوي النفس ويحملها علىٰ ملازمة الطاعة والانكفاف عن المعصية.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من آثار مودة أولياء الله له أن جميع محابّهم الدِّينية والطبيعية صارت تبعا لمحبتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأشار بالدينية إلىٰ المحابّ الشرعية.

وأشار بالطبيعية إلىٰ المحبوبات القدرية.

فالمحابّ وهي المحبوبات الشرعية والقدرية عند أولياء الله كلها تبع لمحبة الله، وبيّن المصنِّف ذلك بقوله: (أما الدينية فإنهم لما أحبوا ربهم أحبوا أنبياءه ورسله وأولياءه، وأحبوا كل عمل يقرب إليه، وأحبوا ما أحبه من زمان ومكان وعمل وعامل) فكل الأمور الشرعية دائرة عندهم مع محبة الله ﷻ.

ثم بيّن كيفية مصير محابّهم القدرية إلىٰ محبته فقال: (وأما المحبة الطبيعية فإنهم تناولوا شهواتهم التي جُبلت النفوس علىٰ محبتها من مأكل ومشرب وملبس وراحة علىٰ وجه الاستعانة بها علىٰ ما يحبه مولاهم) فهم إنَّما اتخذوها وسائل تعينهم علىٰ ما أمرهم الله ﷻ به، وهم كذلك إذا تناولوها (تناولوها بحكم امتثال الأوامر المطلقة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾) فإنَّ هذا دال علىٰ الأمر بها، فالحامل لهم علىٰ امتثال الأوامر واتخاذ هذه الأمور القدرية وسائل تعينهم علىٰ طاعة الله هو محبَّة الله ﷻ، وبهذه المحبة (صارت عاداتهم عبادات وصارت أوقاتهم كلها مشغولة بالتقرب إلىٰ) الله ﷻ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن (كل هذه الآثار الجميلة الجليلة) كلها (من آثار المحبة التي تفضَّل [الله]بها عليهم.. وتقوىٰ هذه الأمور بحسب ما في القلب من الحب) فإنَّ الحب يقوىٰ ويَضعَف ويزيد وينقص، فمن زاد حبه زاد قربه، ومن نقص حبه قل قربه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن محبة الله في قلوب المؤمنين (ليس لها مثيل ولا نظير) في كل شيء من الأسباب والغايات والأقدار والآثار واللذات والسرور والبقاء والدوام والسلامة من المكدرات والمنكدات؛ لأن الله ﷻ ليس له مثيل في ذاته وأوصافه، فكذلك لا يكون لمحبته في قلوب الخلق نظير أبدا.

وهذا آخر البيان علىٰ [هذه الجملة من] الكتاب وبالله التوفيق.

الحليم، الصبور، الشاكر، الشكور

في الحديث الصحيح: «لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم». فصبره تعالىٰ علىٰ معاصي العاصين، ومحاربة المحاربين، صبرٌ عن قوة واقتدار، وهو الصبر الكامل، فإنَّ العباد يتبغضون إليه بالمعاصي وهم مضطرون إليه، وهو يتحبَّب إليهم بالنِّعم مع كمال غناه، وهو تعالىٰ يحلم عن زلَّاتهم ويسترهم مع كثرة هفواتهم، ويتمادون في الطغيان والله تعالىٰ لا يزيده ذلك إلا حِلمًا وكرمًا.

ومن حِلمه تعالىٰ أنَّ العبد يسرف علىٰ نفسه، والله تعالىٰ قد أرخىٰ عليه حِلمه، فإذا تاب العبد وأناب

فكأنَّه ما جرىٰ منه جرم، ومع كمال حلمه وصبره فهو تعالىٰ الشَّكور لعباده، الذي يغفر الكثير من الزلـل، ويقبل القليل من العمل، وإذا أخلص العبدُ عمله ضاعفه بغير حساب، وجعل القليل كثيرًا والصَّغير كبيرًا، ويتحمَّل عبدُه من أجله بعضَ المشاق، فيشكر اللهُ له ويقوم بعونه ويكون معه، فتنقلب تلك المشاقُّ والمصاعب سهولات، وتلك المتاعب راحات.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يذكر أسماء الحسنىٰ الواردة في القرآن الكريم، وقد ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في هذه الجملة أربعة أسماء هي (**الحليم**) و(**الصبور**) و(**الشاكر**) و(**الشكور**).

وفي ذكره للصبور تعقب من وجهين:

أحدهما: أنه ليس من الأسماء الواردة لله عَزَّوَجَلَّ في القرآن، وقد اشترط علىٰ نفسه في بداية سرد هذا الفصل أن يذكر الأسماء الحسنىٰ الواردة في القرآن.

والجهة الثانية: أن الصبور في أصح قولَيْ أهل العلم ليس من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ انتصار عظيم في مواضع من كتبه كـ«عدة الصابرين» في جعله اسما من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وأطنب في ذكر وجوه ذلك؛ لكن التحقيق خلافه فإنه لم يثبت في شيء من الآي أو الحديث أن الصبور من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، ووَرَدَ عَدُّه في حديث عَدِّ الأسماء الحسنىٰ الطويل وهو حديث ضعيف عند أهل المعرفة بالأخبار كما ذكر الترمذي والبيهقي وابن حزم وغيرهم، فليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الصبور، وإنَّما يوصف الله عَزَّوَجَلَّ بالصبر لأدلة منها هذا الحديث المذكور وهو حديث أبي موسىٰ الأشعري في «الصحيحين»: «لا أحد أصبرُ من الله» فإنه دال علىٰ اتصاف الله عَزَّوَجَلَّ بالصبر، وصبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما جاء في هذا الحديث هو صبره علىٰ معاصي العاصيين وطغيان الطاغيين الذين يجعلون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الولد ويُشركون به وهو مع ذلك يعافيه ويرزقهم مع قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، فإنهم يَتَبَغَّضُون إليه بالمعاصي وهو يتحبَّب إليهم بالنعم، وهذا هو الصبر الكامل التام.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ اسما آخر له تعلق بهذه الصفة وهو اسم الحليم؛ ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُسْبِل ستر حلمه علىٰ المذنبين العاصيين فلا يعاجلهم بالعقوبة، وهذا ممَّا له تعلق بصفة الصبر، وإن كان بينهما فرقًا؛ لأن مقتضىٰ إثبات الكمال لله في أسمائه وصفاته أن يكون كل اسم أو صفة له تشتمل علىٰ معنًىٰ آخر يفارق غيرها، وإلىٰ معنىٰ الحليم يشير ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بقوله:

وهو الحليم فلا يعاجلُ عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

فلا يؤاخذ الخلق بالمعاصي التي يقترفون بل يُفسِح لهم في الأجل رجاء إصلاح العمل بالتوبة إلىٰ الله ﷻ، ومن جملة حلمه ﷻ: أن العبد مع إسرافه إذا نزع وانقطع عن ذنوبه وتاب وأناب إلىٰ الله ﷻ قَبِلَه الله ﷻ كأنه لم يكن منه شيء، وهذا دليل علىٰ سعة حلمه ﷻ، فإنه لا يؤاخذ بالجريرة ويقبل العبد إذا أقبل عليه.

ثم ذكر اسما آخر وهو (الشكور) ومثله (الشاكر)، والفرق بينهما أن (الشكور) أبلغ فهو صيغة مبالغة علىٰ زنة (فَعُول) فهو كثير الشكر ﷻ.

وهذان الاسمان (الشكور) و(الشاكر) يجمعان **معنيين اثنين**:

أحدهما: شكر العباد له، فإن العباد يشكرونه علىٰ كماله الحاصل وإحسانه الواصل، فإن الله يشكر علىٰ ذلك كله.

والثاني: شكره ﷻ للعباد فإن الله ﷻ يشكر عباده، ومن شكره عباده أنه يغفر زلّاتهم ويتقبّل قليل حسناتهم فيكثرها ﷻ، وفي ذلك يقول أبو العباس ابن تيمية الحفيد كما نقله تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين» قال: "إذا عملتَ لله طاعة ثم لم تجد لها أثرا فاتّهم نفسك فإن الرب شكور" اهـ أي: يشكر عباده علىٰ طاعاتهم ومبادئ ذلك الشكر ما يجدونه في قلوبهم من اللذة والأنس به ﷻ.

ثم ختم ﵀ تعالىٰ هذا البيان بقوله: (**وإذا أخلص العبد عمله ضاعفه بغير حساب وجعل القليل كثيرا والصغير كبيرا، ويتحمل عبدُه من أجله بعض المشاقّ فيشكر الله له ويقوم بعونه ويكون معه، فتنقلب تلك المشاقّ والمصاعب سُهولات وتلك المتاعب راحات**) وهذا من كمال فضله ﷻ علىٰ هذه الأمة فإن هذه الأمة جُعِلت أخيرا وسبقت إلىٰ ربها ﷻ بمثل هذه المقامات الجليلة كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ [قال:] «نحن الآخرون السابقون» أي: الآخرون وجودا والسابقون عند الله منزلة ومقامًا، ومن موجبات سبقهم ما تفضَّل الله ﷻ عليهم من مزيد شكره إياهم فإن الله ﷻ شكر لهذه الأمة ما لم يشكر لغيرها فكَثَّر قليلَها وعظَّم صغيرَها.

الرقيب

أي المطّلع علىٰ ما في القلوب، وما حوَته العوالم من الأسرار والغيوب، المراقب لأعمال عباده علىٰ

الدوام، الذي أحصىٰ كلَّ شيء، وأحاط بكلِّ شيء، ولا يخفىٰ عليه شيء وإن دقَّ، الذي يعلم ما أسرّته السَّرائر، من النيات الطيبة والإرادات الفاسدة.

ومن تعبّد اللهَ باسمه الرقيب أورثه ذلك المقام المستولي علىٰ جميع المقامات، وهو مقام المراقبة لله في حركاته وسكناته، لأنَّ من علم أنَّه رقيب علىٰ حركات قلبه وحركات جوارحه وألفاظه السرية والجهرية، واستدام هذا العلم، فإنَّه لا بد أن يثمر له هذا المقام الجليل، وهذا سرٌّ عظيم من أسرار المعرفة بالله. انظروا إلىٰ ثمراته وفوائده العظيمة وإصلاحه للشؤون الباطنة والظاهرة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ اسما آخر من أسماء الله الحسنىٰ وهو اسم (الرقيب) فإن من أسمائه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ (الرقيب)؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة:١١٧] وفسر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ (الرقيب) بقوله: (أي المطلع علىٰ ما في القلوب وما حوته العوالم من الأسرار والغيوب) وهذا يتضمن إشارة إلىٰ أن حقيقة مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ لأعمال عباده هي إحصاء ما دقَّ منها وأنه لا يخفىٰ عليه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شيء وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ يوجد بينها اشتراكٌ في المعاني ويختصُّ كل اسم بما يتضمنه فإن (العليم) و(الحفيظ) و(الرقيب) متقاربةُ المأخذ لكن اسم (الرقيب) دال علىٰ وجود مزيد دقة في إدراك أحوال الخلق فإن (الرقيب) هو الحريصُ علىٰ تفقد كل شيء فلا يفوته شيء؛ وكذلك ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنه لا يخفىٰ عليه شيء من أحوال الخلق وإن دق.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في جملة بيانه كيفية التعبد لله عَزَّوَجَلَّ باسم (الرقيب)، ولو أن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ راعىٰ هذا في كتابه لعظُم قدره فإن التعبُّد لله عَزَّوَجَلَّ بالأسماء الحسنىٰ مما تَقِلُّ العناية به وإذا كان المصنِّفون في الاعتقاد يكتفي غالبهم ببيان ما هو اسم من أسماء الله وما ليس كذلك دون بيان معاني تلك الأسماء فإن ما فوق ذلك وهو كيفية التعبد بها مما تقل العناية به، وقَلَّ من صنف في الأسماء والصفات واعتنىٰ بكيفية التعبد لله عَزَّوَجَلَّ بكل اسم من الأسماء التي يوردها، وقد عظم قدر كتاب «النهج الأسمىٰ» للشيخ محمد الحمود النجدي لاعتنائه الكبير ببيان كيفية التعبد لله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه، وهذا هو أحد مدارك إحصاء أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، فإن مما يتضمنه معنىٰ الإحصاء الممدوح في حديث أبي هريرة «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة» من مدارك ذلك التعبُّد لله عَزَّوَجَلَّ بها؛ كما ذكر ذلك الغزّالي وأبو العباس ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله تعالىٰ. فذكر أن من التعبد لله عَزَّوَجَلَّ باسمه (الرقيب) هو أن يلاحظ العبد أن الله عَزَّوَجَلَّ مطَّلعٌ عليه، محصٍ لأعماله وإن دقت، فإذا تعبد الله بهذا

الاسم أورثه مقام المراقبة لله في حركاته وسكناته؛ لأن من علم أنه رقيبٌ علىٰ حركات قلبه وجوارحه وألفاظه السرية والجهرية واستدام هذا العلم فلابد أن يثمر له ذلك مقاما جليلا هو مقام المراقبة فيكون دائم المراقبة لربه ﷻ وهذا من أعظم ما تُجْبَىٰ به الثمرات والفوائد العظيمة ويصلح به الباطن والظاهر.

القريب المجيب

أي هو تعالىٰ القريب لكلِّ أحد، وهو أقرب إلىٰ الإنسان من حبل الوريد، وقربه تعالىٰ نوعان:

قربٌ عام بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته، فهو أقرب إلىٰ كلِّ أحد من نفسه.

وقربٌ خاص من عابديه وداعيه ومحبيه، قرب لا يُدْرَكُ له حقيقة، وإنَّما تُعلم آثاره من لطفه بعبده وعنايته به وتوفيقه وتسديده، وحضور القلب عنده في تلك الحال التي حصل فيها القرب.

ومن آثاره: الإجابةُ للداعين والإثابة للعابدين، وما أحسن اقتران القريب بالمجيب. قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

فهو المجيبُ إجابة عامَّةً للدَّاعين مهما كانوا وأين كانوا، وعلىٰ أيِّ حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق.

وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له، المنقادين لشرعه. ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾، أي: فإذا استجابوا لي أجبتهم. وتقدَّم الحديث الذي فيه حالة المحب المستجيب لربه بفعل النوافل بعد الفرائض، وأنَّ الله يقول: «ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن أستعاذني لأعيذنَّه».

وهو المجيب أيضًا إجابة خاصة للمضطرين كما قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وكذلك من انقطع رجاؤه من المخلوقين وقوِيَ طمعه وتعلقه بالله رب العالمين، فما أسرع الإجابةَ لهذا، وكلَّما قوِيت حاجة العبد وقوي طمعُه بربِّه حصل له من الإجابة بحسب ذلك.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا اسمين آخرين من أسماء ربنا الحسنىٰ وهما «القريب» و«المجيب» وقد جمع الله عَزَّ وَجَلَّ بينهما في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود].

وقد فسر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ذلك بقوله: (أي هو تعالىٰ القريب لكل أحد وهو أقرب إلىٰ الإنسان من حبل الوريد).

ثم ذكر أن قُربه **نوعان:**

أحدهما: قربٌ عام بالعلم والإحاطة.

والآخر: قرب خاص بالإقبال والإجابة.

وهذه طريقة جماعة من المتأخرين ممن تكلم في بيان معنىٰ قرب الله عَزَّوَجَلَّ، والصَّحيح أن قرب الله عَزَّوَجَلَّ هو نوعٌ واحدٌ يختص بالمؤمنين فليس منه شيء يتعلق بالخلق كلهم بعلم الله عَزَّوَجَلَّ وإحاطته، فإن هذا لا يسمىٰ قربًا، واختار هذا أبو العباس ابن تيمية الحفيد وتلميذه أبوعبدالله ابن القيم رحمهما الله، وهو الموجود في تفسير السلف رحمهم الله للآيات المشكلة التي استدل بها القائلون بالقرب العام؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق] فإن هذه الآية وأشباهها يُراد بها قرب الملائكة وليس قرب الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه وإحاطته.

فالمختار أنَّ قرب الله عَزَّوَجَلَّ هو قربه من المؤمنين فقط.

وقرب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من المؤمنين **نوعان اثنان**:

أحدهما: قربٌ عام من عابديه.

والآخر: قرب خاص من داعيه.

فإن الله عَزَّوَجَلَّ قريب من المؤمنين بطاعتهم ويشتد قربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويقوىٰ لمن دعاه ولاسيما إذا كان مع الاضطرار كما قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ قريبٌ قربا عاما من المؤمنين المطيعين له ودون ذلك قرب خاص ممن يدعوه ويسأله.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ دليلا علىٰ ذلك وهو قول الله تعالىٰ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [البقرة:١٨٦] وفسره بقوله: (**أي فإذا استجابوا لي أجبتهم**) فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجيب المطيعين له المنقادين لشرعه وأورد أيضا حديث أبي هريرة عند البخاري وهو حديث إلهي «**ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه**»، وفي المعنىٰ أيضا حديث أبي هريرة عند مسلم أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء فَقَمِنٌ أن يُستجاب لكم» فجُعل هذا المحل مظنَّة لإجابة الدعاء لما فيه من إظهار الطَّاعة والتعبُّد لله عَزَّوَجَلَّ حال السجود، وإذا قوي إقبال العبد علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسرع الله عَزَّوَجَلَّ إليه بإجابته وإعانته، ومن جملة ذلك أن يقطع رجاءه بالمخلوقين وأن يتعلَّق بالله رب العالمين، فمن جعل رجاءه بالله وحده ولم يلتفت بقلبه إلىٰ الخلق فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعجل له بالإجابة.

وهذا آخر البيان علىٰ هذا القدر من الكتاب والله أعلم وصلىٰ الله وسلم

على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الحسيب، الكافي، الحفيظ

أي: هو الكافي عباده كلَّما إليه يحتاجون، الدافع عنهم كلَّما يكرهون فكفايته عامة وخاصة.

أما العامة فقد كفى تعالى جميع المخلوقات، وقام بإيجادها وإرزاقها وإمدادها وإعدادها لكلِّ ما خلقت له، وهيأ للعباد من جميع الأسباب ما يغنيهم ويقنيهم ويطعمهم ويسقيهم.

وأما كفايته وحسبه الخاص فهو كفايته للمتوكِّلين، وقيامه بإصلاح أحوال عباده المتقين. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي كافيه كلَّ أموره الدينية والدنيوية. وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] أي: من قام بعبوديته الظاهرة والباطنة كفاه الله ما أهمَّه، وقام تعالى بمصالحه، ويسَّر له أموره.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝﴾ [الطلاق] أي: من جميع المكاره والمضايق، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣].

وإذا توكل العبد على ربِّه حق التوكُّل، بأن اعتمد بقلبه على ربه اعتمادًا قويًا كاملًا في تحصيل مصالحه ودفع مضاره، وقويت ثقته وحسن ظنه بربه حصلت له الكفاية التامة، وأتم الله له أحواله وسدَّده في أقواله وأفعاله، وكفاه همَّه وجلَّا غمَّه.

ومن معاني الحسيب أنَّه الحفيظ على عباده كلَّما عملوه، أحصاه الله ونسوه، وعلم تعالى ذلك، وميّز الله صالح العمل من فاسده، وحسنه من قبيحه، وعلم ما يستحق من الجزاء ومقداره من الثواب والعقاب. فهو في هذا المعنى بمعنى الحفيظ، وللحفيظ أيضًا معنى آخر يقارب معنى الكافي الحسيب، وهو الذي تكفَّل بحفظ مخلوقاته وإبقائها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر:٤١]. فهذا حفظٌ عام.

وأمَّا الحفظ الخاص فقد قال ﷺ: «احفظ الله يحفظك». فمن حفظ أوامر الله بالامتثال ونواهيه بالاجتناب، وحفِظَ فرجه ولسانه وجميع أعضائه، وحفِظَ حدود الله فلم يتعدها، حفظه الله في دينه من الشُّبهات القادحة في اليقين، وحفظه من الشهوات والإرادات المناقضة لما يحبه الله ويرضاه، وحفظ عليه إيمانه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]، وحفظ الله عليه دنياه، وحفظه في أولاده وأهله ومن يتَّصل به.

وكذلك ينقله الله من حالة أعلىٰ من ذلك، وهي أنَّه من حفظ الله وجده أمامه وتجاهه يسدِّده ويوفقه، وتحصل له معية الله الخالصة التي لا تحصل إلا لخواص الخلق.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ثلاثة أسماء أخرىٰ من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ هي علىٰ ما اشترطه في مقدمة هذا النوع من الأسماء الإلهية الواردة في القرآن.

وذكره لـ«الكافي» متعقب **بشيئين اثنين:**

أحدهما: أن هذا الاسم لم يذكر في القرآن الكريم وهو قد اشترط أن يكون كلامه مخصوصا بالأسماء الإلهية الواردة في القرآن.

وثانيهما: أن «الكافي» في أصح قولَي أهل العلم ليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لم يثبت في شيء من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، وإنَّما عَدَّه اشتقاقًا من الأفعال الواردة في القرآن، وكأنَّ هذا هو منزع المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ عَدَّه من الأسماء الإلهية الواردة في القرآن.

والصحيح عند أهل التحقيق أن أسماء الله لا تُؤخذ مشتقة من الأفعال كما صرح بذلك ابن القيم في «بدائع الفوائد» فلا يقال: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اسمه (الكافي) مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة:١٣٧]، وغيره من الأفعال الواردة في القرآن.

فالمحفوظ من هذه الأسماء الثلاثة مما جاء في القرآن وثبت اسما هما اسم (الحسيب) و(الحفيظ) وهذان الاسمان يتقاربان في معناهما علىٰ ما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كلاما في تفسير اسم "الكافي" يصلح أن يكون بيانا لصفة (الكفاية)؛ لأن صفة "الكفاية" من الصفات الإلهية لله دون اسم "الكافي".

وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن كفاية الله عَزَّوَجَلَّ لخلقه **نوعان اثنان:**

النوع الأول: الكفاية العامة لجميع المخلوقات إنسها وجنها مؤمنها وكافرها برها وفاجرها وكفاية الله لها بإيجادها ورَزْقها وإمدادها وإعدادها وتهيئة أسباب مصالحها لها.

والنوع الثاني: الكفاية الخاصة وهي التي تكون لأوليائه المؤمنين وعباده المتقين، وآكد الأسباب المفضية إلىٰ حصول كفاية الله لعبده هي توكل العبد عليه، ولذلك قال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[الطلاق:٣] تنبيهًا إلىٰ أن أعظم الأسباب التي يُحصِّل بها العبد كفاية الله هو أن يتوكل عليه مفوضا أمره إليه، فهذا هو السر في ذكر التوكل مع الكفاية، وإن كان مَردُّ الكفاية كلها إلىٰ إيمان العبد كما

قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كلام له: "كفاية الله للعبد علىٰ حسب إيمانه فإن كان إيمانه كبيرا كانت كفاية الله كبيرة وإن كان إيمانه دون ذلك كانت كفاية الله كذلك" ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه كل أموره الدينية والدنيوية ولا يكون ذلك إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا يكفي أحد من الخلق غيره وإنَّما يختص فعل الحسب والكفاية بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وما هو شائع علىٰ ألسنة الناس من قولهم: "محسوبك فلان أو حسبك فلان" لا يجوز لأن الحسب والكفاية لا تكون إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقول القائل: "محسوبك فلان" أي: كافيك فلان ولا يكفي أحد من الخلق أحدا وإنَّما الكفاية فعل الرب عَزَّوَجَلَّ وكلما تحقق المرء بعبودية الله كلما حصَّل كفايته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزُّمَر:٣٦] وفي القراءة السبعية الأخرىٰ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُۥ﴾ فمن قام بعبودية الله ظاهرا وباطنا كفاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أهمَّه ويسر له أمره، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾[الطلاق] أي: فرجا من جميع المكاره والمضايق ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق:٣] أي: يفتح له أبواب الرِزق من حيث لم يقع علىٰ باله وكلما ازداد توكل المرء علىٰ الله كلما زادت كفاية الله له.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن من (**معاني (الحسيب) أنه الحفيظ علىٰ عباده كل ما عملوه**) أي: الحاسب لأعمالهم فهو يَعُدُّ أعمالهم ويحصيها ويميز صالحها من فاسدها وحسنها من قبيحها ويعلم ما يستحقون من الجزاء عليها ثوابا وعقابا.

ثم ذكر بعد ذلك معنىٰ (الحفيظ) وذكر أن للحفيظ **معنيين اثنين**:

أحدهما: أنه الذي يحفظ علىٰ العباد أعمالهم فهو بمعنىٰ (الحسيب).

والثاني: أنه الذي يكفل للخلق ما يحفظهم ويبقيهم فهو من معاني الكفاية.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنواع حفظ الله وأن أنواع حفظ الله للخلق **نوعان اثنان**:

أحدهما: حفظ عام للخليقة جمعاء.

والثاني: حفظ خاص وهذا مختص بعباده المتقين وأوليائه المؤمنين وفيه جاء حديث ابن عباس في وصية النبي له عند الترمذي وغيره وإسناده جيد وفيه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «احفظ الله يحفظك» وحفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبده **نوعان اثنان**:

أحدهما: أحدهما حفظ رعاية.

والآخر: حفظ وقاية.

فأما حفظ الرعاية فهو أن يُمِدَّه الله عَزَّوَجَلَّ بكل سبب يقويه.

وأما حفظ الوقاية فهو أن يحفظه الله من كل سبب يؤذيه.

فمَنْ حَفِظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حصل له هذان النوعان من الحفظ.

ومن أعظم حفظ الله لعبده: حفظ الله عَزَّوَجَلَّ للعبد في دينه من الشبهات التي تقدح في يقينه وحفظه له من الشهوات والإرادات المناقضة لما يحبه الله، وحفظ الدين أعظم من حفظ الدنيا وأكثر الناس سؤالهم ومؤملهم من الله أن يحفظ عليهم دنياهم في صحة أنفسهم وقوتها أو صلاح ذريتهم أو وجود أقواتهم وأشباه ذلك. وأما حفظ الدين فإنه قَلَّ أن يخطر ببال العبد إذا دعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يحفظه وهو أعظم من حفظ الدنيا وقد كان من أكثر دعاء النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك» كما صح ذلك من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عند الترمذي وغيره، وإنَّما كان هذا أكثر دعاء النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن الفضيلة التي خرج بها العبد من صفة الحيوانية إلىٰ الآدامية الكاملة هي صفة الدين بالإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا كان الإنسان يشارك البهائم العجماء بالأكل والشرب والغذاء والمطعم فإنه لا يفارقها إلا بتَدَيُّنه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعبوديته لربه عَزَّوَجَلَّ، ولأجل هذه الفضيلة فإن سؤال الله حفظ الدين أعظم من سؤاله حفظ الدنيا، والدنيا إذا ضاعت فإنها تعود لكن الدين إذا أخل به العبد فربما جره إلىٰ مقتلة يهلك بها ويخرج من الدين بالكلية كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: "الذنوب جِراحات ورب جُرْحٍ أصاب مقتلا" ذكره في كتاب «الفوائد» فربما أصاب الإنسان ذنبا من الذنوب ثم خرج من الإسلام بهذا الذنب وقد روىٰ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «أخبار الأصبهانيين» "عن سفيان الثوري أنه كان في سفر فبكىٰ بكاء شديدا فقال له ابن أبي روَّاد: أتبكي من الذنوب؟ فأخذ قشة من الأرض فقال: والله إن الذنوب أهون عليَّ من هذه ولكني أخاف أن أُسْلَب إيماني" فإنه شهد في هذا المقام الخوف علىٰ زوال دينه الذي فضله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به علىٰ غيره وأما الذنوب فهي قدر الله الجاري علىٰ ابن آدم فالله عَزَّوَجَلَّ قد طبع الخلق علىٰ إتيان الذنوب فليس الخوف من تلك الذنوب التي يسأل العبدُ اللهَ مغفرتها ولكن الخوف هو من أن يُسْلَب العبد إيمانه وأن يرتد عن دينه وأن ينقلب عن طريقته وسنته وهديه الذي هو عليه فأعظم حفظ الله للعبد أن يحفظه في دينه ولذلك يسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حفظه دائما فيقول: «اللَّهُمَّ مقلب القلوب ثبت قلوبنا علىٰ دينك»، وكان النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعاهد تجديد دينه كل صباح، فإن من الأذكار الثابتة عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «أصبحنا علىٰ دين الإسلام وملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام» فتكرار هذا الذكر فيه تجديد للإيمان والثبوت علىٰ الدين.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ من جملة حفظ الله للعبد أن يُنَقِّلَه الله من حال إلىٰ حال أكمل منها وأن

يسدده وأن يوفقه وتحصل له معية الله الخالصة التي تحصل لخواص الخلق وهذه المعية الخاصة كما تقدم هي القرب فيختص بدنو الله عَزَّوَجَلَّ منه، فإن القرب في أصح قولَيْ أهل العلم كما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره مختص بأولياء الله المؤمنين.

وهذا آخر التقرير علىٰ [هذه الجملة من] الكتاب وصلىٰ الله علىٰ عبده ورسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

الأول، الآخر، الظاهر، الباطن

قد فسَّرها ﷺ بتفسير جامع واضح، حيث قال في دعاء الاستفتاح: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء». فبيَّن معنىٰ كلِّ اسم ونفىٰ ما يناقضه، وهذا أعلىٰ درجات البيان. وهنا نكتفي بهذا التفسير والبيان الذي لا يُحتاج إلىٰ غيره.

ذكر المصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أربعة أسماء أخرىٰ من أسماء ربِّنا الواردة في القرآن الكريم هي: (**الأوَّل**) و(**الآخر**) و(**الظاهر**) و(**الباطن**) وهذه الأسماء قد فسَّرها النبيُّ ﷺ بتفسير جامع واضح.

والتفسير للقرآن إذا صحَّ عن النبي ﷺ لم يُحْتَج إلىٰ غيره كما ذكره جماعة من أهل العلم، وسبق أن قررناه في محله، ووقع تفسير النبي ﷺ لها في حديث أبي هريرة عند مسلم وهو في أذكار النوم وليس في أدعية الاستفتاح كما ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

وقد فسَّرها النبي ﷺ بأن (الأول) هو الذي ليس قبله شيء، وأن (الآخر) هو الذي ليس بعده شيء وأنَّ (الظاهر) هو الذي ليس فوقه شيء، وأن (الباطن) هو الذي ليس دونه شيء.

وهذا البيان من أكمل البيان فإن النبي ﷺ ذكر معنىٰ كل اسم ونفىٰ ما يناقضه.

وهذه الأسماء الأربعة دالة علىٰ إحاطة الله عَزَّوَجَلَّ كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «طريق الهجرتين»:

فأما (الأول) و(الآخر) فدالة علىٰ الإحاطة الزمانية.

وأما (الظاهر) و(الباطن) فدالة علىٰ الإحاطة المكانية.

وقد اكتفىٰ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بهذا التفسير والبيان؛ لأنه لا يُحتاج معه إلىٰ غيره عن النبي ﷺ، وإذا ثبت النقل عن النبي ﷺ فلا حاجة إلىٰ كلام غيره.

وهذا آخر التقرير علىٰ [هذه الجملة من] الكتاب وبالله التوفيق
والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده
ورسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

الواسع

أي واسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه؛ بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، فجميع العوالم العلوية والسفلية الظاهرة والباطنة كلُّها لله.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝١١٥﴾ [البقرة]. وواسع العلم والحكمة، وعام القدرة، ونافذ المشيئة، وواسع الفضل والإحسان والرحمة، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

ومن لطائف التعبُّد لله باسمه الواسع، أنَّ العبد متىٰ علم أنَّ الله واسع الفضل والعطاء وأنَّ فضلَه غير محدود بطريق معين؛ بل ولا بطرق معينة، بل أسباب فضله وأبواب إحسانه لا نهاية لها أنَّه لا يعلِّق قلبه بالأسباب، بل يعلقه بمسبِّبها، ولا يتشوش إذا انسدَّ عنه باب منها، فإنَّه يعلم أنَّ الله واسعٌ عليم، وأنَّ طرق فضله لا تعدُّ ولا تُحصىٰ، وأنَّه إذا انغلق منها شيء انفتح غيره مما قد يكون خيرًا وأحسن للعبد عاقبة.

قال تعالىٰ مشيرًا إلىٰ هذه الحالة التي كثير من الناس لا يوفَّقون لها، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء:١٣٠]، لما كانت هذه الحال وهي حال الفراق يغلب علىٰ كثير من الزوجات الحزن، ويكون أكبر داع لهذا الحزن ما تتوهمه من انقطاع رزقها من هذه الجهة التي تجري عليها، فوعد الله الجميع وبشّرهم بفتح أبواب الخير لهم، وأنَّه سيعطيهم من واسع فضله.

وكم من عبد بهذه المثابة له سبب وجهة من الجهات التي يجري عليه الرزق، فانغلقت ففتح الله له بابًا أو أبوابًا من الرزق والخير. وبهذا يُعْرَفُ الله ويُعْلَمُ أنَّ الأمور كلَّها منه، وأنَّه ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر:٢].

ومن سعته وفضله: مضاعفة الأعمال والطاعات، الواحدة بعشر إلىٰ سبعمائة إلىٰ أضعاف كثيرة بغير عد ولا حساب.

ومن سعته: ما احتوت عليه دار النعيم من الخيرات، والمسرَّات والأفراح واللذات المتتابعات، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر. فخير الدنيا والآخرة وألطافهما من فضله

وسعته، وجميع الأسباب والطُّرق المفضية إلىٰ الراحات والخيرات كلُّها من فضله وسعته.

لا يزال المصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يُفيض بالبيان علىٰ القسم الثالث من النوع الأول من أنواع علوم القرآن وهو (علم العقائد).

والقسم الثالث منها ذِكر الأسماء الإلهية الحسنىٰ الواردة في القرآن الكريم.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا من أسماء الله تعالىٰ (**الواسع**) ثم فسره بقوله: (**أي واسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها**) والنعت في هذا المحل بمعنىٰ الصفة.

وبين الصفة والنعت فروق دقيقة بسطها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب «مدارج السالكين» بما لا يوجد نظيره عند النحاة، وهذا البحث من مباحثهم، إلا أن أهل العلم رحمهم الله فيما يتعلق بصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربما سَمَّوْها صفات وربما سَمَّوْها نعوتا ولأبي عبدالرحمن النسائي كتاب اسمه «كتاب النعوت» يقصد بذلك صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أحد كتب السنن الكبرىٰ، وقد أُفرد من قديم كـ«عمل اليوم والليلة» و«خصائص علي بن أبي طالب» وهو مطبوع مفردا فهم يُوقِعُون النعت بمعنىٰ الصفة.

فالنعت الإلهي هو الصفة الإلهية.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن معنىٰ (الواسع) في حقِّ ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه (**واسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحدٌ ثناء عليه بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، واسع العظمة والسلطان والمُلك، فجميع العوالم العلوية والسفلية الظاهرة والباطنة كلها لله**) وكل معنىٰ من معاني الصفات موصوف بهذا الوصف، فعلم الله واسع ورحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسعة وكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسع، وهذا معنىٰ قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**أي واسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها**).

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من دقائق فهم هذا الباب في التعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به وهو من الضنائن المذكورة في هذا الكتاب؛ لأن التعبُّد لله بأسمائه قَلَّ من ذكره من المصنِّفين في الأسماء، وقد أشار المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ إلىٰ شذرات متفرِّقة من ذلك في هذا الكتاب.

واعتنىٰ به من المتأخرين صاحب كتاب «النهج الأسمىٰ» الشيخ محمد الحمود النجدي فإنه اعتنىٰ ببيان كيفية التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ بكل اسم من أسمائه الحسنىٰ التي ذكرها في كتابه، وبهذه الخِصّيصة بَزَّ هذا الكتاب بقية الكتب التي صنفها المتأخرون في الأسماء الحسنىٰ، وهو يعوِّل في أكثر ذلك علىٰ كلام أبي العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والمصنِّف عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي مما ينقله عنه في تفسيره.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ (من لطائف التعبد لله باسمه «الواسع» أن العبد متىٰ علم أن الله واسع الفضل والعطاء وأن فضله غير محدود بطريق معين بل ولا بطرق معينة بل أسباب فضله وأبواب إحسانه لا نهاية لها أنه لا يعلق قلبه بالأسباب؛ بل يعلقه بمسببها ولا يتشوش إذا انسد عنه باب [منها] فإنه يعلم أن الله واسع عليم وأن طرق فضله لا تعد ولا تحصىٰ، وأنه إذا انغلق منها شيء انفتح غيره مما قد يكون خيرا وأحسن للعبد عاقبة) فإذا علمت أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسع فإن عطاءه لا حدَّ له ولا باب له؛ بل إن الله عَزَّ وَجَلَّ يُغدق إحسانه وفضله من أبواب لا يخطر علىٰ العبد مجيء الخير إليه منها، وربما جاءه الخير من حيث كرهه العبد؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كتب علىٰ هذه الأمة الجهاد وهو كره للنفوس طبيعة وجبلة، وفيه من الفضائل الجليلة والمقامات النبيلة ما قَلَّ في نظيره من الأعمال الفاضلة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾[النساء]، فربما جاء الخير من طريق يظنها الإنسان مبغوضة مكروهة، فأوصل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إليه الخير من هذه الجهة.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من شواهد ذلك في كلام الله عَزَّ وَجَلَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[النساء:١٣٠] فإن هذه الحال يعرض فيها للقلوب خوف وقلق من لحوق الضيق سواء بالنسبة للرجل أو المرأة، وإنَّما اقتصر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ ذكر ما يعرض للمرأة؛ لأن هذا هو الغالب في حالهنَّ بخلاف الرجال، فإن الرجل له قوة وإرادة يَسْلَىٰ بها عن مثل هذا الوارد، وإن كان هذا الوارد يعرض للرجل كما يعرض للمرأة، فإن الرجل إذا طلَّق امرأة ربما قِلق واستوحش ألا يجد امرأة مثلها أو ألا يزوِّجه أحد بعدها، وكذلك يعرض مثل هذا للمرأة، فلشدة عُلوق هذا الوارد القلبي بالناس ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ سعته عند هذه الآية فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء:١٣٠]، وإنَّما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا عند هذا المحل لأجل الوارد الذي ذكرتُ لك، وأن القلوب تتوهم القلق والخوف عند وقوع الطلاق، فَسُلِّيَتْ بمثل هذا، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيغني كلا من الرجل والمرأة من سعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكم من عبد كانت له جهة رِزق انغلقت ففتح الله عَزَّ وَجَلَّ بابا من أبواب الرزق والخير، وبهذا يُعرَف الله عَزَّ وَجَلَّ ويُعلَم أن الأمور كلها منه، وأن الملك والتصرف كله بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الأمر كما قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[فاطر:٢]، فإذا أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ رحمةً علىٰ أحد من خلقه، فإنه لا يقدر سواه علىٰ ردها ومنعه منها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[فاطر:٢]، فإذا أغلق الله عَزَّ وَجَلَّ بابًا فإنه لا مُكْنَة للعباد علىٰ فتحه، وكان أبو هريرة كما رواه مالك في «الموطأ» إذا مُطِرَ الناس قال: «مُطرنا بنوء الفتح» ولا يقصد بذلك نوءا من أنواء

السماء التي تعرفها العرب، وإنَّما يقصد هذه الآية ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ فهو يرىٰ أن هذا فتح من الله سبحانه وتعالى مُطر الناس بسببه.

وكما يكون هذا نوع الفتح في الأرض بغيث مطرها فإن نوع الفتح علىٰ القلوب بما يجريه الله سبحانه وتعالى عليها من العلم والمعرفة هو بهذه المنزلة، فهو فتح من فتوحات الله سبحانه وتعالى التي يغدق بها علىٰ من يشاء من عباده، وهذا يوجب علىٰ العبد أن يكون مُلِظًّا بسؤال الله سبحانه وتعالى أن يفتح علىٰ قلبه وأن يسدِّده ويرزقه بصيرته.

ومن سعة الله سبحانه وتعالى (**وفضله مضاعفة الأعمال والطاعات**) فإن الله سبحانه وتعالى يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف (**إلىٰ أضعاف كثيرة بغير عَدٍّ ولا حساب**)، وهذا من سعة عطاء الله سبحانه وتعالى وإحسانه إلىٰ الخلق.

ومن سَعة الله سبحانه وتعالى كذلك (**ما احتوت عليه دار النَّعيم من الخيرات والمسرات والأفراح واللذات المتتابعات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، فخير الدنيا والآخرة وألطافهما من فضله وسَعته وجميع الأسباب والطرق المفضية إلىٰ الراحات والخيرات كلها من فضل**) الله سبحانه وتعالى (**وسعته**)، وإذا وقر هذا المعنىٰ في قلب العبد علم أنه لا ينبغي له أن يتوجَّه بقلبه إلىٰ أحد من الخلق؛ لأن السَّعة بيد الله سبحانه وتعالى، فسؤال الخلق الذين لا يملكون شيئا نقصٌ في العقل وقدح في التوكل، فالمتوكل صدقا هو الذي يجعل إقباله دائمًا علىٰ الله سبحانه وتعالى ويستمنحه من فضله ويسأله من سَعته، ولذلك قُرِن هذا الاسم في القرآن كثيرا بـ"العليم" كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾[البقرة]، فقرن هذا الاسم بهذا الاسم لنكتة وهي أن ذكر "العليم" فيه إخبارٌ بأن المطلع علىٰ الخلق العالم بأمورهم هو الله سبحانه وتعالى، وهذا العليم المطلع عليك العارف بحالك هو واسع فبيده المواهب والذخائر كلها فإذا كنت تعقل هذا فاجعل سؤالك له وحده سبحانه وتعالى؛ كما قال النبي ﷺ فيما رواه الترمذي بسند جيد في وصية ابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله».

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب وبالله التوفيق

وصلىٰ الله علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

النور، الهادي، الرشيد

النور من أوصافه تعالىٰ علىٰ نوعين:

نور حسي: وهو ما اتصف به من النور العظيم، الذي لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ونور جلاله ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، وهذا النور لا يمكن التعبير عنه إلا بمثل هذه العبارة النبوية المؤدية للمعنىٰ العظيم، وأنَّه لا تطيق المخلوقات كلُّها الثبوت لنور وجهه لو تبدَّىٰ لها، ولولا أنَّ أهل دار القرار يعطيهم الرب حياة كاملة، ويعينهم علىٰ ذلك لَمَا تمكنوا من رؤية الرب العظيم. وجميع الأنوار [في] السَّمٰوات العلوية كلُّها من نوره، بل نور جنات النعيم التي عرضها السَّمٰوات والأرض - وسعتُها لا يعلمها إلا الله - من نوره، فنور العرش والكرسي والجنات من نوره، فضلًا عن نور الشمس والقمر والكواكب.

والنوع الثاني: نوره المعنوي؛ وهو النور الذي نوّر قلوب أنبيائه وأصفيائه وأوليائه وملائكته، من أنوار معرفته وأنوار محبته، فإنَّ لمعرفته في قلوب أوليائه المؤمنين أنوارًا بحسب ما عرفوه من نعوت جلاله، وما اعتقدوه من صفات جماله، فكلُّ وصف من أوصافه له تأثير في قلوبهم، فإنَّ معرفة المولىٰ أعظم المعارف كلِّها، والعلم به أجلّ العلوم، والعلم النافع كلُّه أنوار في القلوب، فكيف بهذا العلم الذي هو أفضل العلوم وأجلّها وأصلها وأساسها.

فكيف إذا انضم إلىٰ هذا نور محبته والإنابة إليه، فهنالك تمتلئ أقطار القلب وجهاتُه من الأنوار المتنوعة وفنونِ اللذات المتشابهة في الحسن والنعيم.

فمعاني العظمة والكبراء والجلال والمجد، تملأ قلوبهم من أنوار الهيبة والتعظيم والإجلال والتكبير.

ومعاني الجمال والبر والإكرام: تملأها من أنوار المحبة والود والشوق.

ومعاني الرحمة والرأفة والجود واللطف: تملأ قلوبهم من أنوار الحب النامي علىٰ الإحسان، وأنوار الشكر والحمد بأنواعه والثناء.

ومعاني الألوهية: تملأها من أنوار التعبد، وضياء التقرُّب، وسناء التحبُّب، وإسرار التودُّد، وحرية التعلق التام بالله رغبة ورهبة، وطلبًا وإنابة، وانصراف القلب عن تعلقه بالأغيار كلِّها.

ومعاني العلم والإحاطة والشهادة والقرب الخاص: تملأ قلوبهم من أنوار مراقبته، وتوصلهم إلىٰ مقام الإحسان الذي هو أعلىٰ المقامات كلِّها؛ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك.

فكلُّ معنىٰ ونعت من نعوت الرب يكفي في امتلاء القلب من نوره، فكيف إذا تنوّعت وتواردت علىٰ القلوب الطاهرة الزكية الذكية، وهنا يصدق علىٰ هذه القلوب القدسية انطباق هذا المثل عليها، وهو قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن

شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [النور:٣٥] الآية.

وهذا النور المضروب هو نور الإيمان بالله، وبصفاته وآياته، مثله في قلوب المؤمنين مثل هذا النور الذي جمع جميع الأوصاف التي فيها زيادة النور، وهو أعظم مثل يعرفه العباد. وقد دعا ﷺ لحصول هذا النور فقال: «اللّٰهُمَّ اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللّٰهُمَّ اجعلني نورًا».

ومتىٰ امتلأ القلب من هذا النور فاض علىٰ الوجه، فاستنار الوجه، وانقادت الجوارح بالطاعة راغبة. وهذا النور الذي يكون في القلب هو الذي يمنع العبد من ارتكاب الفواحش، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». فأخبر أنَّ وقوع هذه الكبائر لا يكون ولا يقع مع وجود الإيمان ونوره.

والهادي الرشيد من أسمائه الحسنىٰ هما بمعنىٰ النور بهذا المعنىٰ، فالله يهدي ويرشد عباده إلىٰ مصالح دينهم ودنياهم، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم هداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوىٰ، ويجعل قلوبهم منيبة إليه، منقادة لأمره.

فالله خلق المخلوقات فهداها الهداية العامة لمصالحها، وجعلها مهيئة لما خلقت له، وهدىٰ هداية البيان، فأنزل الكتب وأرسل الرسل، وشرع الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، وبيّن أصول الدين وفروعه، وعلوم الظاهر والباطن، وعلوم الأولين والآخرين، وهدىٰ وبيّن الصراط المستقيم الموصل إلىٰ رضوانه وثوابه، ووضّح الطرق الأخرىٰ ليحذَرَها العباد، وهدىٰ عباده المؤمنين هداية التوفيق للإيمان والطاعة، وهداهم إلىٰ منازلهم في الجنة، كما هداهم في الدنيا إلىٰ سلوك أسبابها وطرقها.

ولهذا يقول أهل الجنة حين تتم عليهم نعمة الهداية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف:٣٣]. وقال تعالىٰ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٧٨﴾ [الأعراف].

والهداية المطلقة التامة هي الهداية التي يسألها المؤمنون ربهم في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ أي: اهدنا إليه واهدنا فيه. وفي قول الداعي: «اللّٰهُمَّ اهدنا فيمن هديت».

وللرشيد معنىٰ آخر بمعنىٰ الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وهو علىٰ صراط مستقيم فيما

يشرعه لعباده من الشرائع، التي هي رشد وحكمة، وفيما يخلقه من المخلوقات ويقدره من الكائنات، الجميع رشد وحكمة، لا عبثٌ فيها ولا شيءٌ مخالف للحكمة.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يذكر أسماء الله الحسنىٰ الواردة في القرآن الكريم تبعا لما ذكره منطويا تحت العلم الأول من علوم القرآن وهو (علم الاعتقاد) فذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن من أسماء الله (**النور**) و(**الهادي**) و(**الرشيد**). وهو في ذكر هذه الأسماء الثلاثة مُتعَقَّبٌ من **جهتين:**

أولاهما: أن هذه الأسماء لم ترد في القرآن الكريم وهو رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ شرط علىٰ نفسه ألا يذكر هنا إلا اسما إلهيا واردا في القرآن الكريم.

والثاني: أن هذه الأسماء لا تثبت في جملة الأسماء الحسنىٰ في أصح قولَيْ العلماء رحمهم الله تعالىٰ، فإن العلماء مختلفون في عَدِّها ضمن أسماء الله الحسنىٰ، والصحيح نفي ذلك فيما نعلمه منها، إذ لم يثبت بهنَّ دليل صحيح، فلا هُنَّ ذُكِرْنَ في القرآن، ولا هُنَّ وَرَدْنَ في الأحاديث الصحيحة، وإنَّما وردت هذه الأسماء الثلاثة في حديث عدِّ الأسماء عند الترمذي وغيره وهو حديث ضعيف عند أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ.

وأشد هذه الأسماء اختلافا بين أهل العلم في عده منها الاسم الأول (النور)، وأصح القولين أن (النور) ليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ؛ بل اسمه من ذلك (نور السَّمٰوات والأرض) ويكون هذا من جنس الأسماء المضافة التي سمَّىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بها نفسه نحو (رب العالمين)، و(مالك يوم الدين) و(ذي الجلال والإكرام) فهي أسماء مضافة، والأسماء المضافة لا تطلق علىٰ عَزَّوَجَلَّ مفردة بل يسمىٰ بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما سمىٰ نفسه فلا يقال: (النور) وإنَّما يقال: (نور السَّمٰوات والأرض) اتباعا لما ثبت به النص خلافا لأبي العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالىٰ في هذا الاسم.

وقد بيّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ما يتعلق باسم "النور" ببيان ما يتضمنه من صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تتضمن صفاته، فاسم (النور) يتضمن في أوصافه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **نوعين اثنين:**

أولهما: نور حسي.

والثاني: نور معنوي.

والفرق بينهما أن الأول صفة ذات والثاني صفة فعل؛ فمن صفات ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه نور لا كالأنوار كما ذكر أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في الكتاب «الأسنىٰ في تفسير الأسماء الحسنىٰ» وهذا الموضع مما

عَدَل به ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عن طريقته في الباب فأثبت النور صفة ذات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو عَزَّ وَجَلَّ نور.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ما يبين ذلك بقوله: (**الذي لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سُبُحات وجهه**) أي: أنوار وجهه وبهاؤه وضياؤه (**ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**) وهذا الوصف وارد في حديث نبوي عن أبي موسىٰ الأشعري عند مسلم في «صحيحه» ولذلك قال المصنِّف: (**وهذا النور لا يمكن التعبير عنه إلا بمثل هذه العبارة النبوية المؤدية للمعنىٰ العظيم وأنه لا تطيق المخلوقات كلها الثبوت لنور وجهه لو تبدىٰ لها ولولا أن أهل دار القرار يعطيهم الرب حياة كاملة ويعينهم علىٰ ذلك لما تمكنوا من رؤية الرب العظيم**).

ثم ذكر النوع الثاني وهو نوره المعنوي وهو صفة الفعل فقال: (**وهو النور الذي نور قلوب أنبيائه وأصفيائه...**) إلىٰ آخر ما قال. أي: منوِّر قلوب أوليائه من الأنبياء وغيرهم وهذا صفة فعل، ويكون تنويرها بما يفتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم من معرفته ومحبته، فإن معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومحبته والاطلاع علىٰ صفات جلاله وجماله تورث في القلب نورا، ولذلك صار العلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أجلَّ العلوم لجلالة متعلَّقه وعِظم ثمرته.

ثم قال بعد ذكر نور المعرفة قال: (**فكيف إذا انضمَّ إلىٰ هذا نور محبَّته والإنابة إليه**) أي: الرُّجوع إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من المعاني للصفات الإلهية التي تنوَّر بها القلوب مما يرجع إلىٰ ملاحظة عظمة الله وكبريائه وجماله ورحمته وجوده ولطفه إلىٰ آخر ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

ثم قال: (**فكل معنًىٰ ونعتٍ من نعوت الرب يكفي في امتلاء القلب من نوره فكيف إذا تنوَّعت وتوادرت علىٰ القلوب الطاهرة الزكية الذكية**) فإن العلم بمعاني أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته مما يُمَدُّ به نور القلب فإذا تنوعت هذه الموارد وتكاثرت علىٰ القلب نُوِّرَ هذا القلب.

ثم قال: (**وهنا يصدُق علىٰ هذه القلوب القُدسية**) أي: المنزهة عن كل ما لا يليق لاشتغالها بمعرفة الله عَزَّ وَجَلَّ و(**انطباق هذا المثل عليها وهو قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾.**) إلىٰ آخر الآية.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن (**هذا النور المضروب هو نور الإيمان بالله وبصفاته وآياته مثله في قلوب المؤمنين مثل هذا النور الذي جمع جميع الأوصاف التي فيها زيادة النُّور وهو أعظم مثل يعرفه العباد**).

ثم قال: (**وقد دعا النبي ﷺ لحصول هذا النُّور فقال: «اللَّهُمَّ اجعل في قلبي نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا...»**) إلىٰ آخر ما ذكر، فإن النبي ﷺ دعا بهذا الدعاء الجامع للإعلام بعظيم أثر ما يجعله الله عَزَّ وَجَلَّ من النور في عبده، وقد ذكر النبيُّ ﷺ مما يُحتاج إلىٰ تنويره أمران اثنان:

أحدهما: موارد العلم ومداخله.

والآخر: الجهات المحيطة بالعبد.

فأما الأول فمتعلقه القلب والسمع والبصر؛ فإن الإنسان يرد عليه العلم ويدخل فيه من هذه الموارد الثلاثة القلب والسمع والبصر.

وأما الأمر الثاني وهو الجهات فقد ذكر ﷺ اليمين والشمال وفوق وتحت، وختم ﷺ ذلك بقوله: «**اللَّهُمَّ اجعلني نورا**» وهذه ليست في الرواية وإنَّما «اجعل لي نورا» فإن الرواية فيما أذكره الآن ليست كذلك، كما أنها علىٰ هذا المعنىٰ فيها إشكال يذكره المفسرون عند ذكر النور الوارد في القرآن هل هو القرآن أم النبي ﷺ؟ والأصح أنه القرآن.

ثم قال: (**ومتىٰ امتلأ القلب من هذا النور فاض علىٰ الوجه فاستنار الوجه وانقادت الجوارح بالطاعة راغبة**) فإذا امتلأ قلب الإنسان بهذه الأنوار بمعرفة الله ومحبَّته ظهرت أشعتها علىٰ وجهه كما قيل للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ما لنا نرىٰ أهل قيام اللَّيل قد استنارت وجوههم؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: "إنهم خَلَوْا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره". ا.هـ وكأنه مع ذهاب الظلمة يحصل النور للقلب فلا يزال يتزايد هذا النور حتىٰ يفيضَ علىٰ الوجه، ولأجل هذا جَلَّتْ صلاة الليل وعَظُمَتْ وأُمِر بها النبي ﷺ إذ إذا خلا الإنسان بربِّه وأظلم عليه الليل وأسدل سِتره كان ذلك أنور لقلبه، فإنه لا يكون مشتغلا بمراءاة الناس، ولا طالبا مدحهم ولا ثناءهم فيحصل تنوير قلبه فإذا زاد النور في قلبه امتلأ القلب به ثم فاض ذلك النور علىٰ جوارح الإنسان من وجهه ويديه وغيرهما، وربما تزايد هذا النور حتىٰ يخيَّلَ للناظر فيه أنه يرىٰ نورا، وهذا مذكور في تراجم جماعة من المتقدمين والمتأخرين، فإنهم لكمال إقبالهم علىٰ ربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فاضت هذه الأنوار عليهم حتىٰ صارت غالبة علىٰ صورتهم الخِلْقِيَّة الظاهرة، وإذا وُجد هذا النور في القلب فإنه يحمل العبد علىٰ إتيان الطاعات ويمنعه من ارتكاب المحرمات، فنور الله عَزَّوَجَلَّ في قلب العبد أعظم واعظٍ يمنعه من الحرام، ويحمله علىٰ الطاعة، وفيه قول النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن.. » فأخبر أن وقوع هذه الكبائر لا يكون ولا يقع مع وجود الإيمان ونوره، فإذا امتلأ القلب بالنُّور أفلح الإنسان وحجز نفسه عن المعاصي، وإنَّما يتسارع الإنسان إلىٰ المعصية لضعف النور الذي يكون في قلبه بظلام المعاصي التي يصيب فيتجرأ فيها أكثر وأكثر.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى معنىٰ (الهادي) و(الرشيد) من أسماء الله تعالىٰ، وأخبر بأن (الهادي) و(الرشيد)

يقعان علىٰ هذا المعنىٰ للنور وهو المعنىٰ المعنوي، فالله يهدي ويُرشد عباده إلىٰ مصالح دنياهم.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كلاما يتعلق بالهداية المتضمنة للإرشاد مما يرجع إلىٰ الاسمين المذكورين، وحاصل ما ذكره هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وغيره من أهل العلم أن هداية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإرشاده للخلق علىٰ **نوعين اثنين:**

أولهما: هداية الحال.

وثانيهما: هداية المآل.

فأما النوع الأول وهو هداية الحال فهو ما يكون في الدنيا وهذا ينقسم إلىٰ **قسمين:**

أولهما: الهداية العامة لجميع المخلوقات إلىٰ مصالحها، ومن ذلك هدايته للرضيع إلىٰ ثدي أمه، وللبهائم العجماء لما فيه قَوام عيشها.

وثانيهما: الهداية الخاصة؛ وهي علىٰ **قسمين أيضا:**

أحدهما: هداية البيان والإرشاد.

والآخر: هداية التوفيق والإلهام.

وأما النوع الثاني من الهداية وهو هداية المآل فالمراد بها هداية أهل الجنة إلىٰ الجنة وهداية أهل النار إلىٰ النار، فإن الله عَزَّوَجَلَّ إذا جازىٰ كلا بجزائه هداه إلىٰ مآله، وكل ذلك ثابت بدلائله من القرآن والسنة، وبسطه في محله اللائق بإذنه تعالىٰ.

ثم ذكر أن (**الهداية المطلقة التامة هي الهداية التي يسألها المؤمنون ربهم في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ أي: اهدنا إليه واهدنا فيه**) والفرق بين قوله: "اهدنا إليه" و"اهدنا فيه" أن قوله: "اهدنا إليه" أي: إجمالًا و"اهدنا فيه" أي: تفصيلا، والإنسان محتاجٌ إلىٰ هداية الله عَزَّوَجَلَّ دومًا، فهو إن هُدِيَ إلىٰ الصراط المستقيم وهو الإسلام إجمالا، فإنه محتاج في كل لحظة من لحظاته إلىٰ الهداية في تفاصيل الطريق ودقائقه.

ثم قال: (**وفي قول الداعي: «اللّٰهمَّ اهدنا فيمن هديت»**).

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ معنىٰ آخر لـ(الرشيد) بمعنىٰ الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله؛ أي: التي وقعت علىٰ أكمل رُشد وأقوم مقام، فلا عبث فيها وليس فيها شيء يخالف الحكمة بل جارية علىٰ مقتضىٰ الحكمة.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب وبالله التوفيق.

الولي

ولايته تعالىٰ وتوليه لعباده نوعان:

وَلاية عامة: وهو تصريفه وتدبيره لجميع الكائنات، وتقديره علىٰ العباد ما يريده من خير وشر، ونفع وضر، وإثبات معاني الملك كلّها لله تعالىٰ.

والنوع الثاني في الولاية والتولي الخاص، وهذا أكثر ما يرد في الكتاب والسنّة كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة:٢٥٧]، ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ [الأنفال:٣٠]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد].

وهذا التولي الخاص يقتضي عنايته ولطفه بعباده المؤمنين، وأنَّ الله يربيهم تربية خاصة، يصلحون بها للقرب منه ومجاورته في جنات النعيم، فيوفقهم للإيمان به وبرسله، ثم يغذي هذا الإيمان في قلوبهم وينمّيه، وييسرهم لليسرىٰ، ويجنبهم العسرىٰ، ويغفر لهم في الآخرة والأولىٰ، ويتولاهم برعايته وحفظه وكلاءته، فيحفظهم من الوقوع في المعاصي، فإنَّ وقعوا فيها بما سوّلت لهم أنفسهم الأمّارة بالسوء، وفّقهم للتوبة النصوح، فإذا تولوا ربهم تولاهم ولايةً أخصَّ من ذلك، وجعلهم من خواص خلقه بما يهيئ لهم من الأسباب الموصلة لهم إلىٰ كلِّ خير.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس:64].

فأخبر في هذه الآية عن الأسباب التي نالوا بها ولاية الله، وهي الإيمان والتقوىٰ، والفوائد والثمرات العظيمة التي يجنونها من هذه الولاية، وهي الأمن التام وزوال ضده من الخوف والحزن، والبشارة الكاملة في الدنيا بما يبين لهم ويبشرهم به من اللطفِ والعنايةِ والتوفيقِ للخيرات والحفظ من المخالفات، وبالثناء الحسن بين العباد، وبالرؤيا الصالحة التي يراها المؤمن أو تُرىٰ له، والبشارة عند الموت، وفي القبر، وفي عرَصَات القيامة.

فهذا تنبيه جامعٌ، متوسطٌ بين الاختصار المخل والطول الممل، وفيه من التفصيلات النافعة، والنكت اللطيفة، والفوائد والفرائد ما لا تكاد تجده مجموعًا في محل واحد،

ختم المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ما اختطه من بيان أسماء الله الحسنىٰ المذكورة في القرآن بذكر الاسم الحادي والثمانين، فإن جملة الأسماء التي عدها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتابه هنا من أسماء ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

واحد وثمانون اسما، آخرها اسم (**الولي**)، وهذا الاسم قد جعله المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في بيان متعلقه من صفة ربنا بمنزلة المعية وقَسَمَه إلىٰ وَلاية عامة ووَلاية خاصة.

والأظهر والله أعلم متابعة لتصرف هذا اللفظ في القرآن أن متعلق اسم (الولي) من الوِلاية أشبه بصفة القرب منه بصفة المعية، فإن المعية منها معية عامة وخاصة وأما القرب فلا يكون إلا خاصا للمؤمنين، وكذلك الوَلاية لا تكون إلا للمؤمنين؛ لأن معنىٰ الوَلاية المحبة والنصرة والتأييد فتكون منحصرة في النوع الثاني دون النوع الأول، والنوع الأول إنَّما هو من قِبَل صفة المُلْك وأشباهها ولا مدخل له في الولاية فالولاية كالقرب فكما يقال: (إن قرب الله يختص بالمؤمنين) فكذلك ولايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تختص بالمؤمنين وأبلغ شيء في الدلالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ١١﴾[محمد]، فهذا دال علىٰ أن ولاية الله عَزَّ وَجَلَّ تختص بعباده المؤمنين وهي اكتنافهم باللطف والرحمة والإصلاح وتكميل أحوالهم وأرواحهم وتهذيب أخلاقهم ونفوسهم بتغذيتها بالإيمان والمعارف والعلوم النافعة وتيسيرهم لليسرىٰ وتجنيبهم للعسرىٰ ليكون في تكميلهم بهذه الأمور إعدادًا لهم لمجاورة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن مجاورة الله عَزَّ وَجَلَّ لا تصلح إلا لمن طهرت نفسه وكملت روحه ومما تحصل به تلك المطالب تهذيب النفوس وإصلاحها بوَلاية الله عَزَّ وَجَلَّ لأربابها.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قوله تعالىٰ: (﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢﴾) الآيات وفيها الإخبار بالأسباب التي تُنال (**بها وَلاية الله وهي: الإيمان والتقوىٰ**) فأعظم ما تُحصَّل به وَلاية الله عَزَّ وَجَلَّ هي إيمان العبد وتقواه فكل من كان مؤمنا تقيا فهو من أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **فولي الله شرعا هو: المؤمن التقي** كما في نص هذه الآية من سورة «يونس».

وأما باعتبار الاصطلاح فإن المتكلمين في العقائد جعلوا اسم الولي خاصا بالمؤمن التقي غير النبي فإنهم أخرجوا النبي من الحقيقة الاصطلاحية للولي.

أما باعتبار الحقيقة الشرعية للولي فإن الأنبياء كغيرهم هم من أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن حصَّل هذه المرتبة فله البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة وقد نفىٰ عنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحَزن فيكون قد بلغ أرقىٰ الدرجات وأكمل المقامات في الدنيا والآخرة، وبهذه الجملة يفرغ المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من هذا التنبيه الجامع المتوسط بين الاختصار المخل والطول الممل، المبين لجملة من الأسماء الحسنىٰ الواردة في القرآن بيانا ذكر فيه طرفا من التفصيلات النافعة والنكت اللطيفة والفوائد والفرائد ما لا تكاد تجده مجموعا في محل واحد.

ثم الجملة التي بعد هذا استئناف لكلام جديد ولم يكن ينبغي أن توضع مع سابقتها في سطر واحد وتقسيم جمل الكلام يعين علىٰ فهمه والغلط في ذلك يضر بفهمه، وهذا واقع في جملة من المتون التي شُرحت علىٰ غير مقصد مصنفها للغلط في تقسيم جملها كما أشرنا إلىٰ ذلك إشارة لائقة بمحله في التقريرات علىٰ «شرح مقدمة التفسير» للعلامة ابن عثيمين فإنها وقع فيها شيء من هذا الجنس فيكون المصنِّف قد فرغ من ذكر ما يتعلق بالأسماء الحسنىٰ، ثم يشرع ها هنا يبين مقامات أخرىٰ تتعلق بـ"علم العقائد".

فنقول: بيان الأصول التي كَثُر الكلام فيها بين السلف، وبين أهل الكلام، وهي متفرعة علىٰ أسماء الله الحسنىٰ وصفاته، ولكن لزيادة الإيضاح نبيّن دلالة القرآن عليها بخصوصها.

القول في علو الباري، ومباينته لخلقه، واستوائه على عرشه

هذا الأصل العظيم لم يزل الصحابة والتابعون لهم بإحسان يعترفون ويعلمون علمًا لا يرتابون فيه بما دلّ عليه الكتاب والسنّة من علوِّ الله تعالىٰ، وأنَّه فوق عباده، وأنّه علىٰ العرش استوىٰ، وأنَّ له جميع معاني العلو: علو الذات، وعلو القدر وعظمةِ الصفات، وعلو القهر لجميع الكائنات، حتىٰ نبغت الجهمية ومن تبعهم فأنكروا المعنىٰ الأول، لا ببرهان عقلي، فإنَّ العقل دلّ علىٰ علو الله تعالىٰ علىٰ خلقه بذاته دلالة فطرية واضحة، ولا ببرهان نقلي، فإنَّ جميع النصوص تنافي قولهم وتبطله وتثبت له تعالىٰ كمال العلو من كلِّ وجه.

في القرآن «العلي» في مواضع كثيرة وفيه «الأعلىٰ»، وذلك يدل علىٰ أنَّ علوه من لوازم ذاته وأنَّ جميع معانيه ثابتة لله تعالىٰ.

وفيه الإخبار عن فوقيته للمخلوقات كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

والإخبار بعروج الأشياء إليه وصعودها وبنزولها منه، كقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وكقوله: ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [غافر] في عدة مواضع. فيدلُّ ذلك علىٰ علوه، وعلىٰ أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

وكذلك قصة موسىٰ وفرعون إذ قال فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ㊱ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر]. وهذا ظاهر غاية الظهور أن فرعون قد أنكر ما قاله موسىٰ ﷺ من علوِّ الله علىٰ خلقه، فقال هذه المقالة موهمًا وملبِّسًا علىٰ قومه، ولذلك كان السلف يسمون الجهمية

الفرعونية لاعتقادهم نفي العلو، كما اعتقده وأنكره فرعون.

ومن ذلك: اسمه الظاهر حيث فسّره ﷺ أنّه الذي ليس فوقه شيء.

ومن ذلك: اختصاصه لبعض مخلوقاته بقربه وعِنديته، كقوله عن الملائكة ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء:١٩].

وأما استواؤه علىٰ العرش فقد ذكره الله في سبعة مواضع من القرآن، مثل قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه] فالاستواء معلوم والكيف مجهول، كما يقال مثل ذلك في بقية صفات الباري، فإنَّ الكلام فيها مثل الكلام في الذات، فكما أنَّ لله ذاتًا لا تشبهها الذوات، فله تعالىٰ صفات لا تشبهها الصفات.

فصفة العلو لله تعالىٰ ثابتة بالسمع والعقل كما تقدم، وصفة الاستواء ثبتت في الكتاب وتواترت بها السنّة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنه بعد فراغه من بيان أسماء الله الحسنىٰ الواردة في القرآن يشرع يبين أصولا كثر الكلام فيها بين السلف وبين مخالفيهم من أهل الكلام والبدع، وهذه الأصول هي متفرعة علىٰ أسماء الله الحسنىٰ وصفاته؛ ولكن لزيادة الإيضاح فإنه يبين دلالة القرآن عليها بخصوصها، وجعل المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ مقدَّم هذه الأصول القول في علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجلالة المسألة وعظمها، فبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ (أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يزالوا يعترفون ويعلمون علما لا يرتابون فيه بما دل عليه الكتاب والسنة من علوِّ الله تعالىٰ وأنه فوق عباده وأنه علىٰ العرش استوىٰ) فمن عقائد المسلمين من الصحابة والتابعين وأتباعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين أنهم يعتقدون أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له العلو، وهذا العلو جعله المصنِّف تبعًا لغيره راجعا إلىٰ ثلاثة معان هي: علوُّ الذات وعلو القدر وعلو القهر.

والتَّحقيق أن العلو يرجع إلىٰ معنيين اثنين هما:

علو الذات وعلو القدر والصفات.

وأما علو القهر فإنه راجع إلىٰ علو القدر وعظمة الصفات فإن من علو قدره وعظمة صفاته علو صفة من تلك الصفات وهي صفة القهر كما سنبينه في درس «أعلام السنة المنشورة» بأبسط مما ها هنا.

ثم ذكر أن الناس لم يزالوا علىٰ هذا الأمر (حتىٰ نبغت الجهمية) وهم طائفة منسوبة إلىٰ الجهم بن صفوان فأنكروا علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المتعلق بذاته (لا ببرهان عقلي) (ولا ببرهان نقلي)؛ بل هي شبهةٌ وقعت في

نفوسهم فاعترضوا بها علىٰ دَلالات العقول والنقول.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في ضمن بيانه للدليل العقلي دلالة الفطرة فقال: (فإن العقل دال علىٰ علو الله تعالىٰ علىٰ خلقه بذاته دلالة فطرية واضحة) ودَلالة الفطرة غير دَلالة العقل؛ فإن دلالة العقل ما يتعلق بالاقتضاء العقلي والقياس الجدلي، وأما دلالة الفطرة فهو ما يوجد في النفوس من الإقرار بعلو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا الموضع.

ثم ذكر من دلائل الشرع ما يبيِّن علو الله فذكر أن في القرآن تسمية الله بـ«العلي» و«الأعلىٰ» وهذا يدل علىٰ علوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأن أسماء الله تتضمن صفاته كما قلنا:

أسماؤه الحسنىٰ علىٰ الصفات ... من الأدلة لذي الإثبات

فالمثبت يرىٰ أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ تدل علىٰ أوصاف له فاسم «العلي» واسم «الأعلىٰ» دالان علىٰ إثبات صفة العلو لله عَزَّوَجَلَّ، ومن تلك الأدلة أيضا إخباره سبحانه عن فوقيته علىٰ المخلوقات كقوله تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠] فهذا دالٌّ علىٰ إثبات العلو كذلك إخباره عَزَّوَجَلَّ (بعروج الأشياء إليه وصعودها وبنزولها منه) فإن العروج والصُّعود لا يكون إلا لمن هو في جهة العلو كقوله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: ترتفع إلىٰ من كان في جهة العلو، وكذلك ذكر النزول منه لا يكون النزول إلا ممن هو في العلو كما في قوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[الزمر:١] أي: ابتداؤه من الله وهذا دال علىٰ أنه نازل ممن هو موصوف بالعلو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك قصة موسىٰ وفرعون فيها إثبات ذلك؛ لأن فرعون أنكر ما قاله موسىٰ عليه الصلاة والسلام من علو الله علىٰ خلقه فطلب فرعون إبطال ذلك بما سأل وزيره هامان فيه، (ولذلك كان السلف يسمُّون الجهمية الفرعونية لاعتقادهم نفي العلو) فإن فرعون كان يتهكم مستخفًّا بموسىٰ حين أثبت علو ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنكره بما ذكره لوزيره هامان.

وقد قلب أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ القضية في كتاب «عارضة الأحوذي» فجعل اعتقاد فرعون أن فرعون يعتقد أن الله في السماء وأن موسىٰ يعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل مكان وأنه لا يوصف بجهة العلو وهذا من الغلط في فهم دَلالة النَّص غفر الله له.

ثم قال: (ومن ذلك اسمه الظاهر حيث فسره ﷺ) في «صحيح مسلم» (أنه الذي ليس فوقه شيء) وهذا يتضمن إثبات علو الله عَزَّوَجَلَّ (ومن ذلك اختصاصه لبعض مخلوقاته بقربه وعنديته كقوله عن الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾) ولو كان الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكان غير بائن من خلقه متعال عليهم لم يكن لذلك الاختصاص بالعندية والقرب فائدة؛ بل هذا يدل علىٰ تفاوت الخلق في ذلك، وأنهم ليسوا علىٰ

حدٍّ سواء في هذا الحظ منه عَزَّوَجَلَّ.

ومنه أيضا استواؤه علىٰ عرشه فإن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر استواءه علىٰ عرشه في مواضع من القرآن كقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ [الفرقان:٥٩]، وفي إثبات استواء الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه إثبات العلو؛ لأن عرش الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في السماء.

ثم قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**فالاستواء معلوم**) أي: من جهة معناه (**والكيف مجهول**) أي: من جهة كيفيته (**كما يقال مثل ذلك في بقية صفات الباري**) فنحن نعلم معانيها باعتبار الوضع اللغوي، وأما كيفياتها فإننا نجهل تلك الكيفيات؛ لأن الكلام في الصِّفات كالكلام في الذات كما ذكره الخطابي والخطيب البغدادي رحمهما الله تعالىٰ من القدماء، ثم تبعهما من تبعهما من أهل العلم فكما أنَّنا نجهل كيفية ذاته، فإننا نجهل كيفية صفاته، كما قال ابن عَدود في «نظم المعتقد»:

وما نقول في صفات قُدسه ... فرع الذي نقوله في نفسه

فإن يقل جهميُّهم: كيف استوىٰ؟ ... كيف يجي؟ فقل له: كيف هو؟

فحيث امتنعت معرفتنا بذات الله فقد امتنعت معرفتنا بكيفية صفات الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال المصنِّف خاتما هذا المطلب: (**فصفة العلو لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ثابتة بالسمع والعقل**) والمراد بالسمع أدلة النقل (**كما تقدم وصفة الاستواء ثبتت في الكتاب وتواترت بها السنة**) وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «اجتماع الجيوش الإسلامية» أن الأدلة الدالة علىٰ علو الله عَزَّوَجَلَّ تزيد علىٰ ألف دليل من أدلة الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، كلها تنادي بأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ موصوفٌ بصفة العلو تعالىٰ الله عما يقول الجاهلون علوا كبيرا.

وهذا آخر البيان لهذه الجملة من الكتاب وبالله التوفيق

والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله وسلم

علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

القول في نزول الرب إلى السماء الدنيا وإتيانه ومجيئه يوم القيامة

وذلك أنَّ الله تعالىٰ فعّال لما يريد، وقد تواترت السنة بنزول الرب إلىٰ السماء الدنيا. والكتاب قد دلّ علىٰ كمال قدرته، وأنَّه الفعّال لما يريد، وأنَّه ليس له مثيل ولا شبيه، فإذا أخبر المعصوم ﷺ بنزوله إلىٰ السماء الدنيا، فما عذر المؤمن إذا لم يعتقد ما أخبر به ﷺ، وأنَّه ليس كمثله شيء فهو ينزل كيف يشاء

مع كمال علوه، فإنَّ علوه من صفاته الذاتية، ونزوله وإتيانه من أفعاله الاختيارية التابعة لقدرته ومشيئته.

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨] الآية.

وهذا صريحٌ لا يقبل التأويل بوجه، ومن تأوّل هذا فكلُّ صفاته؛ بل وأسمائه الحسنىٰ يتطرّق إليها هذا التأويل؛ بل التحريف الباطل المنافي للكتاب والسنّة.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يبين مقاصد التوحيد التي انتظمت في علم العقائد المذكور في القرآن الكريم، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قد اشترط علىٰ نفسه أن يكون هذا الكتاب تبيانا لعلوم القرآن المتعلقة بالعقائد والشرائع والأخلاق، وابتدأ ذلك بما يتعلق بالعقائد، والترجمة التي ترجم بها ها هنا من القول في نزول الرب إلىٰ السماء الدنيا وإتيانه ومجيئه يوم القيامة مركبة من جملتين:

الثانية منهما وهي «الإتيان والمجيء يوم القيامة» هي من علوم العقائد التي جاءت في القرآن كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وأما الجملة الأولىٰ وهي «نزول الرب إلىٰ السماء الدنيا» فهذه لم تأت في جملة العقائد المذكورة في القرآن الكريم وإنَّما صحت عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، ويمكن أن يقوّىٰ مقام إدراج المصنِّف لها في جملة العقائد المذكورة في القرآن بما اتفق لإسحاق بن راهويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فإن ابن طاهر أمير نيسابور سأله عن النزول فذكر له قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، فقال ابن طاهر: "رحمك الله هذا يوم القيامة" فقال إسحاق: "إن الذي يقدر علىٰ الإتيان يوم القيامة يقدر علىٰ النزول والإتيان في أي وقت شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ" وهذا الاستنباط الذي أخذه إسحاق بن راهويه من آيات المجيء والإتيان صحيحٌ علىٰ الوجه الذي ذكره، فإن النزول والإتيان والمجيء من أفعال الله الاختيارية التابعة لقدرته ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فصار النزول والإتيان والمجيء يوم القيامة والنزول في الدنيا إلىٰ سماء الدنيا كلُّ ذلك ثابت بالقرآن علىٰ الوجه الذي ذكرناه نقلًا عن إسحاق بن راهويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وهذا كما قال المصنِّف: (**صريح لا يقبل التأويل بوجه**) فإننا نقر بأن الله ينزل إلىٰ سماء الدنيا كل ليلة وأنه يجيء ويأتي يوم القيامة، (**ومن تأول هذا فكل صفاته [بل]وأسمائه الحسنىٰ يتطرق إليها هذا التأويل**) وهذا رد علىٰ المفرقة الذين أقروا ببعض الصفات ومنعوا غيرها لما توهموه من اختصاص إثبات السبع عندهم بمعنىٰ لا يكون في غيرها، والباب واحد

فما يقال في هذه الصفة يقال في هذه الصفة، وهذا إذا ضعف متعلقه وَوَهِيَ مأخذه هو أقرب إلىٰ التحريف منه إلىٰ التأويل، فإن التأويل إنَّما يُستساغ إذا قوي متعلَّقه وظهر مأخذه ولذلك فإن المؤوِّلة الخُلَّص المستمسكين بمأخذ قوي في الظاهر لهم من العذر ما ليس لغيرهم ممن ضعف مأخذهم فإن فعل ذلك هو إلىٰ التحريف أقرب منه إلىٰ التأويل، كما قال بعض الفلاسفة في قوله الله تعالىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] قال: "إنهما السماء والأرض" فمثل هذا ليس تأويلا وإنَّما هو من جملة التحريف الباطل المنافي للكتاب والسنة مما لا تعرفه العرب في لسانها.

القول في رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة

علىٰ هذا جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين والهدىٰ، وبه أخبر الله في كتابه في عدة آيات منها:

قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة] أي: حسنة نيّرة من السرور والنعيم، تنظر إلىٰ وجه الملك الأعلىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين]، وهذا من أدلِّ الأدلة علىٰ أنَّ المؤمنين غير محجوبين عن ربهم، لأنَّ الله توعَّد المجرمين بألم الحجاب، فيستحيل أن يُحجب المؤمنون عنه ويكونوا كأعدائه.

وفي عموم قوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾ [المطففين] ما يدل علىٰ رؤية الباري، فهم ينظرون إلىٰ ما أعطاهم مولاهم من النعيم الذي أعظمه وأجلّه رؤية ربهم، والتمتع بخطابه ولقائه.

وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦] يعني: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبدوه كأنَّهم يرونه، فإنْ لم يصلوا إلىٰ ذلك استحضروا رؤية الله تعالىٰ، وأحسنوا إلىٰ عباد الله بجميع وجوه البر والإحسان القولي والفعلي والمالي، فهؤلاء لهم الحسنىٰ وهي الجنة بما احتوت عليه من النَّعيم المقيم، وفنون السرور، ولهم أيضًا زيادة علىٰ ذلك وهو رؤية الله والتمتُّع بمشاهدته، وقربه ورضوانه والحظوة عنده، بذلك فسَّرها النبي ﷺ، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ جمعت كلَّ نعيم ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق]، وهو النظر إلىٰ وجه الله الكريم، والتمتُّع بلقائه وقربه ورضوانه.

وكذلك ما في القرآن من التعميم لجميع أصناف النَّعيم، فإنَّ أعظم ما يدخل فيه رؤيةُ وجهه الذي هو أعلىٰ من كلِّ نعيم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزخرف:٧١]، فكلُّ ما تعلَّقت

به الأماني والشهوات والإرادات، فهو في الجنَّة حاصل لأهلها، وجميع ما تلذُّه الأعين من جميع المناظر العجيبة المسِرَّة، فإنَّه فيها علىٰ أكمل ما يكون.

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب:٤٤]، فهذا إخبارٌ عن تحية الكريم لهم، وأنَّه سلَّمهم من جميع الآفات، وسلَّم لهم جميع اللذات والمشتهَيات، وإخبارٌ عن رؤيته وقربه ورضوانه، لأنَّ اللقاء تحصل به هذه الأمور.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ مقصدا آخر من مقاصد العقائد والتوحيد في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة علىٰ هذا كما ذكر المصنِّف (**جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين والهدىٰ**) إلىٰ يومنا هذا.

وبذلك أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في آيات عديدة منها قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة] أي: من النَّضرة وهي النعيم والسرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: (**تنظر إلىٰ وجه الملك الأعلىٰ**) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهي في نعيم بنظرها إلىٰ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ قال المصنِّف: (**وهذا من أدل الأدلة علىٰ أن المؤمنين غير محجوبين عن ربهم لأن الله توعد المجرمين بألم الحجاب فيستحيل أن يُحجَب المؤمنون عنه فيكونوا كأعدائه**) فلما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يحجُب المجرمين عن رؤيته عَزَّوَجَلَّ عُلم أنه لا يحجب أولياءه، وهذا الحجب متعلِّق برؤية الإنعام والتشريف فإن الرؤية التي تكون في الآخرة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان اثنان:

النوع الأول: رؤية الامتحان والتَّعريف.

والنوع الثاني: رؤية الإنعام والتَّشريف.

فأما رؤية الامتحان والتعريف فهذه يراه فيها جميع الخلق من المؤمنين والكافرين والمنافقين في أصحِّ الأقوال الثلاثة عند أهل السنة والجماعة، وعلىٰ ذلك دل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾[الانشقاق]، فإن الضمير ها هنا يعود في أحد القولين إلىٰ لقاء الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن أهل العلم من قال: "إنَّ الضمير متعلق بالعمل" والأظهر والله أعلم أن هذه الآية تدل علىٰ أن كل عبد يلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واللقاء لا يكون إلا برؤية كما ذكره السِّجزي وابن القيم رحمهما الله تعالىٰ، وتكون آية المطففين ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ متعلقة بالنوع الثاني من الرؤية وهي رؤية الإنعام

والتشريف فتختص بالمؤمنين فإن الله عَزَّوَجَلَّ يتجلىٰ للخلق في عرصات يوم القيامة أي: متّسعاتها فيراه الخلق جميعا من المؤمنين والكافرين والمنافقين، ثم يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: "لِيَتْبَعْ كل من كان يعبد شيئا إلهه" فيتبع من كان يعبد الأصنام الأصنام، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، ثم يبقىٰ المؤمنون ومعهم المنافقون، ثم يأمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بالسجود له فيسجد المؤمنون، وأما المنافقون فتبقىٰ ظهورهم طبقا لا يستطيعون أن يسجدوا، ثم تُلقىٰ عليهم الظلمة فيهتدي المؤمنون بأنوارهم إلىٰ الصراط فيسلكون عليه، ولا يكون للمنافقين نور فيتردَّون طَرْحَىٰ في نار جهنم، فهذه الرؤية الكائنة في هذا المقام هي رؤية امتحان وتعريف، وأما إذا دخل أهل الجنة الجنة فعند ذلك يتجلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لهم فيرونه رؤية إنعام وتشريف تختص بهم.

ومن ذلك قوله تعالىٰ أيضا: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ أي: في الجنة فهذا دليل أن رؤية الإنعام والتشريف تكون في الجنة للمؤمنين فقط.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس:٢٦] أي: الذين أحسنوا في عبادة ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأحسنوا إلىٰ خلقه بجميع أنواع البر فهؤلاء لهم الحسنىٰ وهي الجنة، ولهم زيادة علىٰ ذلك وهذه الزيادة قد ثبت في «صحيح مسلم» تفسيرها بالنظر إلىٰ وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق] فإن المزيد كما ثبتت به الآثار هو النظر إلىٰ وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ﴾ (**فكل ما تعلَّقت به الأماني والشهوات والإرادات**) وحصلت به اللذات فإنه يحصل لأهل الجنة ومن أعظم لذاتهم وأكملها رؤية وجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والنظر إليه.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب:٤٤] أي: تحيتهم إذا لقوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سلام، واللقاء كما سبق ذكره عن السجزي وابن القيم لا يكون إلا برؤية ونظر، فهم يرونه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتكون تحيتهم يوم يرونه سلام (**فهذا إخبار عن تحية الكريم لهم وأنه سلمهم من جميع الآفات وسلَّم لهم جميع اللذات [والمشتهيات] وإخبار عن رؤيته وقربه ورضوانه لأن اللقاء تحصل به هذه الأمور**) ومن جملتها النظر إلىٰ وجه الله الكريم جعلنا الله وإياكم ممن ينظر إلىٰ وجهه الكريم في دار النعيم.

والله أعلم وصلىٰ الله علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

ذكر أصول الإيمان الكلية

قد ذكر الله الإيمان ذكرًا عامًّا مطلقًا في مثل قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد:٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ [الحديد:١٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وذكره مقيَّدًا بما يجب الإيمان به.

وأجمع الآيات المقيّدة هي الآية العظيمة التي فرض الله فيها علىٰ الناس الإيمان بجميع أصوله الكلية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة]، وقد أخبر أنَّ الرسول والمؤمنين قاموا بهذه الأصول في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة].

فعلىٰ كلِّ مؤمن أن يؤمن بالله، ويَدْخُلُ في الإيمان بالله الإيمانُ بكلِّ ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من صفات الكمال ونفي ضدِّها.

وأركان ذلك ثلاثة: الإيمان بالأسماء كالعزيز الحكيم العليم الرحيم.. إلىٰ آخرها.

والإيمان بالصفات: كالإيمان بكمال عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته.

والإيمان بأحكام الصِّفات ومتعلقاتها: كالإيمان بأنَّه يعلم كلَّ شيء، ويقدر علىٰ كلِّ شيء، ورحمتُه وسعت كلَّ شيء.. إلىٰ آخرها.

فهذا الإيمان بالله المتعلِّق بالعلم والاعتقاد، ثم يتبع هذا الإيمان بالله المتعلق بالحبِّ والإرادة، وهو التألُّه لله والقيام بعبوديته، امتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه. ولهذا كان القيام بالدِّين كلِّه تصديقًا واعتقادًا وانقيادًا داخلًا بالإيمان بالله.

وبهذا يُعرف أنَّ إطلاق الإيمان في كثير من الآيات القرآنية يشمل هذا كلَّه، لأنَّه رتب علىٰ المطلق من الأمر والمدح والثواب ما رتَّبه علىٰ المقيد. فجميع الأوصاف الجميلة داخلة في الإيمان، وكذلك الإيمان التَّام ينفي الأخلاق الرذيلة كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال].

فوصفهم بالإيمان القلبي وأعمالِ القلوب من التوكل والزيادة في الإيمان، وبأعمال الجوارح من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة بالقيام بحقِّه وحق خلقه. وأخبر أنَّ هؤلاء هم الذين حقَّقوا الإيمان، وأنَّ لهم

من الله المغفرة الكاملة والثواب التام.

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ إلىٰ أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون].

فأخبر عنهم بالفلاح، وبشّرهم بالمنازل العالية، كما وصفهم بالإيمان الكامل الذي أثّر في قلوبهم الخضوع والخشوع في أشرف العبادات، وحفظ ألسنتهم وفروجهم وجوارحهم، وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومراعاتهم للأمانات الشّاملة لحقوق الله وحقوق خلقه، وأنّهم مراعون لها، قائمون بها، وبالعهود التي بينهم وبين الله، والتي بينهم وبين خلقه.

وقد ذكر ما يشبه ذلك في سورة المعارج، وكذلك ذكر الله خصال الإيمان في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة:١٧٧] الآيات، فحيث أطلق الله الإيمان، أو أثنىٰ علىٰ المؤمنين مطلقًا دخلت فيه جميع هذه الأمور.

وقد يخص بعضها بالذكر ولكنها متلازمة لا يتم بعضها إلا ببعض.

ومن الإيمان بالملائكة: الإيمان بأنّهم قد جمعوا خصال الكمال ونزّههم الله في أصل خلقتهم من جميع المخالفات، فهم عباد مكرمون عند ربهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وقد جعل الله كثيرًا منهم وظائفهم التدبير لحوادث العالم، وأقسم بهم في عدة آيات، فهم المدبِّرات أمرًا والمقسِّمات والملقيات للأنبياء والرسل ذكرًا عذرًا أو نذرًا، وهم الحفظة علىٰ بني آدم يحفظونهم بأمر الله من المكاره، ويحفظون عليهم أعمالهم خيرها وشرها، وقد وصفوا في الكتاب والسنّة بصفات جليلة، يتعين علىٰ العبد الإيمان بكلّ ما أخبر به الله ورسوله عنهم وعن غيرهم.

ومن الإيمان بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم: الإيمان بأنّ الله اختصهم بوحيه ورسالته، وجعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته وأمره وشرعه، وجمع فيهم من صفات الكمال ما فاقوا فيه الأولين والآخرين، من الصدق العظيم، والأمانة التامة، والقوة العظيمة، والشجاعة، والعلم العظيم، والدعوة والتعليم، والإرشاد والهداية، والنصح التام، والشفقة والرحمة بالعباد، والحلم والصبر الواسع، واليقين الكامل.

فهم أعلىٰ الخلق علومًا وأخلاقًا، وأكملهم أعمالًا وآدابًا، وأرفعهم عقولًا، وأصوبهم آراء، وأسماهم نفوسًا.

اختارهم الله واصطفاهم وفضّلهم واجتباهم، بهم عُرِف الله، وبهم وحّد، وبهم عُرف الصراط

المستقيم، وعلىٰ آثارهم وصل أهل الجنة إلىٰ كلِّ نعيم، فلهم علىٰ العباد الإيمانُ بهم، والاعترافُ بكلِّ ما جاءوا به، ومحبتُهم وتعزيرهم وتوقيرهم واحترامهم، واقتفاء آثارهم والاهتداء بهديهم.

وهذه الأمور ثابتة لجميع الأنبياء، ولنبينا ﷺ من هذه الأوصاف أعلاها وأكملُها. فلقد جمع الله به من الكمال ما فرقه في غيره من الأنبياء والأصفياء، وله علىٰ أمته أن يقدموا محبته علىٰ محبة أنفسهم وأولادهم ووالديهم والناس أجمعين، وأن يقوموا بحقِّه، وهو القيام بشرعه وتعلمه وتعليمه، واتباعه ظاهرًا وباطنًا، ويعتقدوا أنَّه خاتم الأنبياء، وأفضل الخلق أجمعين، وأنَّه أصدق الخلق وأنصحهم وأعظمهم في كلِّ خصلة حميدة، ومنقبة جميلة، وأنَّه أكمل الله به الدِّين، وأتمَّ به النعمة علىٰ المؤمنين، وشرح له صدره، ووضع عنه وِزره، ورفع له ذكره، وخصّه بخصائص لم تكن لأحد قبله من الرسل، وأيّده بالآيات البيّنات والمعجزات الظاهرات، والبراهين القواطع، والأنوار السواطع.

صفاته ﷺ من أكبر الأدلة علىٰ صدقه، وأنَّه رسول الله حقًّا، وما بعث به من الهدىٰ والرشد والرحمة، والعلوم الربانية، والمعارف الإلهية، والعبوديات الظاهرة والباطنة المزكية للقلوب، المنمّية للأخلاق، المثمرة لكلِّ خير من أعظم البراهين علىٰ رسالته، وأنَّها من عند الله.

وما جاء به من القرآن العظيم، وما احتوىٰ عليه من علوم الغيب والشهادة، ومن علوم الظاهر والباطن، ومن علوم الدنيا والدِّين والآخرة، ومن الهداية إلىٰ كلِّ خير، والتحذير من كلِّ شر، ومن الإرشاد إلىٰ أقوم الطرق وأهدىٰ السبل، وأقرب الوسائل وأرجح الدلائل، كلُّ ذلك دليلٌ وبرهان علىٰ أنَّه من عند الله، تنزيلٌ من حكيم حميد، وأنَّ من جاء به هو الرسول الأمين والصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحيٌ يوحىٰ.

ولهذا نقول: ومن الإيمان بالله ورسوله: الإيمان بهذا القرآن العظيم، وأنَّه كلام الله حقيقة منزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأنَّه تكلم به حقًّا، وبلغه جبريل لمحمد ﷺ، وبلَّغه محمد ﷺ لأمته، فنقلته الأمة كلُّها بأسرها قرنًا بعد قرن.

ولهذا كان هذا القرآن متواترًا تواترًا لا يقارِبُه شيء من الكلام المنقول، وهذا من حفظ الله، فإنَّه تعالىٰ أنزله وتكفّل بحفظه.

ومن تمام الإيمان به التصديق التام بكلِّ خبر أخبر به عن الله، وعن المخلوقات، وعن أمور الغيب وغيرها، وأنَّه لا يمكن أن يأتي خبر صحيح ينقضه، أو يَرِد بما يخالف الحس؛ بل يعلم أنَّ كلَّ ما خالفه فإنَّه باطل بنفسه.

ومن تمام الإيمان به الإقبالُ علىٰ معرفة معانيه، والعمل بكلِّ ما دلّ عليه بالتصديق بأخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وقد وصف الله القرآن بأنَّه هدًىٰ ورحمة وشفاء لما في الصدور من أمراض الشبهات، وأمراض الشهوات، وأنَّه تبيانٌ لكلِّ شيء، فما من شيء يحتاجه الناس في أمور دينهم ودنياهم، إلا وقد بيّنه أتم بيان، وأمر عند التنازع في الأمور كلِّها أن تُردّ إليه، فيفصل النزاع ويحل المتشابهات بلفظه الصريح، أو بمعانيه المتنوعة التي بيّنتها السنّة، وبلّغها النبي ﷺ لأمته، وأمر العباد بتدبُّره والتفكر في معانيه.

وأخبر أنَّ أحكامه أحسنُ الأحكام، وأخباره أصدق الأخبار، ومواعظه أنجع المواعظ، فهو المبِينُ لكلِّ ما يحتاجه الخلق، وهو المفصّل لجميع العلوم؛ كلُّه محكَمٌ من جهة الحِكَمِ والحُكْم والإتقان والانتظام، وكلُّه متشابه في حسنه وبيانه وحقه، وتصديق بعضه لبعض، وبعضه محكم من جهة التوضيح والتصريح، وبعضه متشابه من جهة الإجمال والإطلاق، يجب ترجيعه ورده إلىٰ المحكم ليتضح الأمر ويزول اللَّبس، فيه الدليل والمدلول، يحتوي علىٰ جميع الأدلة النقلية والعقلية والفطرية قد جمع الله فيه كلَّ خير ونفع للعباد.

تقدم أنَّ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمن كتابه هذا ثلاثة أنواع من علوم القرآن:

أحدها: علم العقائد والتوحيد.

وثانيها: علم الأخلاق والآداب.

وثالثها: علم الأحكام والحلال والحرام.

وابتدأ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه هذا بالعلم الأول وهو: علم العقائد والتوحيد.

ثم ذكر في هذا النوع أقسامًا سلف منها جملة وانتهىٰ العَدُّ إلىٰ هذا القسم من تلك الأقسام المترجم له بقوله: (**ذكر أصول الإيمان الكلية**) ومراده بأصول الإيمان الكلية: أركانه التي عليها مداره، فإن أركان الإيمان الستة هي أصوله الكلِّية التي يدور عليها، فذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت هذه الترجمة: أن الله عَزَّوَجَلَّ (**ذكر الإيمان ذكرا عاما مطلقا كما في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد:٧]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ [الحديد:١٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٦٢] وذكره مقيدا بما يجب الإيمان به**).

فالإيمان يأتي في القرآن علىٰ نوعين:

أحدهما: إيمان عام مطلق.

والثاني: إيمان خاص مقيد.

ثم ذكر أن (**أجمع الآيات المقيّدة هي الآية العظيمة التي فرض الله فيها علىٰ الناس الإيمان بجميع أصوله الكلية وهي قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ الآية**).

(**وأخبر أن الرسول والمؤمنين قاموا بهذه الأصول في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾**).

فهؤلاء الآيات وما في معناها جامعة لأصول الإيمان الكلية التي هي أصوله الستة: الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر. ولم يأت في القرآن ذكر القدر مقرونا بها بل إذا ذُكر القدر ذُكر مفردا إعظاما له، ومبالغة في التنبيه إلىٰ جلالة أثره في الإيمان، وأن من اقترن إيمانه بالقدر كَمُلَ، وأن من فاته الإيمان بالقدر فاتته حقيقة الإيمان؛ بل أصل من أصوله العظيمة. فعلىٰ كل مؤمن أن يلزم هذه الأصول الستة مؤمنا بها.

وقد شرع المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يذكر تفاصيل ذلك فقال: (**فعلىٰ كل مؤمن أن يؤمن بالله**) وذكر جملة مما يدخل في الإيمان بالله فقال: (**ويدخل في الإيمان بالله الإيمان بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ من صفات الكمال ونفي أضدادها**).

ثم ذكر أركان الإيمان بالأسماء والصفات فذكر أن أركان الإيمان بالأسماء والصفات ثلاثة:

فالركن الأول: الإيمان بالاسم الإلهي.

والركن الثاني: الإيمان بالصفة الإلهية التي ضُمِّنها.

والركن الثالث: الإيمان بحكم تلك الصفة.

وحكم الصِّفة يراد به: النسبة التي تكون بين الصفة ومُتعلَّقها تارة، ويراد به: أثرها تارة أخرىٰ.

كما ذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

فكل اسم من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجب علىٰ العبد ان يؤمن به وبالصفة التي تضمنها وبالأثر المُرَتَّب عليها المسمىٰ بحكمها.

فمثلا: من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «العليم»:

فيؤمن المرء بهذا الاسم.

ويؤمن بالصفة التي تضمنها وهي: علم الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويؤمن بحكم الصفة وهي شمول علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجميع الأشياء.

ثم ذكر أن للإيمان بالله درجتين:

فالدرجة الأولىٰ: الإيمان بالله المتعلق بالعلم والاعتقاد.

والدرجة الثانية: الإيمان بالله المتعلق بالحب والإرادة.

والفرق بينهما: أن الدرجة الأولىٰ من التوحيد الخبري العلمي، والدرجة الثانية من التوحيد العملي الإرادي. ففي الدرجة الأولىٰ يؤمن الإنسان بما علمه مما يتعلّق بربه عَزَّوَجَلَّ كأسمائه وصفاته وأفعاله، ويعتقدها ثابتةً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يكون إيمانه بها حبًّا وإرادة بالتأله لله عَزَّوَجَلَّ، والقيام له بما تقتضيه هذه المعارف الإيمانية من عبوديته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ إطلاق الإيمان في كثير من الآيات القرآنية يشمل هذا كله، فإذا أُطلق الإيمان فالمراد به: ما حوىٰ الأصول السِّتّة. وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيات تدلُّ علىٰ ذلك حتىٰ انتهىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ قوله: (**فحيث أطلق اللهُ الإيمان أو أثنىٰ علىٰ المؤمنين مطلقًا دخلت فيه جميع هذه الأمور**) فالإيمان المطلَق هو: المشتمل لأصول الإيمان السِّتّة وما اندرج فيها من الاعتقادات والأقوال والأعمال والأحوال.

ثم قال: (**وقد يَخُصُّ بعضها بالذكر ولكنها متلازمة لا يتم بعضها إلا ببعض**) أي: قد يذكر بعضها كذكر الإيمان بالله وحده، أو الإيمان باليوم الآخر وحده، لكن الإيمان بها جميعًا لازم؛ لأنها مقترنة لا يتم الإيمان إلا بها جميعًا.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ مما يندرج في أصول الإيمان الكلية: الإيمان بالملائكة، فيؤمن الإنسان بهم، وأنهم خلق من خلق الله، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، وأن الله عَزَّوَجَلَّ جعل لهم أعمالا، وقسَّم عليهم وظائف يقومون بها، فيؤمن الإنسان بوجودهم، وبما عُلِم من أعمالهم، وأسمائهم، وصفاتهم الواردة في الكتاب والسُّنّة.

ثم أتبع ذلك بذكر الإيمان بالرسل، فيؤمن العبد بأن الله اختصَّهم بوحيه ورسالته، وجعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالته وأمْرِه وشرعه، فهم واسطة بلاغ، لا واسطة انتفاع، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلهم مبلغين شرعه، ولم يجعلهم وسائط ينتفع الخلق بشفاعتهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيتوسل الخلق إليهم، ويجعلونهم وسائط بينهم وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما جعلهم واسطة للبلاغ بين الخالق والمخلوق، وهم أعلىٰ الخلق علومًا وأخلاقًا، وأكملهم أعمالًا وآدابًا؛ لأن الله اختارهم واصطفاهم وفضلهم واجتباهم، وأكمل هؤلاء الأنبياء حالا، هو نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد جمع الله عَزَّوَجَلَّ له من الكمال ما فرّقه في غيره من الأنبياء، وصِفته

ﷺ وأحواله وما كان عليه دالَّةٌ علىٰ عظيم مبلغه وجلالة شأنه عند ربه ﷻ.

ثم ذكر المصنِّف رحمه الله من دلائل صدق النبي ﷺ أحواله التي كان عليها من كمال، وما جاء به من القرآن العظيم، فإن القرآن العظيم هو أعظم دلائل نبوة النبي ﷺ كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر، وإنَّما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ، وإني أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»، فأبلغ آياته وأجل حججه ﷺ هو القرآن الكريم.

ثم قال المصنِّف بعد ما تقدَّم: (**ولهذا نقول: زمن الإيمان بالله ورسوله: الإيمان بهذا القرآن العظيم، وأنه كلام الله حقيقة، منزَّلٌ غير مخلوق، منه بدأ**) أي: تكلم به ﷻ (**وإليه يعود**) أي: يُرفَع من الصدور والسطور في آخر الزمان، (**تكلم الله به حقًّا وبلغه جبريل لمحمد ﷺ، وبلغه محمد ﷺ لأمته، فنقلته الأمة كلها، قرنًا بعد قرن، ولهذا كان القرآن متواترًا تواترا لا يقاربه شيء من الكلام المنقول**) فهو مستفيضٌ مشهور لا يجهله أحد؛ وهذا من حفظ الله تعالىٰ؛ فإن الله عز وجل أنزله وتكفل بحفظه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] والكتب المتقدِّمة وكَلَ الله حفظها إلىٰ الخلق فأضاعوها، وهذا الكتاب تكفَّل الله عز وجل بحفظه فلا يضيع، كما ذكر ذلك أبومحمد سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ.

ومن تمام الإيمان بالقرآن: التصديق التام بكل خبر أخبر به عن الله وعن المخلوقات وعن أمور الغيب، فأخبار القرآن كلها صدق، ولا يمكن أن يأتي خبر صحيح يناقضها، أو يرد خبر فيه بما يخالف الحس؛ بل كل ما خالف القرآن فإنه باطل بنفسه.

(**ومن تمام الإيمان بالقرآن: الإقبال علىٰ معرفة معانيه، والعمل بكل ما دل عليه، والتصديق بأخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.**)

ثم ذكر المصنِّف أن الله عز وجل وصف (**القرآن بأنه هدىٰ، ورحمة، وشفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات، وأمراض الشبهات، وأنه تِبيان لكل شيء، فما من شيء يحتاجه الناس**) إلا وقد جاء بيانه في القرآن بيانًا تامًّا.

ومن عيون مقيدات التراجم في كتاب «فضل الإسلام» لإمام الدعوة رحمه الله قوله: (باب الاستغناء بالكتاب عما سواه) فالقرآن الكريم كافٍ شافٍ عما سواه، ولا يكفي دونه، ولا يشفي غيره، شيء أبدا.

ثم ذكر أن الله ﷻ أحكمه أحسن الإحكام، فأحكامه جاءت علىٰ أتم الوجوه، وأخباره علىٰ

أصدقها، ومواعظه أنجع المواعظ، فهو مُحْكَمٌ تام من جهة الحِكَم، أي: ما يتضمنه من المعاني والحُكْم، أي: ما يتضمنه من الأحكام والإتقان والانتظام، فهو مُحْكَمٌ من كل وجهٍ، وكلُّه متشابه في حسنه وبيانه وحقه وتصديق بعضه ببعض كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣] أي: يصدِّق بعضه بعضًا.

ثم ذكر أن بعضه يكون مُحْكَما من جهة التَّوضيح والتصريح، وبعضه متشابه من جهة الإجمال والإطلاق. وتلخيص هذه الجملة التي ذكرها المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

أن القرآن يوصف بالإحكام والتشابه من جهتين:

الجهة الأولىٰ: جهة عامة مطلقة، فالإحكام له: الإتقان، والتشابه له: تصديق بعضه بعضا، فهو متقَنٌ يصدق بعضه بعضا.

والجهة الثانية: جهة خاصة مقيدة، فيكون بعضه محكما، وبعضه متشابها.

ولهذه الجهة مرتبتان:

الأولىٰ: الإحكام والتشابه، المتعلق بالخطاب الطلبي؛ بأن يكون بعضه متَّضحًا مفهوم المعنىٰ، وبعضه غير متَّضحٍ، لا يُفْهَم معناه.

المرتبة الثانية: ما متعلَّقه الحكم الخبري.

فالمحْكَم منه: ما عُرِفْت حقيقته.

والمتشابه: ما استأثر الله منه بعلمه؛ ككفيات صفاته، وأحوال يوم القيامة وأهواله.

فالإحكام والتشابه يُرَدُّ إلىٰ هذين المعنيين، وما ذكرناه في خفاء معناه إنَّما يكون بالنسبة لبعض الأمة دون بعض، وليس في القرآن شيء لا تعرف الأمةُ كلُّها معناه؛ بل يكون معناه ظاهرا لقوم منهم، وخافيا علىٰ قوم آخرين.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب وبالله التوفيق.

الإيمان باليوم الآخر

ومن تمام الإيمان بالله ورسله وكتبه: الإيمانُ باليوم الآخر، وهو كلُّ ما جاء بـه الكتـاب والسـنّة ممَّـا يكون بعد الموت من أحوال الموت والبرزخ والقبر، والقيامة والجنة والنار، ومتعلِّقات ذلك كلِّه داخـل بالإيمان باليوم الآخر.

وقد تواترت عن النبي ﷺ الأحاديث المتنوعة في فتنة القبر، وعذابـه ونعيمـه، وأنَّ الميـت تعـاد إليـه

روحه في قبره فيُسأل عن ربه ودينه ونبيّه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول المؤمن: الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، فيفسح له في قبره وينوّر له فيه، ويُنَعَّمُ فيه إلىٰ يوم القيامة، كما وُصِفَ ذلك وفُصِّلَ في السنّة.

وأما الكافر والمنافق فيضله الله عن الصواب لظلمه وكفره، فيضيق عليه قبره، ولا يزال يعذب إلىٰ أن تقوم الساعة.

ومن المذنبين من يعذَّب في القبر مدة بقدر ذنوبه، ثم يرفع عنه العذاب، ومنهم من يرفع عنه العذاب بشفاعةٍ أو دعاءٍ أو صدقة أو نحو ذلك.

ثم إذا تكامل الآدميون وماتوا جميعًا أمر تعالىٰ إسرافيل بالنَّفخ في الصور، فيخرجون من قبورهم إلىٰ موقف يوم القيامة، حفاةً عراةً غرلًا، مهطعين إلىٰ الداع كأنَّهم إلىٰ نصب يوفضون، يوم يحشر المتقون إلىٰ الرحمن وفدًا، ويساق المجرمون إلىٰ جهنَّم وردًا، فيقفون موقفًا عظيمًا لا تتصوَّر العقول عظمه وفظاعته وهوله، ولكن الله يخففه علىٰ المؤمنين.

ويسيل العرق منهم فيكونون علىٰ قدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلىٰ كعبيه، وإلىٰ ركبتيه، وإلىٰ حِقويه، وإلىٰ حَلقه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، وتدنو الشمس منهم فتكون علىٰ قدر ميل منهم، ويصيب الخلق من الهمِّ والكرب ما الله به عليم، فيفزعون إلىٰ من يشفع لهم إلىٰ ربهم ليريحهم من هذا الموقف، ويفصل بينهم، فيأتون آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، وكلُّهم يعتذر ويدفعهم إلىٰ من بعده.

فإذا جاءوا لعيسىٰ ﷺ قال: اذهبوا إلىٰ محمد ﷺ عبدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتون محمدًا ﷺ فيجيب طلبتهم ويلبي دعوتهم، ثم يأتي إلىٰ تحت العرش فيسجد لله سجدة عظيمة، يفتح الله عليه من الثناء والتحميد والتمجيد لله ما لم يفتحه علىٰ أحد من الأولين والآخرين ويقال: «يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تعطَ، واشفع تشفع»، ويبعثه الله ذلك المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون أهل السماء وأهل الأرض.

وينزل الله للفصل بين عباده ومحاسبتهم، وحينئذ تنشر دواوين الأعمال الحاوية لحسنات العباد وسيئاتهم، وكلٌّ يُعطىٰ كتابه، فيكون عنوان أهل السعادة أن يعطوا كتبهم بأيمانهم، فيكون ذلك أول البشرىٰ بما تحتوي عليه كتبهم من الخيرات، ويعطىٰ أهل الشقاء كتبهم بشمائلهم، ومن وراء ظهورهم بشارة لهم بالشَّقاوة، وفضيحة لهم بين الخلائق.

فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسَّيئة فلا يجزىٰ إلا مثلها، ويحاسب الكفار محاسبة توبيخ وفضيحة بين الخلائق، ثم يؤمر بهم إلىٰ النار، ويحاسب الله بعض المؤمنين حسابًا يسيرًا يضع الله عليه كنفه ويقرِّره بذنوبه، فإذا ظن أنَّه هالك قال الله له: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فلا يطلع عليها أحد من الخلق، ويعطىٰ كتابه بيمينه، وتوضع الموازين التي توزن بها الأعمال الصالحة والسَّيِّئة، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون].

وينقسم الناس ثلاثة أقسام:

قسم مستحقون للثواب المحض، سالمون من العقاب، وهم السابقون وأصحاب اليمين، الذين أدوا الواجبات، وتركوا المحرمات، وتابوا مما جنوه من المخالفات.

وقسم مستحقون للعقاب المحض، والمخلدون في نار جهنم، وهم جميع من لم يؤمن بالرسل الإيمان الصَّحيح، من مشرك ومستكبر، وجاحد ومنافق، ويهودي ونصراني ومجوسي، وجميع من حكمت عليه النُّصوص الصحيحة بالخروج من الإسلام.

وقسم ثالث ظالمون لأنفسهم مخلِّطون، فهؤلاء من رجحت حسناته علىٰ سيئاته دخل الجنة ولم يدخل النار، وَمَنْ استوت حسناته وسيئاته فهم أهل الأعراف، وهو موضع عالٍ مشرف علىٰ الجنة والنار، يقيمون فيه ما شاء الله تعالىٰ، ثم يتداركهم المولىٰ برحمته فيُدخلهم الجنة.

ومَنْ رجَحت سيئاته علىٰ حسناته، فلا بد من دخوله النار بقدر ذنوبه، ثم بعد ذلك يدخل الجنة إلا أن تحصل له شفاعة، فإنَّ الشفاعة لأهل الذنوب والمعاصي ثابتة، يشفع محمد ﷺ، ويشفع الأنبياء، ويشفع خواص المؤمنين فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها وأعماله تقتضي الزيادة علىٰ تلك المدة أن يخرج منها، ويخرج الله من النار أقوامًا برحمته.

وينصب الصراط علىٰ متن جهنم، يمر الناس عليه علىٰ قدر أعمالهم، فمن مرّ عليه فهو من الناجين، ولا يدع الله في النار أحدًا في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال حبة خردل من إيمان، ويبقىٰ فيها أهلها الذين هم أهلها خالدين أبدًا، لا يفتر عنهم عذابها.

وقد وصف الله تعالىٰ عذاب النار وصفة أهلها بأفظع الأوصاف، وأنَّ الله يجمع لهم بين أصناف العقاب، يعذِّبهم بالنار المحرقة التي تطّلع علىٰ الأفئدة، وكلّما احترقت جلودهم بُدّلوا جلودًا غيرها، ليعاد عليهم العذاب ويذوقوا شدته، وبالجوع المفرط والعطش المفرط؛ فالجوع والعطش، من أعظم

العذاب والآلام، وما يغاثون به إذا طلبوا الشراب والطعام عذابٌ أشد وأفظع، فإنَّهم إذا استغاثوا للشراب أغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، فلا يدعهم العطش الشديد حتىٰ يتناولوه، فيقطع منهم الأمعاء، ويستغيثون للطعام فيؤتون بالزقوم الذي حرارته أعظم من حرارة الرصاص المذاب، وهي في غاية المرارة وقبح الريح، فيغلي في بطونهم كغلي الحميم، ويسلسل المجرمون بسلاسل من نار، وتغل أيديهم إلىٰ أعناقهم ويسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون.

ويتردَّدون في عذابهم بين لهب النار وحرارتها التي لا يمكن وصفها، وبين برد الزمهرير البارد الذي يكسر العظام من قوة برده، ويجمع لهم بين ألوان العذاب، وبين عذاب الحجاب عن ربهم، وبين اليأس من رحمته، وآخر أمرهم العذابُ المؤبد والشقاء السرمدي.

وأما الجنة وما أعد الله فيها لأهلها من النعيم، وما عليه أهلها من السرور القلبي والروحي والبدني، فقد ذكر الله أوصاف الجنة مبسوطًا مفصَّلًا في كثير من الآيات، وأطلقه معمَّمًا شاملًا في آيات، مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان]، ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر]، إلىٰ غير ذلك من الآيات العامة الشاملة لنعيم الأبدان، وسرور الأرواح، وأفراح القلوب، وشهوات النفوس، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

ووصف نعيمها مفصَّلًا، فتقدَّم ذكر رؤية الباري الذي هو أعلىٰ نعيم يحصل لأهل الجنة، والتمتع بلقائه ورضوانه، وسماع كلامه وخطابه.

وأخبر تعالىٰ أنَّ جميع أصناف الفواكه الموجودة في الدنيا موجودٌ في الجنة ما يشبهها في الاسم فقط، لا في الحسن واللذة وطيب الطعم والتنعم بتناوله، وفيها أشياء ليس لها في الدنيا نظير، ولهذا قال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة] وذللت قطوفها أي ثمارها تذليلًا، كقوله: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن] يتناوله القائم والقاعد والماشي علىٰ أيِّ حال.

وأنَّ أنهارها تجري من تحتهم أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفّىٰ، ولهم فيها من كلِّ الثَّمرات.

ووصف فرشهم بأنَّ بطائنها من إستبرق وهو أعلىٰ أنواع الحرير، فكيف بالظهائر، وأنَّ لباسهم فيها الحرير، وحليّهم الذهب والفضة واللؤلؤ وأنواع الجواهر الفاخرة، وذلك شاملٌ لذكورهم وإناثهم، وأنَّ أزواجهم الحور العين خيّرات الأخلاق، حِسَان الأوجه، جمع الله لهنَّ بين الحسن والجمال الباطن والظاهر، كأنَّهنَّ الياقوت والمرجان من حسنهنَّ وصفائهنَّ، وأنَّهنَّ عُرُب متحببات إلىٰ أزواجهنَّ بحسن التبعُّل، ولطف الآداب، وحسن الحركات والألفاظ الرقيقة والحواشي المليحة.

وأنَّهنَّ أبكارٌ أترابٌ في غاية سن الشباب وقوّته، وفي كمال الصفاء بينهنَّ وعدم التباغض؛ بل نزع الغل من صدور جميع أهل الجنة، إخوانًا علىٰ سرر متقابلين، وأنَّهنَّ مطهّراتٌ من جميع الآفات، مطهراتٌ من الأدناس الحسية والأدناس المعنويّة، كاملاتٌ مكملاتٌ، وأنَّهنَّ قاصرات طرفهن علىٰ أزواجهنَّ من حسن أزواجهنَّ وعفتهنَّ، قاصراتٌ طرف أزواجهنَّ عليهنَّ من جمالهنَّ الفائق الذي لا يبغي بعلها بها بدلًا، ولا يقول لو أنَّ هذا الوصف أكمل من هذا، لأنَّه يرىٰ ما يحير لبّه، ويذهل عقله من الحسن الباهر، والبهاء التام.

وأنَّهم في الجنة متعاشرون مع أحبابهم وأصحابهم، يتزاورون ويتطارحون الكلام الطيب، والأحاديث الشائقة، ويتذاكرون نعم الله وآلاءه عليهم، سابقًا ولاحقًا، ويسبِّحون الله بكرة وعشيًّا، وأنَّ الله نزّههم من البول والأدناس، وكلِّ ما لا تشتهيه النفوس؛ بل طعامهم وشرابهم يخرج عرقًا أطيب من المسك الأَذْفَر، وأنَّ الله جمع بينهم وبين من صلح من آبائهم وأمهاتهم وأولادهم وزوجاتهم ليتم نعيمهم، ويكمل سرورهم.

وهذه الآية تجمع كلَّ نعيم تتعلق به الأماني، وتطلبه النفوس وهي قوله تعالىٰ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الرحمن] وهي جمع فن، لا جمع فنن، أي: كلُّ نوع وجنس من النعيم والسرور موجود فيهما، حاصل علىٰ أكمل الوجوه وأتمها، وتمام ذلك الخلود الدائم، والنعيم المستمر، والأفراح المتواصلة التي تزداد علىٰ الدوام. فجميع ما ورد به الكتاب والسنّة من أحوال الدارين وتفاصيل ذلك كلّه داخلٌ في الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر علىٰ درجتين:

أحدهما: التصديق الجازم الذي لا ريب فيه بوجود ذلك علىٰ حقيقته. فهذا لا بد فيه من الإيمان.

والدرجة الثانية: التَّصديق الراسخ المثمر للعمل، فإنَّ من علم ما أعد الله للطائعين من الثواب، وما

للعاصين من العقاب علمًا واصلًا إلىٰ القلب، فلا بد أن يثمر له هذا الإيمان الجد في الأعمال الموصلة إلىٰ الثواب، والحذر من الأعمال الموجبة للعقاب.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ قسما آخر من الأقسام المندرجة في النوع الأول من أنواع علوم القرآن وهو العقائد والتوحيد، وذلكم القسم يتعلق بالإيمان باليوم الآخر، وحدَّ رَحِمَهُ اللَّهُ اليوم الآخر بقوله: (**كل ما جاء به الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت، من أحوال الموت والبرزخ... إلخ**) فاسم اليوم الآخر مختص بما يكون بعد الموت، وهذا معنىٰ قول أبي العباس ابن تيمية الحفيد في «العقيدة الواسطية» : «الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت» واستحسن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ في «التنبيهات اللطيفة» هذا الحدَّ، وهو لا يختص بما في السنة كما هو ظاهر عبارة أبي العباس ابن تيمية الحفيد، بل كل ما جاء في الكتاب والسنة مما يندرج في هذه الحقيقة، وقد أحسن المصنِّف إذ عدل عن ذلك فقال: (**وهو كل ما جاء به الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت**) فاليوم الآخر اسم لجميع ما يكون بعد الموت مما جاء نعته في القرآن أو في سنة النبي ﷺ.

واختلف المتكلمون في هذه المسألة عن سبب تسمية ذلك اليوم بـ«اليوم الآخر»؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يذكر مقابله وهو (اليوم الأول) في شيء من كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأحسن الأقوال المنقولة فيه ما ذكره ابن عطية في تفسيره أنه سُمِّيَ (اليوم الآخر) لأنه لا ليل بعده، فإنه لا يقال: (يوم) إلا لما تقدمه ليل، فلما كان ذلك اليوم لا ليل بعده اختص بكونه اليوم الآخر.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ شيئا من تفاصيل ما يكون بعد الموت فأشار إلىٰ تواتر الأحاديث عن النبي ﷺ وتكاثرها في فتنة القبر، أي: سؤال الملكين العبدَ: من ربك؟ وما دينك؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فإن هذه السؤالات هي فتنة القبر، ويترتب علىٰ هذه الفتنة العذاب في القبر أو النعيم، فعذاب القبر: ما يجري علىٰ العبد فيه من عقاب.

ونعيمه: ما يجري عليه فيه من ثواب حسن.

ثم ذكر (**أن الميت تعاد إليه روحه في قبره فيسأل هذه الأسئلة عن ربه ودينه ونبيه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فيقول المؤمن: الله ربي ومحمد نبيي والإسلام ديني، فيفسح له في قبره**) أي: يوسع له في قبره، (**وينور له فيه**) ويأتيه من أنواع النعيم ما جاء في الكتاب والسنة.

(**وأما الكافر والمنافق فيضله الله عن الصواب في الجواب لظلمه وكفره**)، فلا يجيب عما يُسأل عنه،

فيعاقب بتضييق قبره عليه، ولا يزال يُعذَّب إلىٰ أن تقوم الساعة.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أن من المذنبين من يعذب في القبر مدة بقدر ذنوبه، ثم يُرْفَع عنه العذاب، ومنهم من يُرْفَع عنه العذاب ابتداء بشفاعة أو دعاء أو صدقة أو نحو ذلك.

ومقصوده: المذنبون من الموحدين، فالمذنبون من الموحدين ربما عُذِّب أحدهم بقدر ذنوبه في قبره ثم انقطع العذاب ونقل إلىٰ النعيم، أو رُفع عنه العذاب ابتداء بشفاعة أو دعاء أو صدقة أو غير ذلك.

ثم ذكر أنه (**إذا تكامل الآدميون وماتوا جميعا؛ أمر الله تعالىٰ إسرافيل**) وهو الملك الْمُوكَل بالنفخ في الصور، فنفخ فيه فأخرج الله عَزَّوَجَلَّ الخلق من قبورهم إلىٰ موقف يوم القيامة، حفاة لا نعال لهم، عراة لا ثياب عليهم، غرلا أي: غير مختونين، مهطعين إلىٰ الداع، أي: مسرعين إلىٰ الداع كأنهم إلىٰ نُصُب يوفضون، أي: كأنهم يسرعون إلىٰ الأعلام التي عرفوها من الحجارة التي كانت تعظمها العرب، فإن النُّصب عند العرب: اسم للأحجار التي كانت تعظمها العرب إما بالطواف عليها، أو بذبح النسائك والقُرب التي تذبح لأصنامهم عندها، ويحشر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المتقين إلىٰ الرحمن وفدا، ويساق المجرمون إلىٰ جهنم وردا، **والوفد: اسم لما يُعظَّم. والورد: اسم لما يُذل**؛ فلما كان المتقون أحق بالتعظيم جُعل لهم اسم الوفد، فإن الوفد يأتي بالخير ويتلقىٰ بالتعظيم، ولما كان المجرمون مخالفين لأمر الله عَزَّوَجَلَّ استحقوا اسم الورد المقتضي لذلهم ومهانتهم.

ثم يقف الخلق موقفا عظيما، ويسيل العرق منهم، إذ تدنو الشمس منهم حتىٰ تكون علىٰ قدر ميل، والميل المراد به: مِيل المسافة؛ فإنَّه هو المعهود في الخطاب الشرعي وفي عُرْف الصحابة، وأمَّا ميل الْمُكْحلة فهو ليس مرادًا في عُرْفهم، فتدنو الشمس مسافة ميلٍ من الخلق فيعلوهم العرق، ويلحقهم العرق علىٰ حسب أحوالهم: فمنهم من يأخذه إلىٰ كعبيه، ومنهم من يأخذه إلىٰ رُكبتيه، ومنهم من يأخذهم إلىٰ حَقْوَيْه، والحَقْو: أعلىٰ العظم الذي يكون أعلىٰ الفخِذ، أي: في وسط البطن، ومنهم من يكون إلىٰ حلْقه، ومنهم من يُلْجمه العرق إلجامًا.

ثم يفزع الناس إلىٰ من يشفع لهم من الأنبياء، فيفزعون إلىٰ آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، وكلُّهم يعتذر ويدفعهم إلىٰ من بعده، حتىٰ ينتهي ذلك إلىٰ النبيِّ ﷺ فيقوم ﷺ مجيبًا طِلْبَتهم ملبيا دعوتهم، فيسجد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند عرشه، ويفتح الله عَزَّوَجَلَّ عليه من أنواع المحامد والثناء علىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ ثم يقال له: يا محمد؛ ارفع رأسك وقل يُسمَع، وسل تُعْطَ، واشفع تُشَفَّع، ويبعثه الله المقام المحمود، وهو مقام الشفاعة الذي يحمده عليه الخلق جميعا.

وينزل الله عَزَّوَجَلَّ للفصل بين العباد ومحاسبتهم، وتنشر دواوين الأعمال، أي: كتب الأعمال الحاوية للحسنات والسيئات، وكل يعطىٰ كتابه، والناس حينئذ نوعان:

الأول: أهل السعادة من أهل الجنة، وهم آخذون كتبهم بأيمانهم.

والثاني: أهل الشقاوة، وهم أهل النار، فهؤلاء آخذون كتبهم بشمائلهم.

وليس بعد النوعين شيء علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم. وعصاة الموحدين يأخذون كتبهم بأيمانهم؛ لأنهم مندرجون في اسم أهل السعادة.

ثم بعد ذلك يحاسِب الله عَزَّوَجَلَّ الخلق، وتكون محاسبته للكفار محاسبة توبيخ وفضيحة بين الخلائق، وليست محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، في أصح أقوال أهل العلم؛ بل يقرِّرهم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ذنوبهم ويوبخهم عليها، ويفضحهم بها، ثم يؤمر بهم إلىٰ النار؛ لأنه لا حسنات لهم، وإنَّما جُوزُوا بحسناتهم في الدُّنيا، ثم يحاسب الله بعض المؤمنين حسابا يسيرًا، ويستر عليهم، ويعفو عَزَّوَجَلَّ عنهم ويغفر لهم كما ستر عليهم وعفا عنهم في الدنيا، ثم توضع الموازين، والموازين تُجمَع بالنظر إلىٰ تعدد ما يوزن فيها، وأما باعتبار الأمر نفسه فإن الميزان واحد في أصح أقوال أهل العلم؛ لكن لما تعدَّدت الموزونات من الأعمال فإن ذِكرها جاء في مواضع من القرآن علىٰ وجه الجمع.

ثم ذكر بعد ذلك أنَّ الناس ينقسمون بعد حسابهم إلىٰ ثلاثة أقسام:

فالقسم الأول: قسم مستحقون للثواب المحض، وهم السابقون، وأصحاب اليمين.

والثاني: قسم مستحقون للعذاب المحض، والمخلدون في نار جهنم من الكفرة والمشركين.

والقسم الثالث: ظالمون لأنفسهم مخلطون.

وهذا القسم الثالث ثلاثة أقسام أيضا:

أحدها: من رجحت حسناته علىٰ سيئاته، فهذا يدخل الجنة.

وثانيها: من استوت حسناته وسيئاته، فهؤلاء هم أهل الأعراف؛ والأعراف: موضع عال مشرف علىٰ الجنة والنار، ويقيم فيه أهله ما شاء الله تعالىٰ، ثم يتداركهم برحمته ويدخلهم جنته.

وثالثها: من رجحت سيئاته علىٰ حسناته، فهذا يدخل النار بقدر ذنوبه ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين.

ثم ذكر أن الصراط ينصب علىٰ متن جهنم، أي: علىٰ ظهرها، فالصراط: اسم للجسر الذي يعبر عليه الناس. ولا يعبر علىٰ هذا الجسر إلا أهل الإيمان، والمنافقون والكافرون قد أخذوا قبل ذلك، فالذي

يمر عليه هم: المؤمنون فقط في أصح أقوال أهل العلم؛ فمنهم من يجوزه، ومنهم من تأخذه كلاليب جهنم فيسقط فيها من الموحدين فيعذب ثم يخرج منها.

ثم ذكر المصنِّف بعد ذلك عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة؛ فذكر أن الله ﷻ ذكر عذاب أهل النار، وصفة أهلها بأفظع الأوصاف، وأن الله يجمع لهم بين أصناف العقاب، فيعذبهم بالنار المُحرقة التي تطلع علىٰ الأفئدة، أي: التي تصل علىٰ القلوب، وإنَّما ذكر هذا في عذابهم؛ لأن القلب أرق شيء في الإنسان، فأشد العذاب ما وافق لطيفا؛ فلما كان القلب لطيفا ووقع عليه العذاب؛ كان ذلك العذاب أشد العذاب، فذكر الله عَزَّ وَجَلَّ هذا من عذابهم، ومن عذابهم كلما احترقت جلودهم بدلهم جلودا غيرها.

وعذبهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالجوع المفرط، والعطش المفرط، فهم يجوعون جوعا شديدا، ويعطشون عطشا شديدا، وإذا استغاثوا الشراب أغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، أي: كعكر الزيت المتقطع الذي يكون في آخره إذا غُلِيَ، فهذا هو المُهل، فإن الزيت إذا غُلِيَ وبقي آخره متقطعا سُمِّيَ "المهل" عند العرب، وإذا استغاثوا الطعام، أوتوا بالزقوم الذي حرارته أعظم من حرارة الرصاص المذاب.

ثم ذكر أنهم يترددون في عذابهم بين لهب النار وحرارتها، وبين برد الزمهرير البارد الذي يكسِّر العظام من قوة برده، فهم بين حرارة شديدة أو برد شديد.

ثم ذكر ما أعد الله عَزَّ وَجَلَّ لأهل الجنة من النعيم، فذكر أن الله عَزَّ وَجَلَّ بسط أوصاف أهل الجنة وما يكون لهم من النعيم في آيات عدة منها قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧] إلىٰ آخر الآيات.

ومن لطائف الاستنباطات في التفسير أن الله ﷻ لما ذكر تلذذ العيون في نعيم أهل الجنة ذكره علىٰ زنة جمع القلة، وهو (أعين) وعلة ذلك كما أشار إليه الخليفة المنصور السعدي من ملوك المغرب فيما نقله عنه المقَّري في «زهر الآس» أن الذين يدخلون الجنة قليل من كثير، فأهل الجنة قليل من الخلق، فناسبهم ذكر جمع القلة عند ذكر نعيمهم، وهذا من بدائع الاستنباطات.

ثم ذكر أن الله ﷻ أخبر أن جميع أصناف الفواكه الموجودة في الدنيا موجودة في الجنة ما يشبهها في الاسم فقط كما صح عن ابن عباس فيما رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، وغيره بسند صحيح عنه أنه قال: "ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء" فكل ما ذُكر من نعيم الجنة وفاكهتها مما يعرفه الناس في

الدنيا، لا يوافقه إلا في الاسم، أما الحس واللذة والطعم، فإن للجنة ما يختص بها.

ثم ذكر أنهار الجنة التي تجري من تحت غرفها، وأنها أنواعٌ من ماء، ومن لبن، ومن خمر، ومن عسل مصفىٰ.

ثم ذكر أنَّ الله وصف فُرُشهم بأن بطائنها أي: دواخلها، من إستبرق، وهو أعلىٰ أنواع الحرير، وإذا كان ذلك وصف البطائن، فكيف بالظهائر التي تكون في الظاهر؟! لأن الأصل أن العناية بالظاهر، أعظم من العناية بالباطن، فيكون ما في الظاهر أعظم ممَّا في الباطن.

وذكر من نعيمهم أن لباسهم فيها الحرير، وحليهم الذهب والفضة... إلخ ما ذكر من نعيمهم.

ثم ذكر مما يتنعمون به ما يكتبه الله عَزَّوَجَلَّ لهم من زوجات أبكار أتراب في غاية سن الشباب وقوته... إلخ ما ذكر من أوصافهم، وأن أهل الجنة متعاشرون مع أحبابهم وأصحابهم يتزاورون، ويتطارحون الكلام الطيب، فهم في نعيم تام.

ثم ذكر قول الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾﴾ [الرحمن] وأنها تجمع كل نعيم؛ لأن "الأفنان" جمع "فن" بمعنىٰ: لون، كما صح تفسيرها عن ابن عباس عند ابن جرير وغيره، فمعنىٰ الآية: ذواتا ألوان، ففيها ألوان وأنواع من النعيم.

ثم ذكر أن الإيمان باليوم الآخر علىٰ درجتين:

إحداهما: التصديق القلبي.

والثانية: التصديق العملي.

فالتصديق القلبي هو: أن يصدق القلب تصديقا جازما بوجود اليوم الآخر.

وأما التصديق العملي فهو: أن يثمر ذلك التصديق القلبي عملا في الظاهر.

وهذا آخر البيان لهذه الجملة من الكتاب وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين.

ومن أصول أهل السنّة والجماعة أنَّ الدِّين والإيمان اسم يجمع اعتقادات القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح، وأنَّه يزيد وينقص ويتفاضل أهل الإيمان فيه تفاضلًا عظيمًا، وجعلهم الله في كتابه ثلاث طبقات:

سابقين إلىٰ الخيرات، وهم الذين أدّوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات.

وأصحاب اليمين اقتصروا علىٰ أداء الفرائض، واجتناب المحارم.

وظالمين لأنفسهم خلطوا عملًا صالحًا، وآخر سيئًا، عسىٰ الله أن يتوب عليهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح:٤]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾ [مريم:٧٦]. والهدىٰ هو علوم الإيمان وأعماله، والنصوص علىٰ هذا الأصل من الكتاب والسنّة كثيرة جدًّا.

وهو معلومٌ بالحس والوجدان؛ فإنَّ المؤمنين يتفاضلون في علوم الإيمان، قلة وكثرة، وقوة يقين وضعفه، ويتفاضلون في أعمال القلوب التي هي روح الإيمان وقلبه، مثل محبة الله وخوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والإخبات والخضوع والتعظيم. هذا أمرٌ لا يمتري فيه من له أدنىٰ عقل.

ويتفاضلون في أعمال الجوارح كالصَّلاة والزكاة والصيام والحج فرض ذلك ونفله، والقيام بحقوق الله وحقوق عباده من البر والصِّلة للأقارب والجيران والأصحاب والإحسان إلىٰ الخلق تفاوتًا عظيمًا.

فمن زعم أنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد قال ما خالف النقل والعقل والحس والواقع، حتىٰ ولو فسَّره بمجرَّد التَّصديق، فإنَّه يتفاوت تفاوتًا ظاهرًا لكلِّ أحد.

ويتفرَّع علىٰ هذا الأصل أنَّ العاصي وصاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بالكلّية، ولا يعطىٰ الاسم الكامل المطلق، فهو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسقٌ ناقص الإيمان بما تركه من واجبات الإيمان، ما معه من الإيمان الذي لا يخالطه كفر يمنعه من الخلود في النار.

وأما الإيمان المطلق الكامل، فإنَّه يمنع دخول النار بالكلية، وقد ذكرنا في القواعد أنَّ أسماء المدح والثناء علىٰ المؤمنين، وترتيب الثواب المطلق عليه ونفي العقاب إنَّما هو الإيمان الكامل، وأنَّ خطاب الله للمؤمنين بالأمر والنهي والتشريع يعمُّ كاملَ الإيمان وناقصَه.

ويتفرع أيضًا علىٰ هذا الأصل أنَّ العبد قد يجتمع فيه خير وشر، وإيمان وخصال كفر، أو نفاق، وأنَّه يستحق المدح علىٰ ما فيه من خصال الخير، والذم علىٰ ما فيه من خصال الشر.

ومن أصول أهل السنّة والجماعة: الإيمان بقضاء الله وقدره، وهو داخل في الإيمان به وبكتبه وبرسله، فيعلمون أنَّ الله قد أحاط بكلِّ شيء علمًا، وأنَّه كتب في اللوح المحفوظ جميع الحوادث، صغيرها وكبيرها، سابقها ولاحقها، ثم قدّرها وأجراها بمواقيتها بحكمته وقدرته وعنايته وتمام علمه، وأنَّه كما

أنَّ جميع الحوادث مرتبطة بحكمته وعلمه فإنَّها مرتبطة بقدرته، وأنَّه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ أعمال العباد كلَّها خيرها وشرها داخلة في قضائه وقدرته، مع وقوعها طبق إرادتهم وقدرتهم، ولم يجبرهم عليها، فإنَّه خلق لهم جميع القوىٰ الظاهرة والباطنة، ومنها القدرة والإرادة التي بها يختارون وبها يفعلون.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ يفيض في ذكر الأقسام المندرجة في النوع الأول من أنواع علوم القرآن وهو علم التوحيد والاعتقاد، ذكر من تلك الأقسام ما أطبقت عليه كلمة أهل السنة والجماعة وصار أصلا من أصول دينهم، وهو: أن الدين والإيمان اسم يجمع اعتقادات القلوب وأعمالها، وأعمال الجوارح، فالإيمان: اسم لاعتقاد الجنان، وقول اللسان، وعمل الجوارح والأركان.

وهذا معنىٰ قولهم رحمهم الله: "الإيمان قول وعمل" أي: قول القلب وعمله، وقول اللسان وعمله، وعمل الجوارح.

وقول القلب هو: إقراره. وعمله هو: حركاته وإراداته.

فمن قول القلب: اعتقاده أن الله واحد لا شريك له.

ومن عمله: حركته وإرادته الأمر حبا لله، وتوكلا عليه، أو خوفا فيه، فإن كل عبادة من هذه العبادات القلبية لها معنىٰ يتحرك فيه القلب.

وقول اللسان هو: الشهادتان.

وعمله هو: كل عبادة يتقرب بها إلىٰ الله تَعَالَىٰ به كذكر الله عَزَّوَجَلَّ وتسبيحه وتهليله ودعائه وغير ذلك.

وأعمال الجوارح هو: ما يصدر عنها من الحركات الاختيارية في امتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّوالكف عما نهاه. فالإيمان كله يرجع إلىٰ القول والعمل.

وهذا معنىٰ قولنا في بيان حده شرعا: إنه التصديق الجازم بالله تعبدا له بالشرع المنزل علىٰ محمد ﷺ علىٰ مقام المشاهدة أو المراقبة.

فإن هذا الحد يشمل هذه المعاني المنطوية في قول أهل العلم: "الإيمان قول وعمل".

ثم ذكر أن الإيمان يزيد وينقص، ويتفاضل أهله فيه تفاضلا عظيما، فتختلف درجاتهم فإن اللهگ جعلهم في كتابه ثلاث طبقات:

أولاها: السابقون للخيرات.

وثانيها: أصحاب اليمين.

وثالثها: الظالمون لأنفسهم.

كما قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر] وهذه الآية مختصة بهذه الأمة كما بينه أبو العباس ابن تيمية في كتاب «الفرقان» وهي شاهد لأصح قولي أهل العلم: إن الظالم لنفسه من عباد الله ﷻ، كما اختاره أبو العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

فالأمة منقسمة علىٰ هذه الأطباق الثلاثة.

وأكثر المتكلمين في بيانها كأبي العباس ابن تيمية الحفيد، وتلميذه ابن القيم، والمصنِّف في عدة كتب له؛ جعلوا تمييز هذه الطبقات بردِّها إلىٰ عمل العبد الذي يؤديه، فجعلوا السابق للخيرات: من أدَّىٰ الواجبات والمستحبات، وترك المحرَّمات والمكروهات وفضول المباحات، وجعلوا أصحاب اليمين هم: المقتصرون علىٰ أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وجعلوا الظالمين لأنفسهم: الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

والأشبه -والله أعلم- أن الذي ينضبط به تمييز هذه الطبقات هو: ردُّها إلىٰ ما أمروا بالدخول فيه؛ فإن الله ﷻ أمر الخلق بأن يدخلوا في دينه وأن يمتثلوا أمرَه، فهم يختلفون بحسب مقاديرهم من التزامهم بهذا الدِّين.

فيكون السَّابقون إلىٰ الخيرات هم: الذين أدَّوْا ما التزموا به من الدِّين وزادوا عليه.

ويكون أصحاب اليمين هم: الذين أدَّوْا ما التزموا به من الدِّين دون زيادة.

ويكون الظالمون لأنفسهم هم: الذين تركوا بعض ما التزموا به من الدِّين، إما بعدم فعله، أو بالوقوع في مخالفته.

وتقدَّم بيان هذه المسألة في التقريرات علىٰ «أهم المهمات» للمصنف رحمه الله.

ثم ذكر المصنِّف رحمه الله من الدلائل التي تدلُّ علىٰ زيادة الإيمان قول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم:٧٦] ودلائل ذلك في الكتاب والسنة كثيرة متظاهرة، فالإيمان يزيد وينقص، ولفظ الزيادة واردٌ في كثير من النصوص، وأما لفظ النَّقص فقد خلت منه أكثر الأدلة، حتىٰ

توقَّف فيه بعض الأجلة، ومنهم: الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه كان يقول: «الإيمان يزيد» ولا يقول ينقص، ويقول: «أهله فيه يتفاضلون» فهو موافقٌ جمهور أهل السنة في الحقيقة، وإنَّما وقع الخُلْف بينهم في اللفظ.

واستدل الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من القدامىٰ، وتبعه حافظُ الحكمي في «معارج القبول» بدليلٍ يدلُّ علىٰ ورود لفظ النَّقص وهو ما ثبت في الصَّحيح أن النبي ﷺ قال: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**» ثم فسر نقصها بمُكْثها شطر دهرها لا تصلي أي: إذا وردت علىٰ المرأة عادتها، فإذا كان هذا النَّقص يلحق بسبب الاضطرار، فوقوعه بسبب الاختيار أشد، فإن المرأة الحائض لا خيار لها في عادتها، وأما العاصي فإنه يفعل ذنوبه باختياره فلابد أن يلحقه النَّقص في دينه.

ثم ذكر أن هذا معلوم بالحس والوجدان، فإنَّ المؤمنين يتفاضلون في علوم الإيمان قلة وكثرة، ويتفاضلون في أعماله، فتفاضُلهم في حقائق الإيمان القلبية وفي أعمال الإيمان في القلب وفي الجوارح، دالٌّ علىٰ تفاوتهم فيه، فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ فقد خالف النقل والعقل والحس والواقع، حتىٰ ولو فسره بمجرد التصديق، كما يقوله من يقوله من المرجئة، فإنه يتفاوت تفاوتًا ظاهرًا لكل أحد، فالتصديق في نفسه يتفاوت أهله فيه.

ثم ذكر أن من المتفرِّع عن هذا الأصل أن العاصي وصاحب الكبيرة، أي: الواقع في فعل الكبيرة.

والكبيرة شرعًا هي: ما نهي عنه علىٰ وجه التعظيم. كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء:٣١]، وطرائق التعظيم مختلفة كما سبق بيانه في غير هذا المجلس.

فمن وقعت منه كبيرة فإنه لا يخرج عن الإيمان بالكلية، ولا يُعطىٰ الاسم الكامل المطلق، أي: لا يكون مؤمنا كامل الإيمان، ولا يُسْلَب كذلك اسم الإيمان فينفىٰ من أهله؛ بل هو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من الفسق فينقص إيمانه بقدر ما لحقه من نقص دينه، وما معه من الإيمان الذي لا يخالطه كفر يمنعه من الخلود في النار، وأما الإيمان المطلق الكامل فإنه يمنع دخول النار بالكلية.

وقد بيَّن المصنِّف في «القواعد الحسان» أن أسماء المدح والثناء علىٰ المؤمنين وترتيب الثواب المطلق عليها ونفي العقاب؛ إنَّما هو متعلِّق بالإيمان الكامل المطلق، فالإيمان الكامل المطلق هو الذي يتعلَّق به المدح والثواب ويمتنع دخول صاحبه النار، وأما مطلق الإيمان فلا يكون كذلك، فقد يُعدُّ العبد في المؤمنين وهو من أصحاب الكبائر.

ثم قال: (وأن خطاب الله للمؤمنين بالأمر والنهي والتشريع يعم كامل الإيمان وناقصه) فالآيات القرآنية المبتدأة بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لا يراد بها مخاطبة كُمَّل الإيمان المتحقِّقين به، وإنَّما يراد بها كل من اتَّصف به، قل قدره أو كثر من إيمانه، كان كامل الإيمان أو ناقصه.

ومن أسرار الخطاب القرآني في النداء أن اللهعَزَّوَجَلَّ لم يخاطب عباده بقوله تعالىٰ: "يأيها المسلمون" وإنَّما جاء القرآن مملوءا بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لأن اسم الإيمان موضوع لكمال الحال، وإن وُجد النقص في بعض أفراده، والإسلام موضوع لنقص الحال، وإن وُجد الكمال في بعض أفراده، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات:١٤] فالإسلام أنقص درجة من الإيمان، فلنقصانه -كما ذكر الله في آية «الحجرات»- ذكر الله نداءه عبادَه المؤمنين بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ترقية لحالهم، وتكميلا لمقامهم، ولم يذكرهم بقوله : «يا أيها المسلمون» في آياته.

ويتفرع أيضا عن هذا الأصل أن العبد قد يجتمع فيه خير وشر، وإيمان وخصال كفر أو نفاق، وأنه يستحق المدح علىٰ ما فيه خصال الخير، والذم علىٰ ما فيه من خصال الشر.

وهذه من خصائص أهل السنة والجماعة التي فارقوا بها الخوارج القائلين: إن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. فإن الخوارج يوافقون أهل السنة في حقيقة الإيمان وما يترتب عليه من الزيادة والنقص، ولكنهم يفارقون أهل السنة فيما يقع به النقض، فإن أهل السنة يقولون: إن فاعل الكبيرة لا يلحقه نقض، بل يلحقه نقصٌ، وهم [أي: الخوارج] يخصون النقص بفعل الصغائر، فوقع بينهم وبين أهل السنة والجماعة المفارقة من هذه الجهة.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قسمًا آخر من الأقسام المتعلِّقة بالنوع الأول من الاعتقاد والتوحيد وهو أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بقضاء الله وقدره.

وهو كما تقدَّم: **علم الله بالكائنات وكتابته لها ومشيئته وخلقه إياها.**

فإن هذه هي حقيقة القدر شرعا، وهو داخل في الإيمان بالله وبكتبه وبرسله، فيعلمون أن الله قد أحاط بكل شيء علما، فلا يفوت علمه شيء ولا يعزب عنه شيء، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع الحوادث صغيرها وكبيرها كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٣٨] أي: في اللوح المحفوظ. ثم قدرها وأجراها بمواقيتها بحكمته وقدرته وعنايته وتمام علمه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ

شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] وأنه كما أن جميع الحوادث مرتبطة بحكمته وعلمه فإنها مرتبطة بقدرته، فلا يصدر شيء من أفعاله عَزَّوَجَلَّ إلا عن عِلم وحكمة، وكل ذلك رهن قَدَره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الذي هو حقيقة قدرته، كما كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يقول: «القدر قدرة الله»، وكان أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي يعجبه هذا ويستحسنه؛ لأن حقيقة تصرُّف الله عَزَّوَجَلَّ في القدر دالٌّ علىٰ قدرته، فهو مرتبط بقدرة الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأعمال العباد كلُّها خيرها وشرها داخلة في قضائه وقدرته لا تخرج عنه، مع أنها تقع باختيارهم وقدرتهم ولم يجبرهم الله عليها؛ كما قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٩] فجعل الله عَزَّوَجَلَّ لهم مشيئة، وأثبت لهم اختيارا؛ لكنه تابع لمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ واختياره، والدال علىٰ كون الإنسان مختارا أن الله عَزَّوَجَلَّ مكنه من القوىٰ الظاهرة والباطنة وجعل له قدرة وإرادة يختار ويتصرف بها، فهذا دليل كونه مختارا لا مجبرا، كما يقوله من يقوله من الجبرية وغيرهم، إلا أن هذا الاختيار تابع لقدرة الله واختياره، فما شاء الله عَزَّوَجَلَّ من اختيار العبد وإرادته أنفذه، وما لم يشأ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لم ينفذه؛ ولهذا فإن أهل السنة لا يحتجُّون بالقدر علىٰ المعايب؛ وإنَّما يحتجون بالقدر علىٰ المصائب؛ فيحتج بالقدر علىٰ نزول المصيبة؛ لأنه لا قدرة للعبد عليها، ولا يُحتج بقدر الله علىٰ المعيبة، أي: الأمر القبيح السيئ، فالذي يفعل معصية من شرب دخان أو إسبال ثوبٍ أو ترك صلاة أو حلق لحية ثم يقول: "إن الله قدر عليّ ذلك" هذا كذب وظلم؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يجبره علىٰ هذا، بل جعل له اختيارا، ولا يحتج العبد بقدر الله علىٰ المعايب لأن الله جعل له قدرة وأمره بأمرٍ فيجب عليه أن يمتثل أمر الله تبعا لما جعل له من القدرة، فإن الذي أقدره علىٰ حلقها، يقدره علىٰ تركها، وإن الذي أقدره علىٰ إسبال ثوبه يقدره علىٰ رفعه كما أمر الشرع، وإنَّما يحتجُّ بالقدر علىٰ المصائب، فإذا نزلت بالإنسان مصيبةٌ لا حول له ولا قوة فيها؛ فإنه يُرجِعُ ذلك إلىٰ قدر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والإنسان يقول في المصيبة: "إنا لله وإنا إليه راجعون" ولا يقول في المعيبة: "إنا لله وإنا إليه راجعون" فإن له فيها اختيارًا وقدرة، ولو أراد الطاعة لَمُكِّنَ منها، ولكن نفسه الظالمة، وهواه المتسلِّط، وشيطانه المستبد أخرجه عن أمر الله إلىٰ موافقة أمر نفسه أو أمر شيطانه أو داعية هواه.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

الإشارة إلى ما في القرآن من براهين التوحيد

توحيد الألوهية والعبادة

لما كان توحيدُ الباري أعظم المسائل وأكبرها وأفرضها وأفضلها، وحاجة الخلق إليه وضرورتهم فوق كلِّ ضرورة تقدر، فإنَّ صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم متوقفة علىٰ التوحيد نوّعَ الله الأدلة والبراهين علىٰ ذلك، وكانت أدلته واضحات، وبراهينه ساطعات.

فمن أوضح أدلته وأجلاها الاستدلال علىٰ ذلك باعتراف الخلق برّهم وفاجرهم، إلا شرذمة ملحدة، معطلة للباري. فالخلق كلُّهم مسلمهم وكافرهم قد اعترفوا بأنَّ الله هو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرازق ومن سواه مرزوق، وهو المدبِّر وما سواه مُصَرَّف مُدبَّر، وهو المالك وما سواه مملوك. فهذا يدل أكبر دلالة علىٰ أنَّه لا يستحق العبادة سواه.

ولهذا يستدل به علىٰ المشركين ويأخذهم باعترافهم كقوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون].وآيات كثيرة جدًّا فيها هذا المعنىٰ، لأنَّه برهانٌ واضح، ينقل الذِّهن منه بأول وهلة، بأنَّ من هذا شأنه وعظمته، أنَّه هو المنفرد بالوحدانية المستحقّة للعبودية وإخلاصِ الدِّين له.

ومن براهين التوحيد: إخباره في عدة آيات أنَّ جميع ما يُعبد من دونه مخلوق، فقير عاجز، لا يستطيع نفعًا ولا دفعًا ولا جلب خير لعابده، ولا وقاية شر، ولا ينصر من عبده ولا أنفسهم ينصرون.

ومن كان بهذه المثابة فمن السّفه والحمق الجنوني عبادته وخوفه ورجاؤه، وتعليق القلوب به، وإنَّما يجب تعليق القلوب بالغني المطلق، الذي ما بالعباد من نعمة ولا خير إلا منه، ولا يدفع المكاره إلا هو.

وهذا أيضًا برهان آخر: أنَّه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، وهو الذي يجيب المضطرين، وينقذ المكروبين، ويكشف السوء عن المضطهدين، وهو الذي جعل لعباده الأرض قرارًا، وأجرىٰ لهم فيها أنهارًا، وجعلها مهادًا مهيَّئة لجميع مصالحهم ومنافعهم، وأنزل من السَّماء ماءً فأنبت به حبًا ونباتًا، وجنات ألفافًا، وأنبت به حبًّا، وعنبًا وقضبًا، وزيتونًا ونخلًا، وحدائق غُلبًا، وفاكهةً وأبًّا، متعًا لكم ولأنعامكم.

وهو الذي يطعم عباده ويسقيهم، وإذا مرضوا يشفيهم، وهو الذي يحيي ويميت، وإذا قضىٰ أمرًا قال له

كن فيكون.

وهو الذي يُطعِم ولا يُطعَم، ويُجير ولا يُجار عليه، ويُغيث ولا يُغاث.

وهو الذي خلق الإنسان وعلّمه الكتابة والبيان، وعلّم القرآن، وجعل الشمس والقمر والكواكب للمصالح المتنوعة والحسبان، والسماء رفعها ووضع الميزان، وأمر عباده أن يسلكوا طريق العدل، ولا يطغوا في الميزان.

وهو الذي مرج البحرين، هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أُجاج، ومن كلٍّ تأكلون لحمًا طريًا، وتستخرجون منه حلية تلبسونها، وترىٰ الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون.

وهو الذي سخّر لعباده جميع ما في السّمٰوات والأرض، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وآتاهم من كلِّ ما سألوه بلسان المقال ولسان الحال.

وهو الذي جعل لهم الليل لباسًا، والنهار معاشًا، ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص].

وهو الذي خلق من الماء بشرًا، فجعله نسبًا وصهرًا، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا.

وهو الذي جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، والقوىٰ الظاهرة والباطنة.

وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر.

وهو الذي بيده الملك والحمد، وبيده الخير، ويُعِز، ويُذِل، ويُعطي، ويمنع، ويقبض، ويبسط.

وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وله المثل الأعلىٰ.

وهو الذي جعل لعباده الأنعام، فمنها ركوبهم، ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع ومشارب، وتحمل أثقالهم إلىٰ بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون.

وهو الذي أوحىٰ إلىٰ النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا، ومن الشجر ومما يعرشون.. الآيات.

وهو الذي خلق لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة، ورزقكم من الطيبات.

وهو الذي جعل لكم من بيوتكم سكنًا، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلىٰ حين.

وهو الذي خلق لكم من الجبال أكنانًا، وجعل لكم لباسًا يواري سوءاتكم وريشًا تتزينون به.

وهو الذي جعل لكم المساكن كفاتًا أحياءً في الدور وأمواتًا في القبور، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات].

ألَمْ يتفضل بما هو أعظم من ذلك بالنِّعم الدينية والأخروية التي هي السبب في السعادة الأبدية.

ألم يمنَّ علىٰ المؤمنين بالإسلام والإيمان، ويبعث فيهم رسولًا يتلو عليهم آياته، ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم ويعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون.

ألم يوضح لهم الصراط المستقيم، ويكمل لهم الدِّين، ويمنّ عليهم بالهداية التامة، هداية التعليم والتفهيم والإرشاد، وهداية التوفيق والعمل والانقياد.

ألم يخرجهم من ظلمات الجهل إلىٰ نور العلم، ومن ظلمات الكفر إلىٰ نور الإيمان، ومن ظلمات المعاصي إلىٰ نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلىٰ نور الإنابة إليه وذكره.

ألم ييسِّرهم لليسرىٰ ويجنّبهم العُسرىٰ.

ألم يحبّب إليهم الإيمان ويزيِّنه في قلوبهم، ويكرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ويجعلهم من الرَّاشدين فضلًا منه ونعمة، والله عليم حكيم.

ألم يعصمهم من موبقات الآثام، ويحفظهم من فتن الشُّكوك والشُّبهات والأوهام.

ألم يفتح لهم أبواب التوبة والرحمة، ويأمرهم بالأسباب التي يدركون بها رحمته وينجون بها من عقابه.

ألم يجعل الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعافٍ كثيرة، والسيئة بواحدة، ومآلها العفو والصَّفح والغفران، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السَّيِّئات، ويأخذ الصدقات وأنَّ الله هو التواب الرحيم.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

ألم يكن جانب فضله وكرمه ورحمته في جميع الأمور سابقًا وغالبًا: «إن رحمتي سبقت غضبي»، وفي لفظ: «غلبت».

فلِلرحمة السبق والإحاطة والسعة، ولها الغلبة بحيث يضمحل معها أسباب العقوبة كما تقدم في الحسنات والسيئات، وإنَّ العبد لو أفنىٰ عمره في المعاصي، ثم في ساعة واحدة قبل أن يغرغر تاب وأناب،

غَفَرَ له كلَّ ذلك وأبدل سيئاته حسنات.

وأنَّ أدنىٰ مثقال حبة خردل من إيمان يمنع الخلود في النار، وأنَّ الكفار والفجار وأصناف العصاة يبارزون المولىٰ بالمخالفات والعظائم، وهو يعافيهم ويرزُقهم ويُدِرُّ عليهم النعم ويستعتبهم، ويعرض عليهم التوبة، ويُخبِرهم أنَّهم إن تابوا عفا عنهم وغفر لهم، حتىٰ إذا ماتوا وهم كفار ولم يكن فيهم من الخير مثقال ذرة وَلَّاهُمْ ما تولوا لأنفسهم ورضوا لها من الشقاء الأبدي.

وإذا كان جميع ما فيه الخلق من النعم والأفراح والمسرَّات أسبابها ومسبباتها، الظاهرة منها والباطنة، الدينية والدنيوية، كلُّها من الله، وهو الذي تفضل بها من غير سبب منهم، فإن حصل بعض الأسباب الواقعة من الخلق التي ينالون بها نعمه ورحمته، فتلك الأسباب هو الذي أعطاهم إيَّاها، فمنه كلُّ شيء محبوب، وجميع الشُّرور والمكاره هو الذي دفعها ويسّر دفعها.

فمن كان هذا شأنه العظيم وخيره الجسيم، أليس هو الذي يستحق أن يبذل له خالص العبودية، وصفو الوداد، وأحق من عُبد، وأولىٰ من ذُكر وشُكر، فتبًّا لمن أشرك به من هو مضطر إليه في كلِّ أحواله، فقيرٌ في جميع أموره.

لما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان ما اجتباه من المسائل الواردة في القرآن الكريم مما يتعلق بالقسم الأول، وهو الاعتقاد والتوحيد؛ أردف ذلك بذكر دلائله الجامعة من القرآن الكريم؛ لأن العلم مسائل ودلائل، ذكره أبو العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالىٰ ويوجد في كلام من قبلهما.

فإن العلم لا يخرج في انبنائه علىٰ مسائل تتصور وتقترن بأدلة تدل علىٰ صحتها، فالعلم مرجعه إلىٰ المسائل والدلائل.

وإنه لما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذكر المسائل الواردة في القرآن مما يتعلق بالاعتقاد؛ أتبعها بذكر جملة من الدلائل القرآنية علىٰ التوحيد والاعتقاد، وخصَّ ذلك بأصله الأعظم، وهو توحيد الألوهية والعبادة؛ لأن أصل عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ هو توحيد ألوهيته وما بعده تابعٌ له، فبيَّن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفصل جملة من البراهين الدَّالّة علىٰ توحيد الله؛ لأنه كما قال: (أعظم المسائل، وأكبرها، وأفرضها، وأفضلها، وحاجة الخلق إليه وضرورتهم فوق كل ضرورة تقدَّر، فإن صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم متوقِّفة علىٰ التوحيد) وقد (نوَّع الله الأدلة والبراهين علىٰ ذلك وكانت أدلَّته واضحات، وبراهينه ساطعات) وعدَّد المصنِّف جملة من تلك البراهين، أي: الحجج البينات، والدلائل المبيِّنات لتوحيد الله

عَزَّوَجَلَّ.

وابتدأ ذلك بأولها هو: اعتراف الخلق جميعا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالقا مدبرا مالكا رازقا؛ فإن الخلق مطبقون علىٰ الإقرار بالربوبية إلا نفرا قليلا من المعطلة النفاة للرب، والدُّهرية القائلين بأن الدّهر هو الذي يحييهم ويميتهم، فأولئك هم الذين انتحلوا نفي ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، وأما الخلق كلهم مسلمهم وكافرهم برهم وفاجرهم فإنهم معترفون بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولهذا استفاض في القرآن الاستدلال بتوحيد الربوبية علىٰ توحيد الألوهية، كما في الآيات من سورة «المؤمنون» التي ذكرها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه ذكر فيها أفرادا من الربوبية كلها يقول فيها الخلق: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾، وهذا إقرار منهم بربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، ولكون هذا الإقرار فطريا قلَّ إنكاره؛ جُعل في القرآن الكريم من أعظم المشارع والمصاعد التي تثبت بها الألوهية، وقد ذكر ابن الوزير في «ترجيح أساليب القرآن علىٰ أساليب اليونان» عن صاحب كتاب «مذاهب السلف» ولم يسمِّه ولم أعرفه؛ أن في القرآن خمسمائة آية كلها تدل علىٰ الربوبية؛ وإنَّما مُلئ القرآن بهذا لما فيه من تقرير المشركين، وتبكيتهم فيما أنكروه من ألوهية الله عَزَّوَجَلَّ فإن حقيقة الإقرار بالربوبية يقتضي الإقرار بالألوهية، فمن اعتقد أن الله هو الرب الخالق الرازق المالك المدبر لزمه أن يُقرّ بأن الله هو المعبود بحق فلا يستحق أحد أن يُعبد سواه.

ثم ذكر برهانا آخر من براهين التوحيد وهو: (**إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عدة آيات أن جميع ما يُعبَد من دونه مخلوق فقير عاجز لا يستطيع نفعا ولا دفعا، ولا جلب خير لعابده ولا وقاية شر، ولا ينصر من عبده، ولا أنفسهم ينصرون**) فمن كان بهذه المثابة من العجز والضعف وعدم النفع ودفع الضُّر، فإن من السفه والحمق عبادته، وخوفه ورجاؤه وتعليق القلوب به؛ لأن حقيقة تألُّه القلوب هو تعلقها بمن تعظم محبة وخضوعا، والعاجز الفقير لا يستحقُّ تأليه القلب له بالحب والخضوع، وإنَّما يستحقُّه من كان قادرا غنيًّا مالكا مدبرا وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

ثم ذكر البرهان الثالث وهو: (**إنه لا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يدفع السيئات إلا الله**) فإذا كان كذلك فإن المستحق للعبادة هو الله وحده، فكل ما يجري علىٰ الخلق من خير دنيوي أو أخروي فهو من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل:٥٣] وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل:١٨]، فآلاء الله عَزَّوَجَلَّ ونعماؤه في الدنيا والآخرة لا يأتي عليها حصرٌ، ولا يحيط بها عدٌّ، وقد عدَّد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من تلك الأمور المذكورة في القرآن الكريم مما يتبن بها أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو، وساقها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطريقين:

أحدهما: سياق الإثبات، كقوله: (وهو الذي يطعم عباده) وقوله: (وهو الذي خلق الإنسان) وقوله: (وهو الذي مرج البحرين) إلخ.

والآخر: طريق الاستفهام، كما في قوله: (ألم يمن علىٰ المؤمنين؟)، (ألم يوضح لهم الصراط؟)، (ألم يخرجهم من ظلمات الجهل؟) إلخ ما قال.

وهذان الطريقان طريقان عظيمان يساقان للإثبات في القرآن الكريم فهو مقتدٍ في نصب الأدلة بطريقة القرآن الكريم في نصبها، فإنَّ هذا الطريق وذاك كلاهما في القرآن الكريم. وفيهما من إفادة الإقرار ما ليس في سواهما؛ فاصطفاهما المصنِّف اتباعا للسياق القرآني لما يثمران من الإقرار بما ذكر المصنِّف من أن الحسنات كلها لا يأتي بها إلا الله ولا يدفع السيئات إلا هو ﷻ وكان مما قاله فيه ﵀ قوله: (وجعل الشمس والقمر والكواكب للمصالح المتنوعة والحسبان) أي: حساب الوقت والمنازل والأيام والليالي.

وقال فيه أيضًا: (وهو الذي مرج البحرين...) حتىٰ قال: (وهذا ملح أجاج) أي: مُرٌّ لا يستساغ.

وقال: (وترىٰ الفلك فيه مواخر) أي: تمخره، بمعنىٰ: تشقه، فإن الفلك هي: السفن، تشق البحر بسيرها فيه.

وكان مما قال: (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) أي: تعدونها خفيفة، يوم ظعنكم أي: يوم سفركم وارتحالكم.

ثم كان مما قال: (وهو الذي جعل لكم المساكن كفاتا) أي: تدخلون فيها؛ فإن الكفت هو: دخول شيء في شيء، وهي من اللغة الباقية في جزيرة العرب عند عامتهم، فالمساكن في الأرض كفات للخلق أحياء في الدور يَدْخُلون فيها، وكذلك هي كفات لهم في القبور؛ فإنهم يُدخَلون فيها.

وكان مما قال أيضا قوله ﵀: (وإن أدنىٰ مثقال حبة من إيمان) وحب الخردل حب نبات معروف هو صغير جدا، وبه يُضرَب المثل في الصغر في القرآن والسنة.

فهذه ثلاثة براهين من جملة البراهين التي عدَّها المصنِّف ﵀ في الإشارة إلىٰ توحيد الله، وتبقىٰ بقية من هذه البراهين نستكملها بإذن الله في الدرس المقبل.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب

وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله علىٰ عبده وللرسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

ومن براهين التوحيد: ما يصف الله به الأوثان ومن عُبد من دونه من النَّقص العظيم، وأنَّها فاقدة للكمال، وربما كانت فاقدة أيضًا للأقوال والأفعال، وأنَّها لا تخلق ولا ترزق باعتراف عابديها، وليس لها ملك ولا شركة في الملك، وليس لها مظاهرة لله ولا معاونة بوجه من الوجوه، وليس الله محتاجًا إليها، ولا إلىٰ غيرها؛ بل هو الغني الحميد.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠﴾ [النحل]، ولا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا ينصرونهم ولا أنفسهم ينصرون، ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٩٥]، ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾ [يونس:٣٥]، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾ [العنكبوت].

إلىٰ غير ذلك من الصفات الناقصة التي وصف الله بها كلَّ ما عبد من دونه، وهي معلومة حتىٰ عند العابدين لها، ولكنَّهم يزعمون الزعم الباطل أنَّهم يريدون أن تشفع لهم أو تقرِّبهم إليه زلفىٰ.

وهذا القصد الخبيث أعظم مُبعِدٍ لهم عن الله، فإنَّه لا يُتقرب إليه إلا بما يحبّ، ولا يُتوسل إليه إلا بالإيمان والتَّوحيد الخالص، والأعمال الخالصة لوجهه، ومن تقرَّب إليه بالشرك لم يزدد منه إلا بُعدًا، وبذلك قطع الصلة بينه وبين ربه فاستحق الخلود في النار وحرّم الله عليه الجنة.

تقدَّم أنَّ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما فرغ من مسائل التوحيد والاعتقاد أتبعها بدلائله، فإن المصنِّف واضعٌ كتابه علىٰ ثلاثة أقسام، مقدَّمها القسم المتعلق بالتوحيد والاعتقاد، وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما تقدم جملة من المسائل التوحيدية العقدية المذكورة في القرآن الكريم، ثم أتبع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلك المسائل بذكر دلائلها وجمع عدته في بيان براهين التوحيد، أي: أدلته، فذلك شروع منه في ذكر الدلائل.

وقد تقدم منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر برهانين أي: دليلين من دلائل التوحيد، وذكر في هذه الجملة برهانا آخر هو البرهان الثالث من البراهين المذكورة في القرآن مما ساقه المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والبرهان الثالث الذي ذكره المصنِّف من براهين التوحيد هو: ما وصف الله عَزَّوَجَلَّ به الأوثان وهي: المعبودات من دون الله؛ **فإن الوثن: اسم لكل ما عُبد من دون الله**؛ فإن كانت له صورة سُمِّي: "صنمًا"، وإن كانت لا صورة له بقي عليه اسم (الوثن)، فالله قد وصف المعبودات من دونه بالنقص العظيم، وأنها فاقدة للكمال في كلِّ جهة من جهاتها، في أقوالها وأفعالها وغير ذلك من أمورها.

ومن أعظم أودية بيان التوحيد إثبات كمال الله عَزَّوَجَلَّ وبيانُ نقص غيره، فإن هذا المسلك أوسع أدلة التوحيد التي وقعت في القرآن الكريم، وقد جرىٰ علىٰ إعماله إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عدة تراجم من «كتاب التوحيد» قصَد فيها بيان كمال الخالق وعجز المخلوق وضَعفه، وما تقدَّم من بيان أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلام المصنِّف وما انتظم فيها من الصفات هي شواهد الكمال.

وهذه الجملة من الكتاب فيها بيانُ ضعف غيره من المعبودات، فمن الأمور التي تنبغي مراعاتها عند إيضاح أسماء الله وبيان معاني صفاته؛ بيان النقص في مقابلها؛ حتىٰ يظهر كمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع وجود هذا في القرآن الكريم فإنه قَلَّ إعماله، فمثالُ ذلك إذا أراد المرء أن يبيّن اسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «الرازق» ويذكر صفة الرَّزق فإنه لا ينبغي أن يكون بيانه حصرا علىٰ ذكر معناها، وتعديد الأفراد المندرجة فيها؛ بل لابد أن يقرِّر كمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من جهة بيان المعنىٰ وذكر الأفراد، ثم يذكر فقْد هذا من غيره، فإذا بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يرزُق قرر أن رزق غيره مهما وُجد فإنه ناقصٌ قاصر، فإنَّ المخلوق يرزق غيره، كنفقة الوالد أو الزوج علىٰ أولاده وزوجته، لكن ينبغي أن يقرر نقص ذلك الرَّزق وقُصوره، وأنه مندرج تحت رَزق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقَه، فإنه إذا بُيِّنت الصِّفة الإلهية والاسم الإلهي علىٰ هذا المعنىٰ ظهر الكمال، فإنَّ الكمال مما يزيد ظهورَه بيانُ ضده، فإذا بيِّنت ضده من النقص الكائن في غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ظهرت هذه الصِّفة ظاهرة جلية، وقل مثل هذا في المِلك والبطش والقهر والعزة والغلبة التي تكون للمخلوق، فإنه لابد من ذكرها ببيان ضعفها وقصورها ونقصها؛ حتىٰ يبين كمال اتِّصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالصفة التي له عَزَّوَجَلَّ.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ شواهد علىٰ نقص غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من آيات الكتاب ساقها سياق المعاني، وبعض ما ساقه يوافق سياق الآيات، وبعضه لا يوافق سياقه، كما مُيِّز ذلك برسم المصحف، فذكر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾ [النحل] ثم قد ذكر من إنشائه: (**ولا يملكون لهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا**) يريد بذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ [الفرقان] ثم ذكر (**ولا ينصرونهم ولا

أنفسهم ينصرون)؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٢]

ثم ذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة «الأحقاف»: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥] أي: لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له؛ لأن هذا التركيب وهو «ومن أضل» «ومن أظلم» ونحوهما كما تقدم يراد به أنه لا أحد أضل ولا أظلم ممن ذكر، فهو غافل ضالٌّ عن مدعوه الذي يدعوه ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ [الأحقاف:٦] أي: جحدوا بعبادتهم وأنكروها وعادوهم ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦].

ثم ذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ [الحج: ٧٣] أي: لن يخلقوا شيئا حقيرا كالذباب.

والذباب: اسم يشمل كل ما ذُبَّ عن الوجه.

فلا يختص بالحشرة المشهورة عُرْفا بذلك فإن الذباب في الوضع اللغوي يشمل كل شيء حتىٰ النحل، فإن النحل يسمىٰ ذبابا بهذا الاعتبار؛ أي: لأنه يُذبُّ ويُطرد عن الوجه إذا هجم عليه ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ أي: ولو اجتمع كل تلك المعبودات ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا ﴾ أي: يأخذ الذباب منهم شيئا ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أي: لا يستخرجوه منقذين له منه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ والطالب هو: المعبود من دون الله، والمطلوب هو الذباب؛ فإن المعبود هو الذي يُرجىٰ منه أن يكون طالبا يحصِّل المقصود، والمطلوب الذي يراد استنقاذ ما معه وتحصيله هو الذباب، كما جاء هذا عن ابن عباس أنه قال: «الطالب الصنم» أي: المعبود من دون الله «والمطلوب هو الذباب» واختار هذا ابن جرير، وقال ابن كثير: «وهو ظاهر السياق». واقتصر عليه ابن سعدي في تفسيره وهو الأظهر.

ثم أتبع ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف:١٩٤] إلىٰ تمام الآيتين، وفيها بيان نقص من يعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ بفقده آلات القُوىٰ، فإن آلات القُوىٰ الرجل التي يمشي بها الإنسان، واليد التي يبطش بها، والعين التي يبصر بها، والأذن التي يسمع بها، وهؤلاء فاقدون لتلك الآلات.

ثم ذكر قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ ﴾ [يونس:٣٥] أي: من لا يهتدي ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي: يُرشَد ويُدَلّ.

ثم ذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ:﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ

لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ﴾ [العنكبوت:٤١] أي: أشد البيوت وَهَنًا وضعفًا هو بيت العنكبوت (﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ إلىٰ غير ذلك من الصفات الناقصة التي وصف الله بها كل ما عُبِد من دونه، وهي معلومة حتىٰ عند العابدين لها)؛ فإن العابدين لغير الله ﷻ يجدون في أنفسهم ضرورة أن هذه المعبودات ضعيفة كليلة، ولا أدل علىٰ ذلك من أنهم ربما اتخذوا معبودا من تمر ثم أكلوه، فإن هذا إيقان منهم بضعف ذلك المعبود، ولكن هؤلاء مع اعتقادهم أن هذه المعبودات ضعيفة واهية لا تملك ولا تدبر ولا ترزق؛ فإنهم يتخذونها زاعمين أنها توصل إلىٰ الله بالشفاعة عنده أو التقريب إليه زلفىٰ، فهذه غاية مطلوبهم في اتخاذ هذه المعبودات.

وهذا (القصد) الذي أرادوه، ووصفه المصنِّف بأنه قصد خبيث أعظم مبعد لهم عن الله ﷻ فإنهم أرادوا التقرب إلىٰ الله من حيث كان سببا لإبعادهم؛ فإن اتخاذ شريك لله ﷷ يوجب غضبه وسخطه فلا يكون له محل عند الله ﷻ كما قال المصنِّف: (فإنه لا يتقرب إليه) أي: إلىٰ الله (إلا بما يحب، ولا يتوسل غليه إلا بالإيمان والتوحيد الخالص، والأعمال الخالصة لوجهه) لأنها محبوبات الله ﷻ، والتقرب إليه بمحبوباته ومرضاته هو الذي يثمر قبول الله ﷻ للعبد، أما التقرب إليه بما يُسخطه ويغضبه فإنه لا يزداد من الله إلا بُعدًا، كما قال المصنِّف: (ومن تقرب إليه بالشرك لم يزدد منه إلا بُعدًا) كما جاء في حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» أن الله ﷷقال: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» والترك إشارة إلىٰ الإبعاد والطرد، فيبعده الله غضبا عليه، وسخطا منه، ولعنا له، كما تظاهرت بذلك عدة آيات قرآنية، وبهذا الفعل يكون العبد قد قطع الصلة بينه وبين ربه؛ لأن الصلة بين العبد وربه هي تأله قلبه له، فإذا كانت هذه الصلة موجودة في قلب العبد فإنه يقرب من الله ﷷ بازديادها، وإذا فُقدت هذه الصلة من قلب العبد فلم يكن متألها لله وحده فإنه يكون قد قطع هذه الصلة قطعا عظيمًا، ولذلك فإن الناس لا يصلون إلىٰ الله ﷷ بأموالهم ولا بأحسابهم ولا بأنسابهم، وإنَّما يصلون إلىٰ الله ﷷ بالحقائق الإيمانية والعمل الصالح، فإذا قويت هذه المعاني في نفس الإنسان قوي اتِّصاله بربه ﷻ، وإذا قُطعت هذه المعاني بالشِّرك فإن الله ﷷ يطرده ويغضب عليه، ويجعل محلَّه وقراره في دار العقاب والعذاب؛ وهي النار أعاذنا الله وإياكم منها، فيستحقُّ بذلك الخلود في النار، ويحرِّمه الله ﷻ علىٰ الجنة.

❀❀◊❀❀

ومن براهين التوحيد: أيامه بين عباده، وإكرامه للرسل وأتباعهم الذين قاموا بتوحيده، وإنجائهم من

الشرور والعقوبات، وإحلاله المثلات بالأمم المشركة بالله، المستكبرة عن عبادة الله، المكذبة لرسل الله لما حذرهم وأنذرهم، وأقام عليهم الحجج المتنوعة والآيات المفصلة علىٰ توحيده وصدق رسله، فكذبوا فأوقع بهم أنواع العقوبات المتنوعة، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

ثم خاتمة ذلك ما نصر به خاتم رسله محمدًا ﷺ حين بعثه بالتوحيد الخالص والنهي عن الشرك، فقاومه أهل الأرض الأقربين منهم والأبعدين، ومكرُوا في نصر باطلهم، وإبطال الحق الذي معه المكرات العظيمة، فخذَلهم الله ونصر نبيه وأتباعه النَّصر الذي لا مثيل له، إنَّ في ذلك لآيةً علىٰ أنَّ دين الله الذي هو التوحيد والإيمان هو الحق، وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل، وأنَّ رسوله هو الصَّادق الأمين، وأنَّ جميع من عاداه لفي أعظم الغي والضلال والشقاء.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ البرهان الرابع من براهين التوحيد وهو: (**أيامه بين عباده**) **وأيام الله هي: الأزمنة التي أظهر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها قوته وبطشه**، فإذا أظهر الله عَزَّ وَجَلَّ شيئًا من ذلك في زمن ما؛ قيل: إنه يوم من أيام الله، فمثلا: إغراق فرعون وهامان وجنودهما يوم من أيام الله؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أظهر فيه غضبه وقوته بهؤلاء القوم، وأيام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تنقضي ولا تنتهي، فليست مختصة بالأمم السابقة؛ بل ما بقي علىٰ الأرض خليقة فإن أيام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تظهر بين الفينة والفينة إذا استحقَّ الخلق ذلك، وما يجريه الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ الخلق في الأزمنة المتأخرة تارةً في تلك الجهة، أو تارة في تلك الجهة من شواهد غضبِه وظهور قوته هي من أيامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي تلك الأيام يقهر الله عَزَّ وَجَلَّ أعداءه، ويكرم أولياءه من الرسل وأتباعهم الذين قاموا بتوحيده، فينصرهم وينجيهم من الشرور والعقوبات، ويُحِلُّ المَثُلات، أي: العقوبات، بالأمم المشركة بالله عَزَّ وَجَلَّ المستكبرة عن عبادة الله، المكذبة لرسل الله لِمَا حذَّرهم وأنذرهم، وأقام عليهم الحجج المتنوعة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ﴾ [الرعد:٦] أي: وقعت تلك العقوبات بالأمم السابقة، لمَّا كذبت، فأخذهم الله عَزَّ وَجَلَّ بذنوبهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١] وقال كما في هذه الآية: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠] أي: كل عاصٍ طاغٍ أخذه الله عَزَّ وَجَلَّ بذنبه، وهذا من شواهد أن العقوبات من أسبابها الذنوب والمعاصي، نعم، ليست هي سببا مستقلًّا بها، لكنها من جملة

الأسباب المؤثِّرة، فمن ينكر تأثير المعاصي في العقوبات إن كان مراده: إنكار إنفرادها فحق؛ فإن العقوبة قد لا تجري لأجل المعصية؛ بل ربما تجري لغيرها، وإن كان ينكر أن يكون ذلك وقع بسبب الذنب والمعصية، فهذا من أجهل الجاهلين، ومن يستدلُّ بخلو بلاد الكفَّار من آثار العقوبات والمعاصي وأنها تقع في بلاد المسلمين، مع كون أولئك أحق، فهذا من جهله، فإن الحقيق بالتأديب هو المحبوب القريب، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يؤدب أولياءه من المؤمنين إذا أخلوا بشيء بإجراء العقوبة عليهم، وأما الكافرون فإن الله عَزَّوَجَلَّ يمد لهم في الحياة الدنيا مدا حتىٰ إذا انتهوا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عذبهم عذابا شديدا.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآية تنوّع عذاب الله للأمم فقال: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾ أي: ريحا عقيمة تحصب عليهم التراب والحصىٰ، وهم قوم عاد، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ وهم ثمود، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وهو قارون، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا﴾ وهو فرعون وجنوده ومن معهم، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾.

وتنويع أخذ الله عَزَّوَجَلَّ للأمم المراد منه: إظهار قوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر:٣١] فلا تتناهىٰ عقوبات الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ ما علمنا؛ بل يُظهر الله عَزَّوَجَلَّ من أنواع قدرته، وشواهد ربوبيته، وقوة سلطانه ما تذل له الرقاب، وتتطأطأ الرؤوس، وتعلم عظمة قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فربما أُتِيَ الإنسان من شيءٍ لم يظن أحد أنه يبلغ أثره هذا المبلغ، وهذا شاهد عظمة قوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعظم أيام الله عَزَّوَجَلَّ وهي خاتمة ذلك لمَّا نصر خاتم رسله محمدا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعثه فقاومه أهل الأرض الأقربون منهم والأبعدون، ومكروا مكر الظالمين، وسعوا في إبطال الحق والدِّين، فخذلهم الله عَزَّوَجَلَّ ووعظهم قبل ذلك، فلما لم يتَّعظوا أنزل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم عقوباته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٧﴾ [الأحقاف] فأهلك الله عَزَّوَجَلَّ القرىٰ المحيطة بمكَّة من أهل الشام ومصر علَّهم يتعظون بما وقع للأمم، ومن جهة حضر موت في الأحقاف قوم عاد فلما لم يتّعظوا وعصوا الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قهر الله عَزَّوَجَلَّ قريشا، وذلَّت قريش بين العرب لولا أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفعَها بحقِّ القرابة، لما انتصر عليهم، فحفظ لهم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدْرهم بين العرب، فإن العرب كانت تراغم رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دينه، وتأبىٰ أن تتْبعه لئلا يقال: إن قريشا أُكرهت علىٰ اتباع ما لا ترضىٰ، وكانت قريش معظمة أبيَّة لأجل ما كانت تجعله لها العرب من الحرمة لمقام البيت العتيق، فكانت العرب تعظمها وتوقرها، ثم سلَّط الله عليها محمدا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصره عليهم، ودخل صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة التي أُخرج منها عزيزا منصورا،

يطوف حول البيت وبيده مِحجن يكفأ به في الأصنام فتسقط علىٰ وجوهها وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء] وهذا من أعظم النصر له ﷺ وكل من اتبع النبي ﷺ فإن له حظا من هذه النصرة، فمن أخذ بهديه واتبع طريقته، وتمسك بطريقه فإن الله ﷻ ينصره، فإن خاتمة المنصورين من الرسل علىٰ أمم الكافرين هو محمد ﷺ ولا نبي بعده، لكنه وُرَّاثه من حملة العلم ونقلته والعلماء لهم حظ من هذه النصرة، فينصرهم الله ﷻ ويكبت غيرهم ويقطعه، كما قال الله ﷻ في سورة «الكوثر» ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ أي: إن مبغضك هو المقطوع من كل خير، فالمبغض للنبي ﷺ ولما جاء به النبي ﷺ بعده هو مقطوعٌ من كل خير، وكذلك من أحبَّ النبي ﷺ في زمانه وكذا بعده فإنه موصول بكل خير.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب

وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

ومن البراهين علىٰ التوحيد وعلىٰ صدق الرسول ﷺ وهو داخلٌ في الإيمان بالله ورسوله، والإيمان بالغيب، ما قصّه الله في كتابه من الغُيوب الماضية والحاضرة والمُستقبَلة التي لا تزال تحدث شيئًا فشيئًا طِبق ما أخبر به القرآن.

فمن ذلك ما أخبر به عن تفاصيل الوقائع الماضية في قَصص الرسل في أنفسهم، ومع أقوامهم من أتباعهم وأعدائهم تفصيلًا ليس لأحدٍ طريق إلىٰ تحصيله، إلا الوحي الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ، ونهاية ما عند خواص أهل الكتاب من تلك التفاصيل نُتفٌ وقطع لا يحصل منها قريبًا مما يحصل بالقرآن.

ولهذا يخبر في أثناء هذا القصص أنَّ إتيان رسوله محمد ﷺ بها دليل علىٰ رسالته، كقوله بعدما ذكر قصة موسىٰ مبسوطة، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص].

أي أنَّه لا سبيل لك إلىٰ معرفة هذه الأمور بتلقٍّ عن أحد، ولا وصول لذلك إلا من جهة الوحي الذي أوحاه إليه، وكذلك ذكر الله هذا المعنىٰ في آخر قصة يوسف المطولة في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

﴿أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ [يوسف:١٠٢] الآية. وفي قصة مريم وزكريا: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران].

فكلُّ هذا يدل أكبر دلالة علىٰ رسالة وصحة ما جاء به من التوحيد، حيث جاءتهم هذه الأمور المفصلة بطريقة لا سبيل إليها إلا بالوحي.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر براهين التوحيد برهانًا برهانا، وذكر ها هنا البرهان الخامس من براهين توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونظم فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدَّة وجوه تبيِّنه، ابتدأها ببيان أن مما يدل علىٰ التوحيد وصدق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما هو داخلٌ في الإيمان بالله ورسوله والإيمان بالغيب، ما قصَّه الله في كتابه من الغُيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة التي لا تزال تحدثُ شيئا فشيئا طَبْقَ ما أخبر به القرآن.

وهذا اللَّون من ألوان الإعجاز القرآني كما يُسمَّىٰ هو الإعجاز الخبَري، الذي اقتصر أكثر الناس علىٰ فردٍ من أفراده بأخرة، مما سُمِّي بـ«الإعجاز العلمي» وفي تسميته بذلك نظر، كما سبق بسطه في غير هذا المقام، والموافق للدلالة الشرعية واللغوية، تسميته بـ" الإعجاز الخبري" فإنه فردٌ من أفراده.

والإعجاز الخبري في القرآن واقع علىٰ وجوهٍ متعددة، من جملتها إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أمورٍ ماضية وحاضرة ومستقبلة لا تُدرَك إلا بوحيٍ، ولا يمكن للمرء أن يكتسبها اكتسابًا.

ومن جملة ذلك ما أخبر به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن المنزَّل علىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تفاصيل الوقائع الماضية في قصص الرُّسل في أنفسهم، ومع أقوامهم وأتباعهم، فإن ذكر تلك الأخبار لا سبيل إليه إلا بوحيٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما جاء من قصص الأنبياء وأخبار أممهم والدول العابرة، هو أصدق الأخبار المتعلِّقة بها، ولا يوجد في سوىٰ القرآن من كُتب أهل الكتاب ما يُضاهي ما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به في كتابه؛ بل لا يوجد عند أهل الكتاب إلا نُتف وقطع لا يحصل منها شيءٌ يضاهي ما في القرآن الكريم، كما أنَّ تحريف أهل الكتاب جعلهم يُخرِجون ما شاءوا، ويُدخِلون ما شاءوا، ومِنْ طَرْد هذا الأصل أن حُذَّاق المحقِّقين المختارين أن الفتية أصحاب الكهف هم من بني إسرائيل من اليهود، كابن كثير وغيره، عللوا ذلك بكون قصة أصحاب الكهف ذُكِرَت في التوراة المحرفة، ولو كانت لأتباع عيسىٰ لأخرجها اليهود في جملة ما أخرجوه من أخبار التوراة المتعلقة بالأنبياء المبعوثين من بعد موسىٰ، كأخبار عيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام فلا يوجد في التوراة بعد التحريف إلا إشارات غامضة، مع أنَّ مقتضىٰ خبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن الرسل الذين يبعثون أن يكون ذلك كثيرا، كما وقع ذلك في القرآن الكريم، فإن الله ذكر الأمم السابقة في

مواضع عدة، وكرر جملة من قصص الأنبياء، كقصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواضع متفرقة من القرآن الكريم.

وهذا الخبر الواقع في القرآن عن قصص الأنبياء كُرِّر في القرآن الكريم نفيُ علم النبي ﷺ وحضوره له، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في هؤلاء الآيات: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٤٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ [القصص:٤٦]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]، وهذا التركيب في القرآن ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يُراد به: النَّفيُ المحقَّق عن النبي ﷺ لما ذُكِر معه، كقوله تعالىٰ مثلًا: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ هذا نفي محقق أن النبي ﷺ لم يشهد خبر موسىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ نفي محقَّق أن النبي ﷺ لم يكن لديهم إذ أجمعوا أمرهم في نبأ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد أُشير إلىٰ هذا في مواضع من القرآن إلىٰ كونه من أنباء الغيب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ وقال أيضا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾، وهذا التركيب ﴿أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أكمل مما اختاره المتأخِّرون في الخبر عن هذا المقصد القرآني؛ فأنباء الغَيب التي أخبر بها القرآن، ومن جملتها قِصص الأنبياء لا اطِّلاع لأحد عليها إلا بالوحي؛ ولذلك قُرِن بذكرها، فلما كانت هذه الأخبار مذكورة في القرآن الكريم، دلَّ هذا أن القرآن الكريم منزَّلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأن النبي ﷺ صادقٌ فيما دعا إليه من توحيد الله عَزَّوَجَلَّ فإذا ظهر أنَّ أخبار القرآن صِدْق؛ فإن من أعظم أخبار القرآن ما يتعلَّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يذكره المصنِّف فيما يُستقبل، وكما أن هذا البرهان دالٌّ علىٰ توحيد الله من هذا الوجه فإنه دالٌّ أيضا علىٰ صدق النبي ﷺ ومدار دعوته وقطب رحاها هو الأمر بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ فصار هذا دليلا علىٰ توحيد الله.

وهذا البرهان وهو الخبر عن أنباء الغيب لا يختص بالخبر عن أنباء الأمم السابقة، بل كما سيأتي يتضمن أنواعا من طرائق نَصْبِ هذا البرهان، وتقويته وتأييده، كالخبر عن الملائكة، والملأ الأعلىٰ، وصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسيستكمل المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ مَدَّ هذا البرهان الخامس في الجملة المستقبَلة من الكتاب.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذه الجملة منه.

وبالله التوفيق، والحمد لله ربِّ العالمين.

وصلىٰ الله علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

ومثل ذلك خبره عن الملائكة والملأ الأعلىٰ، وقصة آدم وسجود الملائكة له بعد تلك المراجعات

فقال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ [ص].

وأعظم من ذلك كلِّه وأجلّ، إخباره ﷺ عن الرب العظيم وقصّه لصفاته العظيمة مفصلة، بحيث جاء هذا القرآن بما لم يأتِ به كتاب قبله. وأخبر عن الله أخبارًا عظيمة عجزت قُدَرُ الأولين والآخرين أن يأتوا بما يقاربها، أو بما ينقضها، أو ينقض بعضها.

فجميع الكتب السماوية المنزلة علىٰ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، جميع ما فيها من الخبر عن الله فإنَّه في القرآن، وفي القرآن زيادات عظيمة وتوضيحات تدل أكبر دلالة علىٰ أنَّ ما جاء به إمام الرسل وسيد الخلق، وأنَّ هذا القرآن مهيمن علىٰ ما قبله من الكتب، وأنَّ كلَّ حقٍّ قاله وتكلم به أحد من الخلق فهو في ضمن القرآن.

فإن قيل: فكيف تجعلون هذا البرهان الذي هو الخبر عن الله وعن كماله ونعوت جلاله، من براهين رسالة محمد وأدلة التوحيد وأنتم في مقام التكلم مع الموافق والمخالف والمعترف برسالة محمد ﷺ والمنكر لها، وذلك من أمور الغيب التي لا يعترف بها إلَّا كلُّ مؤمن، وأنتم تريدون جعله برهانًا يسلِّم بصحَّته حتىٰ المخالفون المنكرون لرسالته، إذا سلكوا طريق الإنصاف والاعتراف بالحقائق الثَّابتة التي يسلمها جميع العقلاء المعتبرين.

قيل في الجواب عن هذا الإيراد: هذا البرهان يتَّضح وينجلي بأمور:

منها: أنَّ الذي جاء به رجل أميّ لا يقرأ ولا يكتب، فقد نشأ بين أميين لم يجالس أحدًا من أهل العلم، ولم يدرس كتابًا، ولم يزل علىٰ هذه الحال حتىٰ جاء بهذا الكتاب الذي معظمه هذه الإخبارات الجليلة المتناسبة المحكمة، فبمجرد النظر إلىٰ هذه الحالة التي عليها محمد ﷺ وإتيانه بهذا الكتاب برهان قوي يضطر إليه الناظر أنَّه حق، وما احتوىٰ عليه حقّ، وأنَّه لا سبيل له إلىٰ ذلك إلا بالوحي والرِّسالة.

ثانيًا: أنَّه صدَّق جميع الكتب وجميع ما أخبرت به الرسل، فجميع ما في كُتب الله من التوحيد والصفات، وما أخبرت به الرسل عن ذلك فما جاء به محمد يصدِّق ذلك ويوافقه ويشهد له مع ما هو عليه ﷺ من الوصف المذكور.

ثالثًا: أنَّ هذه الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا التي أخبر بها عن الله كلّها متصادقة، يصدق بعضها بعضًا، ويناسب بعضها بعضًا، بحيث دلّ كلُّ معنىٰ منها علىٰ الكمال المطلق بكلِّ وجه وبكلِّ اعتبار، الذي لا كمال فوقه؛ بل لا يمكن عقول العقلاء أن تتصوَّر معنىٰ واحدًا من معاني تلك الأوصاف، فهذا أكبر دليل علىٰ أنَّها حق، وأنَّ من جاء بها هو رسول الله حقًّا.

رابعـًا: أنَّ آثارها ومتعلقاتها في الوجود والخلق والأمـر مشهـودة محسوسة؛ فآثـار مـا أخبـر بـه مـن العظمة والملك والسلطان، وآثار ما أخبر به من العلم المحيط والحكمة الواسعة، وآثار مـا أخبـر بـه مـن الرحمة والجود والكرم، وآثار ما أخبر به من إجابة الدعوات، وتفريج الكُرُبات، وإزالة الشِّدَّات، وآثار ما أخبر به من كمال القدرة، ونفوذ الإرادة وكمال التصرُّف والتدبير، إلىٰ غير ذلك مما أخبر به عن الله، فـإنَّ آثاره تلك في الوجود مشهودةٌ لكلِّ أحد، لا ينكرها أو يتوقَّف فيها إلا مكـابر، فهـو يخبـر ﷺ عـن غيـب محكم، يشاهد الخلق من آثاره ما يدلُّهم دلالة قاطعة علىٰ ذلك.

خامسًا: هذه النُّعوت العظيمة التي أخبر بها عـن الله، لا يمكـن التعبيـر عـن آثـار معرفتهـا في قلـوب العارفين بها من التَّعظيم والإجلال الذي ليس له نظير، ومن الوُدِّ والسرور والابتهـاج الـذي لـذَّات الـدنيا بالنسبة إليه أقل من قطرة بالنِّسبة إلىٰ البحر، وهم خلق لا يُحصي عددهم إلا الـذي خلقهـم، وهـم عِلْيَـةُ الخلق، وخلاصة الوجود، وأكمل النَّاس أخلاقًا وآدابًا، وأرجحهم عقولًا وأصوبهم، إلا وقد اتفقوا علـىٰ هذا الأمر العظيم ليس اتفاقًا علميًا فحسب؛ بل هو اتفاق اعتقادي علميّ يقينيّ وجدانيّ ضروريّ.

فهذا الاتفاق الذي ليس له نظير، وهو من آثار ما أخبر به النبي محمد ﷺ عن ربه مـن الكمـالات مـن أعظم البراهين علىٰ صدق رسالته، وصحة ما جاء به من التوحيد الخالص.

فإن قلت: قد يتفق طوائف من الخلق علىٰ بعض الأمور التي ليست بحق ويكثرون جـدًا. وقـد اتفـق العقلاء علىٰ أنَّ ذلك ليس دليلًا علىٰ صوابهم إن لم يكن لهم بذلك برهان.

فالجواب: إنَّ الأمر كذلك، ولكن ما ذكرنا من اتفاق أهل المعرفـة بـالله لا يشـبهه شـيء مـن تـواطئ الطوائف واتِّفاقها، كما ذكرنا أنَّه مبني علىٰ العلم اليقيني والبرهان الوجـداني، والآثـار الجميلـة الجليلـة التي لا يمكن أن تقع خطأً، أو عن غير بصيرة، وهم بهذا الوصف الذي ذكرنا. ولهذا قال تعـالىٰ: ﴿شَـهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيـزُ ٱلۡحَكِـيمُ ١٨﴾ [آل عمران]. فذكر شهادة أولي البصائر من الأنبياء والعُلماء الربانيين علىٰ التوحيد، وأنَّها من أعظم البـراهين عليه.

وكذلك أخبر عن الملائكة والجنة والنار، وتفاصيل ذلك بأمور يعلم أنَّه لا يمكن أن يأتي بها إلا نبي مرسل، موحىٰ إليه من الله بذلك. فمعارف الخلق وعلومهم تقصر غاية القصور عن بيان بعض ذلك، ولكنَّها رحمة الله وهدايته لعباده بعثها علىٰ يد خاتم الرسل وأكملهم رسالة، وحظهم من هذه الرحمة

بحسب نصيبهم من هذه الهداية.

المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد فراغه من دلائل التوحيد والاعتقاد المذكورة في القرآن الكريم؛ شرع يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ براهين التوحيد، فذكر خامسها وهو ما قصه الله في كتابه من الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، فإن هذا برهان جلي علىٰ توحيد الله وصدق المخبر عنه، وهو الرسول ﷺ ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الأفراد المندرجة في الغيوب التي استحق الله عَزَّ وَجَلَّ بخبره عنها أن يكون مألوها مُعَظَّمًا معبودا، وتقدم منها: إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن وقائع الأمم السابقة مع الأنبياء.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جملة ذلك خبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الكتاب المنزل علىٰ رسوله ﷺ عن الملائكة والملأ الأعلىٰ، وقصة آدم، وسجود الملائكة له بعد تلك المراجعات، والملأ الأعلىٰ هم: الملائكة، لكن العطف هنا عطف لاختلاف الصفات، فإن العطف يدل علىٰ المغايرة إما باختلاف الذوات، وإما باختلاف الصفات، ومن ذلك قول الله تعالىٰ في سورة «العصر»: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فإنَّ عمل الصالحات ليس خارجًا عن ذات الإيمان وحقيقته؛ بل هو مندرج فيها، لكن لاختلاف الصفات جيء بالعطف، ومن هذا قول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**خبره عن الملائكة والملأ الأعلىٰ**) فإنَّهم سُمُّوا "الملائكة" باعتبار أن منهم من يكون رسولًا إلىٰ أهل الأرض، ممَّن يبلغ رسالة إلىٰ نبيٍّ، أو ينزله الله عَزَّ وَجَلَّ امتحانًا للخلق، أو مبلغا بكرامة من كرامات الله لبعض عباده، أو غير ذلك.

وسُمُّوا بـ"الملأ الأعلىٰ" لكونهم الجماعة المخلوقة التي جُعِلت دارُها السماء، فإنَّ الملأ اسم للجماعة، وهم من أهل السَّماء، فسُمُّوا بـ "الملأ الأعلىٰ".

ثم ذكر المصنِّف أعظم من ذلك كلِّه، خبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن صفاته وأسمائه، فإنَّ ما جاء في القرآن من الخبر عن الرب العظيم، ومن صفاته الجليلة أمر عظيم، تعجز عنه قُدَر الأوَّلين والآخرين أن يأتوا بما يقاربها، أو بما ينقضها، أو ينقض بعضها، فإنَّ القرآن الكريم استوفىٰ الخبر عن الله عَزَّ وَجَلَّ بما لم يأت في كتابٍ من الكتب المتقدِّمة، كما ذكر المصنِّف ذلك وقال في تصديق ذلك: (**وأن هذا القرآن مهيمن علىٰ ما قبله**) كما وصفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: أمينا شاهدا عليه، زائدا بكمالات لا تكون في الكتب التي سبقت، استحق بها أن يكون مقدما معظما لا يلحقه أي كتاب من الكتب الإلهية التي أنزلها الله علىٰ أحد من الأنبياء.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إيرادًا عقليًّا، واعتراضا يرد علىٰ بعض النفوس، وهو: الاستغراب من جعل

الخبر عن الله، وعن كماله ونعوت جلاله، من براهين رسالة محمد ﷺ وأدلة التوحيد؛ فإنَّ التصديق بهذا الخبر مبنيٌّ علىٰ التصديق بالمخبِر، وأنتم تتطَلَّبون الآن إثبات صِدق المخبِر، واستحقاق المخبَر عنه بالوحدانية، بشيء يرجع إليه، فبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الإيراد يتضح بأمور:

أوّلها: أن الذي جاء به رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، فإن النبي ﷺ لم يكن يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] فهو أمِّيّ لا معرفة له بالقراءة والكتابة، وتقدم أن قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أنَّه بناءٌ مركب في القرآن للدلالة علىٰ النفي المحقَّق عن النبيه فإذا ذُكر مثله دل علىٰ تحقُّق النفي لما بعده، ففي ذلك إبطال أن يكون النبيه عارفًا بالقراءة أو الكتابة قبل أن يُنَزَّل عليه القرآن الكريم، فإذا كان هذا الرجل أمِّيًّا ويُخبر بهذه الأخبار، دل علىٰ صدق ذلك.

ثم ذكر ثانيها: أن هذا الكتاب الْمُنَزَّل علىٰ محمده وقع مصدِّقًا لما جاء من الأخبار في الكتب السابقة، التي ادَّعَىٰ أهلُها أنها من الله عَزَّ وَجَلَّ، فكما أن اليهود والنصارىٰ عندهم كتاب أُنزِل علىٰ أنبيائهم، فكذلك أهل الإسلام لهم كتاب أُنْزِل علىٰ [نبيهم] فليس إنكار هذا وحده؛ بل من أنكر ذلك ينبغي له أن ينكر الجميع، فإذا أنكر الجميع وقع في الإلحاد، وإنَّما الرد علىٰ من يُثبِت ذلك ولكنه يزعم أن هذا الإنزال علىٰ محمده ليس صحيحا كما تدعيه اليهود والنصارىٰ، وأنه ليس من العرب نبي.

ثم ذكر البرهان الثالث وهو: أن هذه الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا التي أخبر الله عنها كلها يصدق بعضها بعضا، ويشهد بعضها لبعض، وهذا وصف للقرآن كلِّه، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي: يشبه بعضه بعضا، ويصدق بعضه بعضا، ولا يمكن أن يكون فيما قال من الكلام سلامةٌ من اضطراب واختلاف إلا وهو كلام صدق صحيح، والكتاب المنزَّل علىٰ النبي ﷺ مع طوله وكثرة آياته التي تُعَدُّ بالآلاف ليس شيء فيها من حرف يناقض شيئا منه في موضعٍ آخر، فدل علىٰ أن هذا ليس من فعلات البشر، وإنَّما هو ممَّا أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدَّليل الرابع وهو: أن آثار تلك الأخبار عن الله وعن صفاته ومتعلَّقاتها في الوجود والخلق مشهودة محسوسة، فآثار مُلك الله، ورحمة الله، وقدرة الله، وقوة الله، وغير ذلك من آثار صفاته شيء لا ينكره عاقل؛ بل يؤمن به، كما قيل لأعرابي: أتعرف الله؟ فقال: نعم. فقيل له: بما عرفتَه؟ فقال: البعرة تدلُّ علىٰ البعير، والأثر يدل علىٰ المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحارٌ ذات

أمواج، ألا تدل علىٰ الواحد القهار؟! فاستدلّ بجريان تلك الآثار علىٰ وجود الرَّب الذي هذه من آثار ربوبيته، وصفاته ﷻ.

ثم ذكر البرهان الخامس علىٰ تلك المسألة وهو: أن هذه النعوت العظيمة من صفات الله ﷿ لها آثار في قلوب العارفين بها، من السرور والابتهاج التي لا يُقاس إليها شيء من لذات الدنيا، وهذا اتفاق اعتقاديٌّ علميٌّ يقينيٌّ وجدانيٌّ ضروريٌّ بين أناس من خُلَّص الوجود وعِلية الخلق، كما قال المصنِّف، فهذا الاتفاق الذي ليس له نظير، وهو من آثار تلك الكمالات التي أخبر عنها النبي ﷺ لربِّه دالٌّ علىٰ صدق المخبَر به.

وإن اعْتُرِض علىٰ ذلك بأن هذا خبر طائفة من الخلق، فكيف يُقبل هذا الخبر، مع اتفاق العقلاء أن ذلك ليس دليلًا علىٰ صوابهم؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا بأن هذا ليس اتِّفاقًا من جنس الاتفاقات العامة المطلقة؛ بل هذا اتفاق خاص بمحل مقيد لا يمكن التواطؤ عليه، فلأجل تميُّزه عن سائر المواطآت والاتفاقات اختصَّ بكونه برهانا.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وكذلك أخبر عن الملائكة والجنة والنار، وتفاصيل ذلك بأمور يُعْلَم أنَّه لا يمكن أن يأتي بها إلا نبي مرسل، موحًىٰ إليه من الله بذلك**) وهذا مندرج في جملة الأخبار.

ثم قال: (**فمعارف الخلق وعلومهم تقصُر غاية القصور عن بيان بعض ذلك؛ ولكنها رحمة الله، وهدايته لعباه بعثها علىٰ يد خاتم الرسل، وأكملهم رسالة، وحظُّهم من هذه الرحمة بحسب نصيبهم من هذه الهداية**) فهذه الأخبار عن الغيوب المتقدِّمة من الخبر عن الله ﷿ وعن صفاته وعن الملائكة والجنة والنار والأنبياء والرسل وما كان بينهم وبين أممهم لا سبيل إليه إلا بوحي صادق مطلع علىٰ خفيات الأمور، فدلَّ هذا علىٰ كون ذلك وحيا أوحاه الله ﷿ إلىٰ محمّد ﷺ.

وبقي في تتميم هذا البرهان الخامس من براهين التوحيد نبذة نكملها إن شاء الله تعالىٰ في المجالس المقبلة، وكلها راجعة إلىٰ البرهان الخامس وهو: ما في القرآن الكريم من الإخبار عن الغيوب المستقبلة والماضية والحاضرة.

وهذا آخر التقرير علىٰ هذه الجملة من الكتاب

وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

وأمَّا الغيوب الحاضرة والمستقبلة الدال كلٌّ واحد منها علىٰ صدقه وحقّية ما جاء به، فكيف بجميعها، فكيف إذا انضمَّت إلىٰ براهين رسالته التي لا تحصىٰ أجناسها، فضلًا عن أفرادها.

فمن ذلك ما في القرآن من وعده لرسوله محمد ﷺ أن يُتم الله أمره وينصره، ويُعلي دينه ويظهره علىٰ الدين كلِّه، ويخذل أعداءه ويجعلهم مغلوبين مقهورين أذلّين.

وهذا كثير جدًّا مثل قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف]، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف]، ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال:٣٩]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٢﴾ [آل عمران]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ [الأنفال:٣٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال]، إلىٰ غير ذلك من الآيات التي أخبر بها بهذه الأمور العظيمة والأوعاد الصادقة التي وقعت طبق ما أخبر الله به، فازداد بذلك المؤمنون إيمانًا. ولهذا يذكر تعالىٰ نعمته في قوله تذكيرًا لعباده المؤمنين: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال].

وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠﴾ [الأنفال] وقد فعل ذلك.

وقوله لرسوله والمؤمنين: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ الآية [الفتح:٢٠]، وقد فعل. وأخبر أنَّ صلح الحديبية فتح مبين، مع ما فيه من تلك الشروط التي كرهها أكثر المؤمنين، ثم تبين لكلِّ أحد بعد ذلك أنَّه فتح مبين، فيه من المصالح للإسلام والمسلمين ما لا يمكن إحصاؤه.

ومن ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [التوبة:٢٨] الآية، وقد وقع ذلك كلُّه.

وإخباره أنَّه سيتوب علىٰ كثيرٍ من أئمة الكفر، وينصر عباده عليهم كقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران:١٢٨]،

وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [الممتحنة] وقد فعل ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ [البقرة:١٤٢] وقد قالوا ذلك.

وقوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة:١٣٧]، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧]، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر:٣٦]، ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال]، ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق]، وقد أوقع بهم مصداق ذلك من الأخَذات ما أوقع.

وقوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾ [الضحىٰ] أي كلُّ حالة متأخِّرة من أحوالك خير لك من سابقتها، ومن تتبع سيرته وأحواله ﷺ وجد ذلك عيانًا، كلُّ وقتٍ خيرٌ مما قبله في العزِّ والتمكين وإقامة الدين، إلىٰ أن قال له في آخر حياته: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم] وقد أوقع ذلك كما أخبر.

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء]، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾ [الرعد]. وهذا وعيد بأنَّ عواقبهم ستكون وخيمة فوقع طبق ما أخبر.

وقوله: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾ [القلم] وقد أبصر كلُّ أحد أنَّهم هم المفتونون.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾ [الشرح]، ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق]، وقد يسّر الله الأمور بعد عسرها، ووسعها بعد ضيقها وشدتها.

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور:٥٥] الآيات، وقد فعل وله الحمد، ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء].

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ

يُسۡلِمُونَۖ﴾ [الفتح:١٦] وقد دعوا لذلك في وقت أبي بكر وعمر والخلفاء والملوك الصالحين.

وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم]، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج].

وقوله: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧] الآية.

وقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ [الفتح:١٥] (١) الآية.

وقوله: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة:٩٥]، وقد قالوا ما ذكر الله أنَّهم سيقولونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر]، وقد وقع ذلك في بدر بعد هذا الكلام.

ومن ذلك قوله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [المسد].

وقوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١﴾ إلىٰ قوله: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾ [المدثر] الآيات. فأخبر عن أبي لهب وامرأته، وعن هذا الوحيد بصِلي النار، ومن لازم ذلك بقاؤهم علىٰ كفرهم وتكذيبهم لمحمد ﷺ، فوقع وبقوا علىٰ ذلك حتىٰ هلكوا.

وقوله: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر] فوعده بكفايته إياهم، فأوقع بهم العقوبات المتنوعة وهي معروفة بين أهل السير.

وقوله لما ذكر مكر رؤساء الكفر: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾ [ص]، وقوله:

---

(١) الطباعة بالمصحف أحيانا توقع أخطاء فهنا لفقوا بين آيتين، وهو ليس مراد المصنف، مراد المصنف في الأصل ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ [الفتح:١١] فصححوا أنتم الآية هذه التي قسموها: [﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ [الفتح:١٥]، ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ [الفتح:١١]] جعلوا الواحدة الخامسة عشرة والثانيةالحادية عشرة، الصواب قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾الآية، مثل ما وقع هذا من طبعة «مجموع الفتاوىٰ» الجديدة للمجمع، لما دخَّلوا الآيات يكون بعض الكلام لأبي العباس ابن تيمية فلما دخلوا الآيات التي في أثنائها كلام حذف الكلام الذي لأبي العباس ابن تيمية مثلما في «الواسطية» ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ لا يكرثه ولا يثقله في وسط الآية، فلما يضعون بالرسم العثماني فهذه الألفاظ ربما تطير ولا يتنبهون لها.

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٨٣﴾ [الزخرف].

وقوله في آيات التَّحدي: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:٢٤] فأخبر أنَّهم لن يفعلوا في المستقبل فلم يفعلوا، وكذلك في تحدِّي اليهود: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ [البقرة] الآية. فلم يقع منهم التَّمنِّي في وقت التحدي الذي دلّ عليه السِّياق.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر]، فأخبره بعدةِ أشياءَ قبل وقوعها: بمجيء نصر الله والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وأنَّه عند ذلك قد حان أجلك وقربت وفاتك، فاختم حياتك الشَّريفة بالتَّسبيح والحمد والاستغفار.

وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر] أي: مقطوع الذكر الجميل، مقطوع من الخير ووقع ذلك.

وقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة]، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ۝٨١﴾ [الإسراء]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ۝٨٠﴾ [الإسراء] وقد فعل تعالىٰ ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ [الإسراء]، وهذا خبر منطبق علىٰ مخبره في جميع الأوقات.

وقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وهذا شامل لحفظ ألفاظه ومعانيه، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت] وحفظه مشاهد محسوس.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المائدة:٥٤] وقد فعل ذلك.

وقوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ

﴿٤٢﴾ [يس]، ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النحل].

وهذا شامل لخلق ما لا يعلمه العباد في تلك الأوقات الماضية، مما لم يشاهدوا له نظيرًا، فيدخل فيه جميع المخترعات التي حدَثَت والتي تحدث إلىٰ يوم القيامة من المراكب البرية والبحرية والهوائية، وما خلقه وعلّمه الإنسان بواسطة الكيمياء والكهرباء من المخترعات المدهشة، ونقل الأصوات والأنوار من الأماكن الشاسعة في أسرع وقت.

وهذا من الآيات والبراهين التي دلَّ عليها القرآن، حيث لا يحدث حادث جليل أو حقير، كبير أو صغير، إلَّا وفي القرآن تصريح به، أو إدخاله في عموم أو مفهوم، وأنَّه لم يأت ولن يأتي علم صحيح ولا حادث حقيقي ينقض شيئًا من أدلَّة القرآن، فإنَّه تنزيلٌ من حكيم محيط علمه بكلِّ شيء، نفذت إرادته ومشيئته في كلِّ شيء.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ [الأنعام:٦٥]، وقد وقعت القنابل المهلكة والديناميت الناسف لما باشره أو قرُب منه، والدخان الخانق وما أشبه ذلك.

وهذا ينطبِقُ علىٰ موصوفه غاية الانطباق، وفيه التنبيه علىٰ حدوث الآلات المقرِّبةِ للمواصلات، كما بسطنا ذلك في مواضع آخر[١].

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١﴾ [الدخان]. وقد ذكر الله التنادي بين أهل الجنة وأهل النَّار، مع البعد المفرط والترائي، وقد أظهرت المُكتشفات الكهربائية والكيماوية مصداق ذلك، بعدما كان كثيرٌ من المكذِّبين يسخرون بإخبارات الرسل في هذا الباب ويستبعدونها، فأظهر الله في هذه الأوقات من البراهين ما يكذِّب المكذبين الجاحدين.

وهذا من مصداق قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت:٥٣] فلم يزل يُري عبادَه ويُحدث لهم من البراهين الدالَّة علىٰ صدق الرسل، وأنَّ ما جاؤوا به هو الحق، وما خالفه هو الباطل. ولكن أبىٰ المباهِتون المكابرون إلا عُتُوًّا ونفورًا.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق]، فهذه المنافع التي علّمها الله الإنسان، فلم يزل يفرّعها الإنسان

---

[١]- انظر كتاب المصنف «الدلائل القرآنية في أنَّ العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي».

ويرقّيها حتىٰ وصلت إلىٰ ما وصلت إليه، وهو جاد في طريقه في تنمية الصناعات والمخترعات. وذلك كلُّه داخل في تعليم الله له، وإلهامه وإيجاده تبارك وتعالىٰ المنافع والقوىٰ في مخلوقاته.

فالله تعالىٰ هو الذي أوجد فيها القوىٰ الصالحة لإيجاد المخترعات النافعة منها، والله هو الذي علم الإنسان ذلك، وذلك من آياته في الآفاق، وفي النفوس الدالة علىٰ أنَّ ما جاء به الرسول حق، وإن لم يهتدِ لذلك أكثر الخلق ضلالًا عن الأدلة الحقيقية، أو عن وجه دلالتها، أو قيام عقائد باطلة صارفة وصادفة عن الحق.

ومن ذلك: إخباره أنَّ سنَّته في خليقته في نظام العالم، وفي الأسباب والمسبَّبات، والجزاء بالحسنىٰ وبالسوأىٰ واحدة لا تتغير ولا تتبدَّل، وهي كلُّها جارية علىٰ مقتضىٰ الحكمة التي يحمد عليها، وهذا مشاهد شرعًا وقدَرًا.

وقد يُري عباده تعالىٰ أنَّه يغير بعض المخلوقات عن نظامها المعتاد ليعرف العباد أنَّه المتفرِّد بالقدرة والتصرف، وأنَّ جميع الحوادث خاضعةٌ لمشيئته وقدرته، وأنَّ ما أخبرت به الرُّسل من أمور الغيب كلِّها حق، ولكن أبىٰ الجاحدون إلا أن يُنكروا ما كان الله أخبر به علىٰ ألسنة رسله مما كانوا الآن يعقلون هم نظيره، فانقلب عليهم الأمر وقلَّب الله قلوبهم كما لم يؤمنوا به لمّا جاءهم، واستكبروا بعقولهم علىٰ الحق.

ومن أعظم علوم الغيب التي أخبر بها القرآن وأبداها وأعادها، أنَّه أخبر أنَّه لا سبيل إلىٰ صلاح البشر وسعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة إلا باتِّباع هذا الدِّين والأخذ بإرشاده وهدايته. وهذا أمر لا يستريب فيه أحدٌ، فإنَّ هذه الأمة في عصر الخلفاء الرَّاشدين والملوك الصالحين لمّا كانوا مهتدين بعلمه وإرشاده وتربيته الخاصَّة والعامة صلحت دُنياهم كما صلح دينهم، وصاروا المثل الأعلىٰ في القوة والعزة والعدل والرحمة وجميع الكمالات المستعد لها البشر.

ثم لمّا ضيَّعوا هدايته العلمية والعملية تحلَّلوا وانحلُّوا، ولم يزالوا في نقص وضعف وذلة حتىٰ يراجعوا دينهم، ثم في مقابلة ذلك من العجب العجيب الذي ليس بغريبٍ ارتقاء الأمم الأخرىٰ، في هذه الأوقات في الصناعات المُدهشة، والاختراعات الخارقة المعجزة والقوة الضخمة أنَّهم لم يزدادوا بها إلا شقاءً، حتىٰ صارت حضارتهم التي يعجبون بها ويخضع لها غيرهم مهدّدةً كلَّ وقت بالتَّدمير العام.

وجميع ساستهم وعلمائهم في حيرة عظيمة من تلافي هذا الخطر، ولن يُتلافىٰ إلا باتباع ما جاء به القرآن والاسترشاد بهدي محمد ﷺ، الجامع بين العلم والعمل والعدل، والرحمة والحكمة، ومصلحة

الروح والجسد، وإصلاح الدين والدنيا والآخرة.

فالعلوم المادية والقوة المادية المحضة ضررها أكثر من نفعها، وشرّها أكثر من خيرها، حيث لم تبن علىٰ الدِّين الحق. وانظر بعينك ترىٰ العجائب، فهذا الارتقاء المادي الذي لم يشاهد العالم له نظيرًا إذ خلا من روح الدِّين، هو الحبوط والهبوط الحقيقي، والدُّنيا الآن كلُّها في خطر مزعج لا يعلم مدىٰ ضرره وفظائعه إلا الله تعالىٰ

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يبدئ ويعيد في مفردات البرهان الخامس من براهين التوحيد وصدق الرسول ﷺ وهو: ما جاء في القرآن الكريم من الإخبار عن غيوبٍ ماضية وحاضرة ومستقبلة علىٰ أنواع متعدِّدة، وفنون مختلفة، تقدَّم بعضها وبقت منها بقية ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ منها في هذه الجملة: خبرُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما وعد به رسوله ﷺ. والوعود الصادقة في خبر الله عَزَّ وَجَلَّ رسوله ﷺ نوعان اثنان:

أحدهما: خبره ﷺ بأنَّ له النصر والعز والتَّمكين والرِّفعة والعلو.

والآخرُ: خبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسوله بأن الدَّائرة والهلاك والبوار والدَّمار علىٰ أعدائه.

فأخبارُ القرآن المتعلقة بوعد الله عَزَّ وَجَلَّ رسولَه ﷺ هي إما راجعةٌ إلىٰ النوع الأول بخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه ينصر رسوله ويظهره ويمكنه، أو بخبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوعده رسوله أنه يكبت أعداءه، ويمحقهم ويجعل الدائرة عليهم، وأنواع ذلك في القرآن آيات عديدة ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ منها أنواعا، وسِمْطُها الجامع لها هو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف] فإن قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ إشارة إلىٰ ما سيكون له ﷺ من العلوِّ والرِّفعة، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ إشارة إلىٰ ما سيحلُّ بهم من النِّقمة والبلاء والضعة والضعف إذا عارضوا رسول الله ﷺ.

ومن جملة تلك الأخبار الواردة في القرآن الكريم: إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أنواعٍ من المخلوقات يخرجها للبشر، من جملتها: أنواع المخترعات التي صارت بأيدي الناس اليوم؛ فإنه صار لهم من أنواع المخترعات في المراكب والآلات وغيرها ما لم يكن لآبائهم وكل ذلك مندرج في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل] فكل هذه الآلات علىٰ اختلاف أنواعها وطرائقها ودرجاتها ووظائفها كلها مندرجة في خبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يخلق للعباد ما لا يعلمون، ومن جملة ذلك ما اخترعوه وأوجدوه من القنابل المُهلكة، والأسلحة الفتاكة التي لم تكن عند آبائهم.

وذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مما يندرج في هذه الجملة: ما جاء في قول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ

مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ [الدخان] فإن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ كما ذكر في تفسيره عند هذه الآية يرىٰ أنها عامَّة في كل دخان مبين ظاهر لم يكن يعرفه الناس من قبل، فاندرج في ذلك: الدُّخان الذي وقع لفرط الجوع عند قريش لما دعا عليهم النبيُّ ﷺ فصاروا يرون من الجَهد دخانا في السماء، وبهذا فسَّر ابن مسعود وجماعة الآية، واندرج فيه عنده: الدخان الذي يكون علامة من علامات يوم القيامة، واندرج فيها أيضا: الدخان الذي يكون للنار إذا ورد عليها أهلها الذين يُعذبون فيها.

ويرىٰ المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أن أنواع الدخان كالدخان الخانق من القنابل وغيرها مندرج في هذه الآية، وانتصر له رَحِمَهُ اللَّهُ وذكر أنه هو الذي ترجَّح عنده.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ من جملة الأخبار الصَّادقة في القرآن: إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن سنَّته لا تتبدَّل ولا تتخلف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر]، فسنة الله عَزَّوَجَلَّ في الكون ماضية لا تتغير، فإنه لا يوجد مطرٌ بلا سحاب، ولا يوجد نبت في الأرض ينبت بلا ماء يسقِيه، ولا يمكن أن تتخلَّف هذه الظواهر عمَّا كتبه الله عَزَّوَجَلَّ لها من قواعدها الكونية في نظام العالم ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ من جملة تلك الأخبار في القرآن الكريم: ما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به أنه لا سبيل إلىٰ صلاح البشر وسعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة إلا باتِّباع هذا الدين والأخذ بإرشاده وهدايته، فمهما بلغوا من سعة الدنيا وتمكَّنوا من آلاتها وتنوعت اختراعاتهم فيها وتقلَّبوا في رغد نعيمها؛ فإنه لا سعادة لهم إلا باتباع القرآن وامتثال الدِّين الذي جاء به النبي ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام] فإذا فرغت قلوب الخلق من هذا الدين فإنهم لا يؤنسون السعادة وإن تقلبوا في أنواع من النعيم الظاهر، فإن النعيم علىٰ الحقيقة هو نعيم القلب كما قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد في كلامٍ له: «أعظم النعيم نعيم القلب، وأعظم العذاب عذاب القلب» ا.هـ

فربما رأيت إنسانا يتقلب في أنواع المراكب والمساكن ولذائذ النَّعماء مما وصل إليه علم الناس الظاهر؛ لكنه في عذابٍ شديد؛ لأنه لم يهتدِ بهدي القرآن، ولا استرشد بما أرشد الله عَزَّوَجَلَّ إليه في هذا الدِّين العظيم، والعقلاء من البشر من المسلمين وغيرهم يعلمون أنَّ ما وصل إليه الناس من هذا العلم الظَّاهر ربما كان شرره وضرره أكثر من نفعه، كما صار حال جملةٍ من الأسلحة الفتاكة التي تقضي علىٰ آلاف مؤلفة من الخلق في لحظات، وإنَّما اخترعها الإنسان، فذلك الإنسان الذي أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ هذه

القَدَر تسلط بمعرفته علىٰ آخرين من جنسه فعذبهم وسامهم سوء العذاب بما فتح الله عَزَّوَجَلَّ عليه من أنواع العلوم، ولو أنَّ قلوب هؤلاء عُمِرت بهدي القرآن وبالدِّين القويم؛ لصارت العلوم المادِّية خادمة لهم مزيدا لنعيمهم ورِفعة لهم في الدنيا والآخرة، أمَّا وقد حُجبوا عن حقيقة الاسترشاد بالقرآن والاقتداء بالدِّين القويم الذي جاء به النبي ﷺ فإن، الدنيا كلها كما قال المصنِّف في خطرٍ مزعج لا يعلم مدىٰ ضرره وفظائعه إلا الله تعالىٰ، فإنَّ الإنسان إذا قلَّب ناظريه وأدار فكره وأجال ذهنه فيما وصل إليه الناس من أنواع القُوَىٰ الفتَّاكة علم أن دمار العالم قد يكون في ضغطة زر يعاجل إليها إنسان فيدمِّر بها قدرًا عظيما من العالم؛ لكن المؤمنين بالله الواثقين بوعده يحفظون قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨] فهم يعلمون أنَّ الله أعلىٰ ولا أعلىٰ منه، وأن الله أكبر ولا أكبر منه، وأن الله أقوىٰ ولا أقوىٰ منه، وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يكن، فإذا قدَّر الله قدرًا أو أبرم أمرا فإنه لا مدبِّر لحله، ولا ناقض لمحكمه، فينبغي أن يزيد العبد من إقباله علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإن الإنسان إذا غفل عن الإقبال علىٰ الله ضعف قلبه، ومُلِئَ رعبا، ولأجل هذا قال النبي ﷺ كما في «صحيح مسلم» من حديث معقل بن يسار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «العبادة في الهرْج كالهجرة إليَّ» أي: العبادة في زمن الفتنة كالهجرة إليه ﷺ وإنَّما كانت بهذه المنزلة لأن الناس في أوقات الخوف يغفلون عن الإقبال علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وتعظم في نفوسهم القُوَىٰ البشرية، فإذا كان العبد مقبلا علىٰ الله معظما له متعلقا به؛ عظَّم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أجره، وأسبل عليه سكينته، واطمأن قلبه، وارتاحت روحه.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب

وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

ومن براهينه التي وقعت مطابقة للواقع والحس والتجارِب، أنَّه أخبر أنَّه آيات لأولي الألباب، لقوم يعقلون، ولأولي النهىٰ. وهي آيات كثيرة تبين أنَّ أهل العقول وأرباب البصائر، بقدر ما أعطوا من هذه النعمة الكبرىٰ من العقل الرصين، واللب الكامل، والرأي الصائب يكون حظهم من هدايته وإرشاداته والانتفاع به.

فتأمل هداة هذه الأمة وأئمتها ومرشديها، هل تجد أكمل منهم عقولًا وألبابًا وأصوب آراءً. وتأمل هل يوجد مسألة أصولية أو فروعية في هذا الدِّين قد شهد أحد من العقلاء المعتبَرين علىٰ فسادها أو

نقصها، وكلُّ من قدح في شيء منها بيّن بالبراهين المعترف بها بين العقلاء أن الخلل في عقله ولبِّه وفهمه، أو في قصده وإرادته.

وإذا أردت تفصيل هذه الجملة العظيمة فاقرأ كتاب العقل والنقل لشيخ الإسلام والمسلمين ابن تيمية، وكيف برهن بالبراهين العقلية علىٰ ضعف عقول القادحين في شيءٍ من هذا الدِّين، وأنَّ ما زعموه عقليات جهلياتٌ وخرافاتٌ، وقد تحدَّىٰ الباري جميع الناس أن يأتوا بمثله أو ببعضه أو بعشر سور أو بسورة من مثله، وهذا هو عين هذه المسألة.

ومن ذلك ما ذكر الله من إحْكامِهِ لكتابه، وأنَّه لا يأمر إلا بكلِّ معروفٍ وصلاح، ولا ينهىٰ إلا عن المنكر والفساد، وقد استمرَّت له هذه الأوصاف الجليلة في كلِّ وقت وزمان، وجرت إرشاداته الجميلة صالحة لجميع الأوقات والأحوال والأشخاص.

فليرنا المنكرون حكمًا واحدًا من أحكامه مخالفًا لهذا الوصف الذي أخبر به حين إنزاله، وتحقق تحققًا لا ينكره إلا مباهت أو مقلد له، فهو الذي يَصلح لكلِّ وقت، ولا يُصلح الأمم إصلاحًا حقيقيًا سواه. وقد أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، وقد تحقق هذا بتكميله العقائد والأخلاق والأعمال والأحوال كلِّها، والدنيا والدين، وكلُّ قصورٍ وتقصيرٍ حاصلٌ في كلِّ وقت فلفقده أو نقصه.

وهذه الجمل والأصول العظيمة نتحدَّىٰ بها جميع البشر، وأنَّه جاء بجميع المحاسن والمصالح الظاهرة والباطنة، ونهىٰ عن القبائح والمضارِّ الظاهرة والباطنة، فليأتوا بمثال واحدٍ صحيح مخالف لهذه الأصول التي أسّسها القرآن وجعلها قواعد يهدي بها البشر علىٰ توالي [الأزمان].

هذا إشارة لطيفة في إخبار القرآن عن أمور محسوسة مشاهدة بالأبصار قد وقعت طبق ما أخبر به.

أمَّا إخباره بما تفعله هداية القرآن في القلوب والأرواح والأخلاق ووجود مخبره كما وصف فأكثر من أن يذكر وأعظم من أن ينكر، ويعرفه أولوا الألباب والبصائر والاهتداء التام بهدايته العلمية والعملية، وهم أزكىٰ الناس وأعدل الخلق شهادة، وشهادتهم عن علم ويقين ووجدان وحق يقين.

فمن ذلك إخباره أنَّه يهدي بكتابه من اتبع رضوانه سُبل السلام، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩] فمن جمع بين هذين الوصفين وهما الاجتهاد التام، وبذل المجهود مع حسن القصد لطلب رضوان الله هداه السبيل الموصلة إليه، وإلىٰ دار كرامته، وحصولُ الهداية العلمية وهي العلم النافع، والهداية الفعلية هداية التوفيق لاتباع الحق لازمةٌ للاجتهاد وحسن القصد لا تتخلَّف عنهما، فمن عُدمت هدايته أو ضعفت فلفقدهما أو فقد أحدهما أو ضعفهما.

وقال تعـالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل]، وهذا مشاهَدٌ لأهل البصائر. أنَّ مَنْ جمع بين الإيمان الصَّحيح والعمل الصالح ـ وهو ما يحبه الله ويرضاه ـ أنَّ الله سيُحييه في هذه الدار حياة طيِّبة. وأصل الحياة الطيبة طيب القلب، وراحته وسروره، والقناعة والرضىٰ عن الله، فلو كان المؤمن الصادق في أضيق عيش لكانت هذه الحياة الطيبة حاصلة له بوعد الله الصادق الذي لا يخلف الميعاد.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد] وحصول طمأنينة قلوب المؤمنين الصَّادقين بذكر اللّهِ والإنسِ به وعبادتِهِ أمرٌ لا يمتري فيه أحدٌ من أهل الذوق والوجد.

وَمَا يجده أهل الإحسان الصَّادقون من ذوق حلاوة الإيمان، وحقائق اليقين والأُنس بذكر الله، والطمأنينة به، والأحوالِ الزكية والشواهد المرضية، علىٰ ما أخبر به الرسول أجلُّ وأعظم من كثير من البراهين الحسية، فإنَّهم وصلوا في هذه الأمور إلىٰ حقِّ اليقين الذي هو أعلىٰ مراتب اليقين والحق.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، فقد تكفّل الله بهدايةِ القلوب لكلِّ مؤمن صادق الإيمان، وإنَّما يكون مؤمنًا حقًّا إذا حقَّق أصول الإيمان، وكان إيمانه بالمأمورات يطلب منه امتثالها وبالمنهيات يقتضي خوفَه تركها، وإيمانه بالقضاء والقدر يعلم أنَّ المصائب من عند الله العزيز الحكيم الرحيم، فيرضىٰ بذلك ويسلم وهذا أمر معلوم لأهل الإيمان الصَّحيح.

ومن ذلك جميع ما نذكره في دلالة القرآن علىٰ الأخلاق الجميلة الحميدة والأمر بها، ونهيه عن الأخلاق الرَّذيلة. فهذا من براهين التوحيد والرسالة وصحة جميع ما جاء به محمدٌ ﷺ.

لما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من البرهان الخامس من براهين التوحيد وصحة ما جاء به الرسول ﷺ وهو: ما في القرآن من الإخبار عن الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة= استكمل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقية البراهين التي قصد إلىٰ إثباتها ممَّا يتعلق بالتّوحيد وصحَّة نبوة النبي ﷺ ومضىٰ منها خمسة براهين، وأورد في هذه الجملة ثلاثة أخرىٰ.

فالبرهان السادس: ما وقعت مطابقته للواقع والحس والتجارب أنَّ الله ﷻ أخبر عن كتابه أنَّه آيات لأولي الألباب، أي: العقول. وأنه آياتٌ لقوم يعقلون، وأنَّه آيات لأولي النهىٰ، والنُّهىٰ: جمع نُهْيَة وهو: العقل؛ لكن سُمي بذلك بالنظر إلىٰ أثره، فإنه ينهىٰ صاحبه عما يضره ولا ينفعه.

والقرآن قد وقع كذلك؛ ففيه من البصائر ما يوقن معه أصحاب العقول والألباب والنُّهىٰ بصحته وجلالته وعظمته، ومن ازداد عقلُه ووفَر اطَّلع علىٰ عظيم هداية القرآن وجليل إرشاده وانتفع به انتفاعًا كثيرا.

وإذا أردت أن ترىٰ صدق ذلك فاعتبر أحوال السابقين من هُداة هذه الأمة وأئمَّتها تجدهم أكمل الخلق عقولًا، وأصحَّهم ألبابا، وأصوبهم آراء، ولا تجد مسألةً من مسائل الدِّين جليلة كبيرة أو صغيرة في أي باب من أبوابه إلا والعقلاء متواطئون علىٰ تصحيحها ولا يوجد فيه شيءٌ يشهد العقلاء كافَّةً علىٰ بطلانه، بل من كمل عقله شهد بصحة ما فيه، وكم من امرئ خرج من الكفر إلىٰ الإيمان لما أبصر بدقيق فهمه وجليل عقله عظمة ما في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وما جاء به النبي ﷺ من وقوعه مطابقًا للواقع والحس والتجربة هُدًىٰ وبيانًا وإرشادا.

وما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من رتبة المرشد المذكورة في قوله: (**فتأمل هداة هذه الأمة وأئمتها ومرشديها**) المراد بها: الدُّعاة فيهم، وهذا اللَّفظ مما لم يستعمل في الخطاب الشرعي، والمستعمل في الخطاب الشرعي عوضه هو: (الدَّاعي)، ولم يأت في الخطاب الشرعي (الداعية) وإنَّما جاء فيه (الداعي) دون (تاء). قال الله تعالىٰ في وصف الرسول ﷺ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤٦].

لماذا؟

طيب تعرفون الفرق بين (علامة) و(علام)، و(نسابة) و(نساب) ما هو؟

المبالغة، العلم نظائر يا إخوان، قالوا: إن الهاء في التاء المربوطة في (علامة) و(نسابة) للمبالغة فإذا قيل: رجل علامة، أي: بالغ في العلم أعظم قدره، نسابة [أي:] بالغ في العلم بالنسب أعظم قدره، فإذا قيل: رجل داعية، فهو بالغ في الدعوة أعلىٰ مراتبها، وهل تقوم الدعوة إلا بهضم النفس وتجريد القصد لله؟! فلا يناسبها التعظيم.

لاحظتم النكتة؟ أن الدعوة لا يناسبها التعظيم، ولذا جاءت مجردة عن التاء وقيل: "الداعي" والخطاب الشرعي يا إخوان له أسرار، لا ينتهي شِبَعُ الأبرار منها، فإن مجرد بناء شيء علىٰ حركة له مقصد.

أضرب لكم مثالا آخر: (الحنيف) في القرآن هل جاء في القرآن (حنيفٌ) أو (حنيفٍ) أو جاء كله منصوب؟

[جاء] كله منصوب كله (حنيفًا) لماذا؟

لأن عُظْم باب النصب، وأصله في كلام العرب: الطلب؛ ولذلك أكثر المنصوبات هي: المفعولات [فالمفعولات] عندهم خمسة مفعولات، وكلها مبنية علىٰ باب النصب الذي هو معناه الطلب؛ فلما كانت الحنيفية مطلوبة من العباد جاءت علىٰ هذا الوجه؛ تنبيها بهذا التصرف إلىٰ هذا المطلب، ومثله هذا الموضع.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن تفصيل هذه الجملة مذكور في كتاب «العقل والنقل» لأبي العباس ابن تيمية وهو كتاب «درء تعارض العقل والنقل» وهو كتاب عظيم تحار فيه العقول، وتنقطع الأذهان، وتَكَلُّ من مباحثه، فلا يترشَّح لقراءته إلا من رسخت قدمُه في العلم، وطال تعليمه له، وكان قُرِئ في أوائل القرن في حلقة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثم امتنع من إكماله؛ لثقله علىٰ العقول، وكذا لأذهان عامة الخلق عن إدراك مقاصده.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ البرهان السابع وهو: ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ من إحكام كتابه، وأنه لا يأمر إلا بكل معروف وصلاح، ولا ينهىٰ إلا عن المنكر والفساد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود:١]، وقال: ﴿يسٓ ١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ٢﴾ [يس]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل:٩٠].

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن هذا الوصف مستقر مطرد في القرآن لا ينكره إلا مباهت، أي: صاحب دعوىٰ بالبهتان، أو مقلد له، فالقرآن صالح لحياة الخلق في بيان ما يسترشدون به في كل حين وآن؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أكمل لنا الدِّين، وأتم علينا النعمة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وكَمُل بتحقيقه تكميل العقائد والأخلاق والأعمال والأحوال كلها كما قال سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] أي: صِدْقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام الدائرة بين الأمر والنهي، فكلُّ المحاسن والمصالح الظَّاهرة والباطنة مأمور بها في كتاب الله، وكل القبائح والمضار الظاهرة والباطنة منهيٌّ عنها في كتاب الله، ولا يوجد مثال صحيح يخالف هذا الأصل.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعًا لهذا البرهان السابع مما هو من آثار إحكام القرآن: ما تفعله هداية القرآن في القلوب والأرواح والأخلاق ووجود مخبره، أي: حقيقته كما وُصِف فأكثر من أن يذكر، وأعظم من أن ينكر، ويعرفه أولي الألباب والبصائر، والاهتداء التَّام بهدايته العلمية والعملية؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ قال:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] أي: التي هي أعلىٰ استقامة في كل شيء، فالأعلىٰ في أحوال الاستقامة في أمور الدين والدنيا جاء القرآن الكريم بالدلالة عليها والإرشاد إليها.

ومن ذلك: ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به أنَّه يهدي بكتابه من اتبع رضوانه سبل السلام؛ وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩] فمن جمَع هذين الوصفين، وهما: الاجتهاد، وبذل المجهود، مع حسن القصد أي: طلب رضوان الله؛ هداه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ السُّبل. والسبل إذا جُمِعت فالمراد بها: أنواع الخير، وأما إذا أُفردت فالمراد بالسَّبيل: الطريق الموصل إليها؛ فقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ [يوسف:١٠٨] يعني: الطريق الموصلة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وقوله تعالىٰ: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: أنواع الخير وأبوابه في ذلك الطريق؛ فإن أبواب الخير كثيرة.

ومن لطائف تبويبات النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «رياض الصالحين» قوله: «باب كثرة أبواب الخير» فمن جاهد في الله هداه الله عَزَّوَجَلَّ سبل الخير وأبوابه.

ثم ذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] وبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أصل الحياة الطيبة: طيب القلب وراحته وسرورُه؛ فإذا طاب القلب بالرَّاحة والسرور لذت الحياة، فأصل النَّعيم نعيم القلب، وأصل العذاب عذاب القلب، ذكره أبو العباس ابن تيمية الحفيد، وهو موجودٌ في كلام جماعة من السلف رحمهم الله تعالىٰ.

ثم أورد قول الله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد] فحصول طمأنينة قلوب المؤمنين بذكر الله والأنس به وعبادته أمر لا يمتري فيه أحد من أهل الذوق والوجد، والذوق والوجد معنيان شرعيان مدلول عليهما بهذين اللفظين كما في حديث العباس ابن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في «صحيح مسلم» أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ذاق طعم الإيمان»، وفي «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» فالذوق والوجد علىٰ هذا المعنىٰ الشرعي صحيحٌ لا ريب فيه.

ثم ذكر أنَّ ما يجده أهل الإحسان الصادقون من ذوق حلاوة الإيمان وحقائق اليقين... إلىٰ آخر ذلك؛ من أعظم ما يدل علىٰ توحيد الله وصدق الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن لذَّة القلوب بحلاوة الإيمان ومُلامسة حقيقة الإيقان يجعلها في رُتبةٍ لا تُدرك لا بالأموال ولا بالأنساب ولا بالأحساب كما كان إبراهيم بن أدهم يقول: «إن لفي سعادة لو يعلم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف» والسعادة التي

أصابها إبراهيم بن أدهم هي: سعادة الأنس بالله عَزَّوَجَلَّ وراحة قلبه، وكان إبراهيم بن أدهم من أبناء الأُمراء، ثم تجرَّد وتزهَّد فأصاب سعادة لم يصبها مع الإمارة والملك، ولما سمعه بعض أصحابه يقول هذا فقال: "رحمك الله أرادوا هذا النعيم فضلوا عن الصراط المستقيم". وفي معناه قول أبي العباس ابن تيمية الحفيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنّة الآخرة» ذكره تلميذه ابن القيم في كتاب «مدارج السَّالكين» وهذه الجنة التي أشار إليها أبو العباس ابن تيمية هي: جنة الأُنس بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وطمأنينة القلب بذكره، ومن حُرِمها كان هو المأسور حقًّا، والمحبوس صدقًا.

وقد ذكر ابن القيم في «الوابل الصيِّب» عن أبي العباس ابن تيمية الحفيد أنه كان يقول: «المأسور من أسره هواه، والمحبوس من حُبِسَ قلبه عن الله».

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذا المعنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١] فإن الله عَزَّوَجَلَّ تكفَّل بهداية القلوب لكل مؤمن صادق الإيمان سواءً في أحوال النَّعيم والسراء، أو أحوال الألم والضرّاء؛ فإذا كان الإنسان مؤمنًا هدىٰ الله عَزَّوَجَلَّ قلبه إلىٰ ما ينبغي له، وما يجمُل أن يكون عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] فإذا آمن الإنسان بربِّه هدىٰ الله عَزَّوَجَلَّ قلبه لما ينفعه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ البرهان الثامن وهو: جميع ما جاء في القرآن من الأدلة علىٰ الأخلاق الجميلة الحميدة، والنهي عن الأخلاق الرَّذيلة، فهذا من براهين التوحيد والرسالة، وصحّة جميع ما جاء به محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيفصِّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يستقبل النوع الثاني من علوم القرآن وهو: علم الآداب والأخلاق الكاملة الذي طواه في هذا البرهان، وأشار إليه إشارةً لطيفة سيُعلَم تحقيقها وتقديرها في النوع الثاني من أنواع علوم القرآن المذكورة فيه مما أورده المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وبهذا يكون المصنِّف أتىٰ علىٰ مقصوده من بيان النوع الأول من العلوم المذكورة في القرآن وهي: علوم العقيدة والتوحيد، وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة حسنة مستطابة فتح بها مشارع الفهم لتلقي مسائل التوحيد والعقيدة من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولم تعظم بعض الكتب المصنَّفة في الاعتقاد والتوحيد إلا لامتلائها بالآيات والأحاديث المروية عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأجمل الأبواب أن تكون مبنية علىٰ هذا الأصل ما تعلَّق بمعرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن هُنا شرف كتاب «العقيدة الواسطية» و«كتاب التوحيد» لأنَّهما لا يتضمنان إلا الدَّلائل القرآنية والأحاديث النبوية في أبواب الاعتقاد والإيمان.

وهذه الجملة المذكورة في هذا الكتاب لاحقة بهما، آخذة برقاب الأصل الذي تعلق به، وينبغي أن

يعيده ملتمس العلم مرة بعد مرة؛ لأنه يفهم به مراد الله ﷻ فيما ذكره من خبره عن نفسه وما تعلَّق بأمور الاعتقاد المذكورة في الكتاب والسنة؛ لأن بناء اعتقادك عليها يثمر اليقين في قلبك، فينبغي أن يكون اعتقادك الذي بين جوانحك مبنيا علىٰ أصل الكتاب والسنة؛ فإن من بنىٰ اعتقاده علىٰ هذا الباب لم تُزعزعه المزعزعات، ولا أزعجته المحرِّكات، التي تثور علىٰ الناس بين الفينة والفينة، إمَّا بشبهة شائعة، أو بحال تعتري الإنسان فإن الإنسان ربما عرض له ما يشق عليه في أمر اعتقاده إما بشبهة تروج وتُذاع، أو بحال تعرض للإنسان يُبتلىٰ فيها في نفسه ويضطرب علىٰ مقدار إيمانه، فأنت لا تتعلم هذه المسائل للحقائق العلمية فقط؛ بل تتعلمها أيضا للحقائق الإيمانية؛ فإنَّ مَن رسخ إيمانه بالبناء علىٰ اليقين إذا اعترته حال من الأحوال التي تطيف بالخلق كان مستمسكًا ثابتا مقبلا علىٰ الله ﷻ.

ومن عجيب الأخبار في هذا: ما ذكره ابن حبان في كتاب «الثقات» وغيرُه من خبر أبي قِلابة عبدالله بن زيد الجرمي ﵀ فإنه ذكر عنه حكاية طويلة عظيمة تبيِّن حقيقة الإيمان ومبلغ العقيدة في قلوب المؤمنين بالله ﷻ ومن جُمَل ما فيها أنه خرج ﵀ هربًا من الشام لما طلبه بعض الخلفاء يريدونه علىٰ القضاء فأوىٰ إلىٰ جانبٍ من عريش مصر اتَّخذ فيه خيمة في الصحراء، ولم يكن له إلا صغير يقوم علىٰ تدبير حوائجه فيحضر له الماء إذا أراد الوضوء ويعينه إذا احتاج إلىٰ إعانة، فبلَغ به الابتلاء حتىٰ ذهبت يداه ورجلاه بالآكلة، ثم عدىٰ سَبُعٌ علىٰ ذلك الوليد فأكله، فبقي وحيدا فمر به رجل، فسمع صوتا في الخيمة يقول: الحمد لله الذي أنعم عليَّ نعما كثيرة، فسأله هذا الرجل لما قدم عليه ورأىٰ حاله فقال: يا هذا أي نعمة لله تربُّها عليك وأنت علىٰ هذه الحال؟ فقال له: ألم يُبْقِ لي الله ﷻ لسانا ذاكرا، وقلبا خاشعا؟! فرأىٰ أن من أقل نعم الله ﷿ أنه أبقىٰ له قلبا يخشع لله ﷿ ولسانا يذكره به... إلىٰ آخر هذه القصَّة النفيسة، وهي من نفائس القصص التي تبين حقائق الإيمان، وأنَّ الإيمان ليس مقالة تقال، بل حقائق قلبية متىٰ احتاج إليها الإنسان ظهرت علىٰ أركانه وجوانحه فإذا فقدها الإنسان فليجدِّد إيمانه، وإن الإيمان يبلىٰ فينبغي للإنسان أن يتعاهد إيمانه بالتجديد.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب

وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين

النوع الثاني من علوم القرآن ومقاصده علم الآداب والأخلاق الكاملة

القرآن الكريم كتاب تعليم وإرشاد، وكتاب تربية علىٰ أكمل الأخلاق، وأحسن الآداب، وأسمىٰ الأوصاف، وحثَّ عليها بكلِّ وسيلة، وزجر عن ضدِّها، لا يوجد خلق كامل وإلا وقد دلّ عليه القرآن، ولا أدبٌ حميد إلا وقد دعا إليه وبيّنه، والأخلاق الكاملة والآداب السامية تجعل صاحبها مستقيم الظاهر والباطن، معتدل الأحوال، مكتمِل الأوصاف الحسنة، طاهر القلب نقيّه من كلِّ درن وآفة ونقص، قويَّ القلب، متوجهًا قلبه إلىٰ أعلىٰ الأمور وأنفعها، قائمًا بالحُقوق الواجبة والمستحبة، محمودًا عند الله وعند خلقه، قد حاز الشَّرف والاعتبار الحقيقي، وسلم من كلِّ دنسٍ وآفة، قد تواطأ ظاهره وباطنه علىٰ الاستقامة، وسلوكِ طريق الفلاح، وعلُوّ مكانة المتخلق بأخلاق القرآن وآدابه لا يمتري فيه من له أدنىٰ مسكةٍ من عقل، لأنَّ العقل من أكبر الشواهد علىٰ حسن ما جاء به الشرع.

ولهذا ينبّه الله أولي العقول والألباب، ويوجّه إليهم الخطاب، لأنَّه كلَّما كمل عقل الإنسان عرف كمال ما جاء به الشرع، وأنَّه يستحيل وجود قانون أو نظام أو غيرها يقارب ما جاء به القرآن كمالًا وفضلًا، ورفعة وعلوًّا ونزاهةً، ويُعرف ذلك بتتبع ما جاء به القرآن.

فمن أخلاقه وآدابه التي فاقت جميع الأخلاق: الحثُّ علىٰ الإخلاص لله في الأقوال والأفعال، والإنابة إلىٰ الله في جميع الأحوال، كما أمر الله بالإخلاص في آيات عديدة، وأثنىٰ علىٰ المخلصين والمنيبين إليه، وأخبر أنَّهم المنتفعون بالآيات.

فالإنابة هي انجذاب القلب، وإقبالُه التَّام علىٰ الله، ويتحقَّق ذلك بالإخلاص لله في كلِّ ما يأتي العبد وما يذر، في معاملته لله والقيام بعبوديّته، وفي معاملته للخلق والقيام بحقوقهم. فأصل استقامة القلب بهذين الأمرين، فإنَّ المنيب المخلص لله تعالىٰ قد استقام علىٰ الصِّراط المستقيم، وقد تواطأ ظاهره وباطنه علىٰ الخير المحض، وقد سهُلت عليه الأعمال بما في قلبه من قوة الإنابة، وما يرجو من ربه من جزيل الثواب.

ولا يخفىٰ أنَّ النصيحة التي هي الدين كما قال النبي ﷺ: «الدين النصيحة» ثلاثًا، لا يمكن وجودها ولا تمامها إلا بهذين الأمرين. فالمنيب المخلص لله لا تجده إلا ناصحًا لله ولرسوله، ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامَّتهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر:٥٤] ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم:٣١]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٩﴾ [سبأ]، ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣].

وقال في وصف النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار أفضلِ هذه الأمة: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح:٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء].

فالمُخلص لله قد علَّق قلبه بأكمل ما تعلقت به القلوب من رضوان ربِّه وطلب ثوابه، وعمل علىٰ هذا المقصد الأعلىٰ فهانت عليه المشقَّات وسهُلت عليه النفقات، وسمحت نفسه بأداء الحقوق كاملة موفرة، وعلم أنَّه قد تعوض عما فقده أفضل الأعواض وأجزل الثواب وخير الغنائم.

وأيضًا من ثمرات الإخلاص أنَّه يمنع منعًا باتًّا من قصد مراءاة الناس وطلب محمدتهم، والهرب من ذمهم، والعمل لأجلهم، والوقوف عند رضاهم وسخطهم، والتقيُّد بإرادتهم ومرادهم، وهذا هو الحرية الصحيحة ألا يكون القلب متقيِّدًا متعلِّقًا بأحدٍ من الخلق.

ومن ثمرات الإخلاص أنَّ العمل القليل من المخلص يعادل الأعمال الكثيرة من غيره، وأنَّ أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: «لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»، وأنَّه أحد السَّبعة الذين يظلّهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله، رجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه. وأنَّ المخلص يصرف الله عنه من السوء والفحشاء ما لا يصرفه عن غيره. قال تعالىٰ عن يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف] قرئ بكسر اللام وفتحها، وهما متلازمتان، لأنَّ الله تعالىٰ لإخلاصهم جعلهم من المخْلَصين.

فالمخلصون هم خُلاصة الخلق وصفوتهم، وهل يوجد أكمل ممن خلُصت إرادتهم ومقاصدهم لله وحده، طلبًا لرضاه وثوابه، وتفرَّعت أعمالهم الظاهرة والباطنة علىٰ هذا الأصل الطيِّب الجليل، ومثلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم].

ومن ثمرات الإخلاص الطيبة: أنَّ المخلص إذا عمل مع الناس إحسانًا قوليًّا، أو فعليًّا أو ماليًّا أو غيره، لم يبال بجزائهم ولا شكرهم لأنَّه عامل الله تعالىٰ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا يثني

عزمه ونشاطه قلة شكرهم له، فقد قال تعالىٰ في حق المخلصين: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان].

لما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان النوع الأول من علوم القرآن ومقاصده وهو: علم التوحيد والاعتقاد؛ ثنَّىٰ بالنوع الثاني وهو: علم الآداب والأخلاق الكاملة الواردة في القرآن الكريم.

وهذا النوع في هذا الكتاب أكثر الأنواع الثلاثة نفعًا، وأحسنها ووضعا؛ فإنَّ المتكلمين في الآداب والأخلاق قديمًا تبعوا الخطرات والوساوس، والمتكلمون فيه اليوم تبعوا أهل الإفلاس من أرباب مدارس التربية والإصلاح في الشرق والغرب ممن لم تُؤسَّس علومهم علىٰ الكتاب والسنة، فالسُّني المتبع لا يجد ترياقا شافيا، ولا مرهما مداويا أمثل من تلقي الآداب والأخلاق من كتاب الله وسنة النبي ﷺ واختص هذا الكتاب بإبراز علم الآداب والأخلاق الكاملة في القرآن الكريم، وأحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ أفرد هذا النوع بالذكر؛ لشدَّة الحاجة إليه وافتقار الخلق في صلاح أحوالهم في الدُّنيا والآخرة إلىٰ مثله، فينبغي أن يعتني طالب العلم عناية شديدة بهذا النَّوع كعنايته بالنوع المتقدم، ومما يُؤسف عليه أنَّ كثيرا من المنتسبين إلىٰ السنة والأثر تشْخَص أبصارهم، وتحرص أنفسهم عند ذكر مسائل الاعتقاد الواردة في الكتاب والسُّنّة، ولا يرفعون رأسًا ولا تسمع لهم ركزا إذا أريد جمعهم علىٰ ما يتعلق بإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق في أبواب الأدب المأثورة في الكتاب والسنة حتىٰ غدا علم الآداب والأخلاق علمًا عند كثير من ملتمسي العلم حظًّا للعامة أو لطوائف زاغت عن الصراط المستقيم من الصوفية وغيرهم، وهذا من الجهل بدين الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل ضمن هذا الدين الذي أمرنا أن نعبده به آدابًا وأخلاقا لا قيام لديننا إلا بمعرفتنا بها وامتثالنا لها، فلا يظنن أحدٌ أن باب الآداب والأخلاق بابٌ سهل المسلك؛ فإنه لو قُدِّر وجودُه كذلك علما إلا أنه يعسر وجوده في الأنفس عملا؛ فالتأدب بالآداب الكاملة والأخلاق الفاضلة يحتاج إلىٰ مجاهدة عظيمة، وتقدم أن مورِّقًا العجلي قال فيما رواه عنه ابن سعد في «الطبقات»: «تعلمت الصمت عشر سنوات» فإذا كان هذا في أدبٍ واحد، فكيف يكون ما يحتاجه الإنسان في بقية الآداب؟!

وكلام المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه من أحسن الكلام وهو حقيقٌ بالإفراد والإشاعة والإذاعة وجعلِه مقدمة يُتَعَرَّفُ بها علىٰ هذا العلم وتفاصيله بالنظر إلىٰ ما جاء في القرآن الكريم.

ووطَّأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين يدي كلامه فيه بذكر نبذة تبيِّن منزلة الأدب في القرآن الكريم؛ فذكر أن (**القرآن الكريم**

كتاب تعليم وإرشاد، وكتاب تربية علىٰ أكمل الأخلاق، وأحسن الآداب، وأسمىٰ الأوصاف) ولعَمري إنه كذلك، تارة بما تَرَسَّمَهُ الله عَزَّوَجَلَّ في الخطاب الإلهي، فإن آيات القرآن الكريم جاءت علىٰ أكمل الأدب، وكم من آية عُدِل فيها عن اللفظ المشهور المعروف عند الناس إلىٰ لفظ آخر رعاية للأدب، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما ذكر إتيان آدم حواء قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف:١٨٩]، ولما ذكر نظيره في سورة «البقرة» قال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]، وقال لما ذكر قضاء الإنسان حاجته ببول أو غائط: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [المائدة: ٦]، وعُدِل عن الألفاظ المشهورة إلىٰ هذه رعايةً للأدب، فالقرآن الكريم مبنيٌّ علىٰ الأدب، ثم إنه متضمن للأمر بالأدب، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] قال ابن عباس وغيره: «أدِّبوهم وعلِّموهم» ووصف رسولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأدب فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، ووقوع بناء الأدب في القرآن بسياقه أو بالأمر به يحتاجُ إلىٰ القول فيه في مقامٍ آخر بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

والمقصود أن تعلم أن القرآن الكريم تضمَّن جلائل الآداب وعظائمها التي تنبغي العناية بها، فينبغي عند قراءته أن يستحضر الإنسان هذا المعنىٰ، وأن يجتهد في استنباط الآداب والأخلاق الكاملة الواردة فيه.

وقد ترجم المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا النوع بقوله: (**النوع الثاني من علوم القرآن ومقاصده علم الآداب والأخلاق الكاملة**) والآداب: جمع أدب وهو: كلُّ ما يُحمد شرعًا أو عرفًا.

ذكره أبو الفضل ابن حجر في «فتح الباري».

وقال ابن القيم في «مدارج السالكين»: الأدب: اجتماعُ خصال الخير في العبد.

وما ذكره ابن القيم لا يخالف ما ذكره ابن حجر؛ فإنَّ ابن القيم عرَّفه باعتبار كونه ملكة قائمة في النَّفس، فإذا وُصف الإنسان بأنه ذو أدبٍ فالمراد: أن خصال الخير مجتمعةٌ فيه، وأما بتعريف أفراده فالقول فيها ما قال ابن حجر: إن الأدب اسم لما يحمد شرعا أو عرفا.

وأما الأخلاق فهي: جمع خُلُق، وله معنيان:

أحدهما: الدِّين كله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم] قال مجاهد وغيرُه: علىٰ دين عظيم.

والآخر: أن الخُلق اسم للمعاملة التي تجري بين المرء وغيره.

والأخلاق والآداب المذكورة في القرآن كثيرة عديدة؛ (فمن أخلاقه وآدابه التي فاقت جميع الأخلاق الحثُّ علىٰ الإخلاص لله في الأقوال والأفعال، والإنابة إلىٰ الله في جميع الأحوال) فإن الله ﷻ أمر بهما وسيذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يستقبل الآيات الآمرة بذلك، وابتدأ القول فيها ببيان حقيقة الإنابة فبين أن (الإنابة هي: انجذاب القلب) أي: ميله الشديد بالإقبال، فإن الانجذاب القلبي المقترن بالميل والإقبال هو الذي يكون إنابة، وحقيقتها الشرعية كما سبق هي: رجوع قلب العبد إلىٰ الله محبة وخوفا ورجاء.

فالإنابة شرعا: رجوع قلب العبد إلىٰ الله محبة وخوفا ورجاء.

وخُصت هذه الثلاثة بالذكر لأنها أركان العبادة التي تدور عليها؛ فإن عبادة أحدنا مُشَيَّدَة علىٰ هذه الأركان الثلاثة، والرجاء والحب والخوف، وإليهن أشرت بقولي:

أَرْكَــــانُ عِبَــــادَةِ اللهِ رَجَــــا ... حُــــبٌّ وَخَوْفُــــهُ يَــــا ذَا الْحِجــــا

أي: يا صاحب العقل.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (أصل استقامة القلب بهذين الأمرين)، أي: بالإنابة والإخلاص، وتقدَّم أن الإخلاص هو: تصفية القلب من إرادة غير الله.

وأشرنا إلىٰ عقد معناه بقولي:

إِخْلَاصُــنَا تَصْــفِيَةٌ لِلْقَلْــبِ مِــنْ ... إِرَادَةِ غَيْــرِ اللهِ فَاحْــذَرْ يَــا فَطِــنْ

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النصحية المأمور بها في الدين لا يمكن وجودها ولا تمامها إلا بالإنابة والإخلاص.

ثم شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ يورد الآيات المادحة والآمرة بالإنابة فقال: (قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر]، ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم:٣١]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [سبأ:٩]، ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [ق])

وحقيقة ذلك كله هو: الرجوع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الحال المتقدمة، والواقع في القرآن تخصيص الإنابة به ﷻ فلا تكون لغيره، فلا يقال: إن الإنابة نوعان:

أحدهما: الإنابة إلىٰ الخالق.

والآخر: الإنابة إلىٰ المخلوق.

فإن الإنابة إلىٰ المخلوق لا وجود لها في الشرع؛ فالإنابة عبادة قلبية تختص بالله، وهي نظير التوكل، فالتوكل عبادة قلبية لا تكون إلا علىٰ الله ﷻ.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآيات الآمرة بالإخلاص فقال: (قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾

[البينة: ٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر:٣]، وقال في وصف النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الفتح:٢٩]) فابتغاؤهم دليل إخلاصهم.

ثم أورد قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء].

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (المخلص لله علق قلبه بأكمل ما تعلقت به القلوب من رضوان الله وطلب ثوابه، وعمل علىٰ هذا المقصد الأعلىٰ فهانت عليه المشقات، وسهلت عليه النفقات، وسمحت نفسه بأداء الحقوق كاملة موفرة، وعلم أنه قد تعوض عما فقده أفضل الأعواض، وأجزل الثواب، وخير الغنائم) فهو لا يريد شيئا من الخلق، وإنَّما يريد فضل الله ﷻ ورضوانه؛ فلما كان هذا مطلوبُه؛ سهُل عليه ما دونه.

ثم ذكر المصنِّف من ثمرات الإخلاص أنه يمنع منعا باتا من قصد مراءاة الناس، وطلب محمدتهم، والهرَب من ذمهم؛ لأن المخلص لا يلاحظ قلبُه مدح الناس ولا ذمهم.

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حقيقة الإخلاص: أن يستوي مدح الناس، وذمهم».

فإذا استوىٰ عند الإنسان مدح الناس وذمهم كان هذا من دلائل إخلاصه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن براءة القلب وسلامته من تطلُّعه إلىٰ الناس بمدح أو ثناء، أو خوفه من ذمٍّ وعيب؛ هي الحرية الصَّحيحة، فلا يكون القلب متقيدًا متعلِّقًا بأحد من الخلق؛ فحرية قلبك هي في عبوديته لله وحده؛ فإذا كان فيه نظرٌ إلىٰ غير الله فقد صرت عبدًا له، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «النونية»:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

فيخرج الإنسان من رقٍّ في قلبه لله ويجعله لغير الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيكون في ذلك تقييد له.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (من ثمرات الإخلاص أن العمل القليل من المخلص يعادل الأعمال الكثيرة) فبالإخلاص ترتفع أجور الأعمال ومقاديرها عند الله، (وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: «لا إله إلا الله خالصا من قلبه»، وأنه أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله) إذ ذكره النبي ﷺ في حديث أبي هريرة في صحيح البخاري («رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه») فكلٌّ مخلص في عمله.

وذكر من ثمرات الإخلاص (أن المخلص يصرف الله عنه من السوء والفحشاء ما لا يصرفه عن

غيره. قال تعالىٰ عن يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف] قُرِئ بكسر اللام) "الْمُخْلِصِين" (وهما متلازمتان؛ لأن الله تعالىٰ لإخلاصهم جعلهم من المخلصين) فمن أخلص لله عَزَّوَجَلَّ رزقه الله عَزَّوَجَلَّ الخلاص؛ فالخلاص يُنال بالإخلاص، و(المخلصون هم خلاصة الخلق، وأكملهم إرادة ومقصدا، فإنهم لم يجعلوا في قلوبهم سوىٰ إرادة رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم ذكر أن ثمرات الإخلاص (أن المخلص إذا عمل مع الناس إحسانا قوليا، أو فعليا، أو ماليا، أو غيره، لم يُبال بجزائهم، ولا شكرهم؛ لأنه عامل الله تعالىٰ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يثني عزمه، ونشاطه قلة شكرهم له، فقد قال تعالىٰ في حق المخلصين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان]) فالمخلص لا يريد من الناس شيئا، فهو يحسن إليهم ولا ينتظر منهم شكرا، كما قال عَزَّوَجَلَّ عنهم في سورة «الإنسان»: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾.

ومن عمل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقع جزاؤه علىٰ الله.

وأنشدني العلامة سُليمان السُّكيت رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعْمَلْ لِوَجْهٍ وَاحِدٍ   يَكْفِيكَ كُلَّ الْأَوْجُهِ

فمن عمل لوجه الله عَزَّوَجَلَّ ولم ينتظر من الناس شيئًا كان أجره علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فكفاه الله عَزَّوَجَلَّ سائر ما يخافه، وبلَّغه مُنَاهُ، ومنحه جزاءه.

وهذه جملة من ثمرات الإخلاص، وإلَّا فإن القول فيها ممَّا جاء في القرآن أكثر من ذلك فاقتصر المصنِّف علىٰ مهماتها، وبه يعلم المرء أن من أعظم ما ينبغي أن يحدوه إلىٰ العمل: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإخلاص في كل عمل بحسبه، فالذي يأت للعلم يجب عليه أن يتعرف إلىٰ الإخلاص فيه، فيوقعه علىٰ ذلك الوجه، والذي يأتي إلىٰ الصلاة ينبغي له أن يتعرَّف وجه الإخلاص فيها فيوقعها كذلك، وعلىٰ قدر ما في القلوب من الإخلاص تتفاضل أجورُهم في الصلاة، ففي حديث عمار بن ياسر عند أبي داود وغيره بسند حسن أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، ثُلُثها، رُبُعها، خُمُسها، سُدُسها، سُبُعها، ثُمُنها، تُسُعها، عُشُرها » فذكر النبي ﷺ أن المصلين الذين يجتمعون في مسجد واحد وراء إمام واحد يتفاوتون، فمنهم من ينقلب بنصف أجره، ومنهم من ينقلب بثلث أجره، ومنهم من ينقلب بربع أجره، حتىٰ ذكر النبي ﷺ العُشُر، ومن أعظم موجبات التفاوت قوة الإخلاص في القلوب؛ فمن قوي إخلاصه في صلاته لله بإقباله علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فإذا كبر استحضر قلبه أنه بين يدي الله

عَزَّوَجَلَّ قوي إخلاصه.

قال أبو عبد الله أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رفع اليدين في أول الصلاة وضعٌ للحجاب بين يدي الله» فإذا كبر الإنسان علىٰ هذه الصفة فكإنَّما ينزل الحجاب بينه وبين ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم إن النبي ﷺ لم يذكر من ينصرف بالأجر الكامل؛ بل ذكر النصف فما دونه، ولم يذكر أحدا ينصرف بأجر كامل؛ وإنَّما أهمله ﷺ لعزَّته وقلّته، فإن الذي ينصرف بالأجر كله من الصلاة قليل عزيز، فتُرك لأجل هذا، فأكثر الناس لا يصيبون من أجور صلاتهم إلا هذه المقادير، وأحدنا لم يخرج من بيته إلا لأجل أن يفوز بالأجر كلِّه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، فينبغي أن تشتد مجاهدته في طلب تحصيل الأجر في الصَّلاة، واعلموا أن هذا الأمر ينبغي أن يقوىٰ في الصلاة أشدَّ من غيرها؛ لأنها أعظم صلة بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإذا قويت صلتك بالله في صلاتك، قويت صلتك بالله فيما سوىٰ ذلك. ومن الناس من يطلب صلة الله به إذا مسته ضراء، ويظن أنه يدركها علىٰ تلك الحال، وإنَّما تكمل إذا كان الإنسان في حال رخائه وصلاته خاصة مقبلا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب

وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

التوكل على الله والاستعانة به

خلقٌ جليل يضطر إليه العبد في أمورها كلها دينيها ودنيويها؛ لأنه وإن كان الله تعالىٰ قد أعطىٰ العبد قدرةً وإرادة تقع بها أفعاله الاختيارية ولم يجبره علىٰ شيء منها فإنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، فإذا اعتمد بقلبه اعتمادًا كليًّا قويا علىٰ ربه في تحصيل وتكميل ما يريد فعله من أمور دينه ودنياه ووثق به أعانه وقوّىٰ إرادته وقدرته، ويسّر له الأمر الذي قصده، وصرف عنه الموانع أو خففها، وتضاعفت قوة العبد وازدادت قدرته، لأنَّه استمدَّ واستماح من قوة الله التي لا تنفد ولا تبيد.

والتوكُّل الحقيقي يطرد عن العبد الكسل، ويوجِب له النشاط التام علىٰ الأمر الذي توكَّل علىٰ الله به، ولا يتصاعب شاقًّا، ولا يستثقل أي عمل، ولا ييأس من النجاح وحصول مطلوبه، عكس ما يظنه بعض المنحرفين الذين لم يفهموا معنىٰ التوكل، أو فهموه لكن إنكار القدر والقضاء صرفهم عن الحق، فحسبوا أنَّ التوكل يضعف الهمة والإرادة، وأساءوا غاية الإساءة حيث ظنوا بربهم الظن السوء، فإنَّ الله

أمر بالتوكل في آيات كثيرة.

وأخبر أنَّه من لوازم الإيمان ووعد المتوكلين: الكفاية وحصول المطلوب، وأخبر أنَّه يحبِّهم، وأنَّه لا يتم الدين إلَّا به، ولا تتم الأمور إلا به، فالدِّين والدُّنيا مفتقرات إلىٰ التوكُّل.

قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة]، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣]، ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ [التوبة]، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ [الأعراف:٨٩]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق:٣]، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾.

وللتوكل فوائد عظيمة:

منها: أنَّه لا يتم الإيمان والدين إلا به، وكذلك لا تتم الأقوال والأفعال والإرادات إلا به.

ومنها: أنَّ من توكل علىٰ الله كفاه، فإذا وعد الله عبده بالكفاية إذا توكل عليه، عُلِمَ أنَّ ما يحصل من الأمور الدينية والدنيوية، وأحوال الرزق وغيرها بالتوكل أعظم بكثير مما يحصل إن حصل إذا انقطع قلب العبد من التوكُّل.

ومنها: أنَّ التوكل علىٰ الله أكبر سببٍ لتيسير الأمر الذي تُوكِّل عليه وتكميلِه وتتميمِه، ودفع الموانع الحائلة بينه وبين تكميله.

ومنها: أنَّ المتوكل علىٰ الله قد علم أنَّه اعتمد في توكله، واستند إلىٰ من جميعُ الأمور كلِّها في مُلكه، وتحت تصريفه وتدبيره، ومن جملتها: فِعل العبد، فكلما فترت همته وضعُف نشاطه أَمَدَّه هذا التوكل بقوة إلىٰ قوته، وقد وثق بكفاية ربه، والوثوق والطمع في حصول المطلوب لا شك أنَّه من أعظم الأسباب الباعثة علىٰ الأعمال المرغبة فيها، وهذا أمرٌ مشاهد معلوم.

ومنها: أنَّ المتوكل علىٰ الله حقيقة قد أبدىٰ الافتقار التام إلىٰ ربِّه، وتبرأ من حوله وقوته، ولم يُعجب بشيء من عمله، ولم يتكل علىٰ نفسه لعلمه أنَّها ضعيفة مهينة، سريعة الانحلال، بل لجأ في ذلك إلىٰ ربه، مستعينًا به في حصول مطلوبه.

وهذا هو الغِنَىٰ الحقيقي، لأنَّه استغنىٰ بربه وكفايته، وهو مع ذلك قد أبدىٰ غاية المجهود، فتبين أنَّ التوكل لا ينافي القيام بالأسباب الدينية والدنيوية، بل تمامُه بفعلها بقوة صادقة وهمة عالية، معتمدة علىٰ قوة القوي العزيز.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أدبين آخرين من الآداب المذكورة في القرآن الكريم وطوىٰ أحدهما في

الثاني، فإنه ترجم بقوله: (**التوكل علىٰ الله والاستعانة به**) ثم أفاض في بيان ما يتعلق بالتوكل، ولم يذكر الاستعانة، ووجه ذلك هو أن الاستعانة منطوية في التوكُّل، فإنَّ توكل العبد لا يتم إلا بتعاطي الأسباب التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها في تحصيل المقصود، إلَّا أن هذه الأسباب غير مستقلَّة في إفادة العبد بمطلوبه بل العبد فيها محتاج إلىٰ الاستعانة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلكون الاستعانة مندرجة في حقيقة التوكل جعل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قوله في التوكل أصالة؛ وإن كان بينهما فرق.

فإن التوكل شرعًا هو إظهار العبد عجزه واعتماده علىٰ الله.

وأما الاستعانة فهي شرعًا: طلب العبد العون من الله في الوصول إلىٰ المقصود.

ثم شرع المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يبين جلالة التوكل وأنه خلق عظيم، فالمرء وإن أعطي قدرة واختيارًا تقع بها أفعاله الاختيارية ولم يجبره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ شيء منها إلا أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، فهو في دَرْكِ مطالبه وتحصيل مراداته لا مُكنة له عليها إلا بعون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيحتاج إلىٰ تفويض الأمر له، وهذه حقيقة التوكُّل فإذا اعتمد بقلبه اعتمادًا كليًّا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووثق به أعانه الله وقوىٰ إرادته وقدرته ويسر له الأسباب التي توصله إلىٰ مقصوده وصرف عنه الموانع أو خفَّفها.

ثم ذكر أن قوة العبد فيه تضاعف وتزداد قدرة، وعلَّل ذلك بقوله: (**لأنَّه استمد واستماح من قوة الله التي لا تنفد ولا تبيد**) أي عول علىٰ إعانة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له وإمداده بقوته وإغاثته بقدرة تمكنه من الوصول إلىٰ مطلوبه.

ثم بين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ منفعة التوكل بقوله: (**والتوكل الحقيقي يطرد عن العبد الكسل**) أي: لا يصيب العبد معه كسل بل يجب له بهذه الخِلّة حصول النشاط التّام علىٰ الأمر الذي توكل علىٰ الله به، لأنه قد فوَّض أمره إلىٰ عظيم، ومن فوض أمره علىٰ عظيم ولا أعظم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووثق به كان في تفويضه أمره إليه أبلغَ وازع في الاستمرار علىٰ تحصيل مقصوده والتمادي فيه، وبين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن المنفعة المتقدمة في التوكل وهي حصول النشاط وطرد الكسل هي عكس ما يظنه بعض المنحرفين الذين لم يفهموا معنىٰ التوكل، أو فهموا معنىٰ التوكل؛ لكن إنكار القضاء والقدر صرفهم عن الحق، فهم يظنون أنَّ التوكل تفويض الأمر إلىٰ الله مع عدم تعاطي الأسباب، أو يفهمون أن حقيقة التوكل تفويض الأمر إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وتعاطي الأسباب لكنهم ينكرون قدر الله وقضاءه، فهم يعظمون هذه الأسباب ويزعمون بعد ذلك أن التوكل يضعف الهمة والإرادة، وهذا من ظنهم السوءَ بربهم.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من منفعة التوكل أنه من لوازم الإيمان، (**ووعَد**) أي الله (**المتوكلين**:

الكفاية وحصول المطلوب، وأخبر أنَّه يحبهم، وأنَّه لا يتم الدين إلا به، ولا تتم الأمور إلا به، فالدين والدنيا مفتقرات إلىٰ التوكل) والجمع في قوله: (مفتقرات). باعتبار موصوف محذوف تقديره فأمور، فكأن سياق الكلام (فأمور الدين والدنيا مفتقرات إلىٰ التوكل).

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ آيا من القرآن الكريم تدل علىٰ رتبة التوكل نظم فيها بعد ذلك الفوائد المستفادة من التوكل المأخوذة من هذه الدلائل فقال: (وللتوكل فوائد عظيمة:

منها: أنَّه لا يتم الإيمان والدين إلا به، وكذلك لا تتم الأقوال والأفعال والإرادات إلا به) وهو مبني علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ فحصول الإيمان موقوف علىٰ وجود التوكل علىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(ومنها: أنَّ من توكل علىٰ الله كفاه، فإذا وعد الله عبده بالكفاية إذا توكل عليه، عُلِمَ أنَّ ما يحصل من الأمور الدينية والدنيوية، وأحوال الرزق وغيرها بالتوكل أعظم بكثير مما يحصل إن حصل إذا انقطع قلب العبد عن التوكل) وشاهده قوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي كافيني الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ أي فهو كافيه، فمن توكل علىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حصل الكفاية.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من فوائد التوكل: (أنَّ التوكل علىٰ الله أكبر سبب لتيسير الأمر الذي تُوكِّل عليه وتكميلِه وتتميمِه، ودفع الموانع الحائلة بينه وبين تكميله) لأن العبد إذا توكل علىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان مستعينًا به، ومن استعان بالله أعانه الله عَزَّ وَجَلَّ، فالتوكل من أكبر الأسباب التي تتيسر بها الأمور.

(ومنها: أنَّ المتوكل علىٰ الله قد علم أنَّه اعتمد في توكله، واستند إلىٰ من جميعُ الأمور كلِّها في ملكه، وتحت تصريفه وتدبيره)، فالذي يفوض أمره إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم أن الأمر كله لله، وأن الحكم كله لله وأن الملك كله لله، فما شاء الله أمضاه، وما لم يشأ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يمضه، فالواثق في هذا الأصل يكون أعظم وأبلغ ممد له بالقوة هو شهوده هذا الأمر وهو ثقته بالله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(ومنها: أنَّ المتوكل علىٰ الله حقيقة قد أبدىٰ الافتقار التام إلىٰ ربه، وتبرأ من حوله وقوته) لأن حقيقته أنه يفوض هذا الأمر إلىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو لا يكل الأمر إلىٰ نفسه، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ فإن المستعين بالله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متبرئ من كل حول وقدرة، فهو متبرئ من جميع أفراد أخلاق الكبرياء.

قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع داء الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع داء الكبرياء، نقله تلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين» فإذا قال العبد: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تبرأ من كل كبر وتجبر في قلبه أن تكون له قدرة علىٰ شيء، وفوض الأمر إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأبدىٰ افتقاره، (**ولم يتكل علىٰ نفسه لعلمه أنَّها ضعيفة مهينة، سريعة الانحلال**) فإن نفس الإنسان أعجل شيء يفوته إذا وكل أمره إليها، فإن أعدىٰ عدوك نفسك التي بين جنبيك، وروي في هذا حديث لا يصح، لكن الشرع جاء بالتنبيه علىٰ تبرؤ الإنسان من حوله وقدرته كما في حديث فاطمة عند النسائي وإسناده حسن في «**عمل اليوم والليلة**» وفيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ولا تكِلني إلىٰ نفسي طرفة عين**»، فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع كمال حاله متبرِّئًا من الثقة بنفسه فإنَّ غيره أولىٰ بالبراءة من الثقة بالنفس؛ لأن النفس لا يعول عليها فإنها كثيرة التقلُّب، وهي تارةً لوامة، وتارة أمَّارة بالسوء، فما كان متقلبًا لا ينبغي التعويل عليه، ومن الكلمات الباطلة الرائجة بين الناس قولهم: تجب الثقة بالنفس. فإن هذه الكلمة مخالفة لما أرشد إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «**ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين**» وهم يريدون بها وجود العزم، فمرادُهم صحيح، لكن اللفظ الذي أرادوه ليس صحيحًا، فهم يقولون: يجب أن يكون عند الإنسان ثقة في الوصول إلىٰ مقصوده، وأرادوا معنىٰ ذلك أن تكون له عزيمة واجتهاد في تحصيل مقصوده، وهذا المعنىٰ حق، لكن اللفظ الذي وضعوه ليس بحق، فإنَّ الثقة بالنفس لا تجوز، وقد سئل العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: هل تجب الثقة بالنفس؟ قال: "**بل لا تجوز**" انتهىٰ كلامه، يعني لا يجوز الإنسان أن يعول علىٰ نفسه أبدًا لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبه إلىٰ طلب التبرؤ منها وعدم الركون إليها لأنها لا تغني من الإنسان شيئًا كما قال الشاعر:

إذا لم يكن من الله عون للفتىٰ ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقال الآخر:

إذا لم يكن من الله عون للفتىٰ ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد

ثم بين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن البراءة من الحول وعدم التعلق بالثقة بالنفس هو الغنىٰ الحقيقي؛ لأن المتبرئ من حوله وقوته قد فوض أمره إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو المستغني حقيقة بسببٍ وثيق، وهو الغنىٰ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو كافِيه، ولا كافي سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا عُلم أنه لا كافي سواه عُلم أن أيَّ لفظ يدل علىٰ خلاف ذلك فإنه ممنوع، فإنَّ الكفاية بأحد من الخلق لا تكون، ولذلك جاءت الآيات في باب التوكُّل دالة علىٰ الحصر تارة مثل قوله تعالىٰ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ أو قوله تعالىٰ: ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أو قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للتنبيه إلىٰ وجوب التباعد عن كل ما يخالف ذلك إما من لفظ وإما من فعل، ومن الرائج علىٰ ألسنة الناس في بعض البلدان قولهم عند التعريف بأحدهم: محسوبك فلان. ولا محسوب إلا الله ﷻ، فإن معنىٰ محسوبك فلان: يعني كافيك فلان، والكفاية لا تكون إلا من الله ﷻ فلا يجب أن يكون لأحد من الخلق تعلق بالكفاية من أحد من الخلق.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن العبد المستغني بربه ومكتفيًا به هو مع ذلك قد أبدىٰ غاية المجهود؛ أي بذل غاية المجهود بتعاطي الأسباب، (**فتبين أنَّ التوكل لا ينافي القيام بالأسباب الدينية والدنيوية**) بل ذلك من شرط صحة التوكل، فإن الذي يفوِّض أمره ويظهر عجزه دون تعاطي الأسباب التي أمر بها الشرع أو جرىٰ بها العقل فإنه لا يكون متوكلًا توكلًا صحيحًا، (**بل تمامه بفعلها**) أي باتخاذ الأسباب (**بقوة صادقة وهمة عالية، معتمدة علىٰ قوة القوي العزيز**) فإن هذه الأسباب لا تستقل بنفسها في المنع أو العطاء، فهي تابعة لقدر الله ﷻ، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل في كونه سننًا مضطردة فينبغي علىٰ العبد أن يسلك هذه السنن، فإن المرء لا يُرزق ولدًا بلا نكاح، والمرء لا يقطف ثمرًا بلا شجر، فينبغي أن يسلك المرء هذه الأسباب التي قدرها الله ﷻ مع كمال تفويض أمره إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، وأمر التوكل عظيم، فإن الإنسان محتاج إليه في كل أحواله كلها، وهو ليس محتاجًا إلىٰ مجرد معناه بل محتاج إلىٰ حقيقة ثبوته في القلب، ففي حديث عمر عند أحمد أن النبي ﷺ قال: «**لو أنكم توكلوا علىٰ الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**» فإن قوله ﷺ: «**لو أنَّكم توكلوا علىٰ الله حق توكله**» فيه إنباهٌ إلىٰ التوكُّل المطلوب وهو التوكل الحق، أي: الذي لا تخالطه شائبة سواء من تطلع الإنسان إلىٰ نفسه ووثوقه بها، أو من تطلُّع الإنسان إلىٰ الأسباب المحيطة بمطلوبه، فلا يتمكَّن المرء من الوصول إلىٰ التوكل الحق إلا بتجريد نفسه من نظرين:

أحدهما: من نظره إلىٰ قوته هو.

والآخر: من نظره إلىٰ الأسباب التي قدَّرها الله ﷻ.

فإذا خلا نظره من التعلق بهذا وذاك فإنه يصل إلىٰ حق التوكل، وهذا الأمر يحتاج إلىٰ دوام مجاهدة، فإن الإنسان محتاجٌ إلىٰ التوكل علىٰ الله ﷻ في صغير أمره وكبيره، وسرِّه وعلنه، ومن أعظم أسباب العون والقوة هو التوكل علىٰ الله ﷻ، فإنَّ الإنسان إذا توكل علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ وهبه الله عَزَّ وَجَلَّ قوَّةً روحانية لا تقف أمامها القوىٰ التي اعتادها البشر، فيحصل للمتوكِّل علىٰ الله حقًّا من الصعود والعلو، والمُكنة في

أرض الله ﷻ ما لا يكون لغيره من المتوكِّلين، فمن صدَق مع الله ﷻ وفوض أمره إلىٰ الله ﷻ أوقع الله ﷻ له من خوارق العادات من التوفيق والإعانة والمدد والتسديد ما لا يكون علىٰ بال أحد.

ومن لطائف القصص التي تُحكىٰ وتُسجىٰ في مثل هذه المحال أن رجالًا كانوا في الزَّمن السابق ممن يذهبون إلىٰ بلدان أخرىٰ في ركائب -أي: في نوق- يطلبون مَيرة أي تمرًا أو غيره من أنواع الغذاء، فكان أحدهم مما يجري علىٰ لسانه إذا ذكر له شيء مما يكرهه ركب الطريق قال: عسىٰ أن يكون في الأمر خيرة، ومثل هذه المقالة فيها تفويض إلىٰ الله ﷻ، فهم إذا وقع منهم بعير فانكسر قال: عسىٰ أن يكون في ذلك خيرة، فالركب المسافر يشق عليه وجدان مثل هذه المعاني فيه فعمد أحد أصحابه ليلًا إلىٰ بعيره فاقتاده فربطه في مكان بعيد ثم رجع، فلما أصبحوا قالوا له: يا فلان؛ إن بعيرك قد ضاع، وليس موجودًا مع الإبل المقيدة، فذهب ينظر هاهنا وهاهنا فلم يجده، فقال: لعل في الأمر خيرة. فضحكوا منه، وهم قد أزمعوا علىٰ أن يفعلوا به هذا الأمر لأنهم سيركبون علىٰ النوق ويمشون وهو سيمشي علىٰ رجليه، فلما مشوا مع طلوع الفجر مريدين الوصول إلىٰ بلدة الأحساء لأنهم كانوا يمتارون التمر منها، فما باعدوا موضعهم الذي كانوا فيه حتىٰ أغار عليهم بعض قطاع الطريق فسلبوهم إبلهم التي كانت معهم، وسلاحهم الذي كان معهم، فلما رأوا ما انتهوا إليه بعد انصراف هؤلاء الذين أخذوا ركائبهم قالوا لفلان: يا فلان لا نظن أن الله عاقبنا إلا بضحكنا بك. فأخبروه أن ناقته مربوطة في المكان الفلاني فذهب وأحضرها فوصل إلىٰ الأحساء علىٰ جمل ووصلوا هم يمشون، وهذا من شواهد صِدْق التوكل علىٰ الله ﷻ أن الله ﷻ يجعل لصاحبه قوَّة ومددًا وإعانة، وتوفيقًا.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة.

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين،

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

النصيحة

أخبر ﷺ أنَّ الدِّين النَّصيحة، كررها ثلاثًا، وفسّرها بأنَّها النصيحة لله، ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامّتهم.

وأخبر تعالىٰ أنَّ النصيحة طريقة أنبيائه وأصفيائه، وأخبر أنَّ الحرج منفيٌّ عمن نصح لله ولرسوله.

فالنصيحة لله: هي القيام التام بحقوقه علمًا وعملًا، ودعوة وتنفيذًا.

والنصيحة لكتابه: الاجتهاد في معرفة ألفاظه ومعانيه، والعمل به والدعوة لذلك.

والنصيحة لرسوله: الإيمان به، ومحبته واتباعه، ونصر سنته، وتقديم هديه علىٰ هدي كلِّ أحد، والاجتهاد في كلِّ ما يحبه.

والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم: أن يحب لهم الخير، ويكره لهم الشر، ويسعىٰ في ذلك بحسب مقدوره، فيعلّم جاهلهم، ويرشد منحرفهم، ويذكر غافلهم، ويعظ معرضهم ومعارضهم، ويدعو إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ويسلك كلَّ طريق فيه صلاحٌ لإخوانه المسلمين، ويسعىٰ في تأليف ذات بينهم، وفي إرشادِهم علىٰ اختلاف طبقاتهم لمصالح دينهم ودنياهم، كلُّ أحدٍ علىٰ حسب حاله.

وللنصيحة فوائد عظيمة:

منها: أنَّ الدين لا يتم إلا بها، بل هي الدين كما ذكره ﷺ.

ومنها: أنَّ الناصح لله ولرسوله ولكتابه وللخَلق نفسُ عملِ قلبه هذا واستعداده وتهيئته للنصيحة من أكبر الأعمال المقرِّبة إلىٰ رب العالمين، فما تقرّب أحد إلىٰ الله بمثل توطين النفس علىٰ النصيحة الشرعية المذكورة، فالنَّاصح في عبادة مستمرة إن قام أو قعد، أو عمل، أو ترك العمل.

ومنها: أنَّ من عجز عن العمل الديني إذا كان ناصحًا لله ولرسوله، ناويًا الخير إذا تيسر له، فإنَّه لا حرج عليه، ويشارك العاملين في عملهم، فإنَّما الأعمال بالنيات.

ومنها: أنَّ الله ييسر للناصح الصادق أمورًا لا تخطر له علىٰ بال، وأنَّ الساعي في نفع المسلمين إذا كان قصده النصيحة، فإنَّه يُفلح وينجح، فإنْ تم ما سعىٰ له فعلًا وهو الغالب وإلا تمَّ أجرُهُ، فمن عجَز عن بعض عمل قد شرع فيه تمّم له ذلك العمل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

ومنها: السلامة من الغش، فإنَّ من غشّ المسلمين في دينهم ودنياهم فليس منهم، والغش من أشنع الخصال القبيحة في حقِّ القريب والبعيد، والمخالف والموافق.

فهذا القرآن العظيم يدعو إلىٰ هذا الخلق الذي هو أفضل الأخلاق، وهو النصيحة التي أسس عليها دين الإسلام، وقام عليها بنيانه، وبان بها فضله علىٰ كلِّ شيء، فإنَّ النصح لكلِّ أحد محمود شرعًا وعقلًا وفطرة، وضده قبيح شرعًا وعقلًا وفطرة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ خلقًا آخر من الأخلاق والآداب المبينة في القرآن الكريم وهو النصيحة؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر النصيحة غير مرة في القرآن الكريم بنسبتها إلىٰ الأنبياء، ولم يقع في القرآن قط نسبة النصيحة إلىٰ ربنا عَزَّ وَجَلَّ، ولا جاء ذلك في شيء من الأحاديث مع كون حقيقة النصيحة تدعو إلىٰ ذلك عند الناظر، لكن لما كانت تلك الحقيقة مما لا يصلح في حقِّ الله امتنعت، فلم يأت في القرآن قط أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ناصح لخلقه، أو ينصح لهم؛ لأن حقيقة النصيحة هي قيام الناصح بما للمنصوح من حقّ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس عليه حق مفروض، فلما كان الله عَزَّ وَجَلَّ متقدِّسا عن إيجاب حقٍّ عليه امتنع نسبة النصح إليه، وليس علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حق واجب، وإنَّما يتفضل الله عَزَّ وَجَلَّ بما شاء من جعله حقًّا علىٰ نفسه، فنفي الحق عنه المراد به نفي الحق اللازم عليه بالنظر إلىٰ حال الخلق، فبملاحظة هذا لا يجب علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ شيء.

وأما بالنظر إلىٰ ما يتفضل به الله عَزَّ وَجَلَّ ويمتن به فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يتفضَّل بأن يجعل للخلق حقًّا علىٰ نفسه وهذا واقعٌ في جملة من الأحاديث النبوية.

وابتدأ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن مقدار النَّصيحة بما ذكره من أن النبي ﷺ أخبر أن الدِّين النصيحة، مُشيرًا إلىٰ حديث تميم الداري عند مسلم وفيه أنَّ النبي ﷺ قال: «الدِّين النصيحة» وعظم المصنِّف ذلك بقوله: (**وكررها ثلاثًا**) يعني النبي ﷺ، والتكرير ليس عند مسلم؛ بل رواه أبو داود وغيره، وهو غير محفوظ، والمحفوظ في الحديث «الدِّين النصيحة».

ثم ذكر أنها فسرت بأنها (**النصيحة لله ولكتابه..**) إلىٰ تمام كلامه أي في قولهم قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» وهذا تفسير للنصيحة بالإشارة إلىٰ مستحقِّها الذي يجب أن تُصرف له، لا باعتبار حقيقتها فإنَّ حقيقتها النَّصيحة كما سلف قيام الناصح بما للمنصوح من حقٍّ.

ثم ذكر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبر أنَّ النصيحة طريقة أنبيائه وأصفيائه، وأخبر أنَّ الحرج منفيٌّ عمن نصح لله ولرسوله ﷺ، وهذا هو وجه ذكرها وطريقته في القرآن الكريم كما سلف، فالنَّصيحة لله هي القيام التام بحقوقه، وهذه الجُملة وما بعدها شروعٌ في تفسير حقيقة النصيحة التي تكون لله ولرسوله ولأئمة المُسلمين وعامتهم وللقرآن الكريم.

وابتدأ ذلك بقوله: (**فالنصيحة لله هي القيام التام بحقوقه علمًا وعملًا، ودعوة وتنفيذًا**) فكل حق لله عَزَّ وَجَلَّ فالقيام به من جملة النصيحة لله، (**والنصيحة لكتابه: هي الاجتهاد في معرفة ألفاظه ومعانيه والعمل به والدعوة لذلك**).

(**والنصيحة لرسوله: الإيمان به، ومحبته واتباعه، ونصر سنته، وتقديم هديه علىٰ هدي كلِّ أحد، والاجتهاد في كلِّ ما يحبه**).

(**والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم: أن يحب لهم الخير، ويكره لهم الشر، ويسعىٰ في ذلك بحسب مقدوره..**) إلىٰ آخر ما ذكر.

وهذه المذكورات في كلام المصنِّف لها نظائرُ في كلام غيره، وكلٌّ واحد منهم لم يقصد الاستيعاب وإنَّما أراد الإشارة إلىٰ جُملةٍ من المعاني التي تندرج في النصيحة لله، أو لكتابه، أو لرسوله، أو لأئمة المسلمين وعامَّتهم.

وجماعُها الحاوي لها: هو كما تقدَّم الحقوق اللازمة، فكل حقٍّ لله فالقيام به نصيحة له، وكل حق لكتاب الله فالقيام به نصيحة له، وكل حقٍّ للرسول ﷺ فالقيام به نصيحةٌ له، وكل حق لأئمة المسلمين وعامتهم فالقيام به نصيحة لهم.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فوائد النصيحة فقال: (**وللنصيحة فوائد عظيمة:**

منها: أنَّ الدِّين لا يتم إلا بها، بل هي الدِّين كما ذكره ﷺ) أي في قوله: «الدِّين النصيحة» فإن تعريف طرفي الجملة المبتدأ والخبر دالٌّ علىٰ قَصْرها وحصرها فيها، فالدِّين كلُّه النصيحة، فلا يخرج فرد من أفراد المأمور به في الدين عن كونه نصيحة لله أو لرسوله أو للقرآن، أو لأئمة المسلمين وعامتهم، فالنصيحة هي جِماع الدِّين.

(**ومنها: أن الناصح لله ولرسوله ولكتابه وللخلق نفس عمل قلبه هذا واستعداده وتهيئته للنصيحة من أكبر الأعمال المقربة إلىٰ رب العالمين**) فإذا وطَّن العبد نفسه علىٰ ابتغاء النصيحة لمن أُمر بنُصحه كان جريان هذا المعنىٰ في قلبه واستقراره في خاطره قربةً يتقرب به إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ويُثيبه الله عَزَّوَجَلَّ عليها الثواب الحسن، (**فما تقرّب أحد إلىٰ الله بمثل توطين النفس علىٰ النصيحة الشرعية المذكورة، فالناصح في عبادة مستمرة إن قام أو قعد، أو عمل، أو ترك العمل**). وبهذا يحصل تفاضل الخلق، لأن توطين النفس علىٰ النصيحة مما يشق عليها، فإن النفس طلابة لحقها، جماعة لمرادها، فهي لا تبالي بفوات شيء بغيرها إذا كان في مصلحتها، فيفوت بهذا المعنىٰ شيء من النصيحة لله أو لكتابه أو لرسوله أو لأئمة المسلمين وعامّتهم، وقلَّ من النفوس نفسٌ تخلص من هذا الوارد، وربما استمرأت بعض النفوس تلك العادة فصارت صارفةً لها عن كثير من الخير، آبيةً عن الإقبال علىٰ الحق، فإن اشمخاخ الإنسان بأنفه وتعظيمه نفسه وعدم قبوله الحق من غيره ومسارعته إلىٰ خلافه دالٌّ علىٰ خلوِّ قلبه أو ضعف ذلك فيه، أعني

النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم، فمن أراد أن يحصّل النَّصيحة عبادة تامة احتاج إلىٰ مجاهدةٍ عظيمة لنفسه كي يخلصها من حظِّها، وهذا معنىٰ قول أبي العباس ابن تيمية الحفيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"العارف لا يطالب ولا يعاتب ولا يغالب"**، فمن عرف الله بكمال علمه وحسن عمله فإنه لا يطالب الخلق بشيء، ولا يعاتبهم علىٰ شيء، ولا يغالبهم في شيء، وهذا هو الناصح حقًّا القائم بالنصيحة المشروعة علىٰ الوجه الأكمل، وبها يحصُل السَّبق، فإن سبق الإنسان غيره بالخير ورِفعة الرتبة عند الله عَزَّوَجَلَّ بحسب ما في قلبه من النَّصيحة، ولأجل هذا دأب جماعةٌ من المصنِّفين في ذكر النصيحة من جملة اعتقاد أهل السُّنّة والجماعة كما قال ابن سعدي في عقيدته: (**ويدينون بالنصيحة للمسلمين فهم يرون أن من الواجب عليهم أن ينصحوا المسلمين جميعًا موافقهم ومخالفهم**)، ومن المحفوظ عندكم أثر بكر بن عبد الله المزني أنه قال: **"ما سبقهم أبو بكرٍ بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في القلب"**.

قال الفضيل بن عياض: **"الذي وقر في القلب الصدق ونصيحة المسلمين"** وصدق أبو علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان نصّاحًا للمسلمين صادقًا في دعوتهم إلىٰ ما فيه منفعتهم ومصلحتهم في الدارين.

ومن فوائد النصيحة أيضًا: (**أنَّ من عجز عن العمل الديني إذا كان ناصحًا لله ولرسوله، ناويًا الخير إذا تيسَّر له، فإنَّه لا حرج عليه، ويشارك العاملين في عملهم، فإنَّما الأعمال بالنيَّات**). ورُبَّ نية سبقت عملًا فقد ينوي الإنسان الخير ثم لا يقدر عليه أو يحال بينه وبينه، فإذا كان قلبُه منطويًا ابتغاء بذل النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمَّة المسلمين وعامتهم فإنه يحصِّل ثواب هذا العمل.

ومن فوائد النصيحة: (**أنَّ الله ييسر للناصح الصادق أمورًا لا تخطر له علىٰ بال، وأنَّ الساعي في نفع المسلمين إذا كان قصدُه النصيحة، فإنَّه يفلح وينجح، فإنْ تم ما سعىٰ له فعلًا وهو الغالب وإلا تمَّ أجرُهُ، فمن عجز عن بعض عمل قد شرع فيه تُمِّم له ذلك العمل**). واستدل المصنِّف بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فالنُّصح والصدق يحدث بها للعبد أهوالٌ وأمور وفتوحات لا يقدر المرء علىٰ اكتسابها بمثل صلاح قلبه بالنَّصيحة والصدق فيها للمسلمين.

ومن فوائد النصيحة أيضًا: (**السلامة من الغش**) بأن يخلو قلبه منه، فإن الغش لا يجامع النصيحة، وما دخلت النصيحة قلب عبد إلا خرج الغش منه، ولا دخل الغش قلب عبدٍ إلا خرجت النصيحة منه، فإن الغش والنصيحة لا يجتمعان في قلب كما لا يجتمع الضَّب والحوت في مقام، فكما يمتنع اجتماع

ضب بري وحوت بحري في موضع واحد فإنه يمتنع أن تجتمع النصيحة والغش في قلب أحد يكمل إيمانه، فمن غش المسلمين في دينهم ودنياهم فليس منهم كما في حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم»: «من غشنا فليس منا» فمن كان غاشًا فإن النصيحة خارجة من قلبه، (**والغش من أشنع الخصال القبيحة في حق القريب والبعيد، والمخالف والموافق**) فإن النفس الأبية والمرء التقي لا يجامع قلبَه إرادة غش الناس ولو كانوا مخالفين له، فإن الخلاف لمسلم أو غير مسلم لا يحمل الإنسان علىٰ مخالفة أمر الشريعة، والشريعة جاءت بالأمر بالنصيحة، فيجب علىٰ العبد أن يسلك النصيحة مع المحب والمبغض، والقريب والبعيد، والمخالف والموافق، والمسلم والكافر، لأنها أصلٌ من أصول الدِّين، ومن وعىٰ هذا هانت عليه الأمور كلها، فإنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما علموا أن وظيفتهم التي أمروا بها من الرسالة هي النصيحة للخلق بدلالتهم وإرشادهم ترغيبًا وترهيبًا سكَنت قلوبهم إلىٰ الله ﷻ، واطمأنَّت نفوسهم، فهم لا يبالون أجابهم واحد أم لم يُجبهم أحد، فإن ترك إجابتهم لا يخرج عنهم وصف النبوة، وفي الصحيح من حديث ابن عباس «ويأتي النبي وليس معه أحد» وفي ذلك فائدتان عظيمتان:

إحداهما: أن عدم تحقُّق المقصود من نصح الخلق لا يخرج العبد عن وصف الناصح، كما أنَّ النبي بذل ما أمر به من البلاغ ولم يُجبه أحد فبقي نبيًّا كما شرفه الله عَزَّوَجَلَّ به.

وثانيهما: أن استجابة الخلق ليست من علامات صحَّة النصيحة أو فسادها، فالإنسان قد تصح نصيحته ولا يقبل منه أحد، ومنهم من يغُش الناس ويقبل منه العشرات، فليس هذا مقياسًا لمعرفة المحق من المبطل، والصادق من الكاذب، ولكن المقياس هو أن تؤخذ أقواله وأفعاله وما يدعو إليه فتوزن بالكتاب والسنة، فإن كانت حقًّا صارت حقًّا ولو لم يجبه أحد، وإن كانت باطلًا فهي باطل وإن أجابه كل أحد.

وعند ابن عساكر بسند صحيح عن ابن مسعود أنه كان يقول: **"أنت الجماعة إذا كنت علىٰ الحق ولو كنت وحدك"**، فالناصح لا ينبغي له أن يلاحظ كثرة الناس وقلتهم، وإقبالهم وإدبارهم؛ بل ينبغي له أن ينظر بعين الرعاية إلىٰ موافقته أمر الله ﷻ، وقديمًا أشار علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ هذا فيما رواه أبو نعيم بسند لا بأس به في وصيته لكُميل بن زياد أن عليًّا قال: **"الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم علىٰ سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق"** فمن ظن أن حسن نصحه أو سوءه يرجع إلىٰ كثرة الناس وقلتهم فذلك غلط منه في فهم حقيقة ما أمر الله ﷻ به من نصيحة الخلق، كما أن النصيحة للخلق لا تعني الشدة عليهم كما لا

تعني التهاون معهم؛ بل تعني استعمال كُلٍ في موضعه، فإن من المواضع ما تكون النصيحة فيه داعية إلىٰ الحزم، ومن المواضع ما تكون النصيحة فيه داعية إلىٰ اللين وفق ما أمر الله ﷻ به، ولا يميِّز هذا إلا من جعل الله ﷻ له علمًا وافرًا وبصيرةً إيمانية، فإذا اجتمعا هذان الأمران وُفِّق العبد إلىٰ الخير، ورب إنسان تجد عنده علمًا؛ ولكن لا تجد عنده بصيرة إيمانية، فإنَّ الذي ينظر بنور الله ﷻ هو الذي يوفق للخير، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عند وفاته أوصىٰ الناس أن يسألوا بعده عبد الوهاب الورَّاق، ولم يكن عبد الوهاب أعظم أصحاب أحمد في العلم؛ ولكنه كان رجلًا صالحًا تقيًّا كما قال أحمد: **"يوشك أن يُسأل فيجيب فيسدد"**، فلما كان علىٰ هذا الوصف استحق أن يُرشَد الناس إليه لأن مثل هذا هو الذي يكون صالحًا لنصح الخلق، أما الإنسان الذي يُجاري الناس فيما أحبوا ويزعم أن النصيحة أن تستعمل معهم هذا ويجاريهم فيما أبغضوا، ويزعُم أن النصيحة هي هذه، فليس ذلك من النصيحة حقًّا، بل النصيحة حقًّا هو أن يبين لهم الدِّين ولو أبغضوه، وكان بعض السلف يقول: **"إذ رأيتَ جيران الرجل يحبونه فاتهمه"** وهذه مبالغة منه لأن الذي يقوم بالنصيحة للخلق ربما حصل منه استعمال الحزم في مواضعه فكرهه بعض الناس، فإن الواقع في المُنكر يكرهوا النهي عنه، لكن الناصح لا ينبغي له أن يغادر هذا لأجل الناس، وإنَّما يجعل مراده دائرًا مع الله ﷻ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية:

فلواحـدٍ كـن واحـدًا في واحـد أعنـي طريـق الحـق والإيمـان

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن (**هذا القرآن العظيم يدعو إلىٰ هذا الخلق الذي هو أفضل الأخلاق، وهو النصيحة التي أسس عليها دين الإسلام، وقام عليها بنيانه، وبان بها فضله علىٰ كلِّ شيء، فإنَّ النصح لكلِّ أحد محمود شرعًا وعقلًا وفطرة، وضده**) وهو الغش (**قبيحٌ شرعًا وعقلًا وفطرة**) ومن وقَر في قلبه هذا المعنىٰ وقر في قلبه تعظيمُ النَّصيحة وبذلها للناس في المواضع التي يحتاجون إليها، فهو لا يبادر بها كيفما اتَّفق بل ينظر إلىٰ موقعها الشرعي، وأعرف بعض الإخوان ممن إذا استشير في شيء أمهل مستشيره أيامًا، وموجب ذلك عنده أنه مستشيره مستنصح له، فحقيقة نصيحته له أن يمهله أيامًا ينظر فيها ثم يرشده إلىٰ مبتغاه، وهذا من حقيقة فهم النصيحة بأن يوقعها في الموقع الأكمل الأمثل.

وأولىٰ الناس بأن يحققوا معنىٰ النصيحة هم طلاب العلم وحملة الشريعة، ولا ينبغي أن يكون همجًا رعاعًا يتبعون كل ناعق، ويجولون مع كل جولة ويصولون مع كل صولة، ويدورون مع كل دولة، بل يدورون مع الحق، شاء الناس أو أبوا، حاكمًا أو محكومًا، فهو متعبد لله ﷻ وحده، ليس متعبدًا لحاكم ولا لمحكوم، ومن الناس من صار يميل إلىٰ هذا، ومنهم من صار يميل إلىٰ ذاك، فيحصُل له من فوت

حقيقة النصيحة ولزوم معنىٰ العلم بقدر مَيْله الذي يحدثه، ولا ينبغي لطالب العلم أن يؤخذ بهذه الهيْجات التي تحدث للناس طورًا بعد طور، وحالًا بعد حال إمَّا بأمر أمني أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي فيقبل الناس عليها زرفات ووحدانًا.

فإن طالب العلم لا ينظر بنظر الخلق بل ينظر بحكم الشريعة، فبحسب ما دعت إليه الشريعة يعمل، وبحسب ما أمرته الشريعة يأتمر، فلا يكون محكومًا بهواه ولا محكومًا بالإذاعات الإخبارية، ولا محكومًا بمرادات الناس، ولا محكومًا بإملاءات الحكَّام، وإنَّما يكون محكومًا بأمر الله ﷻ، وإقامة النفس علىٰ هذا تحتاج إلىٰ جهاد عظيم، وإلىٰ طول ملازمة إلىٰ أهل العلم الراسخين الذين لا تتغيَّر أقوالهم، ولا تتبدل أحوالهم، فمنذ عرفوا بالفتيا والإمامة في الدين والعلم القول قولهم، والحال حالهم، ويتغيَّر الناس ويتحولون، ويُقبلون ويدبرون، ويقلون ويكثرون وهم ثابتون علىٰ الأمر لأنهم يقومون لله ﷻ بالحقّ، فمن كان كذلك سلم، ومن لم يكن كذلك هلَك، وسيعلم المرء صدق السَّنوات الخداعات التي يؤخذ فيها الناس، ومنهم جملة من المتشرِّعة المنتسبين إلىٰ العلم فيغترون بأشياء تذهب بها أديانهم، فإن القومية لما ظهرت كتب من المتشرعة من كتب في تأييدها، ولما ظهرت الماركسية الشيوعية كتب في تأييدها من كتب، ولما ظَهرت اليوم الليبرالية كتب في تأييدها من كتب إما بصراحة أو بقلم خفيٍّ من الدعوة إلىٰ الحقوق المدنية، والمواثيق الإنسانية التي لم تأت بها آية قرآنية ولا سنة نبوية، وإنَّ مما يحرق النفس أن ترىٰ بيانات تنسب إلىٰ من يسمون بالعلماء وطلبة العلم، عماد أدلتها مواثيق حقوق الإنسان والأمم المتحدة، ولَعمري أين قدر الله ﷻ، وأين أدلة القرآن والسنة؟ وأين الدوران معها؟ وملاحظتها؟ وحمل الخلق عليها؟ ولو كان مخالفًا لأهوائهم، ولكن الناس كثر منهم من ركب هواه وهو منتسب إلىٰ الشرع، ولا ينبغي للإنسان أن ينظر إلىٰ من هلك كيف هلك، ولكن لينظر إلىٰ من نجا كيف نجا؟

نسأل الله ﷻ أن يجنبنا الفتن في أدياننا، وأبداننا، وأموالنا، وأهلينا، وولداننا، وأن يرينا الحق حقًّا وأن يرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا وأن يرزقنا اجتنابه، وأن يرزقنا جميعًا النصيحة للمسلمين، وأن يؤلف بين قلوبهم، وأن يلهمهم رشدهم ويقيهم شرَّ أنفسهم.

وهذا آخر بيان هذه الجملة من الكتاب وبالله التوفيق.

والحمد لله رب العالمين.

الصدق في الأقوال والأفعال وجميع الأحوال

قد أمر الله بالصدق ومدح الصادقين، وأخبر أنَّ الصِّدق ينفع أهله في الدنيا والآخرة، وأنَّ لهم المغفرة والأجر العظيم.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ٣٣﴾ [الزمر]، وقال: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١﴾ [محمد]، وقال: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [المائدة:١١٩]، والآيات في مدح الصدق كثيرة جدًّا.

والصدق يهدي إلىٰ كلِّ برّ وخير، كما أنَّ الكذب يهدي إلىٰ كلِّ شر وفجور. والصادق حبيبٌ إلىٰ الله، حبيب إلىٰ عباد الله، مُعْتَبَر في شرف دينه ودنياه؛ بل عنوانُ الشرف والاعتبار وعلوِ المنزلة الصدقُ.

وللصدق فوائد عظيمة: منها هذه الأمور العظيمة التي أشرنا إليها من امتثال أمر الله، وحصول الأجر والثواب العظيم والمغفرة، وأنَّ الصادق ينتفع بصدقه في الدنيا والآخرة، وأنَّه يدعو إلىٰ البر، والبر يهدي إلىٰ الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرَّىٰ الصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقًا في أعلىٰ الدرجات وأرفع المقامات.

ومن عُرف تحرِّيه للصدق ارتفع مقامه عند الخلق، كما كان مرتفعًا عند الخالق واطمأنَّ الناس لأقواله وأفعاله، وصار له مرتبةٌ عالية في الشَّرف، وحسن الاعتبار والثناء الجميل، وأمن الناس من بوائقه ومكره وغدره.

ففي جميع المقامات الدينية والدنيوية لا تجد الصادق إلا في الذُّروة العليا، إن كان في مقام الإفتاء والتعليم والإرشاد لم يعدل النَّاس بقوله لقول أحد، واطمأنوا إلىٰ إرشاداته وتعليمه وتفهيمه، لأنَّه مؤسِّس علىٰ الصدق، وإن شهد شهادة عامة أو شهادة خاصة ثبتت الأحكام بشهادته، وإن أخبر بخبر خاص أو عام وَثِق الناس لخبره وعظّموه واحترموه، حتىٰ لو أخطأ في شيء من ذلك لوجدوا له محملًا صالحًا، وإن عامل الناس معاملة دنيوية ببيع أو شراء أو إجارة أو تجارة أو حق من الحقوق الكبيرة والصغيرة، تسابق الناس إلىٰ معاملته واطمأنوا لذلك غير مرتابين.

وحسبك بهذا الخُلُق الذي يخضَع لحسنه وكماله ألبّاء الرجال، ويعترف بكماله أهل الفضل والكمال، فهو من جملة البراهين علىٰ صدق الرَّسول، وكمال ما جاء به من هذا الدين القيّم الذي هذا الخلق العظيم من أخلاقه، وكلُّ أخلاقه علىٰ هذا النمط، والله أعلم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدبًا آخر من الآداب السوية والخُلُق الزكية التي انتظمت في القرآن الكريم وهو الصِّدق ومتعلقه كما ذكره الهروي في «منازل السَّائرين» وتبعه ابن القيم في شرحها المسمَّىٰ «مدارج السالكين» هو الأقوال والأفعال والأحوال، فالمرء مأمورٌ بأن يكون صادقًا في أقواله، صادقًا في أفعاله، صادقًا في أحواله، (**وقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالصدق ومدحَ الصادقين وأخبر أن الصدق ينفع أهله في الدنيا والآخرة، وأن لهم المغفرة والأجر العظيم**).

وذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الأدلة من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المبينة فضل الصدق والأمرَ به فقال: (**قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾**). ففي هذه الآية الأمر بالصدق لأن الآية تضمَّنت الأمر بالكون مع الصادقين، أي: صيروا مع الصادقين ولا يصير مع الصادقين إلا صادق، فإن من لم يكن صادقًا لم يرض به الصادقون خليلًا وصاحبًا وحليفًا، ثم إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر العبد أن يكون مع الصادقين ليستعين بصحبتهم علىٰ الصدق، فإنَّ النفوس تتقلب وتتحول، ويُزيِّنُ لها الكذب والزيف والملق، فإذا كانت لها رابطة بمن عرف بالصدق أعانه ذلك علىٰ أن يبقىٰ صادقًا وأن يتحلىٰ بهذا الخلق الكريم.

وقال تعالىٰ: **﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾** وهو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بجماع الصدق كله، بأبواب الخبر والطلب، ثم قال: **﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾** أي: من المؤمنين **﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾** فالذي جاء بالصدق وهو رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن صدّق ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المؤمنين فأولئك موصوفون بأنهم هم المتقون حقًّا.

ثم ذكر قول الله تعالىٰ: **﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١﴾**؛ فالصدق كيفما كان هو خير للعبد وإن رمىٰ ظَنُّه أن خلاف الصدق يكون أوفق له، فإن الصِّدق أنفع له قطعًا، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: **"اصدقْ ولو علىٰ قتل نفسك"** مبالغة في تعظيم أمر الصدق، ثم ختم بقول الله عَزَّ وَجَلَّ هذا: **﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾** أي: يوم القيامة؛ فينتفع الصادقون بصدقهم في الحياة الدنيا، ولأجل عظيم نفعه عظُم قدره عند السلف، ولاسيما صدق القلوب وهو متعلّق بصدق الأحوال، فإن صدق الأقوال والأفعال مبني علىٰ صدق الأحوال، ومن صدق حاله بما يكون في قلبه صدق لسانه وفعله، ومن كان بضد ذلك لم يصدق لسانه ولا فعله، ولأجل هذا المعنىٰ ذكر ابنُ القيم في غير كتاب كـ«مدارج السالكين» وكتاب «الفوائد» أنَّ أعظم الأعمال القلبية هو الصِّدق. ومراده بذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو أنَّه أصل

الأعمال القلبية جميعًا، فإن الأعمال القلبية جميعًا تتفجَّر منه، فإن الصدق عندهم هو توحيد الإرادة ولا يتمكن العبد من إخلاصٍ، ولا رجاء، ولا توكل، ولا خوف، ولا رغبة، ولا رهبة حتىٰ يكون موحدًا الإرادة لمن يصدق معه وأعظم ذلك صدقه مع الله ﷻ، قال يوسف بن أسْبَاط أحد عُبَاد السلف: **"لأن أبيت ليلة في الصِّدق مع الله أحب إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله"** لأن من تجلل قلبه الصدق مع الله ﷻ ذاق لذة وأنسًا، وكمالًا، وطربًا لا يجده في غيره من الأعمال.

ثم ذكر المصنِّف رحمه الله (**أن الآيات في مدح الصدق كثيرة جدًا ثم بين من فضيلته أن الصدق يهدي إلىٰ كل بر وخير، كما أن الكذب يهدي إلىٰ كل شر وفجور، والصادق حبيب إلىٰ الله، حبيب إلىٰ عباد الله**) لأنه متحلٍّ بعمل عظيم يوجب محبة الله، ومن أحبه الله حببه إلىٰ عباده.

ثم قال في بيان شرفه: (**معتبَر في شرف دينه ودنياه؛ بل عنوانُ الشرف والاعتبار وعلوِ المنزلة الصدقُ**).

ومن هنا وصف الله ﷻ به جملة من أنبيائه، ونسبهم إلىٰ الصدق.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ طرفًا من فوائد الصدق فقال: (**وللصدق فوائد عظيمة: منها هذه الأمور العظيمة التي أشرنا إليها من امتثال أمر الله، وحصول الأجر والثواب العظيم والمغفرة**)، فإن الصادق ممتثل لأمر الله، وامتثاله أمر الله يوجب مجازاة الله ﷻ له بالحسنىٰ من الثواب العظيم والمغفرة.

ثم قال: (**وأنَّ الصادق ينتفع بصدقه في الدنيا والآخرة، وأنَّه يدعو إلىٰ البر، والبر يهدي إلىٰ الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرىٰ الصدق حتىٰ يُكتب عند الله صديقًا**) وهذه الجملة وردت في حديث عبد الله بن مسعود في «الصحيحين»، وغاية ما يبلغه الصدق للعبد أن يجعله صديقًا، والصديقية مرتبة من مراتب كمال العِباد، ولذلك قال المصنِّف: (**في أعلىٰ الدرجات وأرفع المقامات**)، فإنَّ الصِّديقين هم أشرف ورّاث الأنبياء، ووصف أبو بكر رضي الله عنه بأنه الصديق؛ لأنه أعلىٰ الصحابة رضي الله عنهم في الإذعان، والانقياد، والتصديق بما أمر الله به، وبما أمره به رسوله ﷺ فاستحق أن يكون صديقًا.

ثم قال: (**ومن عُرف تحريه للصدق ارتفع مقامه عند الخلق، كما كان مرتفعًا عند الخالق واطمأن الناس لأقواله وأفعاله، وصار له مرتبةٌ عالية في الشرف، وحسن الاعتبار والثناء الجميل، وأمن الناس من بوائقه ومكره وغدره**) لاطِّلاعهم علىٰ حقيقة أمره، فإنه صادق لا يلوذ بكلام يخالف ما يضمره، فيرتفع قدره عند الخلق ويُعْظمونه ويجلونه.

ثم قال المصنِّف: (**ففي جميع المقامات الدينية والدنيوية لا تجد الصادق إلا في الذروة العليا**) يعني في الدرجة الرفيعة العالية، (**إن كان في مقام الإفتاء والتعليم والإرشاد لم يعدل الناس بقوله لقول أحد،**

واطمأنوا إلىٰ إرشاداته وتعليمه وتفهيمه، لأنَّه مؤسَّسٌ علىٰ الصِّدق) فالصادق في باب التعليم والإفتاء والإرشاد يُذعن الناس لقوله ويتَّبعونه، وحقيقة الصدق في ذلك أن يكون ممتثلًا أمر الله ﷻ، فإنَّ الممتثل أمر الله ﷻ في الإفتاء والتعليم والإرشاد هو الصَّادق لأنه يوقّع عن الله ويخبر عن حُكمِه، فإذا أخبر عن حكم الله ووقّع عنه وفق شرع الله ﷻ كان صادقًا، وإن أخبر عن حكم الله بخلاف ما يوافق حقيقة الأمر في شرع الله فإنه يكون كاذبًا، فهذا ميزان معرفة الصادق من الكاذب في دعوىٰ التعليم والإرشاد والإفتاء، فمن كان مقاله وإرشاده وإفتاؤه موافقًا لأمر الشريعة فذلك هو الصادق، ومن كان معياره غير ذلك فإنه لا يكون صادقًا، فمن كان معياره في الإفتاء والتعليم والإرشاد رغبة الحكام، أو رغبة المحكومين، أو طمع الرعية، أو طمع الرعاة فذلك ليس بصادق، وإنَّما الصادق هو الذي لا يأبه بهؤلاء جميعًا، وإنَّما قلبه معلَّق بالله ﷻ يبين شرعه، ويذكر حكمه قِبل الناس أم ردُّوا، سخطوا أم رضوا، أحبُّوا أم كرهوا، فإن من علَّق قلبه بالله ﷻ رأىٰ أن العلم أعظم أمانةٍ وإنَّ الله ﷻ ائتمن علىٰ الشريعة نبيَّها ﷺ المبلِّغَ لها، فلما مات النبيُّ ﷺ فإن القائمين مقامه من المعلِّمين والمفتين والمرشدين هم ورَّاث النبي ﷺ، وكما كان النبي ﷺ صادقًا أمينًا فإنه ينبغي أن يكون الوارث له صادقًا أمينًا، وحقيقة صِدْقه ألا يلحظ الخلق طرفة عين، وإنَّما يلحظ شرع الله ﷻ فيبيّنه لهم وفق ما أمر الله ﷻ به من الحكمة والرشد، فإن أخذوا به فذلك الخير لهم، وإن ردُّوه فقد أدىٰ وقضىٰ ما أمره الله ﷻ به، ومن الناس من يظن أن الصدق بالتعليم، والإرشاد، والإفتاء أن تحرّك الثورات وتشتم الحكومات، ولعمري كان من امرئ كان لهجًا بالضرب علىٰ الحكومات وشتمِها فما هي إلا سنوات خدَّاعات حتىٰ يكون لسانًا ناطقًا عن كثير من الموبقات مما يدل علىٰ أن الإنسان إذا خان أمانة الشَّريعة فإن الله يعاجل بعقوبته ويغير له حال قلبه.

قال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله وقد سمع رجلًا صيرفيًا قال: "**من غش في النقد سلب الله منه معرفته**" يعني من غش في بيان تلك العُملة هل هي صحيحة أم مزورة؟ فإن الله ﷻ يسلبه معرفة النقد فلا يميز بين الدرهم الصحيح والنقد الصحيح وبين الدرهم المغشوش والنقد المغشوش، قال أبو العباس ابن تيمية: "**وكذلك من خان الله ورسوله فإن الله ﷻ يسلبه العلم**"، وصدق رحمه الله فإنه من خان الله ورسوله ﷺ في بيان الدين والتعريف به، فإن الله ﷻ يعاجله بعقوبة ولا ينبغي لطالب العلم أن يكون سادرًا مع السادرين، ولا ساهيًا مع الساهين، ولا مغفَّلًا مع المغفلين، بل ينظر ببصيرة الإيمان واليقين ويميِّز الحق من الكذب والميل، ويعرف حكم الله ﷻ ويبيِّنه راضيًا بأمر الله ﷻ لا يسخطُه ولا يجزع من شيء

البتة؛ لأن معاملته مع الله، ومن عامل الله أعزه الله، ومن لم يقم لله عَزَّوَجَلَّ قدرًا في قلبه فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يبالي به في أي وادٍ هلك.

ثم قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن شهد) أي الصادق (شهادة عامة أو شهادة خاصة ثبتت الأحكام بشهادته) لكمال صدقه (وإن أخبر بخبر خاص أو عام وَثَق الناس بخبره وعظّموه واحترموه، حتىٰ لو أخطأ في شيء من ذلك لوجدوا له محملًا صالحًا) لأنهم لا يعرفون منه إلا الصدق (وإن عامل الناس معاملة دنيوية ببيع أو شراء وإجارة أو تجارة أو حق من الحقوق الكبيرة والصغيرة، تسابق الناس إلىٰ معاملته واطمأنوا لذلك غير مرتابين منه) كما عُهد هذا من النبي ﷺ حتىٰ شهر بين قومه قبل الإسلام بالصادق الأمين، واستأمنه الناس علىٰ أموالهم وسعىٰ في التجارة لجماعة منهم حتىٰ كانت تجارته لخديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا سببًا لزواجه منها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وﷺ، فمن كان وثق الناس بخبره وإن أخطأ وزل وجدوا له محملًا صالحًا وطمِعوا في مواصلته، ووثقوا بخبره.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وحسبُك بهذا الخُلُق الذي يخضع لحسنه وكماله ألبّاءُ الرجال) أي عقلاء الرجال (ويعترف بكماله أهل الفضل والكمال) فإنَّ الصدق في أي ملّة وأي أمة هو دليل كمال العقل، ثم قال: (فهو من جملة البراهين علىٰ صدق الرسول، وكمال ما جاء به من هذا الدين القيّم) أي المستقيم (الذي هذا الخلق العظيم من أخلاقه، وكلُّ أخلاقه) أي أخلاق الدِّين (علىٰ هذا النمط) أي علىٰ هذا الشكل الموضوع، فمن امتثل هذه الأخلاق فإنها تُفضي به إلىٰ الكمال الذي انتظم في هذا الدِّين، فأخلاق الدِّين التي أُمر بها كلها منسوجة علىٰ الكمال، ومن صدق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعينه وييسر له أمره، ويجري له من الكرامة والإنعام ما لا يجري لغيره، فإن الحجاج بن يوسف الأمير الظالم الذي كان علىٰ العراق كان يطلب ابنًا لِربعي بن حراش فأتىٰ الحرس إلىٰ بيت ربعي فوجدوه عند دكّة بابه جالسًا قالوا: أين ابنك؟ فقال: ها هو في الدار وكان صادقًا، فظنُّوا أنه يستخف بهم فمضوا وتركوه، ذلك أنه صدق فصدق الله عَزَّوَجَلَّ معه وأعانه وسدَّده وصرف كيد هذا الأمير الفاجر عنه، فمن صدق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يصدُق معه وييسر له أسباب ما يريد، ومن جُملة ما ينبغي أن يعرفه طالب العلم أن طلبه العلم إذا كان مع الصدق فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوفِّقه وييسر له أسبابه، فإن العلم لا يدرك بأسباب حسية التي تعارف عليها الناس من كثرة الحفظ، وتكرير المحفوظ، والاجتهاد في تفهُّمه، والوَكَد والعناية في الاطلاع علىٰ الكتب المصنَّفة فيه، وإنَّما يُدفع العلم إلىٰ المرء ويُعان عليه إذا كان صادقًا في طلبه تقربًا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن صدَق في طلبه العلم وأنَّه يريده قربة إلىٰ الله تعالىٰ يتعلَّم بها أحكام دينه ويبصر بها المسلمين وينصر

الشريعة، ويحفظ الملة فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يهيِّئ له من العلم ما لا يهيئه لغيره، وكم رأينا واجتهدنا في أناس عُرفوا بحفظ وفهم لكن الله صرفهم عن العلم، وكم رأينا أناسًا لا يبلغون من الذكاء والفطنة والحفظ مبلغ أولئك ولكن الله عَزَّوَجَلَّ شرَّفهم بالعلم لما علم منهم الصدق في طلبه، فينبغي أن يكون طالب العلم صادقًا في طلب العلم، متقربًا به إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يريد به منصبًا ولا جاهًا ولا ذكرًا، ولا ثناءً؛ بل يريد به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا كان الناس يرثون أحدًا ما فإن طالب العلم إذا فتح الله عَزَّوَجَلَّ عليه يرث النبي ﷺ «فإن الأنبياء لم يورِّثوا درهمًا ولا دينًا وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر» فمن عين العقل والرُّشد ألا يخرج طالب العلم في طلب العلم إلا وهو مستحضرًا الصِّدق في طلبه، فإنَّ من الغفلة أن يخرج الإنسان ويدخل ويذهب ويأتي بطلب العلم ولا يستحضر مطْلَب الصدق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في طلبه العلم، وربّما ضاع عليه وقت كثير وجَهَد كبير لم ينل من العلم إلا يسيرًا، وذلك لفوات الصدق من قلبه، وإذا وجد يسير من الصدق فإن الله عَزَّوَجَلَّ يرزقك كثيرًا من العلم، فإنك تتعامل مع أكرم الأكرمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن كانت معاملته علىٰ الصدق مع أكرم الأكرمين فإنك إذا قدمت قليلًا رزقك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثيرًا.

أسأل الله العلي العظيم أن يرزقنا جميعًا العلم النافع والعمل الصالح.

وهذا آخر بيان علىٰ هذه الجملة وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

الشجاعة

هذا الخلق العظيم قد أمر الله به في آيات كثيرة، وهي آيات الجهاد كلِّها. وأثنىٰ علىٰ أهله وأخبر أنَّه طريق الرسل وساداتِ الخلق، ونهىٰ عن ضده وهو الجبن والفشل والخوف من الخلق في سبيل جهاد الدعوة، وفي سبيل جهاد السلاح.

وهذا الخُلق الجليل قد يكون غريزة مع العبد، ويتقوَّىٰ بموجبات الإيمان، وقد يحتاج العبد إلىٰ التمرُّن عليه، وسلوك الطرق المعينة علىٰ ذلك. فالشَّجاعة قوة القلب وثباته، وطمأنينته في المقامات المهمّة، والأحوال الحرجة وكلٌّ يحتاج إليه، وخصوصًا الرؤساء الذين تناط بهم المهمات والأمور، فحاجتهم إليه ضرورية.

وقد دعا القرآن إليه ودعا إلىٰ كلِّ وسيلة تعين عليه، فأمر بخوفه وحده، وألا يخشىٰ العبد الخلق، فمتىٰ قصر العبد خوفه علىٰ الله وحده، وعلم أنَّ الخلق لن يقدروا علىٰ نفعه ولا ضره إلا بمشيئة الله قوِي قلبه، ثم إذا توكل علىٰ الله وقوّىٰ اعتماده عليه ازدادت قوة قلبه، كما قال تعالىٰ عن خيار الخلق ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ

لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

ثم إذا علِم ما يترتَّب علىٰ القوة في الدين والشجاعة من الأجر والثواب ازدادت قوته وتضاعفت شجاعته، كما نبَّه الله علىٰ هذه الحالة بقوله: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤].

وكلما تأمل الخلقَ وعرف أحوالهم وصفاتهم، وأنَّهم ليس عندهم شيء من النفع، ولا من النصرة والدفع، وأنَّ مَدْحَهم لا يغني عن العبد شيئًا، وذمهم لا يضره شيئًا، وأنهم مع ذلك لا يريدون لك الخير إلا لمصالحهم، عرف أنَّ تعليق القلب بهم خوفًا وهيبة، وخشية ورغبًا ورهبًا، ضائع بل ضار، وأنَّه يتعين علىٰ العبد أن يعلق خوفه ورجاءه، وطمعه وخشيته بالله وحده، الذي عنده كلُّ شيء، وهو الذي يريد لك الخير من حيث لا تريده لنفسك، ويعلم من مصالحك ما لا تعلم، ويوصل إليك منها ما لا تقدر عليه ولا تريده.

ومن دواعي الشجاعة أن يعرف العبد أنَّ الجبن مرض وضعف في القلب، يترتب عليه التقاعد عن المصالح وتفويت المنافع، ويسلط عليه الضعفاء ويتشبه صاحبه بالخَفِرات من النساء.

ومن فوائد الشجاعة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، والاتصاف بأوصاف أهل البصائر من أولي الألباب.

ومن فوائد ذلك: أنَّه بحسب قوة القلب يُنزل الله عليه من المعونة والسكينة ما يكون أكبر وسيلة لإدراك المطالب والنجاة من المصاعب والمتاعب.

ومن فوائده: أنَّه يتمكَّن صاحبه من إرشاد الخلق ونفعهم علىٰ اختلاف طبقاتهم بالحكمة والموعظة الحسنة. وأما الجبان فإنَّه يفوتُه خير كثير، وتمنعه الهيبة من بركة عِلمه وإرشاده ونصحه للعباد.

ومنها: أنَّ الشَّجاعة تنجي العبد من كثير من الشدائد، وتوجب له السَّكينة إذا مرت النوائب والمصائب، فيقابلها بما يحبُّه الله من الصبر والثبات واحتساب الأجر. وأمَّا الجبان فإنَّه إذا اعترته هذه الأمور إنماع وذهل مصالحه، وتنوعت به الأفكار الضارة، فعملت معه المصائب والشدائد عملها الأليم، وفوّتته الخيرات والثواب الجسيم.

وهذا الخُلُق الحميد من جملة الأخلاق الفاضلة التي تتولَّد من هذا الخُلُق الجامع.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أدبًا آخر من الآداب المذكورة في القرآن الكريم، وهو أدب الشجاعة

وخلقها، فإن هذا أدبٌ عظيم جليل، بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن الله أمر به في آيات كثيرة لم تأت علىٰ وَفْقِ الوضع اللُّغوي لكلمة الشجاعة؛ ولكنها اندرجت في آيات الجهاد كلِّها، فجميع آيات الجهاد داعيةٌ إلىٰ الشجاعة، لأن المرء لا يتمكَّن من القيام به حتىٰ يكون قلبُه شجاعًا.

ثم ذكر المصنِّف أن الله عَزَّوَجَلَّ أثنىٰ علىٰ أهله وأخبر أنه طريق الرسل وسادات الخلق، ونهىٰ عن ضده وهو الجبن، والفشل، والخوف من الخلق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال:٤٦]، وذلك مأمور به في سبيل جهاد الدعوة، وفي سبيل جهاد السلاح، وهما المشار إليهما بقول أهل العلم: **"جهاد السيف والسنان وجهاد الحجة والبنان"** فإن جهاد السيف والسنان هو الجهاد الذي يشهر فيه السلاح لمقاتلة أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ، وجهاد الحجة والبنان أو البيان هو الجهاد الذي يشهر لمدافعة أهل الأهواء من المبتدعة والضلال والمنافقين، ولا يتمكن من القيام بجهاد هؤلاء وهؤلاء حجة وبيانًا وسيفًا وسنانًا إلا من كان شجاعًا.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن هذا الخلق قد يكون غريزة أي جبلة إنسانية مع العبد، ويتقوىٰ بموجبات الإيمان، وقد يحتاج العبد إلىٰ التمرن عليه وسلوك الطرق المعينة علىٰ ذلك، فالشجاعة نوعان:

أحدهما: شجاعة جبلية مطبوعة.

والآخر: شجاعة كسبية محصَّلة.

فالأول يكون مع المرء حيث خلقه الله، والثاني يكتسب ويحصل بطرقه.

وفي كلام عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما يشير إلىٰ ذلك فإنه قال: **"الشجاعة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء"** رواه مالك في «الموطأ» وغيره من وجوه عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يثبت بها الخبر.

فقول عمر فيه تنبيه أن من الشجاعة والجبن ما هو غريزة، ومنها ما ليس كذلك، وعند هذا الأثر قال ابن عبد البر في «الاستذكار»: وقوله: **"(الشجاعة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء) لا يحتاج إلىٰ بيان ولا شرح"** انتهىٰ كلامه، لأن الأخلاق النفسانية مما يدركه الناس طبيعة وسَجِيَّة.

وفي قوله: (**وقد يحتاج العبد التمرن عليه وسلوك الطريق المعينة علىٰ ذلك**) تنبيه إلىٰ ما يمكن أن يحصل به العبد الشجاعة، فإن لذلك طرقًا في الشريعة جملة منها.

ومنها ما في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «من يتصبر يصبره الله» فإن المرء إذا حمل نفسه علىٰ الصبر أكسبه ذلك شجاعة، فإن الشجاعة مبنية علىٰ الصبر، فقد سأل

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قومًا شهروا من العرب بالشجاعة فقال لهم: **"ما الشجاعة؟"** فقالوا: صبر ساعة. أي أن الشجاعة حقيقتها أن يصبر الإنسان ساعة في مراغمة وملاقاة من يكره، فيكون بذلك شجاعًا.

ثم بين المصنِّف حقيقة الشجاعة بقوله: (**قوة القلب وثباته، وطمأنينته في المقامات المهمة، والأحوال الحرجة**) **فحقيقة الشجاعة أن يكون القلب ثابتًا، وليس أن تكون الجوارح مبادرة**، فإن من الناس من يجعل التهوُّر شجاعته، والتهور: هو المغامرة في الشيء دون النظر إلىٰ عواقبه. وهذا ليس من العقل، بل العقل يُنظر فيه عند أهله إلىٰ مآلات الأمور وعواقبها، فمغامرة المرء في شيء لا يدري عاقبته هو تهور وليس شجاعة، والشجاع هو الذي يثبت قلبه ويطمئن في المقامات المهمة والأحوال الحرجة، وكل أحد يحتاج إلىٰ هذا الخلق كما قال المصنِّف، وآكدهم في ذلك من أنيط بهم مهمات عظام من الحكام والعلماء، (**فحاجتهم إليه ضرورية**) لأن من كان رأسًا للخلق برئاسة أو منصب أو جاه فينبغي له أن يكون شجاعًا فإن حُسن نفعه فيما يكون عليه من منصب وولاية لا يمكن أن يكون إلا مع شجاعة، ومن الأخلاق التي يحتاج إليها من تصدر لنفع الناس أن يكون شجاعًا، وليس المراد بأن يكون شجاعًا أن يكون متهوِّرًا يناجز الحكام كما يفهمه بعض الناس، بل الشجاع **هو الذي يعرف ما يقول حين يقول**، وليس هو الذي يتكلَّم ولا يحسب كلامه الذي يخرج منه، فإن الإنسان الشجاع يذكر موقفه بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيخاف من ربه عَزَّ وَجَلَّ أن تحمله الجراءة والتهوُّر علىٰ مخالفة أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن ركب التهور أدىٰ به ذلك إلىٰ الجبن وليس الشجاعة.

فإن من لاحظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إما أن يقول الحق وإما ألا يتكلم بالباطل، وأما من لا يراقب هذا الأمر فربما تكلَّم بالباطل، ومن شواهد ذلك في عصرنا أن بعض الطلبة سألوا بعض المتصدرين للعلم في مسألة فأجاب عنها بجواب، فلما نقل جوابه إلىٰ آخرين من أصحابه استنكروه فرجعوا إليه فقالوا: إن فلانًا سألك عن كيت وكيت فأجبتهم بكذا وكذا وكان جوابًا لا يروق له، فقال مدافعًا عن نفسه: خشيت أن يكون من المباحث فأجبته بهذا الجواب. وأين الخشية من الله عَزَّ وَجَلَّ فإن الشجاع إما أن يقول الحق أو ألا يتكلم بالباطل.

أما أن يجيب جوابًا ثم يخرج لنفسه مخرجًا بخوفه من بطش السلطان أو غيره فهذا عين الجبن حقيقة دعاه إليه تهوره، فالشجاع حقًّا هو الذي يقول الحق أو لا يتكلم بالباطل، وهكذا كان علماء هذه البلاد الذين أخذوا علمهم بالتلقي، فإما أن يقولوا الحق أو لا يتكلموا بباطل، وأما الذين يسارعون إلىٰ الكلام وراء كل صائحة تصيح فإنهم سرعان ما يتراجعون عن أقوالهم إذا جاءت الموجة إلىٰ خلاف

مُرادهم، واعتبر هذا في أحوال تكلم فيها الناس في هذا الوقت الأخير في المظاهرات السلمية، والحريات العامة وغيرها، وسارعوا إلىٰ تشريعها وإيجاد دلائل من الشرع عليها، فلما جاءت الموجة علىٰ خلاف ما ظنوا طلبوا لأنفسهم مخارج بأن كلامهم فُهم علىٰ غير وجهه، أو أن هذا اجتهاد مقابل للخطأ أو غير ذلك من المخارج، وطالب العلم العاقل ينبغي له أن يروِّض نفسه علىٰ الشجاعة بمعرفتها علىٰ الوجه الأكمل فهو أن تقول الحق أو ألا تتكلم بالباطل، وكان علماء هذه البلاد يكرهون كثرة الكلام لأن كثرة الكلام في الأمور توجب السقط، فإن من كثر كلامه كثر سقطه، فإذا كان الإنسان يتكلم في كل شارقة وغاربة ومقبلة ومدبرة فلابد أن يُصيب الزلل في كلامه، فطالب العلم الذي يريد النجاة لنفسه ولمن يقتدي به ينبغي أن يكون علىٰ هذا الخُلق المأمور به شرعًا.

ثم ذكر المصنِّف أن الشجاعة (**قد دعا القرآن إليه ودعا إلىٰ كلِّ وسيلة تعين عليه، فأمر**) الله عَزَّوَجَلَّ (**بخوفه وحده، وألا يخشىٰ العبد الخلق**) كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ﴾ [المائدة:٣]، (**فمتىٰ قصر العبد خوفه علىٰ الله وحده، وعلم أنَّ الخلق لن يقدروا علىٰ نفعه ولا ضره إلا بمشيئة الله قَوي قلبه**) فإن من أيقن أن الأمر كله بيد الله وأنه هو الذي يصرِّف الأمور علم أن الناس لا يزيدون في أجله يومًا ولا ينقصون منه يومًا.

ومن أخبار العلامة عبد العزيز بن حصيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قاضي شقراء أحد تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لما دخل إبراهيم باشا ثم أحضر بين يديه ولده وكان الشيخ عبد العزيز بن حصين رجلًا كبيرًا هرمًا فقال له إبراهيم باشا مروِّعًا له: الآن نقتل ولدك. فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: "**إن تركته مات**" أي أنه إن لم يمت بقتلك فإنك إن تركته فإنه سيموت.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا ما يدعو إلىٰ الشجاعة: (**ثم إذا توكل علىٰ الله وقوّىٰ اعتماده عليه ازدادت قوة قلبه**) فإن المتوكل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ قوي القلب إذ يعلم أنه لا يقدر أحد علىٰ شيء إلا ما هيأ الله عَزَّوَجَلَّ أسبابه وقدَّره كما قال تعالىٰ: **﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾** فتوكلوا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وظهرت شجاعتهم ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران:١٧٤].

ثم قال المصنِّف: (**ثم إذا علم ما يترتب علىٰ القوة في الدين والشجاعة من الأجر والثواب ازدادت قوته وتضاعفت شجاعته، كما نبه الله علىٰ هذه الحالة بقوله: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا**

﴿تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾) فمن أصابه شيء من الألم بما أمرته به شجاعته وفق الشريعة فإنه مثاب عليه.

ثم قال: (**وكلما تأمل الخلقَ وعرف أحوالهم وصفاتهم، وأنَّهم ليس عندهم شيء من النفع، ولا من النصرة والدفع، وأنَّ مَدْحَهم لا يغني عن العبد شيئًا، وذمهم لا يضره شيئًا، وأنهم مع ذلك لا يريدون لك الخير إلا لمصالحهم عرف أنَّ تعليق القلب بهم خوفًا وهيبة، وخشية ورغبًا ورهبًا، ضائع بل ضار، وأنَّه يتعين علىٰ العبد أن يعلق خوفه ورجاءه، وطمعه وخشيته بالله وحده، الذي عنده كلُّ شيء، وهو الذي يريد لك الخير من حيث لا تريده لنفسك، ويعلم من مصالحك ما لا تعلم، ويوصل إليك منها ما لا تقدر عليه ولا تريده**) فمن عرف الناس أيس منهم، ومن عرف الله اطمأن إليه.

ثم ذكر أن (**من دواعي الشجاعة أن يعرف العبد أنَّ الجبن**) وهو الخور والضعف (**مرض وضعف في القلب، يترتب عليه التقاعد عن المصالح وتفويت المنافع، ويسلط عليه الضعفاء ويتشبه صاحبه بالخَفِرات من النساء**) فإن الجبان يقعد عن مصلحته وتفوته منفعته، ويتسلط عليه السفهاء والدهماء، والرعاع من الخلق فيكون صاحبه شبيهًا بالخِفِرات من النساء وهن اللواتي لا يبرزن إلىٰ الرجال.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**من فوائد الشجاعة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، والاتصاف بأوصاف أهل البصائر من أولي الألباب**) فإن الشجاع يقدم علىٰ أمر الله عَزَّ وَجَلَّ وأمر رسوله ﷺ، واعتبر هذا بحال أحدنا إذا دخل الحرم المكي فرأىٰ زحام الناس أو أقبل علىٰ الجمرات فرأىٰ زحام الناس فإن من كان شجاعًا أقبل وأقدم راجيًا الثواب من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دون إضرار بأحد من الخلق فيعينه ذلك علىٰ أن يمتثل أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ الوجه الأكمل، ويكون في ذلك اتصافٌ بأهل البصائر من أولي الألباب أي العقول.

ومن فوائد الشجاعة: (**أنَّه بحسب قوة القلب يُنزّل الله عليه من المعونة والسكينة ما يكون أكبر وسيلة لإدراك المطالب والنجاة من المصاعب والمتاعب**) فإذا كان الإنسان شجاعًا أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ عليه معونته وتسديده، وسكن قلبه، وكان ذلك وسيلة له لإدراك مطلوبه والنجاة من المصاعب والمتاعب.

وفي أخبار شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهِروي الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن بعض فقهاء زمانه كادوا له فجعلوا تحت سجادته التي يصلي فيها متنفلًا في بيته جعلوا صنمًا من نحاس ومشوا إلىٰ السلطان، وكان الهِروي رَحِمَهُ اللَّهُ من أشد القائمين بنصرة السنة في إثبات الصفات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقال أولئك الفقهاء للسلطان: إن هذا الرجل يعبد صنمًا من دون الله وإنك إذا كبسته - يعني فاجأته – فإنك إذا كبسته فرفعت سجادته وجدت صنمًا تحتها. فأرسل إليه جندًا فكبسوه فوجدوا الأمر كذلك، فأخذوه وأخذوا الصنم معهم، فلما وقف

بين يديه وكان الفقهاء إزاء السلطان قال له السلطان مغضبًا: إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا الصنم من دون الله. فقال الهروي الشجاع المطمئن بقلبه: **"سبحانك هذا بهتان عظيم"** قال السلطان: فعلمت أنه صادق وأنهم كاذبون، والتفت السلطان إلىٰ الفقهاء وقال: لئن لم تَصدُقوني لأقتلنكم. فأخبروه الخبر. فانظر إلىٰ ما وهبه الله عَزَّوَجَلَّ للأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من طمأنينة قلبه، فأكسبه ذلك شجاعة ظهر بها الحق علىٰ الباطل.

ومن فوائده الشجاعة: (**أنَّه يتمكن صاحبه من إرشاد الخلق ونفعهم علىٰ اختلاف طبقاتهم بالحكمة والموعظة الحسنة. وأما الجبان فإنَّه يفوته خير كثير، وتمنعه الهيبة من بركة علمه وإرشاده ونصحه للعباد**) فإن الشجاع يظهر أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخلق وينفعهم مهما كانت حاله بين أيديهم، لما دخل ربعي بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ رستم وهو علىٰ أريكته ووسائده فتكلم بكلام، ووبخه رستم علىٰ مجيء العرب الفقراء ليخرجوا أهل فارس من ملكهم، فقال ربعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (**لقد جئنا لنُخرج الناس من ظلمات الدنيا والآخرة إلىٰ نور الدنيا والآخرة، ومن ضيق الأديان إلىٰ سعة الإسلام**) وانظر إلىٰ هذه الشجاعة العظيمة التي حملته علىٰ أن يصرح بالحق بين يديه، واستدعي أبو محمد بن عبد السلام بين يدي سلطان زمانه من المماليك فتكلم معه وغلظ عليه، فلما خرج قيل له: ألم تهب السلطان؟ فقال: (**إني ذكرت الموقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ فكان بين يدي كالقط**)، وأحْضر أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ سلطان زمانه وقيل له: إنك تطلب السلطان. فقال له: (**إن ملكك وملك المغل**) أي المغول (**لا يساوي عندي فلسين**) فالشجاع يقف في هذه المواقف؛ لأن قلبه مطمئن بإقباله علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيبذل النُّصح للخلق.

ثم ذكر من فوائد الشجاعة: (**أنَّ الشجاعة تنجي العبد من كثير من الشدائد، وتوجب له السكينة إذا مرت النوائب والمصائب، فيقابلها بما يحبه الله من الصبر والثبات واحتساب الأجر. وأمَّا الجبان فإنَّه إذا اعترته هذه الأمور إنْماع وذهل عن مصالحه، وتنوعت به الأفكار الضارة، فعملت معه المصائب والشدائد عملها الأليم، وفوّتته الخيرات والثواب الجسيم**) وبالجملة فإن الشجاعة يحصل بها كل خير، وإن الجبن يحصل به كل شر، وعند أبي داود بسند قوي من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**شر ما في المرء شح هالع أو جبن خالع**».

والشح الهالع: هو الشح الذي يحمل الإنسان علىٰ الجزع وخوف فوات الدنيا.

والجبن الخالع: هو الجبن الشديد الذي تبلغ به شدته في المرء أنه ربما انخلع قلبه وارتعد بقوة خوفًا من شيء ما لا يكون جديرًا بذلك.

وهذا يبين قبح الجبن وأن الجبن ليس فيه خير البتة.

لكن يشكل علىٰ هذا ما رواه ابن أبي شيبة في كتاب «المصنَّف» من حديث أبي عمران الجَوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إن للجبان أجران» يشكل ولا ما يشكل؟ طيب علىٰ العموم ابحثوه رواية ودراية، واكتبوا فيه بحثًا يكون في الأسبوع الثاني من الدرس الأول الذي يوم الأربعاء عندكم الأبيات التي فيها نظم المعاني، والحديث الثاني الذي ذكرناه «إن للجبان أجران» ابحثوه وأخبرونا ما وجه هذا الحديث؟ وإن كان اختصارًا نقول حتىٰ بما أن الإخوان المصلين قد بعضهم يفوته الدرس القادم وقد بعضهم لا يحضره، هذا الحديث لا يصح، والجبن ليس فيه خير أبدًا.

والحمد لله رب العالمين،

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الصبر

هو الأساس الأكبر لكلِّ خُلُقٍ جميلٍ، والتنزه من كلِّ خُلُقٍ رذيلٍ، وهو حبس النفس علىٰ ما تكره، وعلىٰ خلاف مرادها طلبًا لرضىٰ الله وثوابه، ويدخل فيه الصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة. فلا تتم هذه الأمور الثلاثة التي تجمع الدين كلَّه إلا بالصبر.

فالطاعات خصوصًا الطاعات الشاقة، كالجهاد في سبيل الله، والعبادات المستمرة كطلب العلم والمداومة علىٰ الأقوال النافعة، والأفعال النافعة [لا تتم] إلا بالصبر عليها، وتمرين النفس علىٰ الاستمرار عليها وملازمتها ومرابطتها، وإذا ضعف الصبر ضعفت هذه الأفعال، وربما انقطعت.

وكذلك كفّ النفس عن المعاصي وخصوصًا المعاصي التي في النفس داعٍ قويٌّ إليها، لا يتم الترك إلا بالصبر والمصابرة علىٰ مخالفة الهوىٰ وتحمُّل مرارته.

وكذلك المصائب حين تنزل بالعبد ويريد أن يقابلها بالرضىٰ والشكر والحمدِ لله علىٰ ذلك لا يتم ذلك إلا بالصبر واحتساب الأجر، ومتىٰ مرَّن العبد نفسه علىٰ الصبر ووطّنها علىٰ تحمُّل المشاق والمصاعب وجدّ واجتهد في تكميل ذلك، صار عاقبته الفلاح والنجاح.

وقلّ من جدّ في أمر تَطَلّبه ... واستصحب الصبر إلاّ فاز بالظفر

وقد أمر الله بالصبر وأثنىٰ علىٰ الصابرين، وأخبر أنَّ لهم المنازل العالية والكرامات الغالية في آيات كثيرة من القرآن، وأخبر أنَّهم يوفَّون أجرهم بغير حساب. وحَسْبُك من خلقٍ يسهِّل علىٰ العبد مشقة الطاعات، ويهوِّن عليه ترك ما تهواه النفوس من المخالفات، ويسلِّيه عن المصيبات، ويُمِدُّ الأخلاق الجميلة كلَّها، ويكون لها كالأساس للبنيان.

ومَتَىٰ علم العبد ما في الطاعات من الخيرات العاجلة والآجلة، وما في المعاصي من الأضرار العاجلة والآجلة، وما في الصَّبر علىٰ المصائب من الثواب الجزيل، والأجر الجميل، سهُل الصبر علىٰ النفس، وربما أتت به منقادة مستحلية لثمراته. وإذا كان أهل الدُّنيا يهون عليهم الصبر علىٰ المشقات العظيمة لتحصيل حطامها، فكيف لا يهون علىٰ المؤمن الموفَّق الصبر علىٰ ما يحبه الله لحصول ثمراته، ومتىٰ صبر العبد لله مخلصًا في صبره كان الله معه، فإنَّ الله مع الصَّابرين بالعون والتوفيق والتأييد والتسديد.

تقدم أن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ جعل كتابه ثلاثة أقسام، وقد فرغ من القسم الأول منها المتعلِّق ببيان الاعتقاد الوارد في القرآن الكريم، ثم أتْبعه بالقسم الثاني وهو المشتمل علىٰ ما في القرآن الكريم من بيان الأخلاق والآداب الفاضِلة، ومن جملة تلك الآداب والأخلاق الفاضلة ما ذكره هاهنا وهو خُلق الصبر، وقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طليعة كلامه: (**هو الأساس الأكبر لكلِّ خُلُقٍ جميلٍ، والتنزه من كلِّ خُلُقٍ رذيلٍ**) فإن تمكن النفس من امتثال الأخلاق الجميلة والتنزه من الأخلاق المسترذلة يحتاج إلىٰ صبر، فهو أساسها الأكبر، وعمودها الأعظم.

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقيقته فقال: (**وهو حبس النفس علىٰ ما تكره**) وهذا بالحد اللغوي أشبه منه بالحد الشرعي، وتقدم أن **الصبر شرعًا: هو حبس النفس علىٰ حكم الله**، وحكم الله نوعان:

أحدهما: حكم الله القدري.

والآخر: حكم الله الشرعي.

فإذا حبس الإنسان نفسَه علىٰ هذين الحُكمين صار صابرًا.

وتقدَّم من قبل أن المراد بالحكم القدري المتعلِّق بالصبر هو الأقدار المؤلمة؛ لأن الأقدار الملائمة تجري وفق شهوة النفس وهواها، فما يصيب الإنسان من سعة ورخاء، وصحة وقوة، وترف هو ملائم للنفس فلا يحتاج إلىٰ صبر، وإما الذي يفتقر إلىٰ صبر هو القَدَرُ المؤلم أي الموجع الذي تجد فيه النفس غصة، وضنكًا، وضيقًا، وتقدم أيضًا أن الحكم الشرعي يندرج في فيما يتعلق بالصبر شيئان:

أحدهما: الصبر علىٰ طاعة الله.

والثاني: الصبر عن معصية الله.

لأن حكم الله الشرعي دائرٌ بين هذا وذاك، ومن هذين الحكمين نتج القول بأن الصبر ثلاثة أنواع:

أحدها: صبر علىٰ أقدار الله.

وثانيًا: صبر علىٰ طاعة الله.

وثالثها: صبر عن معصية الله.

فإن هذه الأنواع الثلاثة مندرجة في الحكمين المتقدمين من حكم ربِّنا ﷻ وهما حكمه القدري والشرعي.

وزاد أبو العباس ابن تيمية الحفيد قسمًا رابعًا من أقسام الصبر وهو الصبر عن الهوىٰ.

وهذا القسم الذي ذكره أبو العباس ابن تيمية الحفيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ راجع إلىٰ الصبر علىٰ طاعة الله ﷻ أو الصبر عن معصية الله، فإن الهوىٰ إما أن يكون داعيًا إلىٰ المعصية أو داعيًا إلىٰ ترك طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، فيكون مندرجًا فيهما؛ لكنه أفرده رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتناءً به وبيانًا لشدّة ضرره، فإن فساد الدِّين ودخول الفُرقة إنَّما يكون من انتشار الأهواء، لأجل عظيم أثره أفرده رَحِمَهُ ٱللَّهُ فعد من أنواع الصبر الصبر عن الهوىٰ يعني عن اتباع داعيه.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**ويدخل فيه الصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة**)، وهذه أنواع الصَّبر الثلاثة كما تقدم (**فلا تتمُّ هذه الأمور الثلاثة التي تجمع الدين كلَّه إلا بالصبر**) أي: أن المرء لا يدرك امتثال الطَّاعة والانتهاء عن المعصية والانكفاف علىٰ قدر الله عَزَّ وَجَلَّ مسلِّمًا له إلا بوجود الصبر معه.

ثم قال: (**فالطاعات خصوصًا الطاعات الشاقة، كالجهاد في سبيل الله، والعبادات المستمرة كطلب العلم والمداومة علىٰ الأقوال النافعة، والأفعال النافعة لا تتم إلا بالصبر عليها، وتمرين النفس علىٰ الاستمرار عليها وملازمتها ومرابطتها، وإذا ضعف الصبر ضعفت هذه الأفعال، وربَّما انقطعت**) لأن هذه الأفعال هي خلاف مألوف النفس، والنَّفس تأنف بانفطامها عن مألوفها، ولا تسلِّم زمامها إلا بمراغمتها بتصبيرها علىٰ المطلوب، فإذا راغمها الإنسان وصبّرها علىٰ مطلوبه من الطاعات الشاقة كالجهاد وطلب العلم، وداوم علىٰ ذلك فإنَّ النفس ترتاض وتقبل تقبل الرياضة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**من يتصبر يصبره الله**» أي

أن من حمل علىٰ نفسه برياضة الصبر ودربها ومرنها علىٰ ذلك فإنها تنقاد له، لكن ذلك يحتاج إلىٰ جهاد عظيم؛ لأن التصبر تفعُّل من طلب الصبر وذلك يحتاج إلىٰ تكلف؛ لأن هذا البناء عند علماء العربية دال علىٰ التكلف، فإذا قيل: تكلُّم، وتحلُّم، وتصبّر. دلَّ ذلك علىٰ أن طلبه لا يكون إلا بمراغمة وكُلفة، فلا يستطيع المرء أن يروض نفسه علىٰ الصبر في طلب الطاعات إلا برياضة تكون فيها نوع مشقة.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدما أرشد إليه من الأمر بالصبر في تحصيل الطاعات أرشد إلىٰ الأمر بالصبر في كف النفس عن المعاصي فقال: (**وكذلك كفُّ النفس عن المعاصي وخصوصًا المعاصي التي في النفس داعٍ قويٌّ إليها، لا يتم الترك إلا بالصبر والمصابرة علىٰ مخالفة الهوىٰ وتحمُّل مرارته**) فإن المرء لا يُنزع نفسها عن غيِّها، ولا يكفها عن اتباع هواها في مطالبها من المعاصي إلا بالصبر، ولاسيما تلك المعاصي التي في النفس داعٍ قويٌّ إليها كمحبة النفس للذكر والفخر، ورؤية المقام، والعلوّ في الأرض فإن هذه أشياء توجد في النفس طبيعةً، فيحتاج الإنسان إلىٰ مراغمة شديدة في كفِّها عن تلك الأمور التي تميل إليها وتطلب وجودها فيها.

ثم قال: (**وكذلك المصائب حين تنزل بالعبد ويريد أن يقابلها بالرضىٰ والشكر والحمدِ لله علىٰ ذلك لا يتم ذلك إلا بالصبر واحتساب الأجر**) فإن من نزلت به مصيبة لم يمكن قلع أثرها ولا دفع شدتها إلا بمواجهتها بالصبر عليها، وما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ من إرادة مقابلتها بالرضىٰ والشكر يقصد بذلك أن الصبر لابد أن يتقدمها، لأن تلقي العبد للمصائب النازلة هو علىٰ ثلاثة مقامات، ذكرها أبو العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم:

أحدها: أن يتلقاها بالصبر.

وثانيها: أن يتلقاها بالرضا.

وثالثها: أن يتلقاها بالشكر.

والرضا والصبر لا يمكن أن يوجد إلا بتقدم الصبر عليهما، وهذا معنىٰ قول المصنِّف: (**ويريد أن يقابلها بالرضىٰ والشكر**) أي أنه لا يمكن أن يقابلها بالمرتبة العالية حتىٰ يقدم المرتبة التي دونهما وهي مرتبة الصبر، فإذا نزل بالإنسان مصيبة فصبر عليها فإنه يجد مع ذلك الصبر مرارة لا يجدها في الرضىٰ، فإن الراضي بقدر الله لا يجد تلك المرارة بخلاف الصابر، وأما الشاكر فإنه تنقلع منه تلك المرارة بالكلية ثم يشكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ المصيبة التي نزلت به لأنه يرىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يقدرها عليه إلا وفيها خير له، فمرتبة الشكر أعلىٰ تلك المراتب التي يتلقىٰ بها العبد المصيبة.

ثم قال: (ومتىٰ مرَّن العبد نفسه علىٰ الصبر ووطّنها علىٰ تحمُّل المشاق والمصاعب وجدّ واجتهد في تكميل ذلك، صار عاقبته الفلاح والنجاح.

وقلّ من جدّ في أمر تطلبه ... واستصحب الصبر إلاّ فاز بالظفر)

فإذا مرن الإنسان نفسه علىٰ الصبر علىٰ ما ينزل به من مصائب أو ما يؤمر به من طاعة أو ما تدعو إليه النفس من معصية فإن نفسه ترتاض علىٰ ذلك، وأما من ترك للنفس زمامها ولاسيما في المصائب فإنه يصيبه ما ذكره بعض السلف وهو في كلام أبي العباس ابن تيمية الحفيد؛ لكنه يوجد في كلام بعض الأقدمين أنه قال: **"من لم يصبر صبْرَ الكِرام سلا سلوَّ البهائم"** يعني أن العبد إذا لم يصبر صبر الكرام الذين يتدرّعون بالصبر عند نزول المصيبة ويلجمون أنفسهم عن غيها أو هواها فإنه يسلو سلو البهائم؛ أي أن ما يجده من غمة وحزن بسبب ما نزل به سيذهب كما تذهب المصائب عن البهائم، فإن البهيمة إذا فقدت وليدها حنت وأنَّت يومًا أو يومين أو ثلاثة أو أكثر فما هي إلا مدة يسيرة حتىٰ تنسىٰ ما حل بها من مصيبة وترجع إلىٰ ما كانت عليه من عادة، فكذلك المرء إذا لم يصبر عند نزول المصيبة به وحلولها عليه فإنه سيسلو بعد ذلك كما سلت البهائم، فإن المرء بعد أسبوع من المصيبة ليس كيوم نزلت أول مرة، وهو بعد شهر ليس كأول نزولها في ذلك اليوم الذي وجدت فيه، وهو بعد مدة أكثر يُشْبِه أن يكون نسي تلك المصيبة، لأن من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الخلق أن من عليهم بالنسيان، وإن من منافع النسيان أن المرء يزول به كدر المصيبة وشدتها إذا نسي، ولو أن المرء بقي مستحضرًا شدة المصيبة التي أحاطت به فإنه لا تحلو له الحياة، وإذا تتابعت المصائب مع عدم النسيان صارت الحياة مرة منغصة لا يريدها المرء، لكن من نعم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العباد كلهم النسيان للمصائب، ثم اختص الله عَزَّوَجَلَّ أهل الإيمان بنعمة الإيمان فإن نعمة النسيان والإيمان أعظم نعمتين في دفع المصائب، فمن وهبه الله عَزَّوَجَلَّ هاتين النعمتين العظيمتين اندفعت عنه آثار المصائب ولم يجد لها ألمًا.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن الله أمر بالصبر في آيات عظيمة كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠] وهي أبلغ الآيات في الأمر بالصبر، وأثنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الصابرين، يعني مدحهم، وأخبر أن لهم المنازل العالية والكرامات الغالية في آيات كثيرة من القرآن كما قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة] فذكر لهم بشارة وأخبر أنهم يوفون أجرهم بغير حساب كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر].

(وحَسْبُك من خلقٍ يسهِّل علىٰ العبد مشقة الطاعات، ويهوِّن عليه ترك ما تهواه النفوس من

المخالفات، ويسليه عن المصيبات، ويُمِدُّ الأخلاق الجميلة كلَّها، ويكون لها كالأساس للبنيان) فالصبر مرتكز عظيم شيدت عليه هذه المعاني التي ذكرها المصنِّف من قبول الطاعة وترك المعصية والسَلْوَة عن المصيبة.

ثم قال المصنِّف: (ومَتَىٰ علم العبد ما في الطاعات من الخيرات العاجلة والآجلة، وما في المعاصي من الأضرار العاجلة والآجلة، وما في الصبر علىٰ المصائب من الثواب الجزيل، والأجر الجميل، سهل الصبر علىٰ النفس) فإن من يستحضر الثمرات المرتقبة والخيرات المنتظرة في الدنيا والآخرة جزاء الصبر علىٰ فعل الطاعة وترك المعصية وقبول المصيبة وعدم التجزع والتسخط عند ورودها فإن ذلك يسهِّل الصبر علىٰ النفس.

(وربما أتت به منقادة مستحلية لثمراته) أي: ربما جاءت النفس بالصبر منقادةً مسلمة مستحلية لثمراته لأنها تجد حلاوة منتظرةً فيما ترجوه من عاقبة صبرها.

ثم قال: (وإذا كان أهل الدنيا يهون عليهم الصبر علىٰ المشقات العظيمة لتحصيل حطامها) فيصبرون في تحصيل مراداتهم منها صبرًا عظيمًا (فكيف لا يهون علىٰ المؤمن الموفق الصبر علىٰ ما يحبه الله لحصول ثمراته) فإذا كان أهل الدنيا يصبرون لأجل حصول دنيا زائلة فإن العاقل يصبر لأجل حصول آخرة باقية.

ثم قال: (ومتىٰ صبر العبد لله مخلصًا في صبره كان الله معه) أي من تصبر بالله عَزَّوَجَلَّ صادقًا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يمده ويعينه ويكون معه (فإنَّ الله مع الصابرين بالعون والتوفيق والتأييد والتسديد) وهذا معنىٰ معية الله للصابرين المذكورة في القرآن الكريم، فإنها ليست معية عامة، وإنَّما يراد بها معية خاصة، وهذه المعية الخاصة هي التي تتضمن العون والتوفيق، والتأييد، والتسديد، فمن صبر كان الله عَزَّوَجَلَّ معه معينًا وموفقًا، ومؤيدًا، ومسددًا.

العلم

قد أمر الله بتعلم جميع العلوم النافعة، لاسيما علم ما أنزل الله علىٰ رسوله من الكتاب والحكمة، الذي يجمع كلَّ علم نافع، وأمر بسؤال أهل العلم لمن لم يعلم. وأخبر برفعتهم في الدنيا والآخرة، وأنَّهم سادات الخلق في دنياهم وأخراهم، وأئمتهم الذين بهم يقتدون، وعلىٰ آثارهم يهتدون، وعلىٰ طريقتهم يسلكون.

فالعلم يقصر التعبير عن كنه فضله، وعلو مرتبته، ويكفي في هذا أنَّ جميع الأقوال والأفعال والإرادات متوقفة في صحتها وفسادها، وكمالها ونقصها، وفي جميع صفاتها علىٰ العلم. ما حَكَمَ به العلم من ذلك فهو كما قال، وإنَّ العلم نور للصدور وحياة للقلوب، به يعرف الله، وبه يُعبد، وبه يعرف الحلال من الحرام، والطيِّب من الخبيث، وبه يميّز بين الأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار.

والعلم يقوِّم ما اعوجّ من الصفات، ويكمِّل ما نقص من الكمالات، ويسدّ الخلل، ويصلح العمل، وبه صلاح الدِّين والدنيا، وبضده فساد ذلك ونقصه. العلم ميراث الرسول، والعلماء ورثة الأنبياء، فإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا إلا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر، ولولا العلم لكان النَّاس كالبهائم، والحاجة إلىٰ العلم أعظم من الحاجة إلىٰ الطعام والشراب.

والعلم النافع هي العلوم الشرعية، وما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها. ومن العلوم الشرعية تعلُّم الفنون المعينة علىٰ الدين، وعلىٰ قوة المسلمين، وعلىٰ الاستعداد للأعداء للمقاومة والمدافعة، فإنَّها داخلة في الجهاد في سبيل الله، فكلُّ أمرٍ أمرَ به الشارع، وهو يتوقَّف علىٰ أمور كانت مأمورًا بها، والله أعلم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من الآداب والأخلاق المبينة في القرآن خلق العلم وأدبه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر بتعلم جميع العلوم النافعة، وأعظمها (**علم ما أنزل الله علىٰ رسوله من الكتاب والحكمة**) الذي يجمع كل علم نافع، بل العلم النافع هو ما جاء به النبي ﷺ، وما دار في فلكه فهو تابع له، وما خرج عنه فإنه أجنبي عنه، بهذا المعنىٰ قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد: "**العلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول ﷺ**" فما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والحكمة هو العلم النافع حقيقة، وقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن فضائل أهله برفعتهم في الدنيا والآخرة، فإن من أعظم أسباب الرفعة العلم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر الرفعة في ثلاثة مواطن كما ذكر ابن القيم:

أحدها: رفعة أهل الإيمان.

وثانيها: رفعة أهل الجهاد.

وثالثها: رفعة أهل العلم.

فأسباب الرفعة العظيمة هي العلم والإيمان والجهاد، والإيمان والجهاد متوقفان علىٰ العلم، فرجع أصل الرفعة كلها إلىٰ العلم كما ذكر ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»، وأهل العلم هم سادات الخلق في

الدنيا والآخرة، وهم أئمة الدين الذين بهم يقتدىٰ وعلىٰ آثارهم يهتدىٰ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ (أن العلم يقصر التعبير) يعني بيان اللسان (عن كنه فضيلته) أي عن حقيقة فضله (وعلوِّ مرتبته، ويكفي في هذا أنَّ جميع الأقوال والأفعال والإرادات متوقِّفة في صحّتها وفسادها، وكمالها ونقصها، وفي جميع صفاتها علىٰ العلم) فيجمع القول في فضل العلم أن كل خير في الدنيا والآخرة مردُّه إلىٰ العلم، فقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» **"أنَّ أصل كل خير العلم والعدل، وأن أصل كل شر الجهل والظلم"**، والعدل لا يمكن إلا بعلم، فرجع الأمر كلُّه إلىٰ العلم، ولهذا كانت عبارة القرافي أحسن منه، فإن القرافي ذكر في «الفروق» أنَّ أصل كل خير هو العلم. وهو الصواب، فإن العدل لا يكون إلا بعلم، فالخير كله راجع إلىٰ العلم.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ طرفًا من فضائل العلم أنَّه (نور للصدور وحياة للقلوب، به يعرف الله، وبه يُعبد، وبه يعرف الحلال من الحرام، والطيِّب من الخبيث) حتىٰ قال: (والعلم يقوِّم ما اعوجّ من الصفات، ويكمِّل ما نقص من الكمالات) حتىٰ قال: (العلم ميراث الرَّسول) يعني هو الذي تركه الرسول ﷺ بعده، (فإن العلماء ورثة الأنبياء، فإنَّ الأنبياء لم يورثوا إلا العلم) فلم يورثوا درهما ولا دينارًا وإنَّما ورثوا العلم، (فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) يعني بنصيب كثير، وثبت هذا المعنىٰ في حديث أبي الدرداء عند أبي داود وغيره وإسناده حسن.

ثم قال: (ولولا العلم لكان الناس كالبهائم) لأن الذي يَفترق به الإنسان الحكيم عن الحيوان البهيم هو العلم، ومن فاته العلم في صفاته صار شبيهًا بالبهائم في أحواله.

ثم قال: (والحاجة إلىٰ العلم أعظم من الحاجة إلىٰ الطعام والشراب) وهذا المعنىٰ موجودٌ في كلام الإمام أحمد، فإنه كان يقول: **"حاجة الناس إلىٰ العلم أشدُّ من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب"** وبين ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» وجهه بقوله: **"لأن الطعام والشراب قوام البدن، والعلم قوام الروح"** فلأجل هذا المعنىٰ صار الناس محتاجين للعلم أشدَّ من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب، فإنَّ الطعام والشراب قوت أبدانهم، وأما العلم فهو قوت قلوبهم وأرواحهم الذي به تحيا.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن (العلم النافع هي العلوم الشرعية، وما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها) فما كان من الكتاب والسنة فهو علم نافع، وما خرج عنها فإما أن يكون خادمًا لها فذلك ملحق بها، وإما أن يكون أجنبيًا عنها فذلك مبعد عنها.

ثم قال: (ومن العلوم الشرعية تعلُّم الفنون المعينة علىٰ الدِّين، وعلىٰ قوة المسلمين، وعلىٰ

الاستعداد للأعداء للمقاومة والمدافعة، فإنَّها داخلة في الجهاد في سبيل الله، فكلُّ أمرٍ أمرَ به الشارع، وهو يتوقَّف علىٰ أمور كانت مأمورًا بها، والله أعلم) فجعل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ما يحتاج إليه من علوم الدنيا علمًا مأمورًا به إذا كان وسيلةً لإعزاز الدين، والجهاد في سبيله، فما احتاج إليه المسلمون من العلوم التي تقويهم فإن ذلك من جملة المأمور به؛ لكن علىٰ وجه التبع لا علىٰ وجه الاستقلال، فإن العلم المأمور به استقلالًا، وفيه الفضائل المذكورة في الكتاب والسنة هو علم الشريعة وهو علم الكتاب والسنة، فهو العلم الذي له الفضائل المأثورة والمناقب المذكورة في الكتاب والسنة، وما عدا ذلك فإنَّما يمدح بحسب منفعته، فإذا كانت منفعته عظيمة وحاجة المسلمين إليه ماسة مدح لأجل ذلك وأمره به، وأما إن لم يحتج إليه ولا توقفت منفعة المسلمين عليه فإن ذلك علم من علوم الدنيا التي لا تضر ولا تنفع، وما أكثرها.

وهذا آخر بيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب،

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

التوسط في كلِّ الأمور والاعتدال والاقتصاد

هذا الخلق الجليل قد دلّ عليه القرآن في آيات كثيرة عامَّة وخاصة:

فمن العامة: الأمر بالعدل والقسط في عدة آيات، والإخبار بأنَّ هذه الأمة وسَط وذلك في كلِّ أمورها، فهم وسطٌ في الإيمان بالأنبياء، والقيام بحقوقهم بين من غَلوا فيهم حتىٰ جعلوا لهم أو لبعضهم من حقوق الله الخاصَّة ما جعلوه، من الغلو فيهم والعبادة لهم، وبيْن من جفوهم، فكفروا ببعضهم أو لم يقوموا بحقِّهم.

وهذه الأمة ولله الحمد آمنت بكلِّ رسولٍ أرسله الله، واعترفت بجميع ما فضّلهم الله به، وخصهم به من المزايا والخصائص التي جعلتهم أرفع الخلق في كلِّ صفة كمال، ولم يغلوا فيهم.

وهم وسَطٌ بين من حرَّم الطيبات من الرهبان المتعبدة والمشركين. الذين حرموا ما لم يأذن به الله اتباعًا لخطوات الشيطان، وبين من استحل المحرمات والخبائث؛ بل اتبعوا النبي الأمي الذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرِّم عليهم الخبائث.

وقد أمر الله بالتوسط والاعتدال في النفقات في قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء] وأثنىٰ علىٰ

المتوسطين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾ [الفرقان]، وهذا يشمل النفقة على النفس والأهل والعيال والمماليك من الآدميين والبهائم في جميع وجوه الإنفاق. فإنَّ هذه الحال فيها اعتدال خلق الإنسان وكمال حكمته، حيث قام بالواجبات، وبما ينبغي وترك ما لا ينبغي.

ومن فوائد ذلك أيضًا: أنَّ في الاعتدال سرَّ بركة، وما عال من اقتصد، وأنَّه يمنع العبد الندم، فإنَّ المسرف في الإنفاق إذا أملق واحتاج لعبت به الحسرات، وجعل يقول بلسان مقاله، أو لسان حاله: يا ليتني لم أفعل ذلك.

وأما المقتصد فإنَّه لا يندم العاقل على نفقة وضعها في محلها، وأقام بها واجبًا من الواجبات، أو سدَّ بها حاجة من الحاجات، فإنَّ المال لا يقصد إلا لمثل هذه الحالة.

وأيضًا فإنَّ المسرف في النفقات، لا بد أن يكون مترفًا معتادًا أمورًا، إذا عجز عنها شق عليه الأمر مشقة كبيرة، وكبر عليه الصبر، وثقل عليه حمله بخلاف المعتدل، فإنَّه سالم من هذه الحالة.

وأيضًا فإنَّ الاعتدال في النفقة أحد قسمي الرشد. فالرشد الذي هو معرفة تدبير الدنيا أن يعرف الطرق التي يحصلها فيها، فيسلك النافع منها، ثم إذا حصلت عرف كيف يصرفها ويبذلها، وعلم التدبير من العلوم النافعة دينًا ودنيًا، وشرعًا وعقلًا.

لا يزال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر نبذًا من الآداب والأخلاق الفاضلة التي انتظمت في القرآن الكريم، فمن جملتها «أدب التوسط في كل الأمور والاعتدال والاقتصاد» فإن هذا خلق جليل عظيم في وقوعه بين الطرفين، فإن كلا طرفي قصد الأمور ذميم، وسلامة الإنسان بما تجاذبه الطرفان أن يلزما الوسط، وهذا معنى قول السلف رحمهم الله تعالى: "**الحسنة بين سيئتين**" أي بين سيئة الإفراط والتفريط، فما كان لهم طرفان فإن السلامة في سلوك الوسط والاعتدال، ودلائل ذلك في القرآن كثيرة:

فمن دلائله العامة: الأمر بالعدل والقسط في عدة آيات، والذي يظهر أن عطف القسط على العدل من باب عطف الخاص على العام، فإن العدل أصل عام من أفراده القسط، فإن القسط يتعلق بالاعتدال فيما كان ذا أجزاءً فما كان مقسطًا أي مجزًا فإن الأقساط قسم لما يتجزأ ويتقدم، فإن الاعتداء فيه يسمى قسطًا.

ثم ذكر أن من جملة ذلك (**الإخبار بأنَّ هذه الأمة وسَط**) أي عدل (**وذلك في كلِّ أمورها**) كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة:١٤٣] يعني عُدولًا خيارًا، (**فهم وسطٌ في الإيمان بالأنبياء**)

فهم يؤمنون بالأنبياء جميعًا، وهم وسطٌ في (القيام بحقوقهم بين من غَلوا فيهم حتىٰ جعلوا لهم أو لبعضهم من حقوق الله الخاصة ما جعلوه، من الغلو فيهم والعبادة لهم، وبين من جفَوْهم، فكفروا ببعضهم أو لم يقوموا بحقهم).

ثم قال: (وهذه الأمة ولله الحمد آمنت بكلِّ رسول أرسله الله، واعترفت بجميع ما فضّلهم الله به، وخصهم به من المزايا والخصائص) فهم في الإيمان بالأنبياء وسط بين الأمم بين من رفعهم وغلا فيهم كالنصارىٰ، وبين من احتقرهم وجفاهم وغمَطُهم حقهم كاليهود قتلة الأنبياء.

ثم ذكر أنَّهم أيضًا (وسَط بين من حرَّم الطيبات من الرهبان المتعبدة والمشركين الذين حرَّموا ما لم يأذن به الله اتباعًا لخطوات الشيطان) يعني لسبيله (وبين من استحل المحرمات والخبائث؛ بل اتبعوا النبي الأمي الذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويُحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث) فما أحله الشرع أحلوه، وما حرمه الشرع حرّموه.

ثم ذكر من الأدلة الخاصَّة أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالتوسط والاعتدال في النفقات، فإنَّ باب النفقات من أكثر ما يجري فيه الإسراف والتقتير فجاء الأمر بلزوم الاعتدال فيه في آيٍ عدة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ يعني مقبوضة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ يعني مرسلة، فإن الإنسان بين القبض والبسط في نفقته المعتدلة ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩﴾ أي ينشأ من ذلك تلُوُّمك وتحسُرك فإن الإنسان إذا قبض يده في النفقة فضيَّق علىٰ من ينفق عليه أو بسطها وأرسلها فإنه يحدُث له لومٌ وحسرة ولابد.

ثم ذكر أن الله عَزَّوَجَلَّ (أثنىٰ علىٰ المتوسِّطين) يعني المعتدلية، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾ والتقتير هو التقصير، وأما الإسراف فهو مجاوزة الحد في مأذون به، وبهذا يتبين الفرق بين الإسراف والتبذير، فإن الإسراف يكون أصله مشروعًا مأذونًا فيه، فإذا جاوز الحد المأذون فيه وقع في الحرام، وأما التبذير فهو الإنفاق في وجه غير مشروع فيه، فلو قدر أن إنسانًا أضافه أحد من الضيوف فنزل به فبالغ في إكرامه حتىٰ جاوز الحد المأذون فيه فإن الواقع منه هو الإسراف، لكن لو جعل الإنسان ماله في خمر أو غير ذلك من المحرمات فإن الواقع منه هو التبذير.

وهذا أحسن ما قيل في الفرق بين الإسراف والتبذير.

ثم بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا (يشمل النفقة علىٰ النفس والأهل والعيال والمماليك من الآدميين

والبهائم في جميع وجوه الإنفاق، فإنَّ هذه الحال فيها اعتدال خُلق الإنسان وكمال حكمته، حيث قام بالواجبات بما ينبغي وترك ما لا ينبغي).

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد فوائد للاعتدال في الأمور كلها والتوسط فيها فقال: (ومن فوائد ذلك أيضًا: أنَّ في الاعتدال سرَّ بركة) يعني سببًا لكثرة الخير ودوامه، فإن البركة في كثرة الخير ودوامُه، ثم ذكر جملة رُويت مرفوعة ولا تصح، (ما عال من اقتصد) يعني ما افتقر من اقتصد، فمن يلزم الاقتصاد وهو الاعتدال في النَّفقة فإنه لا تلحقه عيلة يعني فقرًا، (وأنَّه يمنع العبد النَّدم، فإنَّ المسرف في الإنفاق إذا أملق) يعني إذا احتاج وافتقر (لعبت به الحسرات وجعل يقول بلسان مقاله، أو لسان حاله: يا ليتني لم أفعل ذلك) يعني لم أضع المال في المسلك الفلاني أو في المسلك الفلاني.

(وأما المقتصد) يعني المعتدل في نفقته (فإنَّه لا يندم العاقل علىٰ نفقةٍ وضعها في محلِّها، وأقام بها واجبًا من الواجبات، أو سدَّ بها حاجة من الحاجات، فإنَّ المال لا يقصد إلا لمثل هذه الحالة)، فالمال لا يراد لذاته جمعًا [وحطمًا] وإنَّما يراد لحاجته من القيام من الواجبات أو سد الحاجات، فالمقتصد إذا وضع النفقة في محلها لم يندم عليها.

ثم قال المصنِّف: (وأيضًا فإنَّ المسرف في النفقات) يعني المجاوز حد الاعتدال فيها (لا بد أن يكون مترفًا) أي: موسعًا علىٰ نفسه في حال الترف (معتادًا أمورًا) من أمور التوسع (إذا عجز عنها شق عليه الأمر مشقة كبيرة) لأن من أشق الأمور علىٰ النفس فطمها عن مألوفاتها، فمن اعتاد التوسعة علىٰ نفسه بمأكل أو مشرب أو مركب أو منزل فإنه يشقُّ عليه بعد ذلك أن يتدنىٰ في رتبته عنه (وكبر عليه الصبر، وثقل عليه حِمْلُه بخلاف المعتدل، فإنَّه سالمٌ من هذه الحالة) فالمعتدل لا يجد مشقة في ترك شيءٍ لأنه عوَّد نفسه التقلل ولزم الاعتدال، فلا يدخل عليه ذلك ويهون الصبر علىٰ فقده.

ثم ذكر أن (الاعتدال في النفقة أحد قسمي الرشد فيها) فإن الرشد في النفقة له قسمان:

فالقسم الأول: معرفة طرق تحصيلها من وجوه الحلال.

والثاني: معرفة طُرق صرفها وبذلها فيما يحبُّه الله ويرضاه.

فإذا اعتدل في النفقة فإنه قد نال أحد قسمي الرشد فيها، ومن رام أن يكون رشيدًا في ماله فإنه يلزم هذين الطريقين فإنه يَتَلَمّس وجوه المسددة في جمع المال من الحلال فإذا أصابه سلك الطرق الحسنة في إنفاقه وصرفه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاعدة نافعة فقال: (وعلم التدبير من العلوم النافعة دينًا ودنيًا، وشرعًا وعقلًا)

والمقصود بالتدبير تصريف الأمور، فمعرفة تصريف الأمور من الأمور النافعة دينًا ودنيا، وشرعًا وعقلًا.

وعلم التدبير هو الذي يسمىٰ في لسان العصر بعلم الإدارة، وهو أنواع كثيرة:

منها علم إدارة الاقتصاد، ومن أعظم أصوله ما جاءه به القرآن الحكيم من لزوم التوسط في النفقة والاعتدال فيها، فمن كان كذلك فإنه يرجع بدوام الحال الحسنةِ عليه، ومن لعب بها كيفما اتفق ضاع أيدي سبأ ولحقه في ذلك ضنك في معيشته، ومعرفة ما تصلح به أحوال الناس هو في الكتاب والسنة وليس في غيرهما من العلوم ما ليس موجودًا فيهما، فإن أصل كل علم نافع هو في القرآن الكريم، وفي ذلك أنشد ابن عباس فيما أثر عنه:

جميع العلم في القرآن لكن ... تقاصرا عنه أفهام الرجال

فمن أراد أن يعرف مسيرة التدبير الواقية له من الزلل في أمر دنياه ومعيشته فلينظر ما جاء من القواعد القرآنية في ذلك، ومن جملتها ما شيده المصنِّف هنا من لزوم الاعتدال والاقتصاد في النفقة، فإنه يفضي بالإنسان إلىٰ حسن الحال.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب.

وبالله التوفيق والحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

الإحسان والعفو

كم في كتاب الله من الحثّ علىٰ الإحسان إلىٰ الخَلْق، وأنَّ الله يحبُّ المحسنين ويجزيهم الحُسنىٰ علىٰ إحسانهم، ويأمر بالعفو والصفح عن الزلّات والإساءات، وأنَّ ذلك من أعظم الحسنات.

فالإحسان هو بذل المعروف القولي والفعلي والمالي إلىٰ الخلق. فأعظم الإحسان تعليم الجاهلين، وإرشاد الضالين، والنَّصيحة لجميع العالمين.

ومن الإحسان: إعانة المحتاجين، وإغاثة الملهوفين، وإزالة ضرر المضطرين، ومساعدة ذوي الحوائج علىٰ حوائجهم، وبذل الجاه والشفاعة للناس في الأمور التي تنفعهم.

ومن الإحسان المالي: جميع الصدقات المالية سواءٌ كانت علىٰ المحتاجين، أو علىٰ المشاريع الدينية العام نفعها.

ومن الإحسان: الهدايا والهبات للأغنياء والفقراء، خصوصًا للأقارب والجيران، ومن لهم حقٌّ علىٰ

الإنسان من صاحب ومُعامل وغيرهم.

ومن أعظم أنواع الإحسان: العفو عن المخطئين المسيئين، والإغضاء عن زلّاتهم، والعفو عن هفواتهم.

وللإحسان بوجوهه كلِّها فوائد لا تحصىٰ.

منها: حصول محبة الله للمحسنين التي هي أعلىٰ ما يناله العبد.

ومنها: حصول الجزاء الكامل؛ قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس:٢٦]، وقال: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن]، فالجزاء من جنس العمل، فكما أحسنُوا إلىٰ عباد الله أحسن الله إليهم وأعطاهم أفضل ما يعطي أولياءه من الجزاء الأَوْفىٰ الأكمل.

ومنها: أنَّ هذا من أكبر أسباب محبَّة الخلق له، من وصل إليه إحسانه ومن لم يصل إليه، وثنائهم عليه وكثرة أدعيتهم له، وذلك من الأمور المتنافَس فيها.

ومنها: أنَّه يستفيد بذلك سُرور القلب وراحته وطمأنينته، لاسيَّما إحسان العفو، فإنَّه إذا عفا عمَّن ظلمه وأساء إليه، زال أثر ذلك عن قلبه، وعلِم أنَّه اكتسب عن ذلك من ربِّه أفضل جزاء وأعظم ثواب.

وأيضًا: فمن عفا عن عباد الله عفا الله عنه، ومن سمح عنهم سامحه الله.

ومن أفضل الإحسان الذي يتمكن به الموفق من معاملة الناس علىٰ اختلاف طبقاتهم: البشاشة وحسن الخلق معهم، ومعاشرتهم باللطف والكرم، وإبداء كلِّ ما يقدر عليه من إدخال السُّرور عليهم، وخصوصًا الأقارب والأصحاب ونحوهم ممن يتأكد حقهم علىٰ العبد، وأنَّ العبد ليُدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ترجمة أخرىٰ تندرج فيما قصده من إبداء الآداب الفاضلة والأخلاق الكاملة المذكورة في القرآن الكريم فترجم بقوله: (الإحسان والعفو).

ثم عظَّم قدْر ما (في كتاب الله) عَزَّ وَجَلَّ (من الحثِّ علىٰ الإحسان إلىٰ الخلق) بالأمر به (وأنَّ الله يحب المحسنين ويجزيهم الحُسنىٰ علىٰ إحسانهم) والحسنىٰ التي يجزىٰ بها المحسنون هي الحال الحَسنة، وهي نوعان:

أحدهما: حُسنىٰ الدنيا؛ وهي الحياة الطيبة.

والآخر: حُسنىٰ الآخرة؛ وهي الجنَّة؛ ثم لهم فوق ذلك الزِّيادة؛ وهي النظر إلىٰ وجه الله عَزَّ وَجَلَّ كما

قال الله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فهم ينالون بإحسانهم حسنىٰ الدنيا والآخرة، ثم يُزادون النَّظر إلىٰ وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال المصنِّف: (**ويأمر بالعفو والصفح عن الزلّات والإساءات، وأنَّ ذلك من أعظم الحسنات**) ثم قال: (**فالإحسان هو بذل المعروف القوليِّ والفعلي والمالي إلىٰ الخلق.**) ومرادُه بالإحسان هنا الإحسان المعدىٰ بـ(إلىٰ)، فإن الإحسان المعدىٰ بـ(إلىٰ) يختص بالخلق، فيقال أحسن إلىٰ المخلوق، وذلك الإحسان يكون ببذل المعروف، والمعروف أنواع متعددة، فكل من درج في بذل المعروف فهو من الإحسان، وهو درجاتٌ متفاوتة، فمن أعلاه ما ذكره المصنِّف بقوله: (**فأعظم الإحسان تعليم الجاهلين، وإرشاد الضالين، والنصيحة لجميع العالمين**)؛ لأن منفعة هذا الإحسان هو إصلاح الأديان التي تنتفع به الأرواح، **وحاجة الناس إلىٰ إصلاح أديانهم أشدُّ من حاجتهم إلىٰ إصلاح دُنياهم**، فمن أحسن إلىٰ الخلق بتعليم الجاهل وإرشاد الضال والنَّصيحة لهم فقد أبلغ في الإحسان إليهم فهو من أعظم أنواع المعروف المبذولة لهم لعظيم أثره، وجليل فائدته وحُسن عائدته عليهم في الدنيا الآخرة.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ صنوفًا أخرىٰ من الإحسان فقال: (**ومن الإحسان: إعانة المحتاجين**) أي: ذوي الحاجة، (**وإغاثة الملهوفين**) **والملهوف** هو المظلوم المستغيث؛ فهو الذي صُبَّ عليه ظلمٌ والتمس من يرفعه عنه، ومنه (**وإزالة ضرر المضطرِّين**) أي: الواقعين في حال ضيقٍ وضرورة، (**ومساعدة ذوي الحوائج علىٰ حوائجهم، وبذل الجاه**) يعني المقام (**والشَّفاعة للناس في الأمور التي تنفعُهم**) فباب بذل الجاه والشَّفاعة للناس في الأمور التي يحتاجون إليها مما ينفعهم هو من أعظم الإحسان.

ثم ذكر نوعًا آخر فقال: (**ومن الإحسان المالي**) يعني المتعلّق بالمال (**جميع الصدقات المالية سواء كانت علىٰ المحتاجين، أو علىٰ المشاريع الدينية العام نفعها.**)

ثم قال: (**ومن الإحسان: الهدايا والهبات**) يعني العطايا (**للأغنياء والفقراء، خصوصًا للأقارب والجيران، ومَن لهم حقٌّ علىٰ الإنسان من صاحبٍ ومُعامل**) يعني معاشر (**وغيرهم.**) لأن هؤلاء لقوة صلتهم به هم أحقُّ الناس بإحسانه وأولاهم به.

ثم قال: (**ومن أعظم أنواع الإحسان: العفو عن المخطئين المسيئين، والإغضاء عن زلّاتهم، والعفو عن هفواتهم.**) **والهفوة هي**: السَّقطة، ومن فصيح العامي في نجد قولهم: فلان هافي يعني ساقط، فمِن أعظم أنواع الإحسان أن يعفو المرء عمَّن أخطأ عليه، وأساء إليه، وأن يُغضي عن زلته ويعفو عن هفوته، ابتغاء الأجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الخطيئة والسيئة ملازمة للجبلة الآدمية، والذي يطلب معاشرا خاليا منها

فإنه يطلب مُحالًا، فإذا كان الناس مطبوعين علىٰ هذه الحال؛ فإن الأكمل في الإحسان أن يعفو المرء عمن أساء إليه، ويتغافل عن زلته ويعفو عن هفوته.

ثم قال المصنّف: (**وللإحسان بوجوهه كلّها فوائد لا تحصىٰ.**) وفوائد الإحسان عديدة كثيرة:

(**منها: حصول محبة الله للمحسنين التي هي أعلىٰ ما يناله العبد.**) أي: من مقامات العبودية عند الله عَزَّوَجَلَّ فمن أعظم ما يناله العبد أن يحبه الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن طرائق حصول العبد علىٰ محبَّة الله إحسانه إلىٰ الخلق.

(**ومنها: حصول الجزاء الكامل؛ قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦]،**) يعني الجنة، (**وقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن].**) أي: هل جزاء الإحسان في العمل إلَّا الإحسان في الجزاء، وهذا معنىٰ قول المصنف: (**فالجزاء من جنس العمل، فكما أحسنُوا إلىٰ عباد الله أحسن الله إليهم وأعطاهم أفضل ما يعطي أولياءه من الجزاء الأوْفىٰ الأكمل.**)

ثم قال: (**ومنها: أنَّ هذا من أكبر أسباب محبَّة الخلق له**) يعني للمحسن، (**من وصل إليه إحسانه ومن لم يصل إليه، وثنائهم عليه وكثرة أدعيتهم له، وذلك من الأمور المتنافَس فيها.**) يعني تحصيل العبد لمحبة الخلق وفوزه بثنائهم ودعائهم مما يُنافس فيه. ومن الموصل إليه أن يكون الإنسان محسنًا للخلق، فما استعبد الإنسان بمثل الإحسان؛ كما قاله جماعة، فالإحسان إلىٰ الخلق يجعل في قلوبهم منزلةً للمحسن، وهو لا يرتجي بهذا الإحسان تلك المنزلة؛ لأن الأعمال لا تحصُل إلا بالإخلاص، فلا يحصل الكمال المرجوّ من الإحسان إلىٰ الخلق إلا أن يكون العبد مخلصًا في إحسانه إليهم، لا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا، ومتىٰ وقع العمل خاليًا من انتظار الجزاء والشُّكور حصَّل كمال الأجر، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيما ذكر عن عباده: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان].

ومن علامات العاقل في إحسانه للناس ألا ينتظر الوفاء منهم؛ لأن الخلق فيهم أخلاق تخالف الخُلُق القويم، فلابد أن تظهر هذه الأخلاق ولو علىٰ بعضهم، فربَّما أحسنت إلىٰ أحد فأساء إليك، وممَّا يطفئ نار تحرُّقك القلبي عليه أن تعوِّد نفسك ألا تنتظر من محسَن إليه أن يشكُرك وأن يفي لك؛ بل عوِّد نفسك أنك تنتظر ممَّن أحسنت إليه إساءة إليك، فإنَّ الأنبياء لقوا ذلك فإنهم أحسنوا إلىٰ أناس بالاهتداء إلىٰ الدِّين القويم وإمدادهم بما يحتاجون، ثم منهم من ارتدَّ علىٰ أعقابه وطعن في نبوّة النبي الصادق المحسن إليه.

ومن كلام أبي الوفاء ابن عقيل الإشارة إلىٰ هذا المقام، ومثَّل له بما وقع في الصدر الأول من مبادرة

أناسٍ من أهل الإسلام إلىٰ قتل حفيد النبيِّ ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، فإنه لو كان فيهم وفاءٌ لما فعلوا ذلك مع رجلٍ جدُّه هو الذي أرسله الله عَزَّوَجَلَّ إليهم، فإذا كانت هذه الحال واقعة مع المقام النبوي وأقرب الناس إليه فإن الحري بالعاقل أن يعوِّد نفسه ألا ينتظر من الناس وفاءً، وذلك أكملُ لعقله، وأصبر لنفسه، وأوثق لدينه، وأجمعُ لقلبه، وأمَّا إن كان المرء لا يحسن إلا وهو يطلب رجوع إحسانه ولا ينتظر من الناس إساءةً فإنه يحصل له من النَّكدات والنغصات وتمزيق القلب وتشتيت الشمل ما يضيِّع كثيرًا من عُمره، وربما إن لم تكن أنت قد رأيت متوجِّعًا متفجعًا مِن حال مَن أحسن إليه فأساء إليه ولو أن الإنسان عوَّد نفسه علىٰ ألا ينتظر الوفاء وإنَّما يرجو من الله الجزاء لكان قلبه مطمئنًا وكانت نفسه ساكنة.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ من فوائد الإحسان: (**أنَّه يستفيد بذلك سرور القلب وراحته وطمأنينته، لاسيَّما إحسان العفو، فإنَّه إذا عفا عمَّن ظلمه وأساء إليه، زال أثر ذلك عن قلبه، وعلم أنَّه اكتسب عن ذلك من ربِّه أفضل جزاء وأعظم ثواب**) فالذي يبذل الإحسان للناس يُسرُّ قلبه ويرتاح ويطمئن، فإنه يحدث له أثرًا قلبيًّا لما في الإحسان من عمل الخير، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن]، فمن أحسن إلىٰ الخلق فإن الله عَزَّوَجَلَّ يحسن إليه.

قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد: **"إذا عملت لله طاعة فلم تجد لها أثرًا فاتَّهم نفسك فإن الرَّب شكور"**. ذكره ابن القيم في «مدارج السالكين».

ومن آثار الإحسان إلىٰ الخلق أن يجد الإنسان في قلبه سرورًا وراحةً وطمأنينة، ولاسيما إذا كان إحسانًا بالعفو عمن ظلمه، فإنه يزول عن قلبه الحزن والظلمة التي اكتنفته لما بلغته إساءته، فلما عفا عنه وصفح وسامح تحدُث له هذه الحال من سرور القلب وراحته وطمأنينته، فإذا زاد المرء علىٰ العفو بأن يدعو لمن أساء إليه فذلك غاية الفرح والسُّرور، وأعظم حصول اللذات القلبية عند العفو عن المسيئين لأن الداعي لهم بالخير يُشهد قلبَه حال التبرؤ من إرادة أي مقصدٍ من مقاصد الدُّنيا، وأنَّه لا يريد لهم إلا النفع في الدَّارين فيجزيه الله عَزَّوَجَلَّ الجزاء الأوفىٰ بذهاب آثار ذلك من قلبه بالكلِّيَّة، فينبغي أن يعتاد المرء مع دوام عفوه إلىٰ من أساء إليه أن تعود نفسك الدعاء له، فهذه مراتب ثلاثٌ لابد من وجودها في قلب العاقل البصير:

إحداها: ألا ينتظر وفاءً ممن أحسن إليه.

وثانيها: أن يُبادر بالعفو عمَّن أساء إليه.

وثالثها: أن يقرن عفوه بالدُّعاء له.

فمتىٰ وُجدت هذه المراتب الثالث حاز الإنسانُ سعادةً عظمىٰ في معاملة الخلق في هذا الباب، ومن ضيَّعها أو ضيَّع واحدة منها حصلت له غُصّة وآلامٌ قلبية بحسب ما فاته، ومن جرَّب ذلك وجده.

ولا يظنَّن المرء أن هذه الحال مما يوصَل إليه بغير المجاهدة؛ بل ذلك شاقٌّ علىٰ النفوس، وأذكر أنني أجريت مرة صُلحًا بين جماعة ثم بعد عفو المُساء إليه طلبتُ منه أن يدعو لذلك إبلاغًا بتطهير نفسه من أثر الإساءة، فقال لي: إنه لا يقدر علىٰ أن يدعو له. وعجِز أن يدعو له؛ لأن من يرتض علىٰ هذا في أحواله القلبية فلا يمكن أن يصل إليها بالسهولة بأدائها مرَّةً إذا طُلب منه ذلك.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من فوائد الإحسان أن (**من عفا عن عباد الله عفا الله عنه، ومن سَمَح عنهم سامحه الله**) لأن الجزاء من جنس العمل ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن]، ومن يسَّر علىٰ معسر يسر الله عليه، وكذلك من عفا عن مسيء عفا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه.

ثم قال المصنِّف: (**ومن أفضل الإحسان الذي يتمكَّن به الموفق**) الذي وفقه الله (**من معاملة الناس علىٰ اختلاف طبقاتهم: البشاشة**) أي: التبسّم إليهم (**وحسن الخلق معهم، ومعاشرتهم باللطف**) أي بالرِّفق والتودد فإن اللُّطف مركب من هذا وهذا، (**والكرم، وإبداء كلِّ ما يقدر عليه من إدخال السرور عليهم، وخصوصًا الأقارب والأصحاب ونحوهم ممن يتأكَّد حقهم علىٰ العبد**) فمتىٰ استعمل الإنسان ذلك فكان بشوشًا مع الخلق، حسَن الخلق معهم، معاشرًا لهم باللطف والكرم مظهرًا كل ما يقدر عليه من إدخال السرور إليهم فإنَّ ذلك من أعظم ما ينالُ به الدرجة العظمىٰ من الإحسان، حتىٰ إذا بلغ هذه المرتبة من حسن الخُلق فقد بلغ خيرًا كثيرًا كما قال المصنِّف: (**وأنَّ العبد ليُدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**) كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، فرُبَّ إنسان يصوم ويقوم وآخر ليس له حظٌّ من الصيام والقيام النفل؛ لكنه حسن الخلق في التعامل مع الناس، ومعاشرتهم فيتلطَّف إليهم ويتودَّد معهم ويلاقيهم بالبشاشة، فيكون جزاؤه أن يبلغ درجة الصائم القائم، وأولىٰ الناس بتحسين أخلاقهم وإصلاح نفوسهم وتكميل آدابهم هم المنتسبون إلىٰ طلب علوم الشريعة، فلابد أن يكون من أعظم مطالبهم النَّفسانية تقويمُ أخلاقهم، وحمل نفوسهم علىٰ تحسين الخُلق مع النَّاس؛ لأن العلم الذي تنتسب إليه أكَّد في دلائل القرآن والسنة علىٰ استعمال الخلق الحسن، وأنَّ من كان كذلك نال الأجر الأوفىٰ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووضع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له القَبول، وجرىٰ علىٰ يديه النَّفع، فينبغي أن يتعاهد المرء نفسه بإمدادها بالأخلاق الفاضلة وتطهيرها من الأخلاق السيِّئة، **وإنَّ المرء لا يولد فاضلًا، وإنَّما علىٰ قدر ترقيته نفسَه في الأخلاق**

يترقىٰ، ففي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «من يتصبر يصبره الله» فمن يجاهد نفسه في الترقي بالأخلاق الفاضلة فإنه يصل إليها، فينبغي أن يعوِّد المرء نفسه حسن الخلق والبشاشة مع الخلق، واللطف معهم، والإحسان إليهم، والكرم في معاملتهم، والصبر عليهم، وعدم استعمال الأخلاق السيئة، ثم يكرر هذا الأمر علىٰ نفسه قولًا وفعلًا وإن بدت منه زلة بدرها بلوم نفسه وتعنيفها وردها إلىٰ الخُلق القويم، فلو قُدِّر أن إنسان غضب فلتة مرة فإنه لا ينبغي فقط أن يتعوّذ من الشيطان الرجيم وإنَّما ينبغي له زيادة عن التعوذ أن يلوم نفسه علىٰ صدور الغضب منه، فإن النبيَّ ﷺ كما في الصحيح لما التمس منه رجل الوصية قال: «لا تغضب» فكرّر مرارًا؛ فقال: «لا تغضب»، فينبغي إذا وقع من الإنسان فلتة غضب أن يتعوذ من الشيطان بعد ذهاب موجبها، ثم يلوم نفسَه علىٰ مبادرته بالرد بتلك الفلتة من الغضب، فإنه إذا اعتاد لوم نفسه طهرها، **فإن اللوم لها بمنزلة الغسيل للنَّجاسة الظاهرة.**

وهذا آخر بيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب.

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

ولهذا نقول:

حسنُ الخلُق

هذا هو مادة الأخلاق الجميلة كلِّها، وقد اتفق الشرع والعقل علىٰ حسنه، ورفعة قدره، وعلو مرتبته، ومداره علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف]، أي خذ ما تيسر وعفىٰ وتسهل من أخلاق الناس، ولا تطالبهم بما لا تقتضيه طباعهم، ولا تسمح به أخلاقهم. هذا فيما يأتيك منهم.

وأما ما تأتي إليهم فالأمر بالعرف، وهو نصحهم وأمرهم بكلِّ مستحسن شرعًا، وعقلًا وفطرة، وأعرض عمن جهل عليك بقوله أو فعله، فللَّه ما أحلىٰ هذه الأخلاق وما أجمعها لكلِّ خير. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت].

ويُمِدُّه الصبرَ والحلمَ وسعةَ العقل. وفضل هذا الخُلق ومرتبته فوق ما يصفه الواصف.

ومن فوائد هذا المقام الجليل: أنَّ صاحبه مستريحُ القلب، مطمئن النفس قد وطّن نفسه علىٰ ما يُصيبه من الناس من الأذىٰ، وقد وطّن نفسه أيضًا علىٰ إيصال النَّفع إليهم بكلِّ مقدوره، وقد تمكّن من إرضاء الكبير والصغير والنظير، وقد تحمَّل مَنْ لا تَحْمِلُهُ مِن ثقله الجبال، وقد خفَّت عنه الأثقال، وقد انقلب عدوه صديقًا حميمًا، وقد أمِن من فلتات الجاهلين ومضرة الأعداء أجمعين، وقد سهل عليه مطلوبه من الناس، وتيسَّر له نصحهم وإرشادهم والاقتداء بنبيه في قوله تعالىٰ في وصفه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران:١٥٩] الآية.

ويتولد عنه خلق: الرَّحمة وهي رقة القلب وصفوه ورحمته للخلق وزوال قسوته وغِلظته، وهو من أخلاق صفوة الخلق. قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة].

فرأفته ﷺ ورحمته لا يقاربه فيها أحدٌ من الخلق، وهذه الرأفة والرحمة ظهرت آثارها في معاملته للخلق، ولا تنافي قوة القلب وصبره. فقد كان ﷺ أصبر الخلق وأشجعهم وأقواهم قلبًا مع كمال رحمته.

فقوَّة القلب من آثارها: الصبر والحلم والشجاعة القولية والفعلية، والقيام التَّام بأمر الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ورحمة القلب من آثارها: الشفقة والحنو والنصيحة، وبذل الإحسان المتنوع، فأيُّ أخلاق تقارب هذه الأخلاق السامية الجليلة. فقوة القلب وشجاعته تنفي الضعف والخور، ورحمته تنفي القسوة والغلظة والشراسة.

وهذه الأخلاق الجميلة وإن كانت من علم الأخلاق والتربية علىٰ أحسنها، فإنَّها أيضًا داخلة في علم التوحيد، كما دخل فيه الخوف والرجاء والدعاء وغيرها.

فهي من جهة: التعبد لله تعالىٰ بها والتقرب إليه داخلةٌ في علم التوحيد. ومن جهة: تكميلها للعبد وترقيتها لأخلاقه وتهذيب النفوس وتزكيتها داخلةٌ في علم الأخلاق.

وهذا أعظم البراهين علىٰ رسالة محمد ﷺ، وعلىٰ أنَّ ما جاء به من القرآن والدِّين هو الحق الذي لا رُقيَّ ولا علو ولا كمال ولا سعادة إلا به، وأنَّه هو الهُدىٰ العلمي الإرشادي، والهدىٰ العملي، والتربية النافعة. والحمد لله ربِّ العالمين.

لما ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما سلف من أنواع الآداب الفاضلة والأخلاق الكاملة المذكورة في القرآن

الإحسان، رجع بإفراد واحد من أنواع الإحسان بالذكر وهو «حسن الخلق» فإن الإحسان أنواع متعددة كما سلف، ومن جملة الإحسان استعمال الخلق الحسن مع الخلق، وتقدم قبل أن الخُلق يقع علىٰ معنيين:

أحدهما: عام وهو الدين، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣﴾ [القلم] أي دين عظيم. قاله مجاهد وغيره.

والآخر: خاص وهو المعاشرة مع غيره من الخلق، وهي المرادة بالذكر في هذا الفصل من الكلام الذي ترجم له المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بقوله: (**حسن الخلق**) يعني الخلق الحسن الذي يستعمل في المعاشرة مع الخلق، وأبان عن مبلغ قدره بقوله: (**هذا هو مادة الأخلاق الجميلة كلِّها**) أي: أصلها الذي يتفرع منها وتنشأ عنه الأخلاق الجميلة كلّها لا تتولَّد إلا من نفسٍ تنطوي علىٰ حُسن خلق.

ثم قال المصنِّف: (**وقد اتَّفق الشرع والعقل علىٰ حسنه، ورفعة قدره، وعلو مرتبته**) فحُسن الخلق مما اعتضد علىٰ إجلاله وتعظيمه النّقل والعقل، ولا تجد أحدًا من العُقلاء ولو كافرًا لا يعرف لحُسن الخلق قدره.

ثم ذكر مردَّه في كتاب الله فقال: (**ومداره علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾**) فإن هذه الآية هي من جوامع القرآن، ومتعلقُها منها الأخلاق، فهي أجمع آية في الأخلاق، ذكره هشام بن عروة وغيره، وجوامع القرآن هي **الآيات التي تشتمل علىٰ أصوله العظيمة**، ففي القرآن آي تكون جامعة لأصل يتعلق بباب من أبواب الدين كهذه الآية وهي قوله تعالىٰ: ﴿**خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ**﴾ إلىٰ تمامها هي من الآيات الجوامع فيما يتعلق بالأخلاق وتزكية النفوس.

ثم بيَّن المصنِّف معناها فقال: (**أي خذ ما تيسر وعفا وتسهل من أخلاق الناس، ولا تطالبهم بما لا تقتضيه طباعهم، ولا تسمح به أخلاقهم فيما يأتيك منهم**) فينبغي أن ينتظر الإنسان من الخلق الأخلاق المناسبة لحالهم ممَّا هو موافق لطباعهم، وكل إنسان له حال، فالكبير له حال، والصغير له حال، والعامِّيّ له حال، والمتعلم له حال، فينبغي أن يأخذ ما يتيسر له من أحوالهم، وما اقتضته طِباعهم، وألا يطالبهم بما هو فوق ذلك لأن بلغوه لا يكون إلا للأفذاذ من الخلق ممن زكَت نفسه وسمت روحه وحسُنت أخلاقه، فمثلًا من الطباع التي تقترن بكبار السِّن شدة غضبهم وسرعة مبادرتهم إلىٰ إيقاع العقوبة بمن يخالفهم، فينبغي أن يعاملهم الإنسان وفق هذا الداعي الموجود في نفوسهم وما اقتضته

طباعهم، فلا يطالبهم بما هو فوق ذلك؛ بل يلاطفهم بحسب الحال التي تـدفع غضـبتهم وتمنـع وجـود عقوبتهم، وهذا الذي ذكره المصنِّف هو فيما يتعلق بالمرء بالنظر إلىٰ الأخلاق التي تأتيه من الناس.

وأما ما يأتيه هو إليه فذكره بقوله: (**فالأمر بالعرف**) المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿**وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ**﴾ أي بما جرىٰ به عرف الخلق، ومن ذلك ما ذكره بقوله: (**وهو نصحهم وأمرهم بكلِّ مستحسن شرعًا، وعقلًا وفطرة، وأعرض عمن جَهِل عليك منهم بقوله أو فعله**) والجهل هو استعمال السفاهة، فمـن جـرت منه سفاهة فإنه جاهل، ودواؤه بالإعراض عنه.

ثم قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معظمًا قدرها: (**فللَّه ما أحلىٰ هذه الأخلاق وما أجمعها لكلِّ خير**).

ثم ذكر آيتين وفيهما قول الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذكر الأخلاق الفاضلة: ﴿**وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥**﴾ أي: نصيب عظيم، فالأخلاق الكاملة لا يترشَّح لها إلا الصَّابر، ولا يفوز بها إلا من أمده الله عَزَّوَجَلَّ بالتَّوفيق العظيم، فمدار حصول الأخلاق الفاضلة في معاملة النَّاس علىٰ أمرين:

أحدهما: الصبر عليهم.

وثانيهما: التوفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والصبر يكتسب بالتصبر، والتوفيق يكتسب بالاستمداد بالـدعاء، فينبغـي أن يشـغل المـرء نفسـه في رياضتها علىٰ الصبر حتىٰ يبلغ المرتبة المرجوَّة في معاملـة النـاس بالصـبر علـيهم، ولا ينسـىٰ حظَّـه مـن سؤال الله عَزَّوَجَلَّ بالدعاء أن يوفقه إلىٰ الأخلاق الفاضلة في معاملة الناس.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مأخذه فقال: (**ويُمِدّه**) يعني حسن الخلق (**ويمدُه**) يعني يقويـه (**الصـبرُ والحلـمُ وسـعة العقل**) بالضم علىٰ الرفع أي يقويه الصبر والحلمُ وسعة العقل، فهذه تقوي الخلق الحسن.

ثم قال: (**وفضل هذا الخلق ومرتبته فوق ما يصفه الواصف**).

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**من فوائد هذا المقام الجليل**) وهو حسن الخلق (**أنَّ صـاحبه مسـتريح القلـب، مطمئن النفس قد وطَّن نفسه**) يعني عوَّدها (**علىٰ ما يصيبه من الناس مـن الأذىٰ، وقـد وطّـن نفسـه أيضًـا علىٰ إيصال النفع إليهم بكلِّ مقدُوره**) فهو يحسن إليهم وإن أساءوا إليه (**وقد تمكّـن مـن إرضـاء الكبيـر والصغير والنَّظير**) يعني القرين المساوي (**وقد تحمَّل مَنْ لا تَحْمِلُهُ مِـن ثِقلـه الجبـال، وقـد خفَّـت عنـه الأثقال، وقد انقلب عدوه صديقًا حميمًا، وقد أمِن من فلتات الجاهلين**) يعني ما يجري من أفعالهم فلتـة دون إدراك وقصد (**ومضرة الأعداء أجمعين**) أي من كان عامدًا قاصدًا فيما دبره (**وقد سهل عليه مطلوبه من الناس، وتيسر له نصحهم وإرشادهم والاقتداء بنبيه في قوله تعالىٰ في وصفه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ**

لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾) وقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تفسير للآية السابقة ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ وهو التوفيق وُجود رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ تكتنف ذلك العبد، حتىٰ أوصلته إلىٰ الخلق الكامل، وهو في حق مقام النبي ﷺ في هذه الآية لِينُ قلبه لملاطفته في معاشرتهم ولو كان علىٰ غير ذلك من الفَظاظة وغلظ القلب لتفرَّقوا من حوله.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ خُلقًا آخر يتولد من الخلق المتقدم وهو «الرحمة» وفسرها بقوله: هي (رقة القلب وصفوه ورحمته للخلق وزوال قسوته وغلظته، وهو من أخلاق صفوة الخلق) فرِقَّة القلب لينه وانكسار جنابه وخَفْضِ جناحه للمؤمنين.

وفي ذلك قال الله تعالىٰ في وصف النبي ﷺ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾.

(فرأفته ﷺ ورحمته لا يقاربه فيها أحد من الخلق، وهذه الرأفة والرحمة ظهرت آثارها في معاملته للخلق، ولا تنافي قوة القلب وصبره. فقد كان ﷺ أصبر الخلق وأشجعهم وأقواهم قلبًا مع كمال رحمته) فلا يكمُل الإنسان الفاضل إلا برحمةٍ وقوَّة قلبيتين، فإن الرحمة وحدها ضعف وخور، والقوة وحدها غِلَظ وجبروت، فإن امتزج القلب بالرحمة والقوة حصل الخير كله، وكذلك كان النبي ﷺ، كما قال المصنِّف: (فقوة القلب من آثارها: الصبر والحلم والشجاعة).

ثم قال: (ورحمة القلب من آثارها: الشفقة والحنو) يعني العطف (والنصيحة، وبذل الإحسان المتنوع).

ثم قال: (فقوة القلب وشجاعته تنفي الضعف والخور) أي الهوان والذل (ورحمته تنفي القسوة والغِلَظة والشراسة).

ثم قال: (وهذه الأخلاق الجميلة وإن كانت من علم الأخلاق والتربية علىٰ أحسنها، فإنَّها أيضًا داخلة في علم التوحيد) ومقصوده من هذه الجملة الإنباه إلىٰ أن الأخلاق مندرجة في جملة توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، ووجه اندراجها في توحيد الله عَزَّوَجَلَّ من جهة التعبد لله عَزَّوَجَلَّ بها، والتقرب إليه، فتدخل في ذلك، فإن التوحيد تندرج فيه كل عبادة يتقرب بها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فجميعُ الأفراد المتقرَّب بها إلىٰ الله هي توحيد، فمن تقرَّب بالكرم أو تقرب باللطف، أو تقرَّب بالحلم فهو متقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بما يحبُّه ويرضاه، ففعله توحيد وعبادة، وهي أخلاقٌ (من جهة: تكميلها للعبد وترقيتها لأخلاقه وتهذيب النفوس وتزكيتها داخلةٌ في علم الأخلاق) فتدخل في علم الأخلاق باعتبار أن الأخلاق يطلب فيها تكميل العبد وتهذيب سلوكه، فالأخلاق الجميلة هي مذكورة في بابين من أبواب العلم والدين:

أحدهما: باب التوحيد.

والثاني: باب الأخلاق.

فمن العلم بها العلم بشيء من التوحيد، وكذلك العلم بشيء من الأخلاق الفاضلة الممدوحة شرعًا.

ولمَّا فرغ المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من بيان ما جاء في القرآن الكريم من الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة قال: (**وهذا أعظم البراهين علىٰ رسالة محمد ﷺ، وعلىٰ أنَّ ما جاء به من القرآن والدِّين هو الحق الذي لا رقي ولا علوّ ولا كمال ولا سعادة إلا به، وأنَّه هو الهدىٰ العلمي الإرشادي، والهدىٰ العملي، والتربية النافعة. والحمد لله رب العالمين**).

فدين النبي ﷺ اشتمل علىٰ إصلاح القلوب بتزكيتها وتطهيرها من الشِّرك، فلا يكون فيها مرادٌ مقصود إلا واحد هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك اشتمل دينُه ﷺ علىٰ تزكية النفوس بالأخلاق الفاضلة وطردِ الأخلاق الرَّذيلة، فإذا جمع العبدُ في قلبه بين التوحيد والأخلاق فذلك غايةُ المبتغىٰ، وكذلك كان ﷺ، وهذا معنىٰ حديث عائشة في الصَّحيح: «كان خلقه القرآن» فكلُّ حاله ﷺ في أمره مع ربه في التوحيد ومع خلقه بالمُعاشرة الحسنة كل ذلك مما جاء في القرآن الكريم.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب وفيها تمام النوع الثاني من علوم القرآن الجامعة الواردة فيه، وسيشرع المصنِّف فيما يستقبل يبين علم الأحكام في العبادات والمعاملات والمواريث التي في القرآن، وبالله التوفيق.

والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

النوع الثالث من علوم القرآن الكلية الجامعة
علم الأحكام في العبادات والمعاملات والمواريث والأنكحة
وسائر الحقوق والروابط بين العباد

قد جعل الله القرآن تبيانًا لكلِّ شيء، وهو كما تقدم كتابٌ جمع التربية النافعة والتعليم، مزج هذا بهذا، فما كان من العبادات معروفًا بين المسلمين، مفهومًا فيه هدي النبي ﷺ كالصلاة والزكاة ونحوها اكتفىٰ بذكره علىٰ وجه الإجمال أمْرًا به، أو نهيًا عن ضده، أو ثناءً علىٰ فاعله، وبيانًا لأجره وثوابه العاجل والآجل، ويكون تفصيل ذلك محوّلًا فيه علىٰ ما عُلِمَ، وعرف بين المسلمين، وكذلك المعاملات. ومن الأحكام القرآنية ما فُصِّلت فيه الأحكام تفصيلًا كالمواريث ونحوها، فلنبدأ بذكر العبادات الواردة في القرآن فنقول مستعينين بالله:

أحكام الصلاة

ذكر الله الصلاة في كتابه في مواضع كثيرة، يأمر بها وينهىٰ عن تركها، ويثني علىٰ أهلها المقيمين لها، ويذكر ما لهم من الثواب، ويذم المتهاونين بها، ويذكر ما عليهم من الذم والعقاب، وهي حين يذكرها يعرفها المسلمون معرفة لا يمترون بها، قد عرفوها من هدي نبيِّهم ﷺ، ثم تناقلتها الأمة فعرفها الصغير والكبير، والعالم والجاهل، فمتىٰ جاءت في القرآن فهِمُوا أنَّها هذه الصلوات الخمس والجمعة، وما يتبعها من الرَّواتب والسنن المقيدة والمطلقة.

وقد ذكر الله بعض أحكامها: فذكر الوقت في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء]؛ أي: مفروضًا في الأوقات. وقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾ [الروم]، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود:١١٤]، وقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء] أي: أقِمْها لدخول هذه الأوقات، فدلوك الشمس مبتدأه الزوال ومنتهاه العصر، فيدخل فيه الظهر والعصر. وغسق الليل، أي: ظُلمته التي فيها اختلاط بالضياء فيدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، وقرآن الفجر؛ أي: صلاة الفجر، وعبّر عنها بالقرآن لاشتراط القراءة وإطالتها فيها، وقد حرّرت السنة هذه الأوقات تحريرًا معلومًا بين المسلمين.

وقال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ [المدثر]، وأولىٰ ما دخل في الآية الكريمة تطهيرها للصلاة، وإذا وجب تطهير الثِّياب من النجاسات، فتطهير البدن للصلاة من باب أولىٰ وأحرىٰ.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ [المائدة:٦] الآية. فهذه الآية تدل علىٰ اشتراط النية ووجوب الطهارة للصلاة، وأنَّه يجب فيها علىٰ المحدث حدثًا أصغر تطهير هذه الأعضاء الأربعة المذكورة، وأنَّ الوجه واليدين والرجلين تُغسل غسلًا، والغسل لا بد فيه من جريان الماء علىٰ هذه الأعضاء، وأنَّ الرَّأس يمسح مسحًا، وأنَّه يمسح كلُّه لأنَّ الله عمَّم ذلك، وأنَّه يجب الترتيب بينها؛ لأنَّ الله ذكرها مرتبة، والموالاة لأنَّ ظاهر هذا الصَّنيع لزوم الموالاة لكونها عبادة واحدة متصلًا بعضها ببعض، وأنَّ المحدث حدثًا أكبر كالجنابة وهي الوطء، أو الإنزال للمني، أو هما، عليه تطهير جميع بدنه، وأنَّه لا يُعفىٰ عن شيء منه حتىٰ

ما تحت الشعور الكثيفة، وكذلك ذكر الله طهارة الحائض والنفساء في سورة البقرة بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي ينقطع دمهنَّ، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغتسلن ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢].

ثم ذكر طهارة التراب والتيمم، وأنَّ لها أحد سببين: عدم الماء في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ [المائدة:٦]، وحصول الضرر بمرض ونحوه في قوله: ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ [النساء:١٠٢]، وقوله: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]. صريح أنَّ التيمم عن الحدث الأصغر والأكبر؛ لأنَّه ذكره عقب الحدثين، وأنَّ النجاسة لا يُتيمم لها فتجب إزالتها مع القدرة، وتسقط مع العجز كسائر الواجبات. ويدل أنَّ محل المسح للحدثين الوجه واليدان وهما الكفان فقط، لأنَّه لما أراد إيصال الطهارة إلىٰ المرفقين في طهارة الماء قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]. واكتفىٰ تعالىٰ عن الحدثين بتيمم واحد، ونفىٰ تعالىٰ الحرج في الدين عمومًا، وفي الطهارة خصوصًا فقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦].

وأقام الله طهارة التيمم مقام طهارة الماء عند وجود الشرط، وهو الفقد للماء أو التضرر باستعماله، وهذا يقتضي أنَّ حكمَها حكمُها من كلِّ وجه، فما دام متطهرًا بالتيمم ولم يحصل له ناقض صحيح فهو باقٍ علىٰ طهارته، لا يبطل هذه الطهارة دخول وقت ولا خروجه، وإذا نوىٰ به عبادة استباحها ومثلها ودونها وأعلىٰ منها.

وفي الآية الكريمة دليلٌ أنَّ الأحداث المذكورة ناقضةٌ للوضوء، وهي الخارج من السبيلين ولمس النساء لشهوة، لأنَّ اللمس حيث أُضيف للنساء كان المراد به الذي لشهوة كقوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وفي قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦] دليل علىٰ أنَّ الماء باق علىٰ طهوريته، ولو تغير بالطاهرات؛ لأنَّه داخل في اسم الماء الذي لا يجوز العدول عنه إلىٰ التيمم.

لما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذكر النوع الثاني من أنواع علوم القرآن وهو علم الآداب والأخلاق الكاملة، شرع يبيِّن النوع الثالث، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنىٰ كتابه هذا علىٰ جعل علوم القرآن راجعة إلىٰ ثلاثة علوم كلية:

أولها: علم التوحيد والاعتقاد.

وثانيها: علم الآداب والأخلاق الفاضلة.

وثالثها: علم الأحكام في العبادات والمعاملات والمواريث والأنكحة، وسائر الحقوق والروابط بين العباد.

وأراد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بعلم الأحكام علم الأحكام الطلبية المسماة اختصاصًا بالفقه؛ فإنَّ كل ما تقدم يسمىٰ أحكامًا باعتبار حكم الشرع، فهي أحكام شرعية تتعلق بالتوحيد والاعتقاد أو بالأخلاق والآداب، أو بأبواب الطَّلب، إلا أن الثابت منهن مخصوص بالأحكام الطلبية المسماة فقهًا، فـ(أل) في قوله: (**علم الأحكام**) عهدية أي علم الأحكام الطلبية، ويبين ذلك قوله: (**في العبادات والمعاملات...**) إلىٰ تمام الجملة المترجم بها، فإنه خص الأحكام بهذا المعنىٰ، وبين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ طليعة قوله: (**أن الله قد جعل القرآن تبيانًا لكلِّ شيء**) أي: مبينًا موضحا لكل شيء يحتاج إليه الخَلْق، فكل أمر يفتقر فيه الناس إلىٰ حكمٍ بين فقد بينه الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه، وهو كتابٌ جمع بين التَّربية النافعة المصلحة للأرواح المسماة شرعًا بتزكية النُّفوس وبين التعليم المُفهِّم الموضح لأحكام الشرع الحكيم، ومُزج هذا بهذا، لأن صلاح العلم لا يكون إلا بزكاة النفس، وزكاة النفس لا تكون إلا بالعلم، فمن رام أن ينال مقامًا ساميًا بأحد هذين فإنه لا يتحقق له ما رامه إلا بامتزاجهما، فلا يكون العالم منتفعًا بعلمه حتىٰ يكون مزكِّيًا نفسه، ولا يكون المشتغل بتزكية نفسه بالآداب والرَّقائق والأخلاق منتفعًا بها حتىٰ يكون متعلِّمًا أحكام الشرع التي يفتقر إليها.

ثم بيَّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ قاعدةً كلية في بيان القرآن للعبادات فقال: (**فما كان من العبادات معروفًا بين المسلمين، مفهومًا فيه هدي النبي ﷺ كالصلاة والزكاة ونحوها اكتفىٰ بذكره علىٰ وجه الإجمال أمْرًا به، أو نهيًا عن ضده، أو ثناءً علىٰ فاعله، وبيانًا لأجره وثوابه العاجل والآجل، ويكون تفصيلُ ذلك محوّلًا فيه علىٰ ما عُلِمَ، وعرف بين المسلمين، وكذلك المعاملات. ومن الأحكام القرآنية ما فُصلت فيه الأحكام تفصيلًا كالمواريث ونحوها**) وعُلم من هذه الجملة أن الأحكام الفقهية الواقعة في القرآن نوعان:

أحدهما: أحكام طلبية إجمالية.

والآخر: أحكام طلبية تفصيلية.

والإجمال محلُّه ما اشتُهر من العبادات فعله، والتفصيل محله ما لم يكن كذلك، فلما كانت الصلاة والزكاة من الشعائر الظاهرة التي يرىٰ فيها المسلمون هدي النبي ﷺ وقع ذكرها في القرآن إجمالًا، وجاء تفصيلها في السُّنّة، ولما كانت الفرائض والمواريث علىٰ ضد ذلك مما يحتاج إليه في حال الموت

وقعت مفصَّلة، وتكفَّل الله عَزَّوَجَلَّ ببيانها.

والغاية الكبرىٰ من وقوع الإجمال والتفصيل للأحكام الواردة في القرآن الكريم يراد به كمال الاقتران بين السنة والقرآن، فيقع إجماله في القرآن ويفصَّل في السنة، أو [يقع تفصيله في السنة ويقع إجماله في القرآن] كي يقرر في نفوس الخلق أن القرآن والسنة صنوانِ لا يفرق بينهما، فكلاهما وحي من الله عَزَّوَجَلَّ، كما أشار إلىٰ ذلك الحافظ الحكمي:

فسنة النبي وحي ثان ... عليهما قد أطلقا الوحيان

فالقرآن وحي والسنة وحي.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنه يبدأ بعد بذكر العبادات الواردة في القرآن، وهذه الزمرة من الكلام الآتي من كلام المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أحسن ما دون مختصرًا في أحكام القرآن الكريم، أي في الأحكام الطلبية الفقهية المستنبطة من القرآن الكريم، وللفقهاء في ذلك كتب كثيرة، من أحسنها إيجازًا هذه النبذة من هذا الكتاب، وهي مدخلٌ إلىٰ تفسير آيات الأحكام، فكأن الله قدَّر بمزيد فضله ومَنِّه أن تكون قراءتها في هذا الكتاب توطئة لقراءتها في تفصيلٍ أكثر في كتاب «موافق المقام في تفسير آيات الأحكام» بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، فقدم المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحكام الصلاة؛ لأنها أم العبادات الطلبية في الشرع، فذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن الله (**ذكر الصلاة في كتابه في مواضع كثيرة، يأمر بها وينهىٰ عن تركها، ويثني علىٰ أهلها المقيمين لها، ويذكر ما لهم من الثواب، ويذم المتهاونين بها**) أي: المتكاسلين ألَّا مبالين بها، (**ويذكر ما عليهم من الذم والعقاب**).

ثم قال: (**وهي حين يذكرها يعرفها المسلمون معرفةً لا يمترون بها**) أي: لا يلحقهم فيها مراء ولا شك، لأنها من العبادات المتواترة تواترًا عمليًّا، فإن الصلاة بأفعالها وأقوالها العامَّة مشهورة عند القاصي والداني والصَّغير والكبير من المسلمين، فمتىٰ جاء ذِكر الصلاة في القرآن الكريم علموا أنها الصلاة المأمور بها في اليوم والليلة من الصلوات الخمس وصلاة الجمعة في يومها وما يتبعها من الرواتب والسُّنن المقيدة والمطلقة.

ثم ذكر المصنِّف أن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر في القرآن بعض أحكامها، (**فذكر الوقت**) أي: الذي تفعل فيه الصلاة بقوله: ﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣**﴾ أي: مفروضًا مبينة في الأوقات. فالصلاة وُقِّتت في أوقات معينة مبيَّنة، وهذه الصلاة هي الصلاة المعهودة، وهي صلاة اليوم والليلة، فصلاة اليوم والليلة جاء بيان أوقاتها في القرآن والسنة.

وذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ طرفًا من الآي المشتملة علىٰ ذلك كقول الله تعالىٰ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ والإمساء يندرج فيه صلاة المغرب والعشاء، والإصباح فيه صلاة الفجر، ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا﴾ أي: صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾ أي: صلاة الظهر.

ثم ذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ وطرفا النهار هما الصبح والعصر، وصلاة الفجر تنسب إلىٰ الصبح لأنها مقاربةٌ له، فإنَّ الصبح يبتدئ من طلوع ا لشمس وأما الفجر فإنه قبله، فالفجر بطلوع الفجر الصادق، لكن الصباح لا يكون صباحًا تامًا إلا بعد طلوع الشمس، وقد يسمَّىٰ الفجر وما بعده صباحًا؛ لكن طرف النهار الأول هو الذي يكون فيه الإصباح وطرفه الثاني هو الذي يكون في العصر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ أي: طرفًا من الليل المزدلف إليه، وذلك يندرج فيه صلاة المغرب والعشاء، وتكون صلاة الظهر تابعة لطرفي النهار في وقوعها بينهما، فتكون الآية شاملةً لأوقات الصلوات جميعًا.

ثم ذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ وبينه بقوله: (**أي: أقمها لدخول هذه الأوقات، فدلوك الشمس مبتدؤه الزوال**) وهو وقت صلاة الظهر (**ومنتهاه العصر، فيدخل فيه الظهر والعصر، وغسق الليل، أي: ظلمته التي فيها اختلاطٌ بالضياء فيدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، وقرآن الفجر، أي: صلاة الفجر، وعبّر عنها بالقرآن لاشتراط القراءة وإطالتها فيها**) والقراءة شرطٌ أو ركن في كل صلاة؛ لكن مُيِّزت صلاة الفجر باسم القرآن لأن السنة تطويل القراءة فيها أكثر من بقية الصلوات.

ثم قال: (**وقد حررت السنة هذه الأوقات تحريرًا معلومًا بين المسلمين**) أي في الأحاديث الكثيرة التي جاءت مبينة بتفصيل هذا الإجمال في أوقات الصلاة.

ثم قال: (**وقال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾[المدثر]، وأولىٰ ما دخل في الآية الكريمة تطهيرها للصلاة، وإذا وجب تطهير الثياب من النجاسات، فتطهير البدن للصلاة من باب أولىٰ وأحرىٰ**) وهذه الآية يذكرها طائفة من الفقهاء دليلًا علىٰ وجوب طهارة الثِّياب، والصَّحيح عند جمهور السلف أن المراد بالثياب هنا الأعمال، فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ أي: طهر أعمالك، ويندرج في جملة تطهير الأعمال تطهير الصلاة، ومن جملة تطهير الصلاة تطهير الثياب وتطهير البدن، فتكون الآية

صالحة للدلالة علىٰ إيجاب تطهير الثياب والبدن من النجاسات في الصلاة، لأنها فردٌ من الأعمال المأمور بتطهيرها، فإن المرء مأمور بأن يطهر أعماله لقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، ومن جملة الأعمال التي تندرج في هذا الأمر الصلاة، ومن تطهير الصلاة أن يطهر المرء بدنه وثيابه فيها فتكون صالحة للدلالة علىٰ المراد الذي ذكره الفقهاء، والصواب ما بينا.

ثم ذكر بعد ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ آية الوضوء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ...﴾ إلىٰ تمام الآية ثم قال: (**فهذه الآية تدل علىٰ اشتراط النية ووجوب الطهارة للصلاة**) لقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فجعلها قيامًا مخصوصًا إلىٰ حال مبينة وهي إرادة الصلاة، فليس قيامًا مطلقًا غير مقترن بقصد معين؛ بل هو قيام مخصوص متعلِّقٌ بالقيام إلىٰ الصلاة.

ثم يندرج في جملة الأمر بذلك وجوب الطهارة للصلاة، لأنه قال: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ فأمرهم بهذا التطهر عند إرادة القيام للصلاة، (**وأنه يجب فيها علىٰ المحدث حدثًا أصغر وهو ما أوجب وضوءًا تطهير هذه الأعضاء الأربعة المذكورة وأنَّ الوجه واليدين والرجلين تغسل غسلًا**) والمراد بالغسل ما تضمَّن إسالة الماء، فإذا وقع جريان الماء مسالًا علىٰ البدن سُمِّي هذا غسلًا، أما إذا وقع تبليلًا فلا يسمىٰ غسلًا وإنَّما يسمَّىٰ مسحًا، ثم قال: (**والغسل لا بد فيه من جريان الماء علىٰ هذه الأعضاء، وأنَّ الرأس يمسح مسحًا**) أي: تجرىٰ عليه اليد ببللٍ ثم إسالة الماء عليه، فيسمىٰ هذا مسحًا، واسم المسح في لسان العرب والشرع أعم من ذلك، فإن المسح اسم للغسل والإمرار بلا إسالة فهو عام وهو أعم من الغسل، والغسل فردٌ من أفراده.

ثم قال: (**وأنَّ الرأس يمسح مسحًا وأنَّه يمسح كلُّه لأنَّ الله عمّم ذلك**) فقال: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج] فجعل طوافهم بالبيت كله، فكذلك يكون المسح للرأس كله.

ثم قال: (**وأنَّه يجب الترتيب بينها لأنَّ الله ذكرها مرتَّبة**) فيجب عليه أن يبدأ بغسل وجهه، ثم يديه إلىٰ مرفقيه، ثم يمسح رأسه، ثم يغسل قدميه؛ لوقوعها مرتبة في الآية.

كما أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر فيها ممسوحًا بين مغسولات، والأصل فيما تقتضيه بلاغة العرب ألا يفرَّق بين المتناظرات، فكان مقتضىٰ البلاغة أن تذكر المغسولات ثم يذكر الممسوح، فلما ذكر ممسوح بين مغسولات علم أن إدخاله لغاية مطلوبة وهي الإنباه إلىٰ الترتيب، ذكر هذا ابن المُنجّىٰ وأبو العباس ابن

تيمية، وتلميذه أبو عبد الله ابن القيم، فإدخال ممسوح بين مغسولات دالٌّ علىٰ إرادة الترتيب، ويجب أيضًا الموالاة، أي: متابعة بين هذه الأعضاء لأن ظاهر هذا الصنيع لزوم الموالاة لكونها عبادة واحدة متصلًا بعضُها ببعض فلابد من بناء بعضها علىٰ بعض، وأنَّ المحدث حدثًا أكبر في الجنازة وهي الوطء أي إتيان الرجل امرأته أو الإنزال للمني ولو بلا وطء أو هما عليه تطهير جميع بدنه لا الأعضاء الأربعة، فالوضوء مختصٌّ بالأعضاء الأربعة، وأما الغسل فإنه يشمل تطهير جميع البدن، وأنه لا يعفىٰ عن شيء منه حتىٰ ما تحت الشعور الكثيفة.

(وكذلك ذكر الله طهارة الحائض والنفساء في سورة البقرة بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي ينقطع دمهنَّ) من حيض أو نفاس. (فإذا تطهرن) من النفاس ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فهذه الآية آية الطهارة، وهي جامعة لأكثر أحكامها، وقد سبق إفاضة القول فيها في التقرير علىٰ الكتاب «تفسير آية الطهارة» للعلامة ابن عثيمين في إحدىٰ سنوات برنامج الدرس الواحد، فمن رام بيانًا أطول فإنه يراجع شرح ذلك الكتاب.

ونكتفي بهذا القدر من كتابنا هذا.

ونستوفي بقيته إن شاء الله تعالىٰ في الأسبوع المقبل.

والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

ثم ذكر طهارة التراب والتيمم، وأنَّ لها أحد سببين: عدم الماء في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ [المائدة:٦]، وحصول الضرر بمرض ونحوه في قوله: ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ [النساء:١٠٢]، وقوله: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]. صريح أنَّ التيمم عن الحدث الأصغر والأكبر؛ لأنَّه ذكره عقب الحدثين، وأنَّ النجاسة لا يُتيمم لها فتجب إزالتها مع القدرة، وتسقط مع العجز كسائر الواجبات. ويدل أنَّ محل المسح للحدثين الوجه واليدان وهما الكفان فقط، لأنَّه لما أراد إيصال الطهارة إلىٰ المرفقين في طهارة الماء قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]. واكتفىٰ تعالىٰ عن الحدثين بتيمم واحد، ونفىٰ تعالىٰ الحرج في الدين عمومًا، وفي الطهارة خصوصًا فقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦].

وأقام الله طهارة التيمم مقام طهارة الماء عند وجود الشرط، وهو الفقد للماء أو التضرر باستعماله، وهذا يقتضي أنَّ حكمَها حكمُها من كلِّ وجه، فما دام متطهرًا بالتيمم ولم يحصل له ناقض صحيح فهو

باق علىٰ طهارته، لا يبطل هذه الطهارة دخول وقت ولا خروجه، وإذا نوىٰ به عبادة استباحها ومثلها ودونها وأعلىٰ منها.

وفي الآية الكريمة دليل أنَّ الأحداث المذكورة ناقضة للوضوء، وهي الخارج من السبيلين ولمس النساء لشهوة، لأنَّ اللمس حيث أضيف للنساء كان المراد به الذي لشهوة كقوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ [البقرة:١٨٧].

وفي قوله: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [المائدة:٦] دليل علىٰ أنَّ الماء باق علىٰ طهوريته، ولو تغير بالطاهرات لأنَّه داخل في اسم الماء الذي لا يجوز العدول عنه إلىٰ التيمم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة بقية بقيت من الأحكام المستنبطة من آية الطهارة، فبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله عَزَّوَجَلَّ (ذكر طهارة التراب والتيمم، وأنَّ لها أحد سببين:

عدم الماء في قوله: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾ [المائدة:٦].

وحصول الضرر بمرض ونحوه في قوله: ﴿أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ [النساء:١٠٢]، وقوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ [المائدة:٦]) إلىٰ تمام الآية.

وهذان السببان يرجعان إلىٰ عدم شيء:

فأما السب الأول فهو فقد الماء وعدمه.

وأما السبب الثاني فهو عدم القدرة عليه، إما خشيةَ حصول ضررٍ منه أو عدم تمكنٍ من استعماله.

فإذا وجد أحد هذين السببين عدل عن الطهارة المائية إلىٰ طهارة التراب بالتيمم.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ صريح أن التيمم عن الحدث الأصغر والأكبر، فهو بدلٌ عنهما، (لأنَّه ذكره عقب الحدثين) فإذا كان علىٰ العبد حدثٌ أصغر جاز له أن يتيمم عنه مع فقد الماء أو عدم القدرة علىٰ استعماله، وكذا إذا كان عليه حدث أكبر فلم يقدر علىٰ الماء لعدمه أو حصول الضرر باستعماله فإنه يتيمم أيضًا، ولهذا يجري علىٰ التيمم من الأحكام ما يجري علىٰ الطهارة بالماء وضوءًا أو غُسلًا؛ لأنه بدل عنهما.

ثم قال المصنِّف: (وأنَّ النجاسة لا يُتيمَّم لها) فإنَّما يكون التيمم مختصًّا بالحدث، فلو قُدِّر أن علىٰ الإنسان نجاسةً ما ولم يجد ماء فإنه يزيل هذه النجاسة بما يَقدر عليه، ولا يتيمَّم لها، (وتسقط مع العجز كسائر الواجبات)، فإذا لم يوجد ما يدفع به هذه النجاسة ويُزيلها؛ فإن ذلك يسقط عند عدم القدرة عليه

كبقية الواجبات، فإن القدرة علىٰ الواجب شرطٌ له.

ثم ذكر أنَّ ذلك (يدل أنَّ محلَّ المسح للحدثين الوجه واليدان) فالممسوح في طهارة التيمُّم هو الوجه واليدان، واليدان يُراد بهما في هذا المحلّ الكفان فقط، وعلَّل المصنِّف علىٰ الاقتصار علىٰ الكفين فقط بقوله: (لأنَّه لما أراد إيصال الطهارة إلىٰ المرفقين في طهارة الماء قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾) فلو كان إبلاغ التيمم مرادًا إلىٰ ما فوق الكفين لصُرِّح به فلما اُقتصر علىٰ ذكر اليدين صُرف ذلك إلىٰ الأقل من حدِّهما وهما الكفان، **فإن اسم اليد إذا أطلق يتعلق بالكف فقط، فإذا أريدت الزياة عليه صُرّح بما يدل علىٰ الزيادة**، كآية الوضوء فإنه قيل فيها: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، ولما ترك الزيادة في آية التيمم علم أن المقصود باليدين هما الكفان فقط.

ثم قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واكتفىٰ تعالىٰ عن الحدثين بتيمم واحد) أي عن الحدث الأكبر والأصغر بتيمم واحد، (ونفىٰ تعالىٰ الحرج في الدين عمومًا) والحرج هو المشقة والعنت، وفي الطهارة خصوصًا فقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ من ضيق وعنت ومشقة، فاسم الحرج متعلق بالضيق، ولازمه العنت والمشقة علىٰ العبد، فمن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بنا أن سهل لنا في التيمم عوضًا عن الطهارة المائية عند وجود موجبها.

ثم قال: (وأقام الله طهارة التيمم مقام طهارة الماء عند وجود الشرط وهو الفقد للماء أو التضرر باستعماله، وهذا يقتضي أنَّ حكمَها حكمُها من كلِّ وجه، فما دام متطهرًا بالتيمم ولم يحصل له ناقض صحيح فهو باقٍ علىٰ طهارته، لا يُبطل هذه الطهارة دخول وقت ولا خروجه، وإذا نوىٰ به عبادة استباحها ومثلها ودونها وأعلىٰ منها) وهو يعرِّض بمذهب الحنابلة القائلين: بأنَّ التيمم مبيح وليس رافعًا، ومُرادهم بقولهم: مبيحٌ؛ أي: أنه يسوغ للعبد فعل ما يراد له الوضوء كصلاة، أو طواف، أو مس مصحف، أو غير ذلك.

والصحيح أن التيمم رافعٌ للحدث، فإذا تيمَّم الإنسان فقد صار طاهرًا، ولا يُبطل هذه الطهارة خروج الوقت فلو خرج الوقت لا يحتاج إلىٰ تيمم جديد، وكذلك يفعل به العبادة التي أرادها بتيمُّمه ومثلها ودونها وأعلىٰ منها، فإذا تيمَّم لصلاة العشاء صلَّىٰ بذلك التيمم صلاة العشاء والراتبة بعدها، ووِتره من الليل وقراءته للقرآن بمس المُصحف ولم يحتج إلىٰ طهارة جديدة يستبيح بها كل عبادة كما هو قول من يرىٰ أن التيمم مبيحٌ وليس رافعًا.

ثم ذكر المصنِّف أنَّ الآية الكريمة فيها (دليلٌ أنَّ الأحداث المذكورة ناقضة للوضوء) أي مفسدة له،

فإذا وُجدت له هذه الأحداث أو أحدها انتقض الوضوء (**وهي الخارج من السبيلين، ولمس النساء لشهوة**) والخارج من السبيلين مُصرَّحٌ به في الآية، وأما لمس النساء بشهوة فمُختلف في إرادته هل اللمس المذكور هو مجرَّد اللمس بدون شهوة أو لمس بشهوة أو هو الجماع؟ وانتصر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن اللمس المذكور هو لمس النساء بشهوة، فيكون معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي باشرتموهن بالإفضاء إلىٰ بشرتهن بشهوة، قال: (**لأنَّ اللمس حيث أضيف للنساء كان المراد به الذي لشهوة كقوله: ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾**)، والقائلون بهذا القول يجعلون المس واللمس والمباشرة ألفاظًا تدل علىٰ معنىٰ واحد وهو الإفضاء إلىٰ البشرة بشهوة، فيستدلون بهذه الآية ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ﴾ علىٰ إرادة أن اللمس المذكور في هذه الآية من سورة المائدة هو مس النساء لشهوة، **وأصح** الأقوال الثلاثة أن اللمس المذكور في آية المائدة في قوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أن المراد به هو الجماع، فإن القرائن تدلُّ علىٰ ذلك، وهي من المسائل المختلَف فيها بين الفقهاء، **والأظهر** أن مس النساء بشهوة أو بغير شهوة لا ينقض الوضوء، وإنَّما الذي يَنقض الجماع، إلا أن ينشأ من المس بشهوة خارج كمذي، فلو قُدِّر أن أحدًا لمس امرأة بشهوة فأمذىٰ فإنه ينتقض وضوؤه لأجل الخارج لا لأجل المس بشهوة.

ثم قال المصنِّف: (**وفي قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ دليل علىٰ أنَّ الماء باق علىٰ طهوريّته، ولو تغير بالطَهَارَات**) فإذا قُدِّر وجدان ماء طرأت عليه طهارة لم تغيره فإنه يبقىٰ طهورًا، قال: (**لأنَّه داخلٌ في اسم الماء الذي لا يجوز العدول عنه إلىٰ التيمُّم**) فلم يؤذن للعبد أن يعدل عن الماء إلىٰ التيمُّم إلا إذا خرج من وصف الماء؛ لأن الله قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ والماء الذي طرأت عليه طهارة لم تخرجه عن اسمه فإنَّه باقٍ علىٰ طهوريته، فلو قُدِّر أن ماء خالطه ورقٌ طاهر أو نحو ذلك بإلقاء فيه أو بغير إلقاء، ثم لم يغيره هذا الطاهر ولم يُخرجه عن اسمه فإنه يكون ماء طهورًا يتطهر به بلا كراهة، ولو خرج عن اسم الماء خرج عن الأمر بالوضوء به وتيمم الإنسان، فلو قُدِّر أنه خالطه مسحوق ملون بلون شيء من العصيرات كتفاح أو برتقال أو غير ذلك فصار اسمه عصير برتقال أو عصير تفاح فإنه يكون قد خرج عن اسم الماء، أمَّا مع المخالطة دون خروجه عن اسم الماء؛ فإنه يبقىٰ طهورًا، وأراد المصنِّف بذلك الرَّدّ علىٰ من زعم أن الماء إذا خالطه طاهر فإنه يخرج من طهوريته ويصير طاهرًا فلا يستعمل في رفع الحدث.

وقد استدل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره بقوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة:٣] الآية

علىٰ أنَّ الماء إذا خالطته نجاسةٌ فغيّرت أحد أوصافه، أنَّه نجس لظهور أثر هذه الأشياء فيه، فيتناوله تحريم الميتة والدم إلىٰ آخرها، فيكون نجسًا خبيثًا، وإذا لم تُغيِّر أحد أوصافه أنَّه باق علىٰ طهوريته. وفي عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ [الفرقان] دليلٌ علىٰ أنَّ الأصل في الماء الطهورية، فلا نعدل عن هذا الأصل إلا بدليل.

وقال تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٤] أي: جهته، فأوجب استقبال الجهة عند تعذر إصابة العين.

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١] أي: البسوا ثيابكم واستروا عوراتكم للصلاة، فإنَّ الزينة ما تدفع الشناعة والقبح في كشف العورة، وتمام أخذ الزينة حصول الجمال، ففيه أمر بالأمرين بستر العورة، وبتكميل اللباس كما هو مبين مفصل في السنة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف:٢٠٤] وأبلغ ما يدخل في هذا إنصات المأموم لقراءة إمامه في الصلاة الجهرية، وقد أمر الله بالقيام والركوع والسجود والقنوت الذي يدخل فيه السكوت. فقال تعالىٰ: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج:٧٧]، وقال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [المزمل:٢٠]، ففي هذا فضيلة هذه المذكورات وأنَّها أركان للصلاة.

وسمَّىٰ الله الصلاة إيمانًا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم لبيت المقدس قبل تحويل القبلة، لأنَّ الصلاة ميزان الإيمان.

وقد أمر الله بالمحافظة علىٰ الصلوات عمومًا، وعلىٰ صلاة العصر خصوصًا في قوله: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] وأثنىٰ علىٰ المحافظين عليها، وذلك يقتضي المحافظة علىٰ شروطها وأركانها وجميع ما يلزم لها وعلىٰ مكمّلاتها، وكذلك الأمر بإقامتها والثناءُ علىٰ المقيمين لها يدلُّ علىٰ ذلك. والأمر بالمسابقة إلىٰ الخيرات والمنافسة فيها، يدلُّ علىٰ السعي في تكميل الصلاة وغيرها من العبادات.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ زمرة أخرىٰ من مسائل الطهارة وأحكامها المذكورة في القرآن الكريم؛ فقال:

(وقد استدل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره بقوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ الآية علىٰ أنَّ الماء إذا خالطته نجاسةٌ فغيّرت أحد أوصافه، أنَّه نجسٌ لظهور أثر هذه الأشياء فيه، فيتناوله تحريم الميتة والدم إلىٰ آخرها، فيكون نجسًا خبيثًا) لأن هؤلاء المذكورات حُرِّمت لأجل نجاستها، فإذا قدر أن نجسًا من

نظائرها خالط الماء حتىٰ غير أحد أوصافه الثلاثة ريحَه، أو طعمه، أو لونه فإنه يكون نجسًا خبيثًا لا يجوز استعمالُه في رفع حدث ولا إزالة خبث، (**وإذا لم تغيِّر أحد أوصافه أنَّه باق علىٰ طهوريته**) فلو قدر أن نجاسةً خالطت الماء وغلبها الماء فلم تغيِّر منه شيئًا ولا أثرت في طعمه، ولا لونه، ولا ريحه، فإنه باقٍ علىٰ طهوريته التي هي أصله، ولذلك قال المصنِّف: (**وفي عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ دليلٌ علىٰ أنَّ الأصل في الماء الطهورية، فلا نعدل عن هذا الأصل إلا بدليل**) وهذه إحدىٰ فروع قاعدة **"اليقينُ لا يزول بالشَّك"** فالأصل بالمياه الطهارة كما أخبر الله ﷻ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيةً أخرىٰ من الآيات التي تتعلَّق بأحكام الصلاة وما سبق هو من مقدِّماتها التي تتعلق بالطهارة فقال: (**وقال تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية أي: جِهته، فأوجب استقبال الجهة عند تعذَّر إصابة العين**)؛ لأن المأمور باستقباله أصالة هو الكعبة، فإذا تعذَّر المأمور باستقباله وهو الكعبة فإنه يجب علىٰ العبد أن يستقبل جهة الكعبة، وهي القِبلة الواسعة بين المشرق والمغرب، فالمأمور به في حقِّ المصلي فيما يتعلق باستقبال القبلة أحد شيئين:

الأوَّل: أن يستقبل عين القبلة وهي الكعبة، وذلك إذا كان مشاهدًا لها متمكِّنًا من ذلك.

والآخر: أن يتوجَّه إلىٰ جهة القبلة إذا تعذَّرت إصابة العين، وذلك إذا بعد عنها أو عسُر عليه الاطلاع علىٰ عينها.

ثم ذكر قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وبيَّن أن معناها (**البسوا ثيابكم واستروا عوراتكم للصَّلاة، فإنَّ الزينة ما تدفع الشناعة والقُبح في كشف العورة**)؛ لأن العورة اسم لما يسوء الإنسان لقُبحه، واتِّخاذ الزينة يدفع الشناعة والبشاعة التي توجد في النفوس عند رؤية العورات، (**وتمام أخذ الزينة حصول الجمال، ففيه أمر بالأمرين بستر العورة، وبتكميل اللباس كما هو مبين مفصل في السنة**) فهذه الآية جعلها الفقهاء دالةً علىٰ اشتراط ستر العورة في شروط الصلاة، إلَّا أنها تدل علىٰ وجوب ستر العورة وعلىٰ قدرٍ زائد وهو اتِّخاذ الزينة، واتخاذ الزينة شيء فوق ستر العورة، فإن ستر العورة هو تغطية ما يقبُح الاطلاع عليه من السوءتين، وأمَّا اتخاذ الزينة فهو تكميل المرأىٰ والمنظر، فإذا رُئي الإنسان كان في حُلَّةٍ حسنة.

ثم ذكر أن قول الله تعالىٰ: (**﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ وأبلغ ما يدخل في هذا إنصات المأموم لقراءة إمامه في الصلاة الجهرية**) فإذا قرأ الإمام في الصلاة الجهرية وجب علىٰ المأموم أن ينصت لإمامه، وهو يشير بذلك إلىٰ أن قراءة الفاتحة لا تكون واجبةً علىٰ المأموم في الصلاة الجهرية،

والصحيح وجوبها عليه في السِّرية والجهرية معًا لخصوص قوله ﷺ في حديث عبادة في «الصحيحين»: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» فتكون خاصة من العموم المأمور بالإنصات إليه، فيقرأ المأموم الفاتحة ثم ينصت إلىٰ إمامه في الصلاة الجهرية، وهذه الآية وهي ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ هي في الصلاة إجماعًا نقله الإمام أحمد فيجب علىٰ المصلي إذا كان في صلاة جهرية أن ينصت لقراءة إمامه. وأما إذا كان الإنسان في بيته أو غيره من المواضع ويسمع قرآنًا يتلىٰ فإنه لا يجب عليه أن ينصت، وإنَّما يُستحب له ذلك، أو أن يقطع صوت القراءة في موضع يحسن القطع عليه.

ثم قال: (وقد أمر الله بالقيام والركوع والسجود والقنوت الذي يدخل فيه السكوت) لأن اسم القنوت يدلُّ علىٰ الطاعة، ومن أفراد الطاعة في الصلاة انقطاع الإنسان عن الكلام، (فقال تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾) ومعنىٰ ﴿قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ مطيعين، ومن جملة قيام المطيعين ألا يتكلموا في الصلاة.

(وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾، وقال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ ففي هذا فضيلة هذه المذكورات وأنّها أركان للصلاة).

ثم قال: (وسمىٰ الله الصلاة إيمانًا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ أي: صلاتكم لبيت المقدس قبل تحويل القبلة، لأنَّ الصلاة ميزان الإيمان) وأعظم شرائعه، فأريد بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ الإشارة إلىٰ الصلاة لأنها من أعظم دلائل الإيمان.

ثم قال: (وقد أمر الله بالمحافظة علىٰ الصلوات عمومًا، وعلىٰ صلاة العصر خصوصًا في قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾) والصلاة الوسطىٰ في أصح أقوال أهل العلم: هي صلاة العصر، (وأثنىٰ علىٰ المحافظين عليها، وذلك يقتضي المحافظة علىٰ شروطها وأركانها وجميع ما يلزم لها وعلىٰ مكمِّلاتها، وكذلك الأمر بإقامتها والثناءُ علىٰ المقيمين لها يدل علىٰ ذلك) أي: يدل علىٰ وجوب المحافظة علىٰ شروطها وأركانها.

ثم قال: (والأمر بالمسابقة إلىٰ الخيرات والمنافسة فيها، يدلُّ علىٰ السعي في تكميل الصلاة وغيرها من العبادات) فما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به من استباقٍ إلىٰ الخيرات يدخُل فيه السعي إلىٰ تكميل الصلاة وغيرها من العبادات؛ لأنه من جملة المسابقة في الخيرات.

وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون]، ويدخل في هذا الوعيد تركها بالكلية وتفويت وقتها، والإخلال بشيء مما يجب فيها، وأمَّا السهو فيها فلم يذمه الله،

ولهذا وقع من النبي ﷺ وسجد له سجدتين في آخر الصلاة، وأمر أمته بذلك عند وجود سببه.

وذمّ تعالىٰ المنافقين الذين ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء]، ففيه وجوب الطمأنينة في الصلاة، وتكميل ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها، لأنَّ العبد لا يسلم من هذا الذم إلا بهذا التكميل والإخلاص لله تعالىٰ.

وَقَدْ مدح تعالىٰ الخشوع في جميع الأحوال وفي الصلاة خصوصًا، وذلك بحضور القلب فيها وتدبر أقوالها وأفعالها، وتمام ذلك أنْ يعبد الله كأنَّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنَّه يراه. ومن لوازم ذلك ترك الحركة في الصلاة وعدم الالتفات وإلزام النظر لمحل سجوده.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزمل]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]، وقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات]. ففي هذا الأمر بقيام الليل وفضله، وأن أهله هم خيار الخلق. وأخبر في آخر المزمل أنَّ الرسول وطائفة معه من المؤمنين قاموا بذلك التقدير، وأنَّ الله يسر علىٰ الناس خصوصًا أهل الأعذار من المرض والشغل، فإنَّهم يقرؤون ما تيسر منه، أي: يصلون من الليل ما يَهُون عليهم ولا يَشُقّ.

واستدُل بقوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة] علىٰ وجوب الجماعة وركنية الركوع، وفضله، وأنَّه تدرك به الركعة.

واستدل بأمر الله بالجماعة في حال الخوف علىٰ وجوب الجماعة في حالة الأمن من باب أولىٰ.

وكذلك استدُل بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ﴾ [المائدة:٥٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة:٩] علىٰ وجوب النداء للصلوات الخمس والجمعة، وهو المتقرر عند المسلمين صفته، وعلىٰ وجوب الجماعة للصلوات الخمس والجمعة، وعلىٰ وجوبها في المساجد.

وقد ذكر الله السجدات في القرآن وفي بعضها الأمر به، وذم من لم يسجد عند تلاوة الآيات، وإخباره بسجود المخلوقات فهذا يدل علىٰ مشروعية سجود التلاوة، استحبابًا عند جمهور العلماء وأوجبه بعضهم، وَسَجَد ﷺ في ص وقال: «سجدها داود توبة فنحن نسجدها شكرًا لله» يدل علىٰ مشروعية سجود الشكر.

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور]. وفي الأخرىٰ: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق] يدل علىٰ صلاة الليل وخصوصًا آخره، والذكر عقب الصلوات الخمس.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة أخرىٰ من الأحكام المستنبطة من القرآن مما يتعلق بالصلاة، فبين أن (قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾.. يدخل في هذا الوعيد تركها بالكلية وتفويت وقتها، والإخلال بشيء مما يجب فيها، وأمَّا السهو فيها فلم يذمه الله، ولهذا وقع من النبي ﷺ وسجد له..) إلىٰ آخر ما ذكر.

فالسهو المتعلق بالصلاة نوعان:

أحدهما: سهو عن الصلاة.

والآخر: سهو في الصلاة.

فأما الأوَّل: وهو السهو عن الصلاة فهو متعلق الوعيد، ويندرج فيه تركها بالكلية، فإن الذي لا يصلي ساهٍ عن الصلاة، ومثله من يُخرجها عن وقتها ثم يصليها بعد ذلك، فإنه ساه عن الصلاة.

وأما السهو في الصلاة فإنه يجري بحكم الله عَزَّ وَجَلَّ قدرًا علىٰ الخلق بما جُبلوا عليه من نقص السهو والنسيان عليهم، ويسجُد له الإنسان سجدتين كما هو معلوم في باب سجود السَّهو عند الفقهاء.

ثم ذكر أن الله تعالىٰ ذمّ المنافقين الذين قال في وصفهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ فأخبر عن حالهم في صلاتهم أنهم يقومون كسالىٰ متباطئين متثاقلين يطلبون مراءاة الناس، وتقدم أن الرياء: هو إظهار العبد عمله ليراه الناس فيحمدوه عليه، ومن وصفهم أنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا، وذمُّهم بذلك يقتضي الأمر بمقابله (ففيه وجوب الطمأنينة في الصلاة) والطمأنينة **هي استقرار بقدر الإتيان بالواجب في الركن**، فالواجب مثلًا في الركوع قول: **"سبحان ربي العظيم"** مرة واحدة، فإذا استقر بقدر الإتيان به كان مطمئنًا فيه، وفيه أيضًا (وجوب تكميل ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها، لأنَّ العبد لا يسلم من هذا الذَّم إلا بهذا التكميل والإخلاص لله تعالىٰ)، ثم ذكر أن الله عَزَّ وَجَلَّ (مدح تعالىٰ الخشوع في جميع الأحوال وفي الصلاة خصوصًا) فعباد الله الخاشعين ممدوحون في جميع أعمالهم، وإذا كان ذلك في الصلاة فأعظم وأعظم؛ لأن الله قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[المؤمنون].

ثم قال: (**وذلك بحُضور القلب فيها وتدبر أقوالها وأفعالها**) فحقيقة الخشوع أن يحضر المرء قلبه في الصلاة فيتدبر قوله وفعله، فإذا ترقَّىٰ في مقام الخشوع حتىٰ تقع صلاتُه كأنه يرىٰ الله ﷻ علىٰ وجه المشاهدة أو مستحضرًا اطلاع الله ﷻ عليه فقد كمل خشوعه، لأن أصل الخشوع هو التطامن والسكون، وأعظمه القلب فإن أصله هو خشوع القلب، وما يُرىٰ علىٰ الجوارح هو آثار ذلك الخشوع المستقرّ في القلب، ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (**من لوازم الخشوع ترك الحركة في الصلاة وعدم الالتفات وإلزام النظر لمحل سجوده**) فالخاشع لا يتحرك في صلاته ولا يلتفت لغير حاجة، ونظرُه ملازم لمحل سجوده، وتقدَّم أن الأخبار المروية في النظر إلىٰ موضع السجود لا يثبت منها شيء، وإنَّما هذا مقتضىٰ النظر، فإنّ أثبت مكان لتحصيل الخشوع في الصلاة هو أن يلقي الإنسان ببصره في موضع سجوده، فلأجل كونه مِرقاةً إلىٰ حصول الخشوع أمر به من هذه الجهة.

ثم بين أن الآيات من سورة المزمِّل تدل علىٰ الأمر بقيام الليل وفضله وأن أهله من خيار الخلق، (**وأخبر في آخر المزمل أنَّ الرسول ﷺ وطائفةً معه من المؤمنين قاموا بذلك التقدير**) فكانوا يقومون لله ﷻ أدنىٰ من ثلثي الليل أو نِصفه، ثم إنَّ الله ﷻ يسَّر علىٰ الناس لملاحظة ما كانوا عليه من أعذار وأشغالٍ من ضرب في الأرض ابتغاء الرِّزق، أو قتال في سبيل الله، أو طروء علة مرض، فخفف الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم وأمرهم أن يقرؤوا ما تيسر منه، (**أي يصلون من الليل ما يَهُون عليهم ولا يَشُقْ**) فإذا ثقل قيام الليل علىٰ المرء فإن الله عَزَّ وَجَلَّ رضي للعبد منه باليسير كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾[المزَّمل:٢٠] فإذا وجد عذر أو شغل صلىٰ الإنسان ما استطاع، ومن المغفول عنه عدم قيام الليل بين المغرب والعشاء، فإن هذا الموضع محلٌّ لقيام الليل، وعند أبي داود بسند صحيح من حديث أنس أن قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧**﴾ [الذاريات] قال: في الصلاة بين المغرب والعشاء، فابتداء قيام الليل يكون منذ دخوله، ودخول الليل يكون بغروب الشمس، وكان أهل هذا القُطر ممن له مسكة في العبادة والصلح يصلون بعد المغرب ستًّا يجعلونها من قيام الليل؛ لأن الإنسان ربما ثقل بعد العشاء لشغل أو طعام أو نحو ذلك فكسل عن أن يصلي من الليل وهذا الوقت بين العشاءين يغلب عليه القدرة والفراغ، فينبغي أن يحرص الإنسان علىٰ أن يجعل منه شيئًا في صلاته بالليل كما كان عليه أصحاب النبي ﷺ.

ثم ذكر أنه (**استدُل بقوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ علىٰ وجوب الجماعة**) لأن الله لما أمرهم بالركوع قال: ﴿**مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣**﴾ فجعل الركوع المأمور به معية الراكعين كائنًا معهم فيدل علىٰ وجوب

الجماعة ويدل أيضًا علىٰ ركنية الركوع في الصلاة وفضله، وأنَّه تدرك به الركعة.

ثم ذكر أنه (**استدل بأمر الله بالجماعة في حال الخوف علىٰ وجوب الجماعة في حالة الأمن من باب أولىٰ**) لأن الله قال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢] إلىٰ تمام الآية، فأوجب الله عَزَّوَجَلَّ عليهم الاجتماع إلىٰ الصلاة في حال الخوف، وأخذ السلاح، فدل ذلك علىٰ وجوبها في حال الأمن من باب أولىٰ.

وتقدم أن الأفصح في حال أنها تُذَكّر في لفظها وتؤنَّث في حكمها، فيقال: حال. ولا يقال: حالة، ويشار إليها بالتأنيث فيقال: هذه الحال. ولا يقال: هذا الحال.

ثم قال: (**وكذلك استدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾، وقوله: ﴿وكذلك استُدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ [المائدة:٥٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩] علىٰ وجوب النداء للصلوات الخمس والجمعة**) والنداء هو الأذان، ولأجل ذلك قال المصنِّف: (**وهو المتقرر عند المسلمين صفته**) فالنداء للصلاة له صفة معلومة هي الأذان، واستدِلَّ علىٰ وجوب الجماعة للصلوات الخمس والجمعة لتوقُّف الصلاة علىٰ النداء، فيدل ذلك علىٰ وجوب المأمور به أصلًا وهو الصلاة، فإن الله قال: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فأمرهم بأن يسعوا مستمعين إلىٰ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، (**وعلىٰ وجوبها في المساجد**)؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ومحلُّ ذكر الله الأعظم هو المساجد، لما في «صحيح مسلم» وأصله عند البخاري «إنَّما بنيت المساجد لإقامة الصلاة وذكر الله وقراءة القرآن» في حديث أنس في قصة الأعرابي.

ثم قال المصنِّف: (**وقد ذكر الله السجدات في القرآن**) أي: مواضع السجود في القرآن (**وفي بعضها الأمر به**) يعني الأمر بالسجود كما في قوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾[العلق]، (**وذم من لم يسجد عند تلاوة الآيات**) لأنه استكبار عن أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال: (**وإخباره بسجود المخلوقات فهذا يدل علىٰ مشروعية سجود التلاوة**) وسجود التلاوة هو **سجود سببه قراءة القرآن في الصلاة أو غيرها** (**استحبابًا عند جمهور العلماء وأوجبه بعضهم**) والصحيح استحبابه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضعًا من مواضع السجود مما تنوزع فيها فقال: (**وَسَجَد ﷺ في ص**) يعني

في سورة ص عند قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ٢٤﴾ [ص]. قال: (**وقال: «سجدها داود توبة فنحن نسجدها شكرًا لله» يدل علىٰ مشروعية سجود الشكر**) وهذا الحديث بهذا اللفظ رواه النسائي وغيره. والمحفوظ أنه مرسل، كما قال البيهقي وغيره فهو حديث ضعيف، وإنَّما ثبت عن النبي ﷺ عند البخاري من حديث ابن عباس أنه ﷺ سجد في ص، وثبت عند أبي داود من حديث أنس أنه ﷺ سجدها مرة وتركها أخرىٰ، وعلل ﷺ سجوده بقوله: «إنَّما هي توبة نبي» فهذا يدل أن السجود عندها إنَّما هو شكرٌ لله ﷻ علىٰ توبته علىٰ نبيِّ الله ﷻ داود، مما يدل علىٰ أن هذا الموضع موضع سجود شُكر وليس موضع سجود تلاوة، فلا يسجد فيه للتلاوة خلافًا للمالكية والحنفية.

والصحيح مذهب الحنابلة والشافعية أنَّ سورة ص ليست فيها سجدة تلاوة وإنَّما سجدة شكر، فإذا قرأ الإنسان خارج الصلاة سجد شكرًا لله ﷻ، وأما داخل الصلاة فلا يَسجد، لأن السجود داخل الصلاة عند قراءة القرآن إنَّما يكون في سجود التلاوة، وليس هذا سجود تلاوة في أصح قولي أهل العلم.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ يعني ذهابها. وفي الأخرىٰ: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ يعني أواخرها يدل علىٰ صلاة الليل وخصوصًا آخره.

ففي ذلك الأمر بصلاة الليل وأنَّ أكمله هو الآخر لقوله: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، وفي الصحيح من حديث عائشة أن النبي ﷺ أوتر من أول الليل ومن أوسطه وآخره وانتهىٰ وتره إلىٰ آخره.

ثم قال: (**والذكر عقب الصلوات الخمس**) لقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ والمراد بالسجود الصلوات الخمس،وأدبارها هي أواخرها، واسم الدبر تطلق علىٰ الآخر المقارن للشيء ويطلق علىٰ الآخر المفارق للشيء، فما يكون قبل السلام يكون دبرًا للصلاة، وما بعد السلام يكون دبرًا للصلاة أيضًا، فيصح عليه باعتبار اللسان والتصرف الشرعي اسم دبر الصلاة، وتعيين الأحكام التي تتعلق به ينظر فيه إلىٰ القرائن التي تبين ذلك، فمثلًا الاستغفار ثلاثًا في دبر الصلاة جاء في حديث ابن الزبير وغيره ما يبين أنه بعد السلام، فإذا دلت القرينة علىٰ أن الدبر ما كان بعد السلام جعل فيه، وإن دلت القرينة علىٰ أن الدبر ما قبل السلام جعل فيه، واللغة والشرع يدلان علىٰ صلاحيته لذلك.

والذكر الذي يكون عقب الصلوات الخمس هو الذي يكون بعد السلام، فهو مأمور به لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب.

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١]، فيها مشروعية قصر الصلاة الرباعية إلىٰ ركعتين، في كلِّ سفر طويل أو قصير لإطلاق الآية، فإذا اجتمع الخوف والسفر قصر عدد الصلاة الرباعية، وقصرت هيئاتها بحسب ما وردت به صلاة الخوف عن النبيِّ ﷺ، كما دل عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء:١٠٢] إلىٰ آخرها، فإن كان سفر بلا خوف قصر العدد فقط، وهذا من فائدة التقييد بالخوف وذلك القصر المطلق.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء:١٠٣] فيها فائدتان:

إحداهما: مشروعية الذكر عقب الصلوات المكتوبات عمومًا، كما تكاثرت بذلك الأحاديث عنه ﷺ.

الثانية: فيه مشروعية الذكر علىٰ وجه التأكيد بعد صلاة الخوف، لحصول بعض الخلل فيها لأجل العذر، فَكَأَنَّ في ذكر الله جبرًا لما فات العبد من ذكر ربِّه، لأنَّ الصلاة إنَّما شُرعت لإقامة ذكر الله، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه]، وكذلك جميع العبادات شرعت لهذا الغرض الجليل، فينبغي للعبد إذا فعل العبادة علىٰ وجه فيه نقص أن يعوض عن ذلك ويجبره بكثرة ذكره لربه.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس:٨٧]، أي: صلوا فيها خوفًا من فرعون وملئه دليلٌ علىٰ جواز الصلاة في البيوت لعذرٍ من الأعذار، إمَّا خوف أو مرض أو غيرهما؛ لأنَّ شَرْعَ من قبلنا شَرْعٌ لنا ما لم يرد شرعنا بنسخه؛ بل في شرعنا من التسهيلات ما ليس في غيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] استدل بها علىٰ جواز الصلاة علىٰ الراحلة في السفر قِبَلَ أيِّ جهةٍ توجه المصلي، وعلىٰ صحة الصلاة إذا اجتهد إلىٰ القبلة فأخطأها، وعلىٰ صحة صلاة العاجز عن الاستقبال للضرورة، وعلىٰ نفل الماشي كالراكب في السفر.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦] يعم أحكام المساجد كلِّها، فإنَّه أمر فيها بشيئين: برفعها الذي هو تعظيمها وصيانتها عن الأوساخ والأقذار والأنجاس الحسية

والمعنوية، وتُعمر العمارة اللائقة بها، ويُذكر فيها اسمه بأنواع التعبد من صلاة وقراءة، وتعلُّم علم نافع، وتعليم، وذكر لله تعالىٰ، فكلّ ما قاله أهل العلم من أحكام المساجد وفصَّلوه فهو داخلٌ في هذين الأمرين، فتبارك من جعل كلامه فيه الهدىٰ والشفاء والنور.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام:١٦٢]، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلىٰ]. استدل بعموم ذلك علىٰ صلاة العيدين عيد الأضحىٰ وعيد الفطر وعلىٰ صدقة الفطر، ولا ريب بدخول المذكورات في هذا العموم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة:٨٤]، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾ [عبس]، ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة:٣١]. دليل علىٰ صلاة الجنازة علىٰ المؤمنين، والقيام علىٰ قبورهم للدعاء لهم، وعلىٰ تكفين الميت كلّه، لأنَّه جعل بدنه كلَّه سوأة، وعلىٰ حمله ودفنه علىٰ ما وردت به السنّة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة البقيّة الباقية من أحكام الصلاة المدلول عليها بآيات القرآن الكريم، فبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية (فيها مشروعية قصر الصلاة الرباعية إلىٰ ركعتين)، وذكره الصلاة الرباعية تنبيه إلىٰ اختصاص قصر الصفة في الصلاة الرباعية، فلا يدخل القَصْر في الصفة في العدد إلا علىٰ الصلاة الرباعية، فالثلاثية والثنائية لا قصر فيهما من جهة عددهما، وهذا القصر مشروع في كل سفر طويل أو قصير لإطلاق الآية، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يعيِّن سفرًا طويلًا وإنَّما أطلقت الآية فكل ما سُمِّي سفرًا فإنه تقصر فيه الصلاة.

ثم ذكر المصنِّف أنه (إذا اجتمع الخوف والسفر قصر عدد الصلاة الرباعية، وقصرت هيئاتها) أي صفتها (بحسب ما وردت به صلاة الخوف عن النبي ﷺ، كما دل عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ إلىٰ آخر) الآية، ويعلم بهذا أن قصر الصلاة نوعان:

أحدهما: قصر عدد وهو إنقاص الرباعية إلىٰ ثنائية.

والثاني: قصر صفة وهو المختص بصلاة الخوف.

ثم قال المصنِّف: (فإن كان سفر بلا خوف قُصر العدد فقط) أي ولم تقصر صفة الصلاة (وهذا من

فائدة التقييد بالخوف وذلك القصر المطلق) يعني في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١] مع أن القصر يكون مع الأمن، لكن نبَّه بذكر الخوف هنا إلىٰ الأعظم من القصرين، فإن الأعظم من القصرين ما اجتمع فيه قصر العدد مع قصر الصفة، فنبَّه إلىٰ الإذن في الأعلىٰ فقيل: ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فتقصر في عددها وبصفتها، وهذا من الفوائد العزيزة من كلام المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن أهل العلم من الصحابة وغيرهم استشكلوا بقاء القصر مع الأمن، فمن أحسن ما يذكر في المقصود بذكر قيد الخوف في آية القصر أن يقال: إن ذكر الخوف تنبيه إلىٰ القصر الأعلىٰ وهو قصر العدد وقصر الصِّفة، أما مع الأمن فيبقىٰ قصر العدد دون قصر الصفة.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا﴾ الآية (فيها فائدتان) أي: مما يتعلق بأحكام الصلاة لا مطلقًا، فإن فوائد الآية عند المصنِّف وغيره كثيرة، لكن ما يتعلق بالصلاة منها فائدتان:

(إحداهما: مشروعية الذكر عقب الصلوات المكتوبات عمومًا كما تكاثرت بذلك الأحاديث عنه ﷺ) وأشير إليه كما تقدم للمصنف في قول الله تعالىٰ في سورة ق: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ يعني بعد الصلوات.

ثم ذكر الفائدة الثانية فقال: (فيه مشروعية الذكر علىٰ وجه التأكيد بعد صلاة الخوف) فيتأكَّد الإكثار من ذكر الله بعد الفراغ من صلاة الخوف، وعلَّة ذلك (لحصول بعض الخلل فيها لأجل العُذر) فإنَّ صلاة الخوف يلحق الإنسان فيها إخلال يضطره إلىٰ قصر العدد وقصر الصفة، فيجبر ذلك الخلل بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها، وهذا معنىٰ قول المصنِّف: (فَكَأَنَّ في ذكر الله جبرًا لما فات العبد من ذكر ربه، لأنَّ الصلاة إنَّما شرعت لإقامة ذكر الله، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ وكذلك جميع العبادات شرعت لهذا الغرض الجليل) أي ذكر الله (فينبغي للعبد إذا فعل العبادة علىٰ وجه فيه نقص أن يعوض عن ذلك ويجبره بكثرة ذكره لربه).

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن قوله تعالىٰ: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ (أي: صلوا فيها خوفًا من فرعون وملئه دليلٌ علىٰ جواز الصلاة في البيوت لعذر من الأعذار، إمَّا خوف أو مرض أو غيرهما) مما يذكره الفقهاء من الأعذار المسقطة للجمعة والجماعة وقد تقدَّمت في شرح بلوغ القاصد.

وعلل المصنِّف ذلك بقوله: (**لأنَّ شَرْعَ من قبلنا شَرْعٌ لنا ما لم يرد شرعنا بنسخه؛ بل في شرعنا من التسهيلات ما ليس في غيره**) والمناسب للمقام حال العذر هو التسهيل والتيسير والتوسعة.

وهذا الاستنباط الذي ذكره المصنِّف ﷺ هو علىٰ قول من يقول: إن معنىٰ الآية ﴿**وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**﴾ اتخذوها محلًا للصلاة، وهذا قول جماعة من السلف.

وأحسن من هذا القول القول: بأن قوله تعالىٰ: ﴿**وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**﴾ أي وجهوها إلىٰ جهة القبلة، والقبلة اسم للموضع الذي يُتجه فيه إلىٰ الصلاة، فبيت المقدس فيما سلف قبلة، ثم صارت الكعبة قبلة، فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**﴾ أي وجهوها إلىٰ المحل الذي تتجهون فيه حال صلاتكم فإن كانوا وهم حينئذ يصلون إلىٰ بيت المقدس فإنهم مأمورون بأن يجعلوا بيوتهم متجهة إلىٰ بيت المقدس، يعني جهتها التي يخرجون ويدخلون منها متجهة إلىٰ بيت المقدس، وهذا التفسير هو أحسن الأقوال المذكورة في تفسير الآية لأنه الموافق للشرع وللسان العربي، وللطاهر بن عاشور كلام في هذا المحل ينصح بمراجعته لفائدته.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ**﴾ (**استدل بها علىٰ جواز الصلاة علىٰ الراحلة في السفر قِبَلَ أيِّ جهةٍ توجه المصلي**) والمراد بالصلاة هنا الصلاة النافلة، فيجوز للمتنفل علىٰ الراحلة في السفر أن يصلي إلىٰ أي وجهة توجه به دابته أو مركبه، واستدل بها أيضًا عند المصنِّف (**علىٰ صحة الصلاة إذا اجتهد إلىٰ القبلة فأخطأها**) فإذا اجتهد المصلي حال إمكان الاجتهاد وصحته من مثله فتبين له أن صلاته إلىٰ غير القبلة فإنها تصح منه ولا يؤمر بالإعادة إلا أن كان مفرطا ولا يصح منه الاجتهاد في ذلك، واستدل بها أيضًا (**علىٰ صحة صلاة العاجز عن الاستقبال للضرورة**) فإذا لم يتمكن المصلي من أن يتجه للقبلة لعجزه كتقييده بمحل يتداوىٰ فيه كالمشافي المسماة بالمستشفيات فإنه يصلي إلىٰ جهة لأجل الضرورة لعدم إمكان أن يحول نفسه إلىٰ جهة القبلة، واستدل بها أيضًا (**علىٰ نفل الماشي كالراكب في السفر**) أي علىٰ جواز نفل الماشي كالراكب في السفر، فكما يجوز لمن يسافر راكبًا أن يصلي متنفلًا إلىٰ غير القبلة يجوز كذلك للمسافر ماشيًا أن يصلي متنفلًا إلىٰ غير القبلة.

ثم ذكر المصنِّف ﷺ أن قوله تعالىٰ: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ**﴾ الآية يعم أحكام المساجد كلِّها، فإنَّه أمر فيها بشيئين:

أحدهما: رفعها. المذكور في قول المصنِّف: (**برفعها الذي هو تعظيمها وصيانتها عن الأوساخ،**

والأقذار والأنجاس الحسية والمعنوية، وتُعمَرُ العمارةَ اللائقةَ بها).

فالأمر الأول هو رفع المساجد بعمارتها حسًّا ومعنىٰ، فالعمارة الحسية هو بنيان جدارنها، والعمارة المعنوية هو إحسان العمل فيها بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ من صلاة أو ذكر أو قراءة للقرآن.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الأمر الثاني بقوله: **(ويُذكر فيها اسمه بأنواع التعبد من صلاة وقراءة، وتعلم علم نافع، وتعليم، وذكر لله تعالىٰ، فكلُّ ما قاله أهل العلم من أحكام المساجد وفصّلوه فهو داخل في هذين الأمرين)** فالمساجد محل لذكر الله عَزَّوَجَلَّ بأنواع ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ كالصلاة، أو كقراءة القرآن، أو تعلم علم نافع، فالمساجد هي أكمل المحال لهذه العبادات، وكل ما خرج عنها فإنه ينقص من حظه باعتبار كمال الإفادة منه، لا في اعتبار ثوابه، فإن النبي ﷺ قال كما في حديث أنس وهو في «صحيح مسلم» وأصله في «الصحيحين»: «إنَّما بنيت هذه المساجد لإقامة الصلاة وقراءة القرآن وذكر الله» أو كما قال النبي ﷺ، فنبه إلىٰ المقصود الأعظم من وجود هذه الأمور فيها، فدل أن كمال الانتفاع بهذه المذكورات إنَّما يكون في المساجد، فالتعلم في المسجد أكمل من التعلم في غيره، وقراءة القرآن في المسجد أكمل من قراءة القرآن في غيره، والصلاة في المسجد أكمل من الصلاة في غيره إلا صلاة النفل التي جاء في الشرع استثناؤها، وهجران المساجد وترك إقامة هذه الأمور فيها وهن وضعف وليس تقدمًا ولا نشرًا للدعوة كما يتوهم بعض الناس، فإن من الناس من زين له أن اتخاذ المنابر الإعلامية في القنوات الفضائية يوصل الدعوة إلىٰ الناس فهو لا يُعلم إلا في القناة، ولا يُقرئ القرآن إلا في القناة ويقول: بدل أن يجلس أمامي مائة يجلس أمامي ملايين. وصدق، يجلس أمامه ملايين مثلما يقول، لكن ليس الواحد الجالس في المسجد كمن يجلس في بيته مسترخيًا أو مستلقيًا أو آكلًا أو شاربًا أو شاردًا ثم يظن أن نفع المسلمين بهذه يكون أعظم من نفعهم في المساجد، وما يُرىٰ الآن من تعطل الدروس وإقراء القرآن في المساجد والتوجه إلىٰ هذه المنابر الإعلامية من تلاعب الشيطان بالناس، وهي منابر جائزة إذا صلحت الحال فيها، لكن هجران المساجد والظن أن انتفاع الناس يكون بهذه الأشياء أكثر مما يكون في المساجد مخالف للشرع، والشرع اختار المسجد، وسيبقىٰ المسجد محلًّا لذكر الله وقراءة القرآن وتعليم العلم، فلا ينبغي أن يعدل طالب العلم الموفق عن هذا المنبر الذي رضيه الله ورضيه رسوله ﷺ، وإن تيسر غيره جاز ذلك، لكن هجران المساجد حتىٰ قلت الآن المحاضرات والدروس التي تكون في المساجد، لا ريب أن هذه علامة شر وليست علامة خير كما يظن بعض الناس أن التوجه إلىٰ منابر القنوات يهيئ وصول الدعوة إلىٰ الملايين فينتفعون لا، فإن الواحد في المسجد يكون انتفاعه بما يساوي

تلك الملايين، فلذلك يتخرج العلماء من المساجد ولا يتخرجون من غيرها، ورأينا في السنوات الماضيات من درس في الكليات الشرعية وحصل الدرجات العليا فيها حتىٰ صار كما يقال: دكتورًا. ولم يدرس في المساجد، لكن ليس علمه كعلم الذين تخرجوا من المساجد، وربما وجدت في الذين تخرجوا من المساجد من لم ينل هذه الدرجة العلمية ولكن بينه وبين ذلك البون الشاسع والفرق الشديد في العلم، فلا ينبغي أن يَشرف طالب العلم عن تلقي العلم في المساجد ويقال: أنا أتابع قناة فلان العلمية، وقناة فلان التعليمية، وأستفيد منها الدرس. حتىٰ كتب بعض الأغمار دعوة إلىٰ إغلاق الدروس في المساجد، وأن زمن التدريس في المساجد كان مستساغًا لما لم يكن موجودًا في البلاد الإسلامية كلية، أما وقد وجدت كليات اليوم ثم زيد عليها بوسائل النقل الإلكترونية كالانترنت والقنوات الفضائية فإنه ينبغي صرف التعليم عن المساجد. وهذه جهالة ظاهرة، لأن ذكر الله ﷻ من أعظمه تعليم العلم، كما كان النبي ﷺ فلا يزهدن إنسان في الجلوس في المسجد إذا كان الجالس واحد، ولا يغترن بإلقاء الدروس والمحاضرات في تلك المواقع ولو حضرها الملايين، فالواحد الصادق خير من ملايين تكثر عددًا ولا تكون عدتها مؤهلة، وكان نافع مولىٰ ابن عمر يجلس في المسجد يعلم العلم بعد الفجر فلا يجلس إليه إلا رجل واحد هو مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فملأ مالك [أسقاط] العلم من حديث نافع كما هو مخرج في «الصحيحين» وغيرهما.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هؤلاء الآيات وهي (**قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝﴾ استدل بعموم ذلك علىٰ صلاة العيدين عيد الأضحىٰ وعيد الفطر وعلىٰ صدقة الفطر**).

ووجه ذلك: قرن الصلاة بما يدل علىٰ أحد العيدين، فالآية الأولىٰ قرنت فيها صلاة النسك، والنسك في أصح أقوال أهل العلم كما تدل عليه الآيات المذكورات في سورة الحج هو الذبح، فتكون معنىٰ الآية قل إن صلاتي وذبحي. ولما قرنت الصلاة بالذبح ناسب أن تصلح هذه الآية دليلًا علىٰ عيد الأضحىٰ، وكذلك قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝﴾ فإنها جعلت دليلًا علىٰ صلاة عيد الفطر، لأن الصلاة قرنت فيها بالزكاة، وهذه الزكاة هي صدقة الفطر، فهؤلاء الآيات منهما آيتان تدلان علىٰ صلاة عيد الأضحىٰ وهما الأوليان، والآية الثالثة تدل علىٰ عيد الفطر، ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝﴾،

وقوله: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ (دليل على صلاة الجنازة على المؤمنين) لأن النبي ﷺ نهي عن الصلاة على المنافقين، فيدل ذلك بمفهوم المخالفة بأمره ﷺ في الصلاة على المؤمنين، (والقيام على قبورهم للدعاء لهم) أسوةً بنظيرها من الاستدلال فإنه نهي أن يقوم على قبور المنافقين وذلك يدل على الأمر بالقيام على قبور المؤمنين، والمراد بالقيام هو **الدعاء لهم بعد دفنهم**، فإذا دفن فإنه يقام عليه ويدعى لهم، ودلت أيضًا على تكفين الميت كله لقوله تعالى: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ (لأنَّه جعل بدنه كلّه سوأة) أي محلًا لما يَسُوء، لأن السوأة اسم لما يسوء، وانكشاف حال الميت سوأة له، لأنه يتغير وتنبعث منه روائح كريهة، ثم قال: (وعلى حمله ودفنه على ما وردت به السنّة) يعني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ لأنه قوله: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ إخبار عن الأمر بدفنه، ويندرج في ذلك حمله لأنه لا يدفن إلا بعد أن يحمل فيجعل في موضع يسال فيه التراب عليه، فيكون دفنًا له.

وهؤلاء الآيات المذكورات في مواضع متفرقة من القرآن الكريم مع استنباط أحكام الصلاة فيها من محاسن ما ينبغي أن تبين به أحكام القرآن المتعلقة بالفقه، وسبق أن ذكرت لكم أن هذه النبذة التي ذكرها المصنِّف في الأحكام الفقهية المستنبطة من القرآن من أحسن ما يصلح أن يكون مدخلًا إلى آيات أحكام القرآن الكريم.

أحكام الزكاة

قد أمر الله بها في مواضع من كتابه وبالنفقة، وأثنى على القائمين بذلك، وذم المانعين لها، وتوعدهم بالوعيد الشديد، وأنهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، وأنَّهم يعذبون بكنوزهم ويحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، وأنَّها من أعظم فروض الدين.

وقال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة:١٠٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة]، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ [الأنعام:١٤١]، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة:٦٠].

استدل بذلك على مسائل كثيرة من أحكام الزكاة، منها وجوب الزكاة في كلِّ ما يتمول، أي يُنمّى ويعد للربح والتنمية والكسب، وذلك كالنقود والعروض للتجارة، وهو كلُّ ما أرصد للبيع والشراء

لأجل الربح، والحبوب والثمار الموسقة، والمواشي التي تنمىٰ لولادتها أو للاتجار بها، وأنَّ زكاة الحبوب والثمار إنَّما تجب عند الحصاد والجَذاذ، لأنَّه الوقت الذي يسهل إخراجه علىٰ أرباب الثمار والزروع، والوقت الذي تتعلق به أطماع المستحقين. وأما من عداهما فلا بد من حولان الحول، وفيه بعث السعاة لقبض زكاة المال الظاهر، وأنَّ الساعي، وكذلك الآخذ للزكاة ينبغي أن يدعو للمخرِج دعاء يناسب الحال لهذه الفائدة التي ذكرها الله أنَّ الدعاء يسكن القلب، وينشّط المخرج وهو شكر له علىٰ ذلك، وأنَّه يجب إخراج الوسط فلا يجب علىٰ المخرج أن يخرج العالي، ولا يحل له أن يعدل إلىٰ الدون، وفيها مصالح الزكاة، وأنَّها تطهر أهلها من الصفات الذميمة، وتزكيهم بالأخلاق الكريمة، وتطهر المال، وتقيه الآفات، وأنَّها لهؤلاء الأصناف الثمانية. منهم من يأخذ لحاجته كالفقير والمسكين، والفقير أشد حاجة فهو المحتاج المضطر، والغارمين لأنفسهم، وفي الرقاب يدخل فيه إعتاق الرقاب من الرق، وإعانة المكاتبين، وفداء أسرىٰ المسلمين، وابن السبيل وهو الغريب المنقطع به عن بلده. ومنهم من يأخذ للحاجة إليه وقيامه بمصلحة عمومية، وذلك كالعاملين عليها من جاب لها، وحافظ وكاتب وقاسم، والمؤلفة قلوبهم ممن يرجىٰ إسلامهم أو يخشىٰ شرهم، أو يرجىٰ قوة إسلامهم أو إسلام نظيره، والغارمين لإصلاح ذات البين بين الطوائف وأهل البلدان والقبائل والمجاهدين في سبيل الله، ومن الجهاد في سبيل الله العلم والتعلم والتعليم للعلوم الشرعية، ومن جمع من هؤلاء وصفين أو أكثر أعطي بحسب ما فيه من الأوصاف.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا جملة من الجمل المتعلقة بالأحكام المستنبطة من القرآن مما يبين الأحكام الفقهية الطلبية فلما فرغ من ذكر ما تعلق بالصلاة، أتبعه بذكر ما تعلق بالزكاة، فبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بالزكاة في مواضع من كتابه وبالنفقة وأثنىٰ علىٰ القائمين بذلك، وذم المانعين لها، وتوعدهم بالوعيد الشديد وأنهم سيطوقون ما بخلوه به يوم القيامة) أي يحاطون به، فإن التطويق هو الإحاطة، (وأنه يعذبون بكنوزهم ويحمىٰ عليهما في نار جهنم أي تسعر عليهما الناس حتىٰ تحمىٰ فتكوىٰ بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، وأنها من أعظم فروض الدين).

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة آيات تتضمن شيئًا من الأحكام المتعلقة بالصلاة، ثم قال: (استدل بذلك علىٰ مسائل كثيرة من أحكام الزكاة، منها وجوب الزكاة في كلِّ ما يتمول) وفسر ذلك قوله: (أي ينمىٰ ويعد للربح والتنمية والكسب) تنبيهًا علىٰ تعلق أحكام الزكاة بمقصد عظيم وهو تنمية الأموال وإعدادها

للربح، فما كان من الأموال مجعولًا لأجل التنمية وطلب الربح والكسب فإنَّ لله عَزَّوَجَلَّ فيه حقًّا هو الزكاة.

وبين المصنِّف [مُثَله] فقال: (**وذلك كالنقود والعروض للتجارة، وهو كلُّ ما أرصد للبيع والشراء لأجل الربح**) فما كان راجعًا إلىٰ طلب النماء والربح والكسب ففيه حق، وبه يعلم علة إيجاب الزكاة في النقود؛ لأن من الناس من قال: إن النقود لا زكاة فيها وأنها ليست مُلحقة بالنقدين، ولو قُدِّر فصلها عن النقدين وأنها ليست معدولة بهما يعني بالذهب والفضة فإنَّ العلة التي أوجب الشرع لأجلها الزكاة في أعيانٍ معيَّنة من الأموال موجودة فيها، وهي حصول الربح والنماء والكثرة، ولا أكثر اليوم من رواج النقود لطلب الربح والبيع والشراء بها، وكون الإنسان يتجر بجمعها، فإنه قلَّ من يتجر من الناس الآن بجمع الذهب ولا يوجد ربما إلا أفراد قليلون يحرصون علىٰ أن يكون لهم ذخيرة من الذهب توجد في أرصدتهم، وعامة الناس إنَّما يدخرون النقود، فدل أن حكمة الزكاة موجودة فيها.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأعيان المرصدة شرعًا للزكاة قال: (**والحبوب والثمار الموسَّقة**) يعني التي تحمل لكيلها، وأصل التوسيق هو الحَمل والمراد به الكيل، فإنها تحمل فتكال، والوسق آلة للكيل.

ثم قال: (**والمواشي التي تُنَمىٰ لولادتها أو للاتجار بها، وأنَّ زكاة الحبوب والثمار إنَّما تجب عند الحصاد والجذاذ**) والمقصود بالجذاذ .... يعني قطف ثمرها، وهو أخُو الحصاد، لكن الغالب أن الحصاد يتعلق بالحبوب، والجذاذ يتعلق بالثمار، قال: (**لأنَّه الوقت الذي يسهل إخراجه علىٰ أرباب الثمار والزروع، والوقت الذي تتعلق به أطماع المستحقين**).

ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ يعني عند حصاده، لأن صاحبه ينتفع به حينئذ والمستحق يتطلع إليه حينئذ.

ثم قال: (**وأما من عداهما**) يعني من الأعيان المأمور بتزكيتها (**فلا بد من حولان الحول**) أي: دوران الحول وهو السنة، (**وفيه بعث السعاة لقبض زكاة المال الظاهر**)، والساعي هو الذي يقوم بجمع الزكوات، وذلك مستنبط من قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ فإن النبي ﷺ أُمر بالسعي ليجبي الصدقات، فإذا تعذر قيام الإمام أناب غيره من السعاة فجمعوا تلك الزكوات، قال: (**وأنَّ الساعي وكذلك الآخذ للزكاة ينبغي أن يدعو للمخرج دعاء يناسب الحال**) وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما سبق: (**في فرض زكاة المال الظاهر**) يعني المطلع عليه، لأن هناك من المال مال باطل لا يطلع عليه، كالنقود فإن الإنسان لا يعلم كم عنده من النقود، لكن الإبل والغنم والبقر هي أموال ظاهرة، والفقهاء رحمهم الله تعالىٰ فرقوا بين مسائل زكاة

المال الظاهر وزكاة المال الباطن، والسعي الأصل فيه أنه يكون لجمع زكاة المال الظاهر.

ثم قال: (**وأنَّ الساعي كالذي يجمع الزكاة وكذلك الآخذ للزكاة ينبغي أن يدعو للمخرج**) أي المؤدي للزكاة (**دعاء يناسب الحال لهذه الفائدة التي ذكرها الله أنَّ الدعاء يسكن القلب، وينشّط المخرج وهو شكر له علىٰ ذلك**) فإذا دفع أحد إلىٰ الساعي زكاته استحب للساعي أن يدعو له بنماء ماله وفطرته وحلول البركة فيه.

وكذلك إذا دفع مزكٍّ ماله من الزكاة إلىٰ مستحقٍ استحب للقابض من المستحقين أن يدعو للمزكي بذلك الدعاء لما فيه من منفعة تسكين القلب وتنشيط المُخرِج وشكره علىٰ ذلك، وهذه الآية تصلح أيضًا دليلًا علىٰ صلاة الجنازة؛ لأن الله قال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾ فبين منفعة الصلاة، وأنها تسكن القلب وهي في هذا المحل الدعاء، والميت في قبره أحوج إلىٰ التسكين لقلبه والتطمين لنفسه من الحي، فتصلح دليلًا لصلاة الجنازة.

ثم قال: (**وأنَّه يجب إخراج الوسط**) يعني العدل الذي يتردد بين الغالي النفيس وبين الدني الرخيص، فما تردد بينهما فهو الذي يؤمر بإخراجه (**فلا يجب علىٰ المخرج أن يخرج العالي**) أي النفيس (**ولا يحل له أن يعدل**) أي يميل (**إلىٰ الدون**) وهو مزهد فيه من الرخيص، (**وفيها مصالح الزكاة**) أي منافعها (**وأنَّها تطهر أهلها من الصفات الذميمة، وتزكيهم بالأخلاق الكريمة، وتطهر المال**) أي تكسبه طهارة (**وتقيه الآفات**) فتحفظه، (**وأنَّها لهؤلاء الأصناف الثمانية**) يعني المسمين في آية التوبة (**منهم من يأخذ لحاجته كالفقير والمسكين، والفقير أشد حاجة فهو المحتاج المضطر**) فالفقير والمسكين يشتركان في الحاجة، ويفترقان في شدة الاضطرار إليها، فكلاهما محتاج إلا أن الفقير أشد حاجة وإلجاء من المسكين، فإن المسكين ربما يكون عنده ما يتقوّت به يومًا أو يومين أو ثلاثة، وأما الفقير فإنه ربما عُدم ما يتقوَّت به،وذلك أمر نسبي.

ثم قال: (**والغارمين لأنفسهم**) فإنهم يأخذون لحاجتهم، والغارم هو الذي تَحمَّل غُرمًا، والغرم اسم لما يجب علىٰ العبد، الغارم اسم لما تحمل غرمًا، والغُرم ما يجب علىٰ العبد، فلو قدر أن أحدًا تحمل حمالة في يدٍ أو غيرها أو دينًا في شيء فثقل به فإنه يدخل في اسم الغارم.

قال: (**وفي الرقاب يدخل فيه إعتاق الرقاب من الرق**) يعني المِلك، (**وإعانة المكاتبين**) وهم الذين يكاتب علىٰ إعتاقهم في مدَّةٍ بمال منجم؛ أي: مقسم في أوقات معينة (**وفداء أسرىٰ المسلمين، وابن السبيل وهو الغريب المُنقَطع به عن بلده**) فالغريب الذي قد انقطع عن بلده هو ابن السبيل (**ومنهم من

يأخذ للحاجة إليه وقيامه بمصلحة عمومية) وهذا هو النوع الثاني، فإن الأصناف الثمانية نوعان:

أحدهما: من يأخذ لحاجته.

والآخر: من يأخذ للحاجة إليه وقيامه بمصلحة عمومية.

فلما فرغ من الأول ذكر الثاني قال: (**وذلك كالعاملين عليها من جابٍ لها**) يعني جامع لها (**وحافظٍ وكاتب وقاسم**) أي يفرِّقها في أهلها، (**والمؤلفة قلوبهم ممن يرجىٰ إسلامهم أو يخشىٰ شرهم، أو يرجىٰ قوة إسلامهم أو إسلام نظيره، والغارمين لإصلاح ذات البين بين الطوائف وأهل البلدان والقبائل**) والمقصود بذات البين يعني الفُرقة التي تكون بين المُسلمين، وذات البَيْن من مبتكرات القرآن كما قال الطاهر بن عاشور، فإن العرب لم تكن تعرف اسم (ذات البين) للدلالة علىٰ الافتراق، فجيء به في القرآن في سورة الأنفال فهو من مبتكرات القرآن أي ما لم تعرفه العرب من الكلام قبل القرآن.

ثم قال: (**والمجاهدين في سبيل الله**) فتدفع إليهم الزكاة.

ثم قال: (**ومن الجهاد في سبيل الله العلم والتعلم والتعليم للعلوم الشرعية**) فإن تعليم العلم وبثه ونشره وطلبه والتماسه هو من جملة الجهاد في سبيل الله، لأنه جهاد حجة وبيان والمساعد عليه قليل، بخلاف جهاد السيف والسنان وهو القتال فإن المساعد عليه كثير، ويصلح له كل أحد، وأما جهاد العلم فلا يصلح لكل أحد فهو أشرف النوعين كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «مفتاح دار السعادة».

ثم قال: (**ومن جمع من هؤلاء**) أي الثمانية (**وصفين أو أكثر أعطي بحسب ما فيه من الأوصاف**) أي التي تجتمع له، فيستحق بهذا وهذا، وكلما وجدت الأوصاف الداعي فيه أقوىٰ كان أحق بدفع الزكاة إليه من غيره.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب.

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٧١] فيها حثٌّ علىٰ إخفاء الصدقات إذا أعطيت الفقراء، فإن بذلت في المصالح العامة فالأولىٰ إظهارها لما في ذلك من المصالح.

ونهىٰ تعالىٰ عن اتْباعها بالمنّ علىٰ الله، أو علىٰ المعطَىٰ، أو الأذية لِلمُعْطَىٰ، وتقدم أنَّه استدل بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلىٰ] علىٰ زكاة الفطر. وأمَّا مقادير الأنصباء والواجبات فمفصَّلٌ بالسُّنّة.

وقد أمر تعالىٰ بإخلاص النفقات لله من الواجبات والمستحبات، وأخبر عن مضاعفتها وعن حبوط عمل المرائي والعاصي، وضرب لذلك الأمثال المقربة للمعاني غاية التقريب.

هذه الجملة هي آخر ما بقي في أحكام الزكاة المبيَّنة في القرآن الكريم، وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ إلىٰ آخر الآية أنَّ (**فيها حثًّا علىٰ إخفاء الصدقات**) وعدم إظهارها (**إذا أعطيت الفقراء**) فالأكمل أن تكون الصدقة المدفوعة إلىٰ مستحقها مخفاة غير معلنة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: فهو أخير لكم وأفضل لكم، وأصل الخير في كلام العرب أخير، لأنها من باب أفعل التفضيل؛ لكن توجد علىٰ ألسنتهم خَيَرَ بتخفيفها بحذف الألف منها كما قال ابن مالك في «الكافية الشافية»:

وغالبًا أغناه خير وشر عن قوله في الأخير منه وأشر

فمعنىٰ الآية إن إخفاء الصدقات أخير وأعظم وأفضل من إظهارها إلا أن يؤذن في مصالح عامة فالأولىٰ إظهارها لما في ذلك من المصالح، من الاقتداء بدافعها والاهتمام به، فإنه إذا دفعها في مصلحة عامة من مصالح المسلمين مما يحتاج إليه الناس فإنه يُظهر ذلك فيقتدي به الناس، أو كان محل تُهمة من مانع زكاته فإنه يظهرها في لكي يدفع التهمة عن نفسه.

ثم ذكر أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن اتباعها يعني إلحاق الصدقة بالمن علىٰ الله، والمن هو **تعداد النعمة** فنهي العبد عن أن يتبع صدقته بتعدادها علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بذكرها أو علىٰ المعطىٰ الذي دفعت إليه، أو أن يهدىٰ المعطىٰ بأي شيء من أنواع الأذىٰ وطرائقه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه (**تقدم أنَّه استدل بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾ علىٰ زكاة الفطر**).

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن (**مقادير الأنصباء**) أي: ما يبلغ فيه المال من قدر ثم يجب فيه زكاة وما يُخرج به أن ذلك مفصل في السنة النبوية في حديث أنس في كتاب أبي بكر الصديق في الصحيح.

ثم ذكر أن الله (**أمر تعالىٰ بإخلاص النفقات لله من الواجبات والمستحبات**) بأن تكون له وحده (**وأخبر عن مضاعفتها وعن حبوط**) أي: زوال وذهاب (**عمل المرائي**) وهو الذي ينظر مدح الناس، وثنائهم بما يُبديه من عمله، وكذلك العاصي الذي يعصي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيما يتعلق [بمنع] زكاته.

ثم قال: (**وضرب لذلك الأمثال المقربة للمعاني غاية التقريب**) يريد بذلك ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في سورة البقرة وغيرها من الأمثال التي قُرنت بها أحكام الزكاة، والحال لإبداء هذه الأمثال هو تقريب المعاني

فإنَّ من مقاصد ضرب المثل في القرآن الكريم تبيين المعنىٰ وتقريبُه.

أحكام الصيام والاعتكاف وتوابعها

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٣] إلىٰ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة].

يؤخذ من هذه الآيات الكريمات من أحكام الصيام شيء كثير، منها: أنَّ شهر رمضان مكتوب علىٰ هذه الأمة، وأنَّ الصيام من الشرائع العامة التي شرعت علىٰ لسان كلِّ نبي أرسله الله، لعموم نفعه، وكثرة مصالحه، ويجمع مصالحه قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة]، أي: شرعنا لكم الصيام لتقوموا بتقوىٰ الله التي بها النجاة والفلاح والسعادة، فإنَّ الصِّيام من أعظم أركان التقوىٰ، وهو بنفسه يعين علىٰ تقوىٰ الله في كلِّ الأحوال، فإنَّه يمرِّن النفوس علىٰ الصبر عما تهواه مما يلائمها ويوافق طبيعتها، فمتىٰ تمرنت النفس علىٰ ذلك بالصيام هان عليها ترك المحارم التي لا تتم التقوىٰ إلا بتركها، وأيضًا فنفس الصيام ترك للمفطرات المحرمة لخصوص الصِّيام، وكذلك يدعو إلىٰ رحمة الفقير، فإنَّ الإخلاص لله والإحسان لعباد الله هو جماع التَّقوىٰ، وكلاهما موجود معناه في الصيام.

وفيها: أنَّه يجب صيام رمضان برؤية هلاله علىٰ كلِّ مقيمٍ صحيح، وبتمام الشهر الذي قبله من باب أولىٰ، وأنَّ المريض مرضًا يرجىٰ زواله والمسافر له الفطر، ويقضي عدَّته من أيام أُخر، وعموم ذلك كلَّ سفر طويل أو قصير، وأنَّه يصح قضاء أيام قصار باردة علىٰ أيام طوال حارة، وأنَّ من فاته رمضان قضىٰ عدد أيامه. وأما المريض مرضًا لا يرجىٰ زواله والكبير والكبيرة اللذان لا يستطيعان الصيام فيفطرون ويطعمون عن كلِّ يوم مسكينًا. وبهذا فسر ابن عباس وغيره: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة:١٨٤]، أي: يتكلَّفونه بمشقة غير محتملة، أولىٰ من القول بنسخها، وعلل ذلك كلَّه تعالىٰ بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ومنها: استحباب التكبير ليلة عيد الفطر، والإكثار من ذكر الله وشكره علىٰ إتمام العدة.

ومنها: حل الوقاع للزوجات ليالي الصيام، وأنَّ حله وحل الأكل والشرب ينتهي إلىٰ طلوع الفجر، ففيه جواز صيام الجنب، لأنَّ من لازم هذه الإباحة لم يدركه الفجر وهو جنب، ومثله صيام الحائض إذا انقطع دمها.

ومنها: استحباب تأخير السحور لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾

[البقرة:١٨٧] وأنَّه يجوز الأكل والشرب مع الشك في طلوع الفجر، ومنها استحباب الفطور وتعجيله.

ومنها: أنَّ حد الصيام الشرعي هو الإمساك عن جميع المفطرات، من طلوع الفجر الثاني إلىٰ غروب الشمس.

ومنها: كراهة الوصال للصائم، لأنَّ الله لم يجعل الليل محلًا للصوم.

ومنها: أنَّ جميع ما يؤكل، وكلَّ ما يشرب، والجماع من أعظم مفطرات الصائم.

ومنها: مشروعية الاعتكاف حيث إنَّ الله أضافه إلىٰ المؤمنين، وأنَّه لا بد أن يكون في المسجد، وأنَّ مباشرة النساء بالوطء ومقدماته ممنوع منها المعتكف.

وفيه إشارة إلىٰ أنَّ الاعتكاف في آخر رمضان أفضل من غيره لتواتر الأحاديث فيه، لأنَّ الله أتبع الاعتكاف لأحكام الصيام وقد أثنىٰ الله علىٰ الصائمين في مواضع كثيرة من القرآن، وذكر ما لهم من الفضل والثواب، وهذا يتناول الفرض والنفل وخصوصًا الأيام التي حثّ ﷺ علىٰ صيامها، كصيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر، وست من شوال، ويوم عرفة، واليوم التاسع والعاشر من المحرم، والاثنين والخميس، فإنَّها من أفضل ما يدخل في آيات الصيام.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر] فيها فضيلة ليلة القدر والعمل فيها، وأنَّها في رمضان. وأخبر ﷺ أنَّها ترجىٰ في عشره الأخيرة خصوصًا أفرادها، لأنَّ الله ذكر أنَّه أنزل القرآن في رمضان وأخبر أنَّه أنزله في ليلة القدر، وذلك صريح أنَّها في رمضان.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ترجمة أخرىٰ لبيان أحكام الفقه المذكورة في القرآن الكريم فقال: (أحكام الصيام والاعتكاف وتوابعها) أي ما يلحق بها، فأورد في ذلك الآي الواردة في سورة البقرة وبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يؤخذ من هذه الآيات من أحكام الصيام شيء كثير، لأن أحكام الصيام في القرآن الكريم جاءت منطوية في هؤلاء الآيات، فهؤلاء الآي هن الآي جوامع من القرآن الكريم اللواتي جاء فيهن بيان أحكام الصيام، فمن تلك الأحكام ما ذكره المصنِّف من قوله: (منها: أنَّ شهر رمضان مكتوبٌ علىٰ هذه الأمة) والكتابة يندرج فيها نوعان:

أحدُهما: الكتابة القدريَّة.

والآخر: الكتابة الشرعيَّة.

وكذلك هما تجتمعان في صيام رمضان، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كتبه قدرًا محلًّا في الصوم وكتبه شرعًا علىٰ هذه الأمة كما كتبه علىٰ الأمم السابقة أن يصوموا فيه، وبيَّن أن فيها من الأحكام (أنَّ الصيام من الشرائع العامة التي شرعت علىٰ لسان كلِّ نبي أرسله الله، لعموم نفعه، وكثرة مصالحه) أخذًا من قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ يعني مثل ما كتب علىٰ الذين من قبلكم، وتقدم أن ما جاء في القرآن الكريم من هذا البناء (قبلكم) يندرج فيه الأمم السابقة جميعًا من اليهود والنصارىٰ والمشركين، والصابئة وغيرهم لاختلاف وقوعه في السنة، فإن هذا اللفظ في السنة إذا ورد فإنه يختص بالطائفتين السابقتين لنا اليهود والنصارىٰ، فاستعماله في القرآن أوسع في استعماله في السنة.

ثم بيَّن أن مصالح الصيام يجمعها قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ (أي: شرعنا لكم الصيام لتقوموا بتقوىٰ الله) فإنَّ الصيام من أعظم آثار التقوىٰ، وهو بنفسه يعين علىٰ تقوىٰ الله في كلِّ الأحوال إلىٰ آخر ما ذكر، فمن أعظم مصالح الصيام؛ بل هو قطبها الأعظم، وعليه تدور الرَّحىٰ هو تحصيل تقوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأن الإنسان إذا صام فطم نفسه عن مأدوباتها من الشهوات، فإذا اعتاد ذلك هان عليه أن يصرف نفسه فطمًا لها عن كل ما حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو يحتاج كل سنة إلىٰ تذكيره بهذا الأمر ليألفه ويبقىٰ عليه دومًا فإذا ضعف سيره نُبه برمضان آخر في سنة تالية، فيبقىٰ الأمر إلىٰ رمضان الآتي، فإذا دخل في شهر جديد من شهور الصيام عادت إليه الحال التي كانت من تذكر وجوب فطم الناس عن شهواتها وملازمة تقوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أنَّه يجب صيام رمضان برؤية هلاله علىٰ كلِّ مقيمٍ صحيحٍ) فإذا رؤي الهلال وجب الصيام، (وبتمام الشهر الذي قبله من باب أولىٰ) وهو شهر شعبان، وكونه (من باب أولىٰ) لأن تكميل الشهر السابق قرينة قاطعة علىٰ أن التالي له هو شهر رمضان، بخلاف الهلال فإن الهلال إذا لم يتهيأ رائيه بكونه ثقة عدلًا لم يصم الناس لكن إن كان رائيه ثقة عدلًا صام الناس وأمروا بصيامه.

ثم ذكر من أحكام الصيام المستفادة من هؤلاء الآيات (أنَّ المريض مرضًا يرجىٰ زواله والمسافر له الفطر) يعني في تلك الأيام من شهر رمضان (ويقضي عدته من أيام أُخر) يعني يقضي عدة ما أفطر في رمضان من أيام أخر من غير شهر رمضان، وفي قوله: ﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ تنبيه إلىٰ أن الأيام المقضية لابد أن تكون من غير رمضان؛ لأن كل يوم من أيام رمضان تشغل فيه ذمة العبد بصيامه، فلا يكون محلًّا لصيام غيره، بخلاف الأيام الأخر فإنها تكون محلًّا لقضاء ما أفطره العبد من أيام رمضان.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن من الأحكام المستفادة: (عموم ذلك كلَّ سفر طويل أو قصير)

فيصح الفطر فيه سواء كان سفرًا طويلًا أو كان سفرًا قصيرًا فإذا صح عليه اسم السفر جاز فيه الفطر (وأنَّه يصح قضاء أيامٍ قصارٍ باردة علىٰ أيام طوال حارة) ولعل صواب العبارة (عن) أيامٍ طوال حارة، فإذا كان المُفطر قد أفطر في أيام طوالٍ حارة من الصيف ثم قضاها في أيامٍ قصار باردة صح قضاؤها، لأن المراد هو اليوم.

ثم ذكر (أنَّ من فاته رمضان قضىٰ عدد أيامه) لوجوبها في الذِّمّة، فيجب صيام رمضان بقدر ما فات منه.

ثم ذكر أنَّ (المريض مرضًا لا يُرجىٰ زواله) أي: في العادة الجارية لا بحسب حقيقة الأمر، فإنَّ حقيقة الأمر لا يطَّلع عليها إلا الله لكن يحكم باعتبار العادة الجارية، فالمريض مرضًا لا يُرجىٰ زواله بالعادة الجارية (والكبير والكبيرة اللذان لا يستطيعان الصيام) مع بقاء عقلهما (فيفطرون ويطعمون عن كلِّ يوم مسكينًا. وبهذا فسر ابن عباس وغيره: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يتكلفونه بمشقة غير محتملة، أولىٰ من القول بنسخها) فإن ابن عباس رضي الله عنهما لم ير هذه الآية منسوخةً في حقِّ المريض الذي لا يرجىٰ زواله ولا الكبير والكبيرة اللذين لا يستطيعان الصِّيام، فهي باقية في حقِّهم أنهم يفطرون ويطعمون عن كلِّ يوم مسكينًا، وإطلاق الإطعام جاء فيه نصوص عن جماعة من الصحابة كعمر وابن عباس وغيرهما بتقديره مدًّا من طعام ولو أطعمهم بقدر ما يحصل من إطعام صح ذلك، لكن اقتداء الوارد في الآثار أولىٰ، والمُدّ ربع الصاع.

ثم ذكر أنَّ الأحكام التي ذُكرت في الصيام عللت بقول الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: أن ما مضىٰ من أحكام مبينة جاءت علىٰ وجه الرفق والمعونة للصائمين لأن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر.

ثم ذكر أن من تلك الأحكام: (استحباب التكبير ليلة عيد الفطر، والإكثار من ذكر الله وشكره علىٰ إتمام العدة) لتكميل عدة الشهر فإذا ثبت كون الليلة هي الليلة الأولىٰ من شوال وهي ليلة عيد الفطر استحب تكبير الله عزوجل والإكثار من ذكره. (ومنها: حل الوقاع) أي الجماع (للزوجات ليالي الصيام، وأنَّ حله وحل الأكل والشرب ينتهي إلىٰ طلوع الفجر) فللإنسان أن يتمتع بما شاء من مأكل أو مشرب أو وقاع إلىٰ أن يطلع الفجر، (ففيه جواز صيام الجنب) وهو الذي أصابته جنابة؛ لأن من لازم هذه الإباحة أن يدركه الفجر وهو جنب، فإذا كان مباحًا فله أن يأتي أهله وربما أتاهم آخر الليل قبل الفجر، فإن فرغ من إتيان أهله طلع الفجر وبقيت عليه الجنابة، فدلَّ ذلك علىٰ جواز صيامه وصحة ذلك منه،

لأنه لم يأت التَّنبيه علىٰ كونه مفطرًا فبقي علىٰ الأصل، (**ومثله صيام الحائض إذا انقطع دمُها**) فلو قدر أن الجنب والحائض طلع عليهما الفجر وقد فرغا من حاجتهما وانقطع دم الحيض عنها ولو لم يغتسلا فإنَّهما يصومان، فإذا نزع الجُنب من إتيان أهله وانقطع الدم عن الحائض قبل الفجر ولم يغتسلا إلا بعده صح الصيام منهما.

ثم ذكر أنَّ من تلك الأحكام: (**استحباب تأخير السُّحور**) وهي الأكلة التي تُتناول في السَّحر، فأكلة السحر للصائم تسمَّىٰ سُحورًا، والسنة فيها التأخير لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ وهذا التَبيُّن لا يكون إلا قليلًا من الفجر، والذي يقرب من الفجر هو وقت السحر، ووقت السحر علىٰ أعدل الأقوال هو ما بين الفجر الصادق والفجر الكاذب، فيسمىٰ سحَرًا ويكون محلًا في تناول أكلة السحر فيه (**وأنَّه يجوز الأكل والشرب مع الشك في طلوع الفجر**) لأن الأصل هو بقاء الليل وانقطاع الإذن بالأكل والشرب لا ينتهي حتىٰ يتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود؛ أي: يتيقن، (**ومنها استحباب الفطور وتعجيله**) لأن الله ﷻ قال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ فجعل الفراغ من الصيام هو دخول الليل، ودخول الليل يكون بغياب قرص الشمس، فإذا غاب قرص الشمس بادر الإنسان إلىٰ الفطر واستعجل.

(**ومنها: أنَّ حدَّ الصيام الشرعي هو الإمساك عن جميع المفطِّرات، من طلوع الفجر الثاني إلىٰ غروب الشمس**) فيكون الإنسان صائمًا إذا أمسك بنيةٍ عن المفطرات في هذا الوقت.

(**ومنها: كراهة الوصال للصائم**) والوصال هو أن يُلحق الصائم ليله بنهاره فيُتبعه به صائمًا، ووجه كراهته لأن الله لم يجعل الليل محلًّا للصوم فإنَّما جعله محلًا للتمتع بما أباح من أكل وشرب وجماع.

(**ومنها: أنَّ جميع ما يؤكل، وكلَّ ما يشرب، والجماع من أعظم مفطرات الصائم، ومنها: مشروعية الاعتكاف حيث إنَّ الله أضافه إلىٰ المؤمنين**) لقوله: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ فجعله فعلًا لهم، (**وأنَّه لا بد أن يكون في المسجد**) لذكره محل الاعتكاف، (**وأنَّ مباشرة النساء بالوطء ومقدِّماته ممنوع منها المعتكف**) لقول الله ﷿: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ وأصلُ المباشرة هو الإفضاء إلىٰ البشَرة وهي الجلدة الظاهرة؛ إلا أنها في الآية في أصح قولي أهل العلم: الجماع. وهو قول جمهور العلماء، واختاره ابن جرير وابن كثير رحمهما الله.

فالممنوع منه المعتكف اتِّفاقًا هو الجماع، وأمَّا ما عدا ذلك من جسٍّ ومسٍّ وتقبيل ففيه خلاف بين أهل العلم، والصحيح أنه إذا لم يكن بشهوة فإنه لا يضر المعتكف فلو قبَّل بلا شهوة فإنه لا يضرُّه وذلك

مباح له، وأمَّا إن كان بشهوة فهو محرم باتفاق أهل العلم، فإنَّهم اختلفوا فيه الإبطال به، فلو قبل بشهوة أو غير ذلك مباشرًا دون جماع كان ذلك حرامًا باتفاق.

ثم قال: (**وفيه إشارة إلىٰ أنَّ الاعتكاف في آخر رمضان أفضل من غيره لتواتر الأحاديث فيه**) فإن اعتكاف النبيِّ ﷺ انتهىٰ إلىٰ العشر الأواخر، (**لأنَّ الله أتبع الاعتكاف لأحكام الصيام**) أي: بعد أن ذكر أحكام الصيام ذكر أحكام الاعتكاف (**وقد أثنىٰ الله علىٰ الصائمين في مواضع كثيرة من القرآن، وذكر ما لهم من الفضل والثواب، وهذا يتناول الفرض والنفل وخصوصًا الأيام التي حثَّ ﷺ علىٰ صيامها، كصيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر...**) إلىٰ آخر ما ذكر حتىٰ قال: (**فإنَّها من أفضل ما يدخل في آيات الصيام**) يعني أن الموقَّت من النفل له فضيلة عظيمة من فضائل الصيام فهو داخلٌ للفضل مندرج فيما ذكر في أثناء الآيات من الثواب والفضل.

ومما ينبه إليه أن صيام النفل الموقت بالأيام لا يصح إلا وقوعه بالأيام، كصيام يوم عرفة صوم وُقِّت بيوم فلا يصح إلا بنية الصائم صيامه من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، فلو قُدِّر أن الصائم لم ينو ذلك إلا في أثنائه ولو لم يتناول مفطِّرا قبل ذلك صح صيامه، وأما القطع بالثواب فإنَّما يكون لمن صام اليوم؛ لأن الأحاديث الواردة قيدت بيوم؛ لقوله ﷺ: «صوم يوم عرفة أحتسبه علىٰ الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعدها» فقيده بكونه يوم، فاليوم يبدأ من طلوع الفجر الثاني، ولابد أن يتقدمه النية من الليل، الثواب معلق بصيام يومٍ، وقل هكذا في سائر ما قيِّد بيوم، أما النفل المطلق الذي لم يقيد بيوم فإنه لو لم ينو الإنسان إلا بعد العصر شرط ألا يكون قد تناول مفطرًا قبل ذلك صحَّ منه الصيام.

ثم ذكر الآيات اللواتي ذكرهن كقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ**﴾ [**الدخان:٣**]، وما تلاها من آيات سورة القدر أن (**فيها فضيلة ليلة القدر والعمل فيها، وأنَّها في رمضان**) وما أطلقه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من العمل فيها قيدته الأحاديث الصحيحة بقيام ليلة القدر العمل الممدوح به في ليلة القدر هو قيامها، وهي في رمضان (**أخبر ﷺ أنَّها ترجىٰ في عشره الأخيرة خصوصًا أفرادها**) يعني الآحاد الأوتار منها، لأن الله تعالىٰ ذكر أنه أنزل القرآن في رمضان، وأخبر أنه أنزله في ليلة القدر (**وذلك صريح أنَّها في رمضان**).

أحكام المناسك

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران]. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة:١٩٦] إلىٰ قوله: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ

عَلَيَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٣] الآية فيها فوائد كثيرة:

منها: أنَّ الحج أحد أركان الإسلام ومبانيه، وأنَّ الله أوجبه علىٰ الناس كلِّهم، ثم خص المستطيعين إليه السبيل، وهذا الشرط الأعظم لوجوب الحج، فمن تمت استطاعته في بدنه وماله ولم يمنع من ذلك خوف، وجب عليه المبادرة إلىٰ الحج، لأنَّ الأمر المطلق يقتضي الفور، ومن عجز في بدنه وقدر في ماله وهو يرجو زوال هذا العجز صبر إلىٰ زواله، فإن كان لا يرجو زواله أو كان كبيرًا لا يقدر الثبوت علىٰ المركوب، استناب عنه من يحج عنه. وكذلك من مات بعدما وجب عليه وجب علىٰ أوليائه الاستنابة عنه، والاستطاعة هي القدرة علىٰ ثمن الراحلة أو أجرتها أو أجرة المراكب البرية والبحرية ذهابًا ورجوعًا. ولهذا أطلق الله استطاعة السبيل ليشمل ما حدث ويحدث إلىٰ يوم القيامة، وهذا من بلاغة القرآن وبراهين صدقه. وقد أمر الله بإتمام الحج والعمرة لله، وهذا شامل للفرض منهما وللنفل، فمن فرض الحج والعمرة بأن أوجبهما علىٰ نفسه بدخوله في النسك، وجب عليه الإتمام إلا أن يحصل له حصر عن الوصول إلىٰ البيت بعدو أو غيره، فيذبح هديه ويحلق رأسه ويحل من نسكه، ومن ساق الهدي قرن بين النسكين كما فعل ﷺ ولم يحل له أن يحلق رأسه حتىٰ يبلغ الهدي محله يوم النحر، فيحل من النسكين جميعًا.

لما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذكر أحكام الصيام الواردة في القرآن أتبعها بذكر أحكام المناسك، والمناسك اسم لأحكام الحج وما يلحق به من الذبائح من هدي وفدية وغيرها. وأورد فيه آية دليلًا عليه ثم قال: (وفيها فوائد كثيرة:

منها: أنَّ الحج أحد أركان الإسلام ومبانيه) فهو أحد الأركان الخمسة، (وأنَّ الله أوجبه علىٰ الناس كلِّهم) لأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهذا لفظ بوضعه يدل علىٰ العموم، فكل من درج في اسم الناس من الجن والإنس وجب عليه أن يحج. (ثم خص المستطيعين إليه السبيل) فالذين يجب عليهم من الناس هم صنف خاص فهم المستطيعون السبيل إلىٰ الحج (وهذا الشرط الأعظم من وجوب الحج، فمن تمت استطاعته ببدنه وماله فلم يمنع من ذلك خوف وجب عليه المبادرة إلىٰ الحج لأن الأمر المطلق يقتضي الفور) والفور عند الأصوليين هو **المبادرة إلىٰ الفعل في أول زمن إمكانه**، فمن استطاع الحج وجب عليه أن يحج، ومن عجز في بدنه وقدر في ماله وهو يرجو زوال هذا العجز ينتظر إلىٰ زواله فمن كان مريضًا وله مال ويرجو أن يزول مرضه فإنه يصبر حتىٰ يزول مرضه، فإن كان لا يرجو زواله في

المعتاد أو كان كبيرًا لا يقدر الثبوت علىٰ مركوب استناب من يحج عنه، فأناب نائبًا يحج عنه.

وكذلك من مات بعد ما وجب عليه وجب علىٰ أوليائه الاستنابة عنه، فإذا مات ميت وهو مستطيع والحج عليه واجب ولم يحج وجب علىٰ أوليائه أن ينيبوا أحدًا يحجُّ عنه.

ثم قال: (**والاستطاعة هي القدرة علىٰ ثمن الراحلة أو أجرتها أو أجرة المراكب البرية والبحرية ذهابًا ورجوعًا، ولهذا أطلق الله استطاعة السبيل ليشمل ما حدث ويحدث إلىٰ يوم القيامة، وهذا من بلاغة القرآن وبراهين صدقه**) فاستطاعة السبيل يعمُّ كل شيء يتعلق بالتمكين من الحج، وهذا أمر يختلف من زمن إلىٰ زمن، فكان في الماضي يحتاج الناس إلىٰ راحلة توصلهم من بلاد بعيدة هي ناقة في الغالب أو جمل، ثم وُجدت هذه المراكب الحديثة فقامت مقامتها.

ثم ذكر أن الله عَزَّوَجَلَّ (**أمر الله بإتمام الحج والعمرة لله**) لقوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة:١٩٦]، (**وهذا شامل للفرض منهما وللنفل**) فإذا دخل الإنسان في حج وعمرة ولو كان نفلا لم يجز له أن يقطعه بل يجب عليه أن يتمه (**فمن فرض الحج والعمرة بأن أوجبهما علىٰ نفسه بدخوله في النسك وجب عليه الإتمام إلا أن يحصل له حصر**) أي: حبس (**عن الوصول إلىٰ البيت بعدو أو غيره**) كمرض (**فيذبح هديه ويحلق رأسه ويحل من نسكه**).

ثم قال: (**ومن ساق الهدي**) وهو ما يهدىٰ إلىٰ البيت من الذبائح (**قَرن بين النسكين كما فعل ﷺ**) فإذا ساق الإنسان معه هدْيَه من الحل فإنه يكون قارنًا بين الحج والعمرة (**ولم يحلَّ له أن يحلق رأسه حتىٰ يبلغ الهدي محله يوم النحر، فيحل من النسكين جميعًا**) أما من لم يجد الهدي فهو مخير بين أن يُفرد الحج وحده أو أن يتمتع بعمرة إلىٰ الحج يحل بينهما، فالفرق بين سائق الهدي وغيره أن سائق الهدي وهو الذي يُدخله من الحل إذ هو عليه أن يكون قارنًا بين العمرة والحج كما فعل النبيُّ ﷺ، وأما من لم يكن كذلك ولم يسُقِ الهدي فإنه مخير بين أن يكون حجه إفرادًا أو أن يكون متمتِّعًا يحل بعمرته ثم يُحرم بعد ذلك بالحج.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب.

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❁❁◈❁❁

وفيها دليل علىٰ مشروعية سَوْق الهدي من الحل، ويؤخذ مشروعية تقليده من قوله: ﴿وَٱلۡهَدۡىَ

وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾[المائدة:٩٧]، وأن العمرة تندرج في الحج، وتكون أفعالهما جميعا والحل منهما جميعا، وأوجب الله علىٰ المتمتع ما استيسر من الهدي وهو ما يجزي في الأضحية جذع ضان، أو ثني معز، أو سُبع بدنة، أو سُبع بقرة، فمن لم يجد ذلك فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج لا يتجاوز بها أيام التشريق، وقد أباح الشارع صيامها في هذه الحال فقط وسبعة إذا رجع، وإنما يجب الدم أو بدله علىٰ من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام؛ لأن من الحكمة في وجوب الهدي أو بدله الشكر لله علىٰ نعمة حصول النسكين في سفر واحد، ومن كان أهله في مكة أو قُربها لم يكن عليه شيء.

ومفهوم الآية أن المفرد للحج ليس عليه هدي، وأما القارن فإنه داخل في المتمتع، ولا بد أن يقع إحرام النسكين في أشهر الحج؛ وهي: شوال وذو القَعدة وذو الحجة(١).

وأرشد الله من فرض فيها، أي: أوجب فيهن الحج ألا يرفث، والرفث الوطء ومقدماته، لأن الوطء مفسد للنسك ومقدماته منقصة له، ولا يفسق؛ ويشمل ذلك جميع المعاصي، وأما الجدال فهو المخاصمة والمنازعة وكثرة الجدال، لأن هذه الأمور تشغل العبد عما هو بصدده من النسك.

ولما نهىٰ عما ينافي النسك وينقصه أمر وحث علىٰ كل ما يكمله من أفعال الخير كلها فقال: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:١٩٧] وحث أيضا علىٰ كثرة الزاد، لأنه يكف الإنسان ويغنيه عن الخلق ويبسط به نفسه ورفقته، ويتمكن من فعل الإحسان. وأباح تعالىٰ للحاج والمعتمر الاشتغال بالتجارة والكاسب، بشرط ألا تشغله عن تكميل نسكه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾[البقرة:١٩٨] في هذا أن الوقوف بعرفة من أعظم شعائر الحج، لأن الله خاطب به جميع الحاج، وأخبر أنهم لابد أن يفيضوا منها، وهذا أحد أركان الحج الأربعة وهي: الإحرام الذي هو نية الدخول في النسك المذكور في قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ [البقرة:١٩٨] والوقوف بعرفة والطواف المذكور في قوله: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج:٢٩] خصه بالذكر لشرفه وأنه أعظم أركان الحج، ولأنه تُشترط له الطهارة دون بقية المناسك، ولأنه يتطوع به كل وقت، والسعي بين الصفا والمروة لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة:١٥٨] مع حث الله علىٰ تعظيم شعائر الدين،

---

(١) (القَعدة) و(الحِجة) يجوز في قاف الأولىٰ الفتح والكسر والأفصح فيها الفتح، والحجة يجوز فيها الكسر والفتح والأفصح فيها الكسر، فيقال ذو القَعدة وذو الحِجة في الأفصح.

فهذه أركان الحج والعمرة، إلا أن العمرة المفردة لا وقوف فيها بعرفة وتوابعها.

وفي الآية الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو مزدلفة، الواجب منه أن يدرك جزء من آخر الليل، أي: من النصف الثاني من ليلة النحر والأكمل المبيت بها، وبعد صلاة الفجر يقف عند المشعر ويهلل الله ويحمده ويستغفره حتىٰ يقارب طلوع الشمس.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩] يدخل في ذلك الرَّمي والنحر والحلق وطواف الإفاضة والسعي والمبيت بمنًىٰ ليالي أيام التشريق، كما عرف ذلك من هديه ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم»، كما أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ [الحج:٢٩] يشمل جميع ما شُرع في الحج من الأركان والواجبات والسنن.

وقد أمر تعالىٰ بكثرة ذكره واستغفاره عند كمال النسك، ختمًا لهذا النسك بالتوبة والاستغفار، وشكرًا لنعمةِ الله علىٰ تكميله، وأمر بذكره في الأيام المعدودات وهي أيام التشريق، وأباح التعجل في يومين بأن يرمي ثاني أيام التشريق الجمرات الثلاث، ثم ينفر من منىٰ قبل غروب الشمس، فإن غربت وهو في منىٰ تعين عليه المبيت تلك الليلة والرَّمي للجمرات الثلاث من الغد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] فيه مشروعية ركعتي الطواف وأنَّ الأفضل أن يكونا خلْف مقام إبراهيم.

هذه الجملة التي ذكرها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابعةٌ للقول فيما ذكره تحت ترجمة قال فيها: (**أحكام المناسك**) وهي مندرجة في النوع الثالث من أنواع العلوم القرآنية وهي بيان القرآن للأحكام الشرعية المتعلقة بالطلب أمرًا ونهيًا وإباحة.

وقد ذكر فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القرآن الكريم انتظمت فيه أحكام أخرىٰ من أحكام المناسك فقال: (**وفيها**) أي: في الآيات المتقدم ذكر طرف منها من سورة البقرة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ (**فيها دليل علىٰ مشروعية سَوق الهدي من الحل**)؛ لأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لما ذكر إحصارهم أمرهم بأن يذبحوا ما معهم من الهدي، فذلك دالٌّ علىٰ أن الهدي الذي ساقوه إنَّما كان من الحل؛ لأن إحصارهم يكون عن الحرم، والأصل في الهدي الكامل أنْ يكون مساقًا من الحل إلىٰ الحرم، فإذ اشتراه الإنسان من الحرم وجعله هديًا له جاز ذلك؛ لكن الأكمل في الهدي سوقه من الحل للحرم بأن هذا من تعظم الحرم، فمن تعظيم الحرم سَوْق الهدي إليه، وهو الذي صنعه النبي ﷺ، فإنه ساق

الهدي فيما ساقه من قبل ﷺ من خارج الحرم، والأكمل في أحكام الحج قدر المستطاع أن يجمع فيها بين الحل والحرم، ولذلك فإن المكِّي أمر بالخروج لعمرته إلىٰ الحل ليكون محصِّلًا في أحكام مناسكه بين الحل والحرم مساويًا في ذلك للآفاقيّ.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ويؤخذ مشروعية تقليده من قوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾**)؛ لأن الله ذكر القلائد وصفًا لذلك الهدي، فتقليد الهدي بقلادة كما فعل النبي ﷺ ممَّا هو مشروع مدلولٌ عليه بهذه الآية.

ثم قال: (**وأنَّ العمرة تندرج في الحج**)؛ لأن أصل الآيات اللواتي نزلت نزلت في عمرته ﷺ، فدلَّ نزولها وابتداءُ ذكر الآيات بذكر الحج علىٰ اشتراكهما، ولأجل هذا شاع في كلام الصَّحابة ومن بعدهم تسمية الحج بالحجِّ الأكبر، وتسمية العمرة بالحج الأصغر؛ فهذا يدل علىٰ اشتراكهما في الأحكام ما لم يأت دليل يفرِّق بينهما، والقول فيهما كالقول في القاعدة المشهورة عند جماعة من الفقهاء القول في صلاة التطوُّع كالقول في صلاة الفرض، فما صح في هذه صح في هذه، ويقال كذلك: الأصل في العمرة من الأحكام أن تكون كأحكام الحج وأحكام الحج كأحكام العمرة إلا ما جاء الدليل علىٰ التفريق بينهما.

ثم قال: (**وتكون أفعالهما جميعًا والحل منهما جميعًا، وأوجب الله علىٰ المتمتِّع ما استيسر من الهدي**) والمتمتِّع اسمٌ لمن أشرك في نُسكه بين الحج والعمرة، فإذا أشرك في نُسكه بين الحج العمرة سمي متمتعًا سواء أحلَّ بينهما وهو الذي خُصّ باسم التمتع عند الفقهاء أو لم يحل بينهما وهو الذي خص باسم القارن، فالتمتع في خطاب الشرع اسمٌ لما يشمل المتمتع والقارن في عُرف الفقهاء، لأن موجب كونه تمتعًا أن العرب كانت ترىٰ أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، فلم يكونوا يأتون بعمرة مع حجهم، فلما أبيح لهم ذلك صار متعة وسعة لهم يتمتعون بها فإذا جمع بين النسكين العمرة والحج بالتمتع والقران سمي ذلك كله تمتعًا في عرف الشرع.

ثم بيَّن أن ما استيسر من الهدي (**هو ما يجزي في الأضحية**) لأن القول في الذَّبائح واحدٌ، وأحكام الذبائح جاءت مبيَّنة في الشرع علىٰ وجه التمام في باب الأضاحي، فما لم يبيَّن حمل علىٰ ذلك الباب، فقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ يعني المعروفِ شرعًا، فتكون (أل) في الهدي عهدية أل للمعهود حكمه سنًا ووصفًا في باب الأضاحي مما جاء نعته في السُّنّة النبوية، وبين أن المجزئ في ذلك (**شاةٌ من جذَع ضان**) والجذع ما بلغ ستة أشهر، والضان والثني ما بلغ سنة كاملة، (**أو سبع بدنة، أو سبع بقرة**) مما يشارك غيره غيره في بدنة وهي الناقة أو بقرة فيجب عليه السبع (**فمن لم يجد ذلك فعليه صيام

ثلاثة أيام في الحج لا يتجاوز بها أيام التشريق الثلاثة) وهي الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، فيصومها قبل ذلك، وإن ضاق به المقام صامها في أيام التشريق.

قال المصنِّف: (**وقد أباح الشارع صيامها في هذه الحال فقط**) فإن أيام التشريق لا يجوز صومها إلا لمن لم يجد الهدي فإنه يصومهن حينئذٍ؛ كما جاء في حديث ابن عمر وعائشة في الصحيح، وقوله رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: (**لا يتجاوز بها أيام التشريق**) أي: يصومها قبل ذلك، فإن جاوز بها أيام التشريق، فعند جماعة من الفقهاء وهو المذهب تجب عليه فدية، والصَّحيح عدم وجوب الفدية عليه.

ثم قال: (**وسبعة إذا رجع**) أي: إذا رجع إلىٰ أهله، (**وإنَّما يجب الدم أو بدله علىٰ من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام**) وحاضري المسجد الحرام هم المقيمون فيه المقيمون عنده من أهل مكة؛ (**لأنَّ من الحكمة في وجوب الهدي أو بدله الشكر لله علىٰ نعمة حصول النسكين في سفر واحد، ومن كان أهله في مكة أو قربها لم يكن عليه شيء**)؛ لأنه حاضر للمسجد الحرام فلا تتجلَّىٰ عليه نعمة كونه وصل إلىٰ البيت الحرام، ومقصودُه رَحِمَهُ اللهُ في قوله: (**أو قربها**) يعني من القرىٰ القليلة التي كانت فيما قبل قريبة من البلد الحرام، لأن مكة حينئذ كانت لا تكاد تجاوز مواضع الحرم منها، وكانت حولها قرًىٰ قريبة فتكون ملحقة بها، أما ما بُعد عنها وإن كان دون الميقات فهذا لا يكون من حاضري المسجد الحرام.

ثم قال بعد ذلك: (**ومفهوم الآية أنَّ المفرد للحج ليس عليه هديٌ، وأما القارن فإنَّه داخل في المتمتع**)؛ لأنه قد انتفع بالسعة في الجمع بين نُسُكين (**ولا بد أن يقع إحرام النسكين في أشهر الحج وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة**) في أحد قولي أهل العلم، والقول الآخر: أنَّ أشهر الحج هي شوال، وذو القعدة، وعشر ذو الحجة، والصحيح الأول. ثم قال: (**وأرشد الله من فرض فيها، أي: أوجب فيهنَّ الحج ألا يرفث**) فإذا دخل الإنسان في نُسكه من حج أو عمرة فقد وجب عليه ألا يرفُث، والرفث الوطء وهو الجماع ومقدماته المقربة منه.

ثم قال: (**لأنَّ الوطء مفسدٌ للنسك ومقدماته منقصةٌ له**).

ثم قال: (**ولا يفسق ويشمل ذلك جميع المعاصي**) ولا ريب أن اسم الفسوق باعتبار الوضع اللغوي دال علىٰ شمول جميع المعاصي لكن باعتبار الوضع الشرعي فإنه يقع علىٰ معنيين عام وخاص:

فالعام المعاصي كلُّها.

والخاص الكبائر منها.

والدليل علىٰ ذلك قول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحُجُرات:٧]، فإنَّ هذه

الآية من سورة الحجرات دلت علىٰ أن المعاصي تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذنوب المكفّرة؛ وتسمَّىٰ الكفر.

والثاني: الذنوب التي تكون كبائر؛ وتسمىٰ فسوقًا.

والقسم الثالث: الذنوب التي لا تبلغ الكبيرة والكفر؛ وتسمىٰ عصيانًا.

فما جاء من قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ وفي الحديث «فلم يرفث ولم يفسُق»، الأشبه أن الفسق المتأكد هاهنا هو الكبائر، وإن كانت المعاصي في أصلها ممنوعًا منها؛ ولكن مفارقة العبد للمعصية لا تكاد تُتصوَّر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ كتب علىٰ بني آدم ملازمتهم للخطيئة؛ كما في الحديث القدسي في «صحيح مسلم»: «يا عبادي إنكم تذنبون بالليل والنهار» فلا يتصور وجود حاج لا يعصي الله عَزَّوَجَلَّ صغيرة، ولو قُدِّر ذلك لم يكن آدميًا، فالأشبه أن الفسوق الذي علقت به الآية والحديث هو فسوق الكبائر، وإن كان الحاج وغير الحاج منهيين عن مقارفة المعاصي كلِّها صغيرها وكبيرها.

ثم قال: (**وأما الجدال فهو المخاصمة والمنازعة وكثرة الجدال**) وهي فيما لا ينفع في الصحيح، أما إذا كان نافعًا فلا يمنع منه، فالجدال المنهيُّ عنه هو الجدال الذي لا ينفع، وخاصَّةً في أحكام الحج، ويبين ذلك قراءة ابن كثير وغيره ﴿وَلَا جِدَالُ﴾ بالرفع، فإنها تدل علىٰ إرادة جدال مخصوص، وهو الجدال في أحكام الحج، ويلحق بها ما كان من جنسها وإنَّما نهي عن المخاصمة بأحكام الحج لأنها جاءت مبينة موضحة لا تحتاج إلىٰ زيادة بيان، فما كان من جنسها في الشرع فإنه ينهىٰ عن البحث فيه، أما إذا كان الجدال نافعًا فإنه يجوز في الحج.

ثم قال: (**لأنَّ هذه الأمور تشغل العبد عما هو بصدده من النسك**).

ثم قال: (**ولما نهىٰ عما ينافي النسك وينقصه أمر وحثَّ علىٰ كلِّ ما يكمِّله من أفعال الخير كلِّها؛ فقال: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:١٩٧]...**) إلىٰ آخره.

ثم قال: (**وأباح تعالىٰ للحاج والمعتمر الاشتغال بالتجارة والمكاسب، بشرط ألا تُشغله عن تكميل نسكه**) لأن مقصوده بالخروج إلىٰ هذه المواضع هو أداء نُسك الحج، فلا ينبغي أن يتعاطىٰ شيئًا يشغله عن تكميل نسكه.

ثم قال: (**وقوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ في هذا أنَّ الوقوف بعرفة من أعظم شعائر الحج**) لأنه ركنه الأعظم، (**وأنَّ الله خاطب به جميع الحاج، وأخبر أنَّهم لا بد أن يفيضوا منها**) وكانت قريشٌ لا تفيض منها ولا يقفون بعرفات، ثم جاء الشرع بردِّهم إلىٰ ما كان عليه أبوهم

إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: (وهذا أحد أركان الحج الأربعة وهي: الإحرام الذي هو نية الدخول في النسك المذكور في قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ والوقوف بعرفة والطواف المذكور في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾) أي: طواف الحج المسمىٰ بطواف الإفاضة (خصَّه بالذكر لشرفه وأنَّه أعظم أركان الحج، ولأنَّه تُشترط له الطهارة دون بقية المناسك) في قول جمهور أهل العلم، وهو مذهبُ الأئمة الأربعة، ثم قال: (ولأنَّه يُتطوَّع به كلَّ وقت) أي: الطواف بخلاف غيره من أفعال الحج كالسعي أو كالوقوف بعرفة أو كالمبيت بمنىٰ فإنه لا يُتعبَّد بها.

ثم قال: (والسعي بين الصفا والمروة) وهو الركن الرابع (لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ مع حثِّ الله علىٰ تعظيم شعائر الدين. فهذه أركان الحج والعمرة، إلا أنَّ العمرة المفردة لا وقوف فيها بعرفة وتوابعها) فصارت العمرة ناقصة عن هذه الأركان الأربعة، فأركانها: إحرام، وطواف، وسعيٌ في قول جمهور أهل العلم.

ثم قال: (وفي الآية الأمر بذكر الله عند المَشعر الحرام وهو مزدلفة) فإنَّ المشعر الحرام في أصح قولي أهل التفسير لا يختصُّ بالموضع الذي وقف عنده النبي ﷺ، ولا بالمسجد الذي اتُّخذ قريبًا منه، وإنَّما يشمل مزدلفةَ كلَّها، فمن وقف في مزدلفة وبات فيها ذكر الله ﷻ فيها كان ذاكرًا الله ﷻ في المشعر الحرام.

ثم قال: (الواجب منه أن يُدرك جزء من آخر الليل، أي: من النِّصف الثاني من ليلة النحر والأكمل المبيت بها) أي: تلك الليلة، (وبعد صلاة الفجر يقف عند المشعر) يعني في مزدلفة (ويهلل الله ويحمده ويستغفره حتىٰ يقارب طلوع الشمس) فيغلِّس بصلاة الفجر ليفرغ بعد ذلك للذِّكر والدُّعاء، ويذكر ويدعو في أي مكان بمزدلفة؛ لأنَّ اسم المشعر الحرام يشملها.

ثم قال: وقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ يعني أكملوا حجكم من حيث اعتاد الناس إكمال حجهم، لأن إحكام الحج لا تختص بالعرب الذين بعث إليهم النبي ﷺ؛ بل كانت شعيرة ظاهرة تناقلتها أمم الأرض بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ثم قال: (يدخل في ذلك الرمي والنحر والحلق وطواف الإفاضة والسعي والمبيت بمنىٰ ليالي أيام التشريق، كما عرف ذلك من هديه ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم») أي: كما عرف ذلك من فعله ومن قوله في حديث «خذوا عني مناسككم»، وهو في مسلم بلفظ «لتأخذوا عني مناسككم»، أما «خذوا»

فإنَّما هو عند البيهقي وغيره، والأوَّل هو المحفوظ.

ثم قال: (**كما أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ يشمل جميع ما شرع في الحج من الأركان والواجبات والسنن**) لأن الله أمر بقضائها وأوجب الوفاء بها، وفي هذا إنباه إلىٰ أن الذي ينبغي أن يتعاطاه العبد من العمل في الحج هو الكامل، وليس الأيسر، وإنَّما الذي يتعاطاه الإنسان هو الكامل شرعًا، الكامل شرعًا هو المعدود شرعًا في الأيسر؛ لكن ما كان فيه رخصة فهذه رخصة أرخصها الله ﷻ، فمثلًا من لم يجد هديًا فأراد أن يصوم ثلاثة أيام في الحج فالأكمل له أن يكون صيامه علىٰ الوجه الأكمل بأن يصومها قبل أيام التَّشريق لكن إن ضاق عليه الوقت فلم يجد إلا أيام التشريق فذلك رخصة أرخص الله ﷻ له فيها، فيكون الأصل أن يَتطلّب العبد الإتيان بالحج علىٰ أكمل الوجوه المقدَّرة شرعًا، ثم ما صادف رخصة شرعية استباحها، وأما ما تجاوز ذلك من غثاثات الرخص والأقوال الضعيفة في مناسك الحج فهي أولىٰ بالاطِّراح، ولذلك جاء الحج مبيَّنًا أتم البيان، وقد وعاه الصحابة عن النبي ﷺ ونقلوا أحكامه ظاهرة بينة، وجيء بآية في القرآن تنهىٰ عن المخاصمة فيه؛ فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ والقراءة الأخرىٰ بالضم ﴿وَلَا جِدَالُ﴾ وهي محمولة علىٰ جدال مخصوص، وهي الجدال في الحج، فتلمُّس المسائل الضعيفة والأقوال الشاذة دال علىٰ وهن الديانة، وقلة الورع في الناس، حتىٰ صاروا يلتمسون مثل ذلك، وروَّجوا لها باسم السعة والتيسير، وكل ذلك مما لا يليق في مقام يتطلب فيه الناس كمالَ العبادة، لكن النفوس ضعُفت عن أحكام الشريعة فصارت تطلب موافقة الأهواء ولا يقال هذا الأمر بشيء يجعله الإنسان نفثةَ مصدور ولكنه الحق، فطالما سمعنا فيما سلف الجهاد وفلسطين ثم ذهب الجهاد وفلسطين وترك ذلك الحنين، وكأن الجهاد ليس من أحكام الشرع، ولا أدل علىٰ وقوع الأهواء في ترويج بعض أحكام الشرع من وجود أمر يشاع في الشرع مرة ثم ينسىٰ في وقت آخر والدين واحد، والله ﷻ أمر بأن نأخذ الدين كله وأن نمتثل حكم الشرع كله، فالواجب علىٰ الإنسان أن يلتزم قدر المستطاع بالشَّرع، وأن يحث الناس علىٰ التمسك به، وأمَّا إضعافه في نفوسهم وتطلُّب الأقوال الضعيفة فهذا مما يزيد ضعف الدين في الناس حتىٰ تُغَيِّر الشرائع وتبدل، ولا أدل علىٰ ذلك من طيِّ شيء من أحكام الشرع بأمور أخرىٰ، فزكاةُ الفطر صارت مالًا يدفع تبعًا لبعض الأقوال عند الفقهاء، ولا يدري عنها الإنسان، ثم صارت كذلك الأضحية مالًا لا يكلِّف الإنسان نفسه إلا الضرب علىٰ أزرار حوالة مالية في بنك وهكذا لم تعد لهذه الأحكام ظهور في الشرع، فإذا ذهبت أحكام الشرع من قلوب الناس ذهب الشرع من الناس، والواجب علىٰ الفقيه العارف بما يصلح به

الناس أن يحثَّهم علىٰ ما أمر به الشرع، وأن يحملهم علىٰ ذلك، وليس معنىٰ هـذا التَّشـديد علـيهم، فـإن هذا الذي يُذكر هو المشهور في كلام الفقهاء، فلو قُدِّر أن مسألة من المسائل فيها نـزاع بـين الفقهـاء فـإن الأكمل في عبوديات الخلق حملهم علىٰ القول المشهور الأقوىٰ، فهذا أورع لهم في ديـنهم وأتـم لهـم في إيمانهم، أما إذا أُضعف إيمانهم بحملهم علىٰ الأقوال الضعيفة فإنه يـذهب الـدِّين مـنهم بالكليـة، وهـذا معنىٰ ما يذكره جماعة من أهل العلم من أن النوافل حجاب للفرائض، فإذا هتك سـتار النوافـل وأهملهـا الإنسان لحقت بها الفرائض، فكذلك إذا أهملت المسائل العظـام الكبـار في الـدين لحقهـا مـا بقـي مـن الدين.

ثم قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**وقد أمر تعالىٰ بكثرة ذكره واستغفاره عند كمال النسـك، ختمًـا لهـذا النسك بالتوبة والاستغفار، وشكرًا لنعمةِ الله علىٰ تكميله، وأمر بـذكره في الأيـام المعـدودات وهـي أيـام التشريق، وأباح التعجُّل في يومين بأن يرمي ثاني أيام التشريق**) وهو الثاني عشر (**الجمرات الثلاث، ثم ينفِرَ من منىٰ قبل غروب الشمس**) كما صح ذلك عن ابـن عمـر عنـد مالـك في «مُوَطَّئِـه»، فـإذا غربـت عليـه الشمس وهو لم يخرج من منىٰ فإنه يبقىٰ إلىٰ اليوم الأخير كما قال المصنِّف: (**فـإن غربـت وهـو في منـىٰ تعيَّن عليه المبيت تلك الليلة والرمي للجمرات الثلاث من الغد**) وهذا القول هو المعروف عن الصـحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم قال: (**وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة:١٢٥] فيه مشروعية ركعتي الطواف وأنَّ الأفضل أن يكونا خلف مقام إبراهيم**) لا علىٰ دلالة هذه الآية وإنَّما علىٰ فعله ﷺ، وأما هذه الآيـة وهـي ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ فهي في أصح قولي أهل العلـم بالتفسير: اتخـذوا مـن المقامـات التـي اتخذها إبراهيم شعائر في الحج مقامات لكم في الـدُّعاء والعبـادة، فيشـمل جميـع أحكـام الحـج، ومـن جملتها الركعتين؛ لكن دُل علىٰ هاتين الركعتين بخصوصهما بفعله ﷺ في الصحيح في حديث جابر عنـد مسلم، وقراءته هذه الآية، وأنَّها مما يندرج فيه هذا المعنىٰ، فيصلي الإنسان ركعتـين أفضـلهما أن تكـون خلف مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومقام إبراهيم ليس هو اليوم في الموضع الذي كان عليـه قبـل، فالموضع الذي كان عليه قبل، كان بجوار الكعبة، وأما الموضع الذي هو فيه اليوم فهو بعيد عن الكعبـة، فبعض الناس يظن أنه إذا صلىٰ أمامه لم يكن مصليًا بعده، فالصحيح أنه إذا صلىٰ أمامه صار مصليًا بعـده إذا صار بعيدًا عن الكعبة، فإنه كان لاصقًا بالكعبة، ثـم أبعـد منهـا، فـالحكم الشـرعي متعلـق بموضـعه القديم لا بموضعه الجديد، فإذا صلىٰ الإنسان خلف مقام إبراهيم حيث كان ذلك المقام ملاصقًا للكعبة

من هذه الجهة فإنه يكون قد أصاب السنة، فيكون المراد بمقام إبراهيم حينئذ الجهة التي كان المقام فيها ملاصقًا للكعبة من جهتها، فإذا صلىٰ حينئذ في تلك الجهة ولو أمام مقام إبراهيم في الموضع الموجود اليوم فإنه يكون قد أصاب السنة التي كان عليها النبي ﷺ.

وهذا آخر بيان لهذه الجملة من الكتاب.

وبالله التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

أحكام الذبائح من الهدايا والضحايا

قال تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج:٣٦]، وقال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات]، وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣].

ففي هذه الآيات الأمر بالذبح لله وحده علىٰ اسمه وأمر بإخلاصها لله وحده، والذبح الذي هو عبادة الهدايا للبيت الحرام الشامل للواجب منها والمستحب، والأضاحي في عيد النحر في جميع الأقطار اقتداء بإبراهيم ومحمد ﷺ، وأخبر تعالىٰ أنَّ فيها خيرًا للعباد. وهذا شامل للخير الديني وهو التقرب بها إلىٰ الله، وحصول الحسنات ورفعة الدرجات، وتكفير السيئات وتكميل النسك وللخير الدنيوي. ولهذا أمر بالأكل منها والإطعام، فيشترك في الانتفاع بها الأغنياء والفقراء.

وقد بيّنت السنّة أنّها لا بد أن تكون من الأنعام الثلاثة، وأن تكون كاملةً في أسنانها وسالمة من العيوب، كما هو مفصّل في السنّة.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمة أخرىٰ من التراجم المنطوية تحت النوع الثالث من علوم القرآن وهو علم الأحكام في العبادات والمعاملات والمواريث وغيرها، وترجم له بقوله: (**أحكام الذبائح من الهدايا والضحايا**).

ثم ذكر جملة من الآي القرآنية متفرقة المواضع المبينة لأحكام الذبائح من الهدايا والضحايا. ثم قال: (**ففي هذه الآيات الأمر بالذبح لله وحده علىٰ اسمه وأمرٌ بإخلاصها لله وحده**) ثم قال: (**والذبح الذي هو عبادةُ الهدايا للبيت الحرام الشامل للواجب منها والمستحب، والأضاحي في عيد النحر في جميع الأقطار اقتداءً بإبراهيم ومحمد ﷺ**) وهذان نوعان من أنواع الذبائح المتعبد بها، ولم يحصر

المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جميع الذبائح الشرعية.

والذبائح التي يتقرب بها إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادة نوعان:

النوع الأول: الذبائح المطلقة، وهي التي خلت من سبب خاص يقتضيها؛ بل يذبحها العبد تقربًا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسفك الدم.

والآخر: الذبائح المقيدة، وهي ذوات الأسباب المقتضية لذبحها، وأنواعها خمسة:

فأولها: الهدي.

وثانيها: الأضحية.

وثالثها: العقيقة.

ورابعها: الفِدية.

وخامسها: النَّذر المُعيَّن.

فالذبائح المتعبد بها قربة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ لا تخرج عن هذه الأنواع التي عددنا إما في حال التقييد أو في حال الإطلاق.

فإن قال قائل: أين ذبيحة الضيف؟ ليست في هذه، ما الجواب؟

الطالب:....

الشيخ: في ذاتها ولا في سببها؟ يعني ذبيحة الضيف ما مخرجها؟ يعني المقصود بها إكرامه، ذبيحة الضيف صارت عندنا عرف تبعًا للإكرام إكرام الضيف، فهي ليس متعبدًا بتعيينها قربة خالصة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فذابحها لا يذبحها تقربًا إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ إرادة سفك الدم وإنَّما يذبحها تقربًا إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ امتثالًا بأمر الشَّرع بإكرام الضيف، وقد يكون بذبيحة وقد يكون بغير ذبيحةٍ.

ثم بين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أن فيها خير للعباد.

ثم ذكر أن هذا الخير شاملٌ للخير الديني والخير الدنيوي، ففيها أنواعٌ كثيرة من الخير، والدال علىٰ كثرة ذلك الخير أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج:٣٥] ومن مقاصد النَّكِرة بكلام العرب التكثير، فأُتي بالنكرة للدلالة علىٰ كثرة ما فيها من أنواع الخير في الدنيا والآخرة، والعاجل والآجل.

ثم قال: (**وقد بيّنت السنّة أنَّها لا بد أن تكون من الأنعام الثلاثة**) الإبل، والبقر، والغنم (**وأن تكون كاملةً في أسنانها وسالمة من العيوب، كما هو مفصّل في السنّة**) وهذا كالتتمة لكلامه الذي احتيج إلىٰ ذكره رغبةً في تكميل الأحكام المذكورة، فإنَّ المذكور هنا من الفصيل خارج عما في القرآن الكريم، بل

مما جاء في السنة النبوية، وأورده المصنِّف زيادة تتميمًا للأحكام.

أحكام الجهاد وتوابعه

كم في كتاب الله من الآيات المتعلقة بالجهاد أمرًا به، وحثًّا عليه، وبيانًا لفضله، وفضل أهله وكمالهم، وكثرة ثوابهم، وعلو درجاتهم، وذكر ثمراته الجميلة، ونَهْيًا عن ضده، وبيان ما علىٰ المتقاعدين عنه من النقص العظيم والعقوبات الدنيوية والأخروية، وكم فيه من ذكر مضاعفة النفقة فيه وأنَّها من أعظم الجهاد.

والجهاد نوعان:

جهاد الدعوة إلىٰ دين الإسلام، والتحذير من الأديان الباطلة، وهذا مفروض منذ ابتدأت الرسالة، وهو فرض في كلِّ وقت بما يناسب الوقت ويليق به. قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان]، أي: جاهد أهل الباطل كلَّهم بالقرآن، فهذا فرض عين علىٰ كلِّ مسلم أن يقوم بما يقدر عليه ويعلمه، وعلىٰ أهل العلم من ذلك ما ليس علىٰ غيرهم، لأنَّ معهم السلاح التام الحقيقي لهذا الجهاد، وهو العلم الذي خلاصته وروحه شرح ما في دين الإسلام من المحاسن والمزايا والفضائل شرحًا يطابق الواقع، فإنَّه إذا شُرح علىٰ هذا الوجه وبُيّنت محاسنُه وفضائله قَبِلَه كلُّ منصف قصده الحق، وكان أيضًا ذلك قامعًا للمبطلين الملحدين الذين ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢﴾ [التوبة].

ثم الموازنة بين عقائده وأخلاقه وفضائله وأعماله وبين غيره، فعند ذلك يتضح الفرق العظيم.

ثم إبداء براهين رسالة محمد ﷺ الكلية والجزئية، وصدقه وصدق ما جاء به من الحق الذي هو الكتاب والسنّة. فهذه الأصول بيانها بحسب الإمكان هو أكبر الجهاد، وهي أعظم الطرق التي دعا عباده بها إلىٰ دينه، وأمر نبيَّه ومن قام مقامه أن يدعو بها.

النوع الثاني: الجهاد باليد والسِّلاح، فهذا فرض كفاية قتال الكفار المحاربين، وقد يكون فرض عين إذا حضر الزحف، وإذا حصر بلده عدو وإذا استنفره الإمام أو من قام مقامه، كما نص الله علىٰ ذلك نصًّا يدل علىٰ فرضيته وتعيّنه.

والجهاد باليد والسلاح يتبع المصلحة، كما كان هدي النبي ﷺ هادن ووادع حيث كانت المصلحة،

وحارب حيث اقتضت المصلحة. فعلىٰ المسلمين أن يسلكوا هديه ويتشاوروا في أمرهم، ويعملوا في كلِّ وقت ما يناسبه ويصلح له. وقد أمر الله بالتثبت في الأمور كلِّها، وخصوصًا في أمور الجهاد وتولية الأكمل والأمثل من الرجال في الولاية الكبرىٰ، وفي ولايات الجيوش والسرايا وغيرها، فإنَّها من أعظم ما يدخل في الأمانات التي أمر أن تؤدىٰ إلىٰ أهلها. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال]. فهذه التعاليم العالية من الله لعباده في جهاد الأعداء، متىٰ استرشدوا بها تمَّت أمورهم. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء:٧١]. فهذه الآيات دخل فيها فعل جميع الأسباب، واستعمال جميع القوة المقدورة، والأخذ بالحذر من الأعداء، فجميع علم السياسة يرجع إلىٰ هذين الأصلين الاستعداد بالمستطاع من القوَّة للأعداء، بحسب الزمان والمكان والحال، واستعمال الحذر من مكر الأعداء وخداعهم وطرقهم ومسالكهم والتوقِّي من شرورهم مع التوكل علىٰ الله كما أمر الله بذلك كلِّه. وقد ندب الله إلىٰ السِّلم إذا جنح إليه الأعداء، مع التوكُّل عليه وأخذ الحذر، كما أمر بقتال أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وأمر بالأسر عند الإثخان في العدو، ثم الوالي مخيَّرٌ بين المنِّ علىٰ الأسرىٰ، أو فدائهم بمال، أو أسير مسلم، أو قتلهم، أو رقهم.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ ترجمة أخرىٰ من التراجم التابعة لما جعله نوعًا ثالثًا من أنواع علوم القرآن وهو علم الأحكام فقال: (**أحكام الجهاد وتوابعه**).

وبين رَحِمَهُ اللَّهُ أن القرآن الكريم مملوء بالآيات الآمرة به والحاثة عليه المبينة فضله وفضل أهله وكثرة ثوابهم وعلو درجاتهم، وذكر ثمرات الجميلة ونهيًا عن ضده وبيان ما علىٰ المتقاعدين عنه من النقص العظيم والعقوبات الدنيوية والأخروية، وكم فيه من ذكر مضاعفة النَّفقة فيه وأنها من أعظم الجهاد، فبابُ الجهاد من الدين بابٌ عظيم، وقد ألحقه بعض الفقهاء رحمهم الله تعالىٰ بأركان الإسلام، ولم تزل العادة جاريةً عند متأخري الحنابلة علىٰ إلحاقه بربع العبادات، فإنهم إذا صنَّفوا كتابًا في ربع العبادات التي آخرها الحج ألحقوا بها كتاب الجهاد تنبيهًا إلىٰ علو شأنه وأنه جار مجرىٰ هذه الأركان العظيمة من أركان الإسلام العملية الصلاة والزكاة، والصيام، والحج، وهذا الباب العظيم وهو باب الجهاد لا يفقهه الإنسان كما يفقهه إذا صدق في نيَّته وصرف همته إلىٰ تفهم أحكامه من الكتاب والسنة، فخلّص نفسه من الهوىٰ، فإن من أركب نفسه هواها أضاعته في طغيان الهوىٰ سواءً في تصوير الجهاد علىٰ غير صورته كما

آل إليه حال بعض الناس، أو في جعله فوق المأذون به شرعًا، فالناس في هذا الباب بين غلاةٍ وجفاة، والحق الحقيق اتباع الكتاب والسنة في معرفة أحكامه والاطلاع علىٰ جميع أنواعه وإعمال النفس في إصابة حظٍّ منها، ومن أحسن الناس كلامًا علىٰ الجهاد وبيان أحكامه أبو عبد الله ابن القيم في «زاد المعاد» فإنه استوفىٰ في أول كلامه علىٰ مغازي النبي ﷺ أنواع الجهاد والأعداء الذين يُؤمر بجهادهم، فلا غُنية لطالب العلم عن الاطلاع عن كلامه وحسن تفهمه، ومن جملة مشكلاته ما ذكره المصنِّف هاهنا إذْ بين أن الجهاد نوعان فقال:

(**الأول: جهاد الدعوة إلىٰ دين الإسلام، والتحذير من الأديان الباطلة**).

ثم ذكر الثاني فقال: (**الجهاد باليد والسلاح**).

وجماعهما أن يقال: إن النوع الأول هو جهاد الحجة والبيان، والنوع الثاني: جهاد السيف والسنان.

فالنوع الأول: يكون فيه بيان الإسلام وما له من محاسن وفضائل مع التحذير من الأديان الباطلة، وهذا النوع الأول مفروض منذ ابتدأت الرسالة وهو فرض في كل وقت بما يناسب الوقت ويليق به، فالأزمنة والأمكنة تختلف أحوالها وأحوال أهلها من زمن إلىٰ زمن ومن مكان إلىٰ مكان، فالمأمور به أن يتخذ الإنسان كل سبيل تكون في زمن ومكان ما يكون ملائمًا لأهل ذلك الزَّمان والمكان.

ثم ذكر من الدالِّ عليه من آي الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[النحل:١٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (فهذا فرض عين علىٰ كل مسلم أن يقوم بما يقدر عليه ويعلمه، وعلىٰ أهل العلم من ذلك ما ليس علىٰ غيرهم لأن معهم السلاح التام لهذا الجهاد وهو العلم الذي خلاصته وروحه شرح ما في دين الإسلام من المحاسن والمزايا والفضائل شرحًا يطابق الواقع) فإنه إذا بين الإسلام كما انتظم في أحكامه قبلته القلوب لأنه دين الفطرة وقمع كل باطل مخالف له كما قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[التوبة] وإتمام نور الله ﷻ يكون بشيئين:

أحدهما: إظهار الحق.

والآخر: محق الباطل.

فإن نور الله ﷻ إذا سطعت أنواره علىٰ القلوب والأرض فإن الحق يكون بينًا واضحًا جليًا لا يخفىٰ، ويُمحق الباطل ويردىٰ ويهلك أهله ودعاته.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من وجوه ذلك: (**الموازنة بين عقائده وأخلاقه وفضائله وأعماله وبين غيره، فعند**

ذلك يتضح الفرق العظيم) بين دين الإسلام وبين غيره من الأديان. وأن من ذلك (**إبداء براهين رسالة محمد ﷺ الكلية والجزئية، ودلائل صدقه وصدق ما جاء به، فهذه الأصول بيانها بحسب الإمكان هو أكبر الجهاد وهي أعظم الطرق التي دعا عباده بها إلىٰ دينه، وأمر نبيه ومن قام مقامه أن يدعو بها**) فمن أعظم الجهاد جهاد الحجة والبيان، بل ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا النوع الأول أعظم من النوع الثاني، وعلل ذلك بقوله: **"لأن القائم به قليل والمساعد عليه أقل"**، فالقائمون بجهاد الحجة والبيان في قرون الأمة من العلماء الصادقين هم قليل، والمساعدون من الخلق علىٰ نصرة هذا الجهاد قليل أيضًا، فإن الإنسان يهون عليه أن يحمل سلاحًا ويزهق نفسه أو نفس غيره في لحظات، لكن يشق عليه أن يرابط مدة مديدة لأجل معرفة الدين الذي جاء به النبي ﷺ تعلمًا ثم بثه بعد ذلك تعليمًا، فهذه المرتبة الأولىٰ وهي مرتبة جهاد الحجة والبيان مرتبة تحتاج إلىٰ مشقة أعظم من جهاد السيف والسنان الذي ذكره المصنِّف ثانيًا: فقال: (**النوع الثاني: الجهاد باليد والسلاح**) ثم قال: (**فهذا فرض كفاية قتال الكفار المحاربين، وقد يكون فرض عين**) أي علىٰ العبد (**إذا حضر الزحف**) أي وجد في الصف (**وإذا حصر بلده عدو وإذا استنفره الإمام أو من قام مقامه**) من نوابه (**كما نص الله علىٰ ذلك نصًا يدل علىٰ فرضيته وتعيّنه**) فقد يكون فرض عين في حال وقد يكون فرض كفاية في حال آخر.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والجهاد باليد والسلاح يتبع المصلحة، كما كان هدي النبي ﷺ هادَن ووادع حيث كانت المصلحة، وحارب حيث اقتضت المصلحة. فعلىٰ المسلمين أن يسلكوا هديه ويتشاوروا في أمرهم، ويعملوا في كلِّ وقت ما يناسبه ويصلح له**) فقد يكون جهاد السلاح والسيف في زمن بإمضائه وقد يكون بقاؤه بالهدنة والموادعة للكفار فيه، وذلك موكول إلىٰ أهل المعرفة بما تصلح به حال الناس في الدين والدنيا، ومن جميل كلام أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره صاحب الاختيارات مما مُحصَّله أن المتكلمين في الجهاد ثلاثة أنواع:

النوع الأول: من يعرف ما يصلح به الدين دون الدنيا، فهذا يصلح الدين ويفسد الدنيا.

والنوع الثاني: من يتكلم فيه ممن يعلم ما تصلح به الدنيا، فهذا يفسد الدين ويصلح الدنيا.

والنوع الثالث: من يتكلم فيه ممن يعلم ما به صلاح الدين والدنيا، فهذا هو الذي يصلح به في الجهاد الدين والدنيا معًا.

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن الناس أشتات علىٰ هذا النحو، فمنهم من يتكلم في الجهاد وهو يعرف ما يصلح به الدين غيرة وحماسة، ومحبة لنصرة المسلمين المستضعفين والرد علىٰ الكفرة المجرمين، وآخر يتكلم

فيه ويعرف ما تحفظ به البلاد والأرواح والأموال، وهذا كسابقه يفسد جانبًا ويصلح آخر.

وأما الذي يعرف ما به صلاح الدين والدنيا معًا فإنه يتكلم به علىٰ نحو يحفظ به حال المسلمين ويمكنهم من أعدائهم.

ثم قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقد أمر الله بالتثبت في الأمور كلِّها، وخصوصًا في أمور الجهاد وتولية الأكمل والأمثل من الرجال في الولاية الكبرىٰ، وفي ولايات الجيوش والسرايا وغيرها، فإنَّها من أعظم ما يدخل في الأمانات التي أمر أن تؤدىٰ إلىٰ أهلها**) لأن ولاية الناس في أمر الجهاد ولاية عظيمة إذ به سفك دماء وإزهاق أرواح، وإذهاب أموال فلابد أن يكون المتولي عليه أهلًا ويجب علىٰ غيره أن يكون سامعًا مطيعًا له لأن انتظام المسلمين وحفظ بيضتهم وتمكينهم من عدوهم لا يتأتىٰ إلا بمثل ذلك.

وليس الجهاد شهوة نفسانية وإنَّما هو حقيقة شرعية يجب أن يسلك فيها العبد ما أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، أما ما أمره به هواه فإنه يجعله وراءه ظهريًا كما قال سهل بن حنيف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيما رواه البخاري: **"أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتنا يوم أبي جندل لو استطعت أن أرد علىٰ النبي ﷺ لرددت"** يعني حينما رد النبي ﷺ أبا جندل علىٰ المشركين، فلما رأىٰ فعل النبي ﷺ وقع في نفسه أنه لو تمكن من رده لرد أمر النبي ﷺ، ومن لا يحيط بمآلات الأمور وما تكون له العقبىٰ في تصريف الأحوال يتعجل أشياء ثم تكون عاقبة الأمر علىٰ خلاف ما عليه، ومن سبر أحوال المسلمين في الماضي والحاضر وجد أكثر هلكتهم من هذا من تحكيم أهوائهم علىٰ أديانهم، والواجب علىٰ العبد أن يجعل الدين حاكمًا علىٰ هواه وألا يسترسل مع طِلبة نفسه ومحبتها؛ بل يمضي ذلك علىٰ نفسه ولو كرهت ولو أبت، وهذا من أعظم الجهاد، فليس الجهاد أن تُخرج هواك ثم تركبه؛ ولكن حقيقة الجهاد أن تذل نفسك بين يدي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن جاهد نفسه فإنَّما يجاهدها لأجل الله عَزَّ وَجَلَّ فسيهديه الله عَزَّ وَجَلَّ وستكون له العقبىٰ وكم من فتوىٰ رأىٰ الناس أنها في الجهاد علىٰ خلاف ما ينبغي فآل الأمر إلىٰ صوابها، وكم من مقالة ثارت حماسًا ثم انقلبت علىٰ خلاف ذلك في زمن ماضي كان من الناس من يكسر أعواد المنابر بضجيجه إذهابًا للنفوس وتحريكًا للقلوب علىٰ الجهاد، وهو اليوم يطأطئ رأسه ويصافح بيده أعداء الجهاد، وما هذا إلا من جناية الهوىٰ علىٰ العباد لما حكموه علىٰ نفوسهم فأجراهم مرة في مضمار، وأجراهم مرة أخرىٰ في مضمار، لكن من جرىٰ في مضمار الشريعة وحلبة الأثر وأعمل الدليل علىٰ نفسه وقاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهلكة.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينصر دينه، وأن يعلي كلمته، وأن يكبت أعدائه،

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب وبالله التوفيق.

Rules: ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال]. فهذه التعاليم العالية من الله لعباده في جهاد الأعداء، متىٰ استرشدوا بها تمت أمورهم، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء:٧١].

فهذه الآيات دخل فيها فعل جميع الأسباب، واستعمال جميع القوة المقدورة، والأخذ بالحذر من الأعداء، فجميع علم السياسة يرجع إلىٰ هذين الأصلين: الاستعداد بالمستطاع من القوة للأعداء، بحسب الزمان والمكان والحال، واستعمال الحذر من مكر الأعداء وخداعهم وطرقهم ومسالكهم والتوقي من شرورهم مع التوكل علىٰ الله كما أمر الله بذلك كلِّه.

وقد ندب الله إلىٰ السلم إذا جنح إليه الأعداء، مع التوكل عليه وأخذ الحذر، كما أمر بقتال أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وأمر بالأسر عند الإثخان في العدو، ثم الوالي مخيّر بين المنِّ علىٰ الأسرىٰ، أو فدائهم بمال، أو أسير مسلم، أو قتلهم، أو رقهم.

وذكر الأموال الشرعية ثلاثة أقسام:

أموال الزكاة، وتقدم أنها للأصناف الثمانية.

والغنيمة للغانمين تقسم أربعة أخماسها بينهم؛ للفارس علىٰ فرس عربي ثلاثة أسهم، وعلىٰ فرس هجين سهمان، وللراجل سهم والخُمُس الآخر يجعل لهؤلاء الذين سماهم الله ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١].

وأموال الفيء؛ كالجزية والخراج وخمس الخمس، والأموال المجهول أربابها وما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب يكون للمصالح كلِّها، ويبدأ منها بالأهم فالأهم، وأحكام الجهاد ومتعلقاته كثيرة في الكتاب والسنّة والله أعلم.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة آيًا أخرىٰ من آي القرآن الكريم التي انتظم فيها بيان أحكام من أحكام الجهاد وتوابعه هي متممة لما سبق ذكره في هذا الفصل المندرج في النوع الثالث من أنواع علوم القرآن وهو بيانه أحكام الطلب، فذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ جملة من الآي ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها أنها اشتملت علىٰ تعاليم عالية من الله لعباده في جهاد الأعداء متىٰ استرشدوا بها تمت أمورهم؛ لأن المنبِّئ بها هو العليم الخبير، فما أمر به وأرشد إليه هو الجواب الكافي والتِّرياق الشافي في هذا الباب، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيتين

عظيمتين في هذا هما قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾، فبين رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الآيات دخل فيها فعل جميع الأسباب واستعمال جميع القوة المقدورة، والأخذ بالحذر من الأعداء.

ثم قال: (**فجميع علم السياسة يرجع إلىٰ هذين الأصلين: الاستعداد بالمستطاع من القوة للأعداء، بحسب الزمان والمكان والحال، واستعمال الحذر من مكر الأعداء وخداعهم وطرقهم ومسالكهم والتوقي من شرورهم مع التوكل علىٰ الله كما أمر الله بذلك كلِّه**) ومراده رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (**فجميع علم السياسة**) أي المتعلقة بأمر الجهاد، لا يريد بذلك أمر السياسة كلها، والمراد بالسياسة تدبير أحوال الناس، وصار مخصوصًا عند الخلق بما يتعلق بولي الأمر في تدبير أمورهم، وأبواب ذلك متعددة ومن جملتها سياسة الجهاد، فسياسة الجهاد قَوامُها أصلان:

أحدهما: الاستعداد بالمستطاع من القوة.

والآخر: استعمال الحذر من مكر الأعداء.

فإذا استعد المسلمون بما يستطيعون من قوة وحذِرُوا أعدائهم وتحصنوا من غاراتهم كان ذلك من أعظم السياسات المتَّبعة في الجهاد، مع ملاحظة أن هذه الأمور لا تعدو أن تكون أسبابًا بيد الله، فلابد من التوكُّل، ومن مآخذ الفهم في القرآن الكريم كثرة اللَّهج بذكر التوكل عند ذكر الجهاد؛ لأن قوة الخلق علىٰ جهاد أعدائهم لا تكون إلا إذا كمُل توكلهم علىٰ ربهم، فإذا توكلوا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمدهم الله عَزَّ وَجَلَّ بقوة يغلبون بها أعداءهم.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الله (**ندب الله إلىٰ السلْم إذا جنح إليه الأعداء**) يعني ترك الحرب فإن المسالمة هي ترك القتال فيقال: السِّلم، والسَّلم، (**مع التوكل عليه وأخذ الحذر، كما أمر بقتال أهل الكتاب**) وهم اليهود والنصارىٰ (**حتىٰ يعطوا الجزية**) وهي مال مقدر يدفعونه (**عن يد وهم صاغرون**) يعني عن ذلة ورغام (**وأمر بالأسر عند الإثخان في العدو**) يعني عند الإبلاغ فيهم، فإذا أبْلَغ فيهم وعظُم مصابهم فإن من سياسة الجهاد إصابة الأسرىٰ منهم، (**ثم الوالي**) للمسلمين (**مخيّر بين المنِّ علىٰ الأسرىٰ**) يعني العفو عنهم، (**أو فدائهم بمال**) أي أن يدفعوا مالًا يستنقذون به أنفسهم أو مفاداتهم بأسير مسلم عندهم، فيرد هؤلاء إلىٰ الكفار، ويؤخذ من كان عندهم من أسرىٰ المسلمين، (**أو قتلهم**) يعني قتل أولئك الأسرىٰ (**أو رقِّهم**) بأن يجعلوا عبيدًا مملوكين للمسلمين.

ثم قال المصنِّف: (**وذكر الأموال الشرعية ثلاثة أقسام:**

أموال الزكاة) وهذا هو القسم الأول، (**وتقدم أنها للأصناف الثمانية**).

ثم ذكر القسم الثاني فقال: (**والغنيمة للغانمين**) والغنيمة **اسم لما كُسِبَ من مال المشركين في الحرب** (**تقسم أربعة أخماسها بينهم**) فيُجعل لهؤلاء الغانمين أربعة أخماس من الغنيمة، ويُجعل خمس في مصرف آخر يأتي، ثم بين كيفية قسمة الأربعة الأخماس فقال: (**للفارس علىٰ فرس عربي ثلاثة أسهم، وعلىٰ فرس هجين**) أي ليس بعربي (**سهمان، وللراجل**) الذي ليس علىٰ فرس (**سهم، والخُمُس الآخر يجعل لهؤلاء الذين سمّاهم الله**) عَزَّوَجَلَّ يعني في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١].

ثم ذكر القسم الثالث فقال: (**وأموال الفيء كالجزية والخراج**) **والخراج** اسم لما يؤخذ علىٰ الأرض التي تُستغل من الأرض التي تفتح عَنوة أي قهرًا، ولم يتقسم بين الغانمين، فإذا كان المسلمون قد أصابوا أرضًا عَنوة وقهرًا لأهلها ولم تقسم بين الغانمين، فيؤخذ علىٰ من انتفع بأراضيها خراج، (**وخمس الخمس، والأموال المجهول أربابها**) يعني أصحابها، (**وما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب**) أي: لم يعدو عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، **والإيجاف** اسم لسير الإبل والخيل، (**يكون للمصالح كلِّها**) فما كان من أموال الفيء مما ذكره المصنِّف يكون في مصالح المسلمين العامة، ويوكل ذلك لولي الأمر أو من ينيبهم في ذلك (**ويبدأ منها**) يعني من مصالح المسلمين (**بالأهم فالأهم**).

ثم قال المصنِّف: (**أحكام الجهاد ومتعلقاته كثيرة في الكتاب والسنّة والله أعلم**) وقد أحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بختم هذا الفصل من هذا النوع بالتنبيه إلىٰ أن أحكام الجهاد ومتعلقاته كثيرة في الكتاب والسنة، فمن التمسها في القرآن والسنة وجد ما يكفيه ويشفيه، ومن خرج إلىٰ آراء الرجال ضاع دينه بين القديم والحديث، ثم ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بردِّ العلم إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن مسائل الجهاد من مشكلات المسائل العظام التي تذهب بأحلام الرِّجال، فلا يكاد يُفلح في معرفة القول النَّاجع فيها إلا ذو قدم راسخةٍ من الأمراء أو العلماء؛ فلا ينبغي للمرء أن يقحم نفسه في هذه المهْمه المضيع؛ بل يحسب نفسه إذا كفي بغيره لئلا يكون بسبب كلامه سفك قنطار دم قليل دم من دماء المسلمين، لأن أمر الدم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظيم، «ولا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا» كما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فينبغي أن يتجافىٰ العبد القول في هذا الباب وأن يرده إلىٰ أهله ابتغاء سلامة دينه، فإذا ثقلت عليه الأعباء وكان ممن أنيط به الأمر فإنه يستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويستهدي بأنوار الكتاب والسنة ليلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بريء الذمة من دماء المسلمين، فإن من أعان بشطر كلمة من دم مسلم كان إثمه عظيمًا، فكيف إذا كان

المعين ليس بشطر كلمة؛ بل بكلمات لا يبالي كيفما خرجت من رأسه، فكيف إذا انضاف إلىٰ ذلك أفعال تهيج علىٰ الوقوع فيما لا يحبه الله ﷻ ولا يرضاه.

ومن أحسن المتأخرين كلامًا في باب الجهاد هذا المصنِّف عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن له كلامًا كثيرًا متفرقًا في رسائله حقيقًا بالجمع، وأن يفرد برسالة تُبين رأيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل الجهاد وما ينبغي علىٰ المسلمين أن يفعلوه، لأنه تكلم بذلك في وقت ضعف مع كمال عقل ورجاحته ومكانة علم، فكلامه من أحسن كلام المتكلمين في هذه الأبواب، لكنه متفرق في مواضع شتىٰ من كتبه، فلو جمع إنسان كلامه في صعيد واحد حصل به نفع عظيم لنفسه لوقوفه علىٰ كلام عالم لعقل رشيد.

فإن هذا المصنِّف من أعظم الناس عقلًا في المتأخرين، وأدقهم ذهنًا ولا يقدر قدره إلا من عرف حاله وحال أهل بلده في ذلك الزَّمن، فإنه كان يحيط بهم أحوالًا لو كان عالم عنيزة غير ابن سعدي لكان الحال حالًا آخر، لكن كان عالم ذلك القطر هو ابن سعدي وله من رجاحة العقل الشيء العظيم، ثم خلفه أيضًا رجل عالم عاقل وهو ابن عثيمين، فكان في مواقفهما جمعًا للشمل ورأبًا للصدع، وتأليفًا للقُلوب علىٰ الدولة الناشئة الجديدة فالتحم بطريقتهما طريقة العلماء جميعًا في هذه البلاد، ولو أنهما سارا في طريقة بعض من يعظِّم في نفوسهما لكان الخطب والصدع لازال شديدًا؛ لكن من عرف رجاحة عقل الرجل وقرأ كلامه في أبواب الألفة والتقريب بين المسلمين ولمّ شملهم وتحبيب بعضهم في بعض عرف قدر ما كان لهذا الرجل من العقل وأهل العلم ولاسيما في الأعصار الأخيرة يحتاجون إلىٰ العقل أكثر من حاجتهم إلىٰ ما يبحثون فيه في مسائل من العلم لا يحتاجون إليها، وكان من جميل كلام الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا طلب منه الملك عبد العزيز أن يرشِّح له من يوليه القضاء والإمامة بعد بدئه رجوعه إلىٰ هذه البلاد فكتب الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف إلىٰ من يعرفه من أهل العلم في أقطار هذه البلاد أن اكتبوا إليَّ بأسماء من له **صاعٌ من العلم ومكتل من العقل**، والمكتل أعظم من الصاع، فالمطلوب أن يكون المتكلِّم في العلم ذا عقل رشيد حتىٰ ينتفع الناس بكلامه، أما من يكون عنده علم كثير ولا عقل له فإنه يضر أكثر مما ينفع، ولاسيما إذا كان كلامه في أبواب الجهاد، والمراد من ذلك بيان الحق الحقيقي الذي يسلم به دين العبد، وليس ذلك تقهقرًا عن القيام بالواجب، لأن الله سبحانه قد أناط بالواجب أناسًا جعلهم ولي الأمر في باب الإفتاء فيه، فالأمر موكول إليهم ولكن المقصود براءة دينك عند ربك ﷻ.

نسأل الله ﷻ أن يعز دينه وأن يعلي كلمته، وأن ينصر أوليائه، وأن يكبت أعدائه وأن يؤلف بين

قلوب المسلمين ويصلح أحوالهم.

والحمد لله رب العالمين.

أحكام البيوع والمعاملات

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]، وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾ [النساء:٢٩]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة:٢٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ [آل عمران:١٣٠]، وقال: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة]، وقال: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧] الآية، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون:٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَلِيمٞ ۝٢٨٢﴾ [البقرة]، وقال: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٦٧].

يستفاد من هذه النصوص كثير من أحكام المعاملات.

فمنها: أنَّها دلت علىٰ أنَّ الأصل صحة جميع البيوع والمعاملات، إلا ما استثناه الشارع وأباحت جميع أنواع التجارة، تجارة الإدارة، وتجارة التربص والانتظار بالسلع فرصها ومواسمها، وتجارة الإجارات، وتجارة الديون، وكلَّ ما دخل في اسم التجارة.

ومنها: أنَّ جميع العقود تنعقد بما دل عليها من قول وفعل، لأنَّ الله أباحها ولم يحدد لها ألفاظًا مخصوصة، فكلما عدَّه الناس بيعًا وتجارة ومعاملة انعقدت به المعاملات.

ومنها: وجوب الوفاء بجميع العقود والشُّروط في كلِّ المعاملات، إلا ما استثناه الشارع كالعقود والشروط التي تحل حرامًا، أو تحرم حلالًا، أو ما جعل له الشارع خيار مجلس أو عيب ونحوه أو ما اتفق المتعاقدان علىٰ استثناء خيار شرط أو غيره، أو ما كان في الأصل غير لازم كعقود الوكالات ونحوها.

ومنها: أنَّ المعاملات مع إباحتها فالمُشتغل بها غير مذموم، إذا لم تلهه عن ذكر الله الواجب من صلاة ونحوها، فإن ألهت عن ذلك فهي مذمومةٌ وصاحبها خاسر.

ومنها: اشتراط التَّراضي من المتعاملين في كلِّ المعاملات، بأن يأتي بذلك اختيارًا فإن أُكره أحدهما بغير حق لم تكن المعاملة صحيحة، فإن امتنع أحدهما ممَّا وجب عليه وأكره علىٰ الواجب كانت المعاملة صحيحة.

ومنها: أنَّه يستفاد من اشتراط التراضي أنَّ من اشترىٰ معيبًا لم يعلمه، أو غبن بنجْش، أو تلقي جلب، أو اغترار أو نحو ذلك أنَّ له الخيار، لكونه لم يحصل الرضىٰ المعتبر.

ومنها: أنَّ الربا بجميع أنواعه من أعظم المحرمات، وأنَّه مفسد للعقد وإن تراضىٰ به المتعاقدان، لأنَّه ليس لهما أن يتراضيا علىٰ ما لا يُرضي الله ورسوله.

وأنواع الربا ثلاثة:

ربا الفضل: بأن يبيع مكيلًا بمكيل من جنسه متفاضلًا، أو موزونًا بموزون من جنسه متفاضلًا، فإنَّ الشارع شرط في بيع الشيء بجنسه إذا كان مكيلًا أو موزونًا شرطين التماثل في القدر والقبض قبل التفرق.

وربا النسيئة: أن يبيع المكيل بالمكيل، أو الموزون بالموزون ولو من غير جنسه، ويتفرقا قبل قبض العوضين، وأشد أنواعه ما ذكره الله بقوله: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ [آل عمران:١٣٠] وذلك أن يحل الدين عليه، ثم يقلبه عليه ببيعة أخرىٰ إلىٰ أجل فيتضاعف ما في الذمة من غير منفعة، ولا مصلحة تعود علىٰ المعامل، وذلك ظلم من صاحب الدين، وسواء تعاملا هذه المعاملة صريحًا أو تحيَّلَا عليها بحيلة من الحيل وصورةِ عقد غير مقصود، فكلُّ حيلةٍ يتوسل بها إلىٰ إسقاط الواجبات، أو استحلال المحرمات فإنَّها باطلة غير نافذة؛ لأنَّ العبرة في المعاني والمقاصد لا عبرة بالألفاظ التي لا يُقصد معناها.

وأمَّا ربا القرض فأن يقرضه شيئًا ويشترط في مقابلة ذلك نفعًا أيَّ نفع يكون، فهذا الشرط هو الذي أخرجه من موضوع القرض والإحسان، وأدخله في موضوع المعاملات فصارت حقيقته دراهم بدراهم إلىٰ أجل - مثلًا - وذلك النفع المشروط هو الربح.

وأمَّا الميسر فإنَّه نوعان: مغالبات ومعاملات: فمتىٰ كانت المعاملة فيها خطر وغرر وجهالة فهي من الميسر، وهو أنواع كثيرة مثل: بيع الآبق وبيع المجهولات أعيانها، أو صفاتها، أو مقاديرها، أو بيع المنابذات، أو الملامسات، أو استثناء المجهول من المعلوم، أو يشّرط في المزارعة، أو المساقاة، أو المغارسة، أو المضاربة، أو المشاركات كلِّها مصلحة أحد المعينات، وللآخر الآخر فيكون كلُّ منهما مخاطرًا، وذلك أنَّ مبنىٰ المشاركات علىٰ العدل، واستواء المتعاملين في المغنم والمغرم، فشرط خلاف ذلك ميسر وخطر وفي ذلك مفاسد كثيرة.

ومن عامل معاملة محرمة فعليه أن يتوب إلىٰ الله، ويُرجع المعاملة إلىٰ العدل الذي أباحه الله، ويرفض ما فيها من ربا وميسر وتغرير وغش ونحوها من المحاذير الشرعية.

شرع المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر قسم آخر من الأقسام المندرجة تحت النوع الثالث من أنواع علوم القرآن وهو بيانه أحكام المسائل الفقهية الطلبية، فترجم بقوله: (**أحكام البيوع والمعاملات**).

ثم ساق في صدره جملة من الآي اللواتي تنتظم فيهن أحكام البيوع والمعاملات، ثم بين بعد فراغه منها جملة من الفوائد المأخوذة منها مما يختص بالمطلب الذي ترجم له وهو البيوع والمعاملات فقال: (**يستفاد من هذه النصوص كثير من أحكام المعاملات**) والنص اسم للدليل، وأصل هذا اصطلاح عند علماء الجدل المسمىٰ بالبحث والمناظرة، ثم شاع حتىٰ غلب علىٰ الفقهاء والأصوليين، فمما ذكره من الفوائد المستفادة من هذه الآيات في أحكام المعاملات ما ذكره بقوله: (**فمنها: أنَّها دلت علىٰ أنَّ الأصل صحة جميع البيوع والمعاملات**) فالأصل في البيع الحل (**إلا ما استثناه الشارع**) والشارع اسم موضوع في عرف الفقهاء والأصوليين للحاكم عندهم وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ وجه الخبر، ولا يجوز إطلاقه علىٰ غيره ولو كان النبي ﷺ لاختصاص وضع الشرع بالله وحده، وليس النبي ﷺ إلا مبلغًا عنه فلا يسوغ قول إلا ما استثناه الشارع ﷺ لأنه حينئذ يتمحض في إرادة النبي ﷺ به وليس هو بشارع وإنَّما يسوغ أن يقال: إلا ما استثناه الشارع علىٰ إرادة الخبر عن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: (**وأباحت**) أي النصوص (**جميع أنواع التجارة، تجارة الإدارة**) أي ما يجول بين الأيدي بالأخذ والمعاطاة، (**وتجارة التربص والانتظار**) أي التلبث ومضاء مدة عليها فإن أصل التربص هو التلبث وهو بمعنىٰ الانتظار الذي عطف عليه (**بالسلع فرصها**) أي مناسباته الصالحة لها (**ومواسمها**) التي تروح فيها (**وتجارة الإجارات، وتجارة الديون، وكلَّ ما دخل في اسم التجارة**) فما كان مندرجًا في هذا الاسم فالأصل فيه الحل لقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾.

ثم قال بعد: (**ومنها: أنَّ جميع العقود**) التي تكون بين المتعاطين في المعاملات تنعقد بما دل عليها من قول وفعل، فهي تنعقد بالعرف الجاري بين الخلق وعلل ذلك بقوله: (**لأنَّ الله أباحها ولم يحدد لها ألفاظًا مخصوصة**) فإذا كانت كذلك فمردُّها إلىٰ العرف، وهذا معنىٰ قوله: (**فكلُّ ما عده الناس بيعًا وتجارة ومعاملة انعقدت به المعاملات**) وهو من التوسعة علىٰ الخلق؛ لأن حصرها في ألفاظ يشق عليهم، وردُّها إلىٰ عرفهم أسهل لهم، وهذه قاعدة الشريعة فيما يتعلق بأحوال الخلق، فما تعلق

بأحوالهم رُدَّ إلىٰ عرفهم، لأنه أرفق بهم بخلاف ما تعلق بحق الله، فإنه يرد إلىٰ الشرع لا إلىٰ العرف لأنه لا يُطَّلع عليه إلا بوحي ولا سبيل إلىٰ الوحي إلا بنبأٍ من الصَّادق المصدوق ﷺ.

ثم قال المصنِّف: (**ومنها: وجوب الوفاء بجميع العقود والشروط في كلِّ المعاملات**) لأن منفعة الخلق لا تتأتىٰ إلا بأن يؤدِّي كل أحد ما تحمَّله، فمن تعاقد مع غيره لم تجر منفعته ولا منفعة مقابله إلا بالوفاء بالعقد مما جعل الشرع يعظِّم الوفاء بها فيجعله واجبًا في كلِّ العقود (**إلا ما استثناه الشارع كالعقود والشروط التي تُحِلُّ حرامًا، أو تحرم حلالًا، أو ما جعل له الشارع خيار مجلس أو عيب ونحوه أو ما اتفق المتعاقدان علىٰ استثناء خيار شرط أو غيره، أو ما كان في الأصل غير لازم كعقود الوكالات ونحوها**) فما جرىٰ فيه الاستثناء كان خاصًّا دون بقية نظائره مما يندرج في أصل العقود، فالأصل في العقود وجوب الوفاء بها إلا ما استثناه الشرع، ومعنىٰ قوله: (**أو ما كان في الأصل غير لازم**) أي: لا يشترط فيه رضا المتعاقدَين؛ كعقود الوكالات فإنه يجوز لكل واحد منهما أن يتصرَّف في هذا العقد دون إذن آخر، فلو أراد الوكيل أو الموكِّل أن يفسخ العقد جاز ذلك، ولو لم يرض مقابله.

ثم قال: (**ومنها: أنَّ المعاملات مع إباحتها فالمشتغل بها غير مذموم، إذا لم تلهه عن ذكر الله الواجب من صلاة ونحوها، فإن ألهت عن ذلك فهي مذمومةٌ وصاحبها خاسر**)؛ لأن قاعدة الشرع في المباح أنه مأذونٌ به توسعة علىٰ الخلق سواء في أبواب المعاملات أو في أبواب الترفُّق بالنفس، أو غيرها من الأبواب، فإذا خرج عن باب التَّوسعة إلىٰ غيره صار ممنوعًا منه، فالمباح من المعاملات إذا ألهىٰ صاحبه عن ذكر ربه ﷻ الواجب عليه صار محرَّمًا وذُمَّ صاحبه علىٰ فعله، وضابط ما يحصل به الإلهاء كما يُنتزع ذلك من كلام لأبي العباس ابن تيمية أن يغلب ذلك علىٰ القلب حتىٰ إذا خوطب لم يَرد، وإذا نودي لم يُجب، فمتىٰ تعاطىٰ العبد المباح فغلب علىٰ قلبه خرج إلىٰ الذم، فإذا زاد عن هذا بأن يؤدِّي به إلىٰ ترك الواجب عليه تحقَّق كونه ملهيًا، فلو أن إنسانًا تعاطىٰ تجارة أو مارس رياضةً فترك بسببها صلاةً واجبة عليه حتىٰ خرج وقتها كان مذمومًا علىٰ فعله، وإن لم يُفضِ به الأمر إلىٰ أن يترك الواجب لكن غلب ذلك علىٰ قلبه بحيث يغيب عما حوله صار كذلك مذمومًا علىٰ فعله؛ لأنه خرج عن القدر المأذون به من الواجب وهو حصول التوسعة أو الترفق إلىٰ حال لا تقرّها الشريعة، فالذي يتعاطىٰ التجارة أو يمارس رياضة فيخاطب ولا يرد، ويناديٰ فلا يجيب مع قرع ذلك سمعَه فقد غلب هذا المباح علىٰ قلبه حتىٰ صار مالكًا له، ومتىٰ استرسل العبد من هذه الحال صار تابعًا لهواه، فإن الحال المذكورة لا تزال ترقىٰ بالعبد حتىٰ تُخرجه إلىٰ اتِّباع الشهوات، كما قال الله ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾[مريم:٥٩]، فإن اتباع الشهوات هو غلبتها علىٰ القلب حتىٰ يكون مؤتمرًا بأمرها، عاملًا بما توجبه عليها.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومنها: اشتراط التراضي من المتعاملين في كلِّ المعاملات**) إلىٰ آخر ما قال؛ لأن الأصل في مال المسلم خاصة، ومعصوم المال عامة أنه لا يجوز أخذ شيء من ماله إلا بطِيبِ نفس منه، فإذا أُخذ منه بغير ذلك حَرُم، فيشترط التراضي في جميع المعاملات والعقود.

ثم قال: (**ومنها: أنَّه يستفاد من اشتراط التراضي أنَّ من اشترىٰ معيبًا لم يعلمه، أو غُبِن بنجْش**) يعني بمكر، لأن **أصل النجش هو المكر**، ومنه من يزيد في السلعة لا يريد شرائها، (**أو تلقي جَلَبٍ**) وهو ما يرد من خارج البلد (**أو اغترار أو نحو ذلك أنَّ له الخيار، لكونه لم يحصل الرضىٰ المعتبر**).

ثم قال: (**ومنها: أنَّ الربا بجميع أنواعه من أعظم المحرمات، وأنَّه مفسد للعقد وإن تراضىٰ به المتعاقدان، لأنَّه ليس لهما أن يتراضيا علىٰ ما لا يرضي الله ورسوله**) ﷺ، فإذا حرمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صار ممنوعًا منه مفسدًا للعقد ولو تراضىٰ به المتعاقدان.

ثم استطرد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فذكر أنواع الربا فقال: (**وأنواع الربا ثلاثة**) وعدَّدها فجعل الأول: ربا الفضل، وجعل الثاني: ربا النسيئة، وجعل الثالث: ربا القرض، ومن الفقهاء من يطوي ربا القرض في ربا النسيئة فيجعله مندرجًا فيه. ثم بيَّن كل واحد منهما؛ فقال في الأول: (**ربا الفضل: بأن يبيع مكيلًا بمكيل من جنسه متفاضلًا، أو موزونًا بموزون من جنسه متفاضلًا**) وهو في هذه العبارة جار علىٰ المذهب في أن علة الربا هي الكيل والوزن، وأوسع من ذلك أن يقال: **بأن يبيع رِبَويًا بربويٍّ من جنسه متفاضلًا**. فإنه في هذا الحد تدخل فيه جميع العلل التي ذكرها الفقهاء علىٰ اختلاف مذاهبهم.

ثم قال المصنِّف: (**فإنَّ الشارع شرط في بيع الشيء بجنسه إذا كان مكيلًا أو موزونًا شرطين التماثل في القدر والقبض قبل التفرق**) فإذا باع تمرًا بتمرٍ وجب أن يتماثل في القدر فيكون كيلًا واحدًا أو وزنًا واحدًا وأن يتقابضا المتبايعان قبل تفرقهما.

ثم قال في الثاني وهو ربا النسيئة: (**أن يبيع المكيل بالمكيل، أو الموزون بالموزون ولو من غير جنسه، ويتفرقا قبل قبض العوضين، وأشد أنواعه ما ذكره الله بقوله: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾**) أي مُردَدًا بأكثر من قيمته مرات، ومن هذا الجنس لو أنه زاده بالتأخير إلىٰ كل أجل فلا يشترط في حدوث الرِّبا المضاعف أن يكون في زمن معين؛ بل ربما يجعله إلىٰ أجل بقيمة، ثم إذا جاء ذلك الأجل فلم يسدِّد أخره وزاد، ثم يؤخره ويزيد، فإن هذا كله من التضعيف في الربا، وبين المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض معناه

بقوله: (**وذلك أن يحل الدين عليه، ثم يقلبه عليه ببيعة أخرىٰ إلىٰ أجل، فيتضاعف ما في الذمة من غير منفعة، ولا مصلحة تعود علىٰ المعامل، وذلك ظُلمٌ من صاحب الدين، وسواء تعاملا هذه المعاملة صريحًا، أو تحيَّلا عليها بحيلة...**) إلىٰ آخر ما ذكر، ومن هذا الجنس ما يجري من معاملات التورق الذي يسمىٰ بإعادة التورق بأن يأخذ سِلعة جديدة بقيمة جديدة ليوفِّي بقيمة السلعة الماضية ويستفيد تورُّقًا جديدًا، ثم بعد مدة تفعل به ذلك ثالثة، ثم يفعل به رابعة حسبما يشاء، فإن هذا من التورق المحرم، وقد توسع الناس بأخره في التورق حتىٰ وقعوا في معاملات محرمة، وفقهاء الأحوال لابد أن ينظروا إلىٰ ما يحيطوا بالمعاملة لا إلىٰ أصلها فقط، فقد تكون في أصلها جائزة مباحة ثم تطرأ لها أحوال توجب علىٰ المفتي العارف بما يُصلح الناس أن يفتي بحال غير التي كان يفتي بها في أصل ذلك.

ولعل هذا هو موجب ما اختاره من فقهاء الحنابلة أبو العباس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم من حرمة التورُّق أصلًا فكأنهما لاحظا مفاسده العظيمة في زمانهما فأفتيا بذلك، فقد يكون أصل التورق عند القائل بالجواز مباحًا ثم تحدث له أحوال توجب علىٰ المفتي بذلك القول بالتحريم حفظًا لأموال الناس؛ لأن هدر أموال الناس بإعادة التورق وكثرة الدَّين يُثْقِل كواهلهم ويزيد أعباءهم، ولا يوصلهم إلىٰ ما يبتغون من حل أزماتهم المالية، فلا يزالون من ضائقة إلىٰ ضائقة، ومن حكمة الشريعة في معاملاتها إعانة الخلق علىٰ حفظ أموالهم.

والواجب علىٰ ولاة الأمر من الأمراء والعلماء أن يشددوا في هذا الأمر لأنه يؤدي إلىٰ عواقب وخيمة، وقد سرىٰ الفساد إلىٰ كثيرٍ من العقود مما تؤول عاقبته إلىٰ شرور عظيمة، سواء في عقول البيوع أو في عقود النكاح، فيأتي ظاهرية الفقهاء ممَّن يمتطون أصول المسائل فيذكرون بنائها علىٰ أصل الإباحة وجمع شروط الشرع فيها ثم يفتون بجوازها دون ملاحظة ما سرت عليه حالة الناس مما يحتاجون فيه إلىٰ سد الباب عليهم لئلا يفضي فتحه إلىٰ شرور عظيمة، وهذا من الآثار المتزايدة للمشاكل الاقتصادية التي تسمىٰ في علم الاقتصاد بالتضخم والبطالة فإنها إنَّما تزايدت في بلاد المسلمين لما فُتح الأمر في كثير من هذه العقود التي يقال: إن أصلها الإباحة، فكثُرت المعاملات التي تؤول إلىٰ عاقبة سيئة، فمن نظر المآل أفتىٰ بشيء لا يفتي به من ينظر إلىٰ الحال فقط، والفقيه الكامل هو الذي ينظر إلىٰ الحال والمآل، أما الذي ينظر إلىٰ الحال فقط فهذا ظاهري وإن نسب نفسه إلىٰ الدليل أو إلىٰ أحد المذاهب المتبوعة، ولسنا نعني بالظاهري أنه علىٰ مذهب الظاهرية، وإنَّما علىٰ ما يتبادر من ظواهر الألفاظ دون رعاية المقاصد مع دندنة كثير منهم بالمقاصد.

ثم ذكر قاعدة في الحيل فقال: (**فكلُّ حيلة يتوسل بها**) أي يتوصل بها السين والصاد يترادفان (**إلىٰ إسقاط الواجبات، أو استحلال المحرمات فإنَّها باطلة غير نافذة**) ثم علل ذلك بقوله: (**لأنَّ العبرة في المعاني والمقاصد لا عبرة بالألفاظ التي لا يقصد معناها**) وهذا من قواعد فهم الشريعة عامة وقواعد العقود خاصة أن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني.

ثم ذكر النوع الثالث فقال: (**وأمَّا ربا القرض فأن يقرضه شيئًا ويشترط في مقابلة ذلك نفعًا أيَّ نفع يكون، فهذا الشرط هو الذي أخرجه من موضوع القرض والإحسان، وأدخله في موضوع المعاملات**) كأن يدفع إليه مالًا علىٰ أن يرده إليه بعد سنة ويعطيه معه كذا وكذا، فهذا صورته القرض وحقيقته الربا، كما قال المصنِّف: (**فصارت حقيقته دراهم بدراهم إلىٰ أجل ـ مثلًا ـ وذلك النفع المشروط هو الربح**) أي أن ما يزيده المستدين من نفع يدفعه إلىٰ من أعطاه المال هو الربح الذي يدل علىٰ وجود الربا، ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ تحرير متين في بيان حقيقة القاعدة المشهورة «كل قرض جر نفعًا فهو ربا» ذكره في «إعلام الموقعين» تحسُن مراجعته.

ثم قال بعد: (**وأمَّا الميسر فإنَّه نوعان: مغالبات ومعاملات**) المراد بالمغالبات **المسابقات، لأن كلًّا من المتسابقين يطلب الغلبة علىٰ أصحابه.**

ثم قال: (**فمتىٰ كانت المعاملة فيها خطر وغرر وجهالة فهي من الميسر**).

ثم قال: (**وهو أنواع كثيرة مثل: بيع الآبق**) وهو العبد الهارب من سيده، ومثله كذلك الحيوان الهارب المفقود، (**وبيع المجهولات أعيانِها، أو صفاتها، أو مقاديرها**) فإذا وجدت الجهالة في عين المعاملة وصفتها أو مقدارها صار من جنس الميسر، (**أو بيع المنابذات**) وهو أن يقول: انبذ لي ثوبًا بقيمة كذا وكذا، (**أو الملامسات**) وهو أن يكون بيعًا بالملامسة كأن يدفع له قيمة علىٰ أن شيء لامسه من هذه الأشياء كان قيمة ما دفع إليه.

ثم قال: (**أو استثناء المجهول من المعلوم، أو يشرط في المزارعة، أو المساقاة، أو المغارسة، أو المضاربة، أو المشاركات كلِّها مصلحة أحد المعينات**) فيشترط مصلحة فيما يعاقد عليه أحدهما الآخر.

ثم قال: (**وللآخرِ الآخرُ فيكون كلٌّ منهما مخاطرًا**) فيشترط أحدهما قدرًا ويكون ما بعده لغيره من المتعاقدين، كأن يزارعه أرضًا فيقول أحدهما: لي منها ثلاثمائة صاع ولك ما زاد. فيكون الآخرُ غير عالم بقدره والأول لا يُعلم أيقبض هذا أم لا يقبضه؟ ثم قال: (**وذلك أنَّ مبنىٰ المشاركات علىٰ العدل،**

واستواء المتعاملين في المغنم والمغرم) والمغنم: اسم لما يضمه من الربح إليه في المعاملة، والمغرم: اسم لما يلحقه من النقص فيها، (فشرط خلاف ذلك ميسر وخطر وفي ذلك مفاسد كثيرة).

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن عامل معاملة محرمة فعليه أن يتوب إلىٰ الله) لأن مواقعة الحرام ذنب، والتوبة من الذنب واجبة.

ثم قال: (ويُرجع المعاملة إلىٰ العدل الذي أباحه الله) يعني في أصول العقود، وإلا فالعدل قد أوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فليس من المباحات، وإنَّما أراد بقوله: (إلىٰ العدل الذي أباحه الله) في أصل العقود والمعاملات الجارية في البيوع. ثم قال: (ويرفض ما فيها) أي يتبرأ ويسقط ما فيها (من ربا وميسر وتغرير وغش ونحوها من المحاذير الشرعية) لأنها جميعًا مما حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلابد من التخلص منه.

❁❁◊❁❁

وأما آية الدَّين فما أجمعها لأحكام المعاملات وأكثر فوائدها، فإنَّ الله أرشد عباده إلىٰ حفظ أموالهم ونظامها في المعاملات، وإلىٰ تحريرها بالكتابة والشهود وضبطها بالوثائق، وذَكَرَ الطرقَ وأرشدَ إلىٰ سلوكها ويسّرها غاية التيسير، ونفىٰ كلَّ ضرر وظلم فيها من الجانبين، وأمر بغاية العدل وهي من البراهين علىٰ أنَّ دين الإسلام قد تكفل للبشر بصلاح دينهم ودنياهم، حيث أباح كلَّ معاملة نافعة وحرم كلَّ معاملة ضارة، وبيّن الطرق التي تحفظ بها وتضبط المعاملات والحقوق.

فمن فوائدها: جواز الديون كلِّها سواء كانت دين سَلَمٍ، بأن يسلم الثمن ويكون المثمن مؤجلًا إلىٰ أجل مسمىٰ، أو دينًا مطلقًا كأن يشتري شيئًا حاضرًا بثمن في ذمته إلىٰ أجل مسمىٰ، لأنَّ الله نسبه للمؤمنين وأقرهم عليه وهذا خاصية المباح.

ومنها: اشتراط العلم بالمبيع والثمن والأجل. أمَّا الأجل فمصرّح به في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة:٢٨٢]. وأمَّا علم الثمن والمثمن فمن باب التنبيه، إلىٰ إنَّه إذا شرط العلم بالأجل الذي هو فرعه، فالأصل من باب أولىٰ وأحرىٰ.

ومنها: الأمر بكتابة الديون المؤجلة، والرخصة في ترك الكتابة في المعاملات الحاضرة، والحكمة في ذلك ظاهرة وهو الحاجة والضرورة في المؤجلة، والمشقة في الحاضرة المتكرِّرة.

ومنها: الإرشاد إلىٰ الإشهاد في المعاملات كلِّها حاضرة أو مؤجلة، وهي أعظم الوثائق وأنفعها وأوسعها.

وقد أمر بأعلىٰ ما يكون فيها بإشهاد رجلين أو رجل وامرأتين من الشهود المرضيين بين الناس، وبيَّن

الحكمة في كون المرأة الواحدة لا تقوم مقام الرجل أنَّ ذاكرة الرجل أقوىٰ من المرأة، فلهذا جبر هذا النقص بزيادة العدد، وبيَّن الحكمة في ذلك بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

ومنها: أمر الشهود أن ينقادوا للشهادة، وألّا يأبوا إذا دعوا للتحمل أو للأداء لما في ذلك من القيام بحق المسلم، وفك المنازعات، ولما فيه من الخير والأجر عند الله تعالىٰ.

ولهذا ينبغي للشاهد أن يقصد بتحمُّله للشهادة وأدائها وجه الله والقيام بالواجب لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطلاق:٢] وزَجَر غاية الزجر عن كتمان الشهادة ومن باب أولىٰ شهادة الزور، فكلاهما من كبائر الذنوب كتمان الشهادة، والشهادة بالباطل، فإنَّه ظلم في حق الله وظلم للمتعاملين كليهما. أمَّا المظلوم فظاهر وأمَّا الظالم فإنَّ شاهد الزور له وكاتمَ الشهادةِ الحق عليه قد أعانه علىٰ الظلم والعدوان.

وفيها دليل أنَّ شهادة الرجلين والرجل والمرأتين مقبولة في جميع المعاملات والأموال، وليس في ذلك نفي لقبول غيرها، لأنَّ الله إنَّما ذكر أعلىٰ الحالات التي يحفظ بها الحقوق، وما يحكم به الحاكم أعمُّ من ذلك. فقد ثبت أنَّه ﷺ قضىٰ بالشاهد الواحد ويمين صاحب الحق.

ومنها: أنَّ الله أقام المرأتين مقام الرجل، وكذلك النبي ﷺ حيث قال: «أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل» وأطلق ذلك. ومقتضاه أن يكون في كلِّ الأحوال ولأهل العلم هنا تفصيلات كثيرة، وما دلت عليه النصوص يجب تقديمه علىٰ كلِّ قول.

ومنها: أنَّ من نسي شهادته ثم ذكرها، أنَّ شهادته صحيحة لقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [البقرة:٢٨٢] يدل علىٰ أنَّه ينبغي أن يكون الكاتب كامل الصفات، عالمًا بالعدل، سالكًا لطريق العدل، معتبرًا عند الناس، وأنَّه لا يحل له أن يميل مع أحد المتعاملين لقرابة، أو صحبة أو نحوهما، فإنَّه خلاف العدل.

ومنها: أنَّ معرفة الكتابة من نعمة الله علىٰ العبد، وكونه معتبرًا عند الناس مرضيًا عندهم، وتتوجه له حاجاتهم، ويمنُّ الله عليه بقضائها والقيام بها، فبهذا تتم عليه النعمة وعليه أن يشكر الله علىٰ ذلك ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة:٢٨٢].

لما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ من ذكر الفوائد المتقدمة المستنبطة من جملة الآي المذكورة في أحكام البيوع والمعاملات= أفرد ما سلفت قراءته ببيان ما انتظم في آية الدَّين من أحكام المعاملات، وإنَّما خصها بذلك لقوله: (**فما أجمعها لأحكام المعاملات وأكثر فوائدها**)، وله رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره عند هذه الآية من سورة البقرة كلام مستحسن في ذكر جملة من الأحكام المستنبطة منها متىٰ ضُمَّ إلىٰ هذا كمُلت به إفادة المصنِّف في معاني هذه الآية، وهي حقيقة بالإفراد، وله رَحِمَهُ اللهُ في مواطن متفرقة من كتابه في التفسير المعروف باسم «تيسير الكريم الرحمن» استطرادات مليحة بين فيها جملة كثيرة من الفوائد التي تستنبط من آية واحدة، ككلامه في فوائد آية الدين، أو كلامه في فوائد آية الوضوء، فتلك المواطن حقيقة بالانتزاع، وضم كلامه المتفرق في كتبه الأخرىٰ إليها وجمعها في صعيد واحد، إذ فيها تمرين علىٰ كيفية الاستنباط من آي القرآن الكريم واستخراج المعاني منها.

وبهذه الجادة تخرج عليه تلميذه النابه العلامة ابن عثيمين، وكما عُرف قدر مسلم بما أنعم عليه شيخه البخاري من الإفادة فكذلك القول في هذه الحال بين الشيخين؛ فإن مصنِّف هذا الكتاب متوقِّد الذكاء، ومن دلائل ذلك الذكاء تلك المواطن الحقيقة بالإفراد من الفوائد المستنبطة من آي القرآن الكريم المذكورة خاصة في كتاب التفسير، بالإضافة إلىٰ مواضع متفرقة منها ماذكره هاهنا في فوائد آية الدَّين. وبين رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ إفادتها إجمالًا ثم فصلها.

وكان مما ذكر في إفادتها الإجمالية قوله: (**وهي من البراهين علىٰ أن دين الإسلام قد تكفل للبشر بصلاح دينهم ودنياهم، فمن دلائل كمال الدين ما استكن في آية واحدة هي آية الدين من أحكام المعاملات التي تضيق دساتير أهل الأرض علىٰ الإتيان بمثلها**).

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ جملة من فوائدها تفصيلًا فقال: (**فمن فوائدها: جواز الديون كلِّها سواء كانت دين سَلَمٍ، بأن يُسلّم الثمن ويكون المثمن مؤجلًا إلىٰ أجل مسمىٰ**) فهو عقد علىٰ موصوف في الذمة إلىٰ أجل معيَّن فيعطيه قيمته ويؤجِّل تأخير ما يبتغيه من مثمن إلىٰ أجل مسمًّىٰ بينهما بشروطه المعروفة عند الفقهاء، (**أو دينًا مطلقًا كأن يشتري شيئًا حاضرًا بثمن في ذمته إلىٰ أجل مسمىٰ، لأنَّ الله نسبه للمؤمنين وأقرهم عليه وهذا خاصية المباح**) يعني شرعًا، فإذا أضيف شيء إلىٰ المؤمنين في القرآن الكريم فالأصل مشروعيته، وهذه المشروعية إما أن تكون موضوعة للإباحة أو أن تكون موضوعة للاستحباب أو أن تكون موضوعة للإيجاب كما إنَّما نسب إلىٰ غيرهم يقتضي ذمه واطراحه، وهذا من دلائل الأحكام في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمؤمنون جنس فاضل كامل وما ينسب إليهم يكون دائرًا في ذلك الفضل والكمال،

وغيرهم جنس ناقص مذموم، فما أضيف إليهم كان دائرًا في ذلك النقص والذم.

ثم ذكر من فوائدها: (**منها: اشتراط العلم بالمبيع والثمن والأجل. أمَّا الأجل فمصرّح به في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾**) فلابد من علم الميقات التي تنتهي إليه تلك المعاملة، (**وأمَّا عِلم الثمن**) وهو القيمة (**والمثمن**) وهو المبيع (**فمن باب التَّنبيه**) فيُستفاد بالتنبيه بذكر الأجل إلىٰ ذكر ما هو أولىٰ منه؛ كما قال: (**إلىٰ إنَّه إذا شرط العلم بالأجل الذي هو فرعه، فالأصل**) وهو الثَّمن والمُثمن يعني المبيع والقيمة (**فالأصل من باب أولىٰ وأحرىٰ**).

ثم قال: (**ومنها: الأمر بكتابة الديون المؤجلة، والرخصة في ترك الكتابة في المعاملات الحاضرة**) وبيَّن النكتة في ذلك بقوله: (**والحكمة في ذلك ظاهرة وهو الحاجة والضرورة في المؤجلة**) لأنَّ طول الزمن ربما أنسىٰ أو أطغىٰ فلابدَّ من توثقة بكتابةٍ تحفظ الحق (**والمشقَّة في الحاضرة المتكررة**) فإنه لو أُمر بكتابة كل عقد ومعاملة حاضرة متكررة شق ذلك علىٰ الناس، فلو أن من يبيع خبزًا أُمر بأن يثبت بيعه لغيره بكتابة لتعطَّلت منفعته ومنفعة الخلق بهذه الكتابة.

ثم قال: (**ومنها: الإرشاد إلىٰ الإشهاد في المعاملات كلِّها حاضرة أو مؤجلة، وهي**) يعني الشهادة (**أعظم الوثائق**) أي: ما تحفظ به الحقوق (**وأنفعها وأوسُعها**).

ثم قال: (**وقد أمر بأعلىٰ ما يكون فيها بإشهاد رجلين أو رجل وامرأتين من الشهود المرضيِّين بين الناس**) فمقصوده بالنَّاس المؤمنين؛ لأنه أضيف إليهم.

ثم قال: (**وبيَّن الحكمة في كون المرأة الواحدة لا تقوم مقام الرَّجل أنَّ ذاكرة الرجل أقوىٰ من المرأة، فلهذا جبر هذا النقص بزيادة العدد، وبيَّن الحكمة في ذلك بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾[البقرة:٢٨٢]**) ولو قال المصنِّف في بيان الحكمة: لأنه تعرض للمرأة أحوال تُضعف قوتها فتحتاج إلىٰ من يعينها لكان أولىٰ من قوله: (**أن ذاكرة الرجل أقوىٰ من المرأة**) ذلك أن المرأة تعرض لها أحوال من الحيض، والولادة، والرضاع، والحضانة، فتذهب ببعض قوتها فتحتاج إلىٰ قوة أخرىٰ تقويها، فتعضد بامرأة أخرىٰ تقوية لها، وهذا أمرٌ لا ينازع فيه أحد، بخلاف القول بأن ذاكرة الرجل أقوىٰ من المرأة فإنه ينازع فيه، ولاسيما في هذه الأزمان، أما طروء الأحوال المنقِصة للمرأة فذلك شيء متفق عليه بين أهل المعرفة بين الأطباء قديمًا وحديثًا.

ثم قال: (**ومنها: أمر الشهود أن ينقادوا للشهادة، وأن لا يأبوا**) أي: لا يمتنعوا (**إذا دعوا للتحمل أو للأداء**) أي تحمل الشهادة وإثباتها أو للأداء أي القيام بها، (**لما في ذلك من القيام بحق المسلم، وفك**

المنازعات، ولما فيه من الخير والأجر عند الله تعالىٰ).

ثم قال: (ولهذا ينبغي للشاهد أن يقصد بتحمله للشهادة وأدائها وجه الله والقيام بالواجب لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق:٢]) فهي حق يجب أن يؤديه العبد كما أمره الله ﷻ.

ثم قال: (وزَجَر غاية الزجر عن كتمان الشهادة ومن باب أولىٰ شهادة الزُّور) لأنه إذا كان منهيًّا عن كتمان الشهادة الصحيحة فإنه ينهىٰ أشد من ذلك عن افتئات شهادة لا أصل لها، (فكلاهما من كبائر الذنوب كتمان الشهادة، والشهادة بالباطل) ثم بيَّن المصنِّف (أنَّه ظلم في حق الله وظلم للمتعاملين كليهما) فأما كونه ظلم في حق الله؛ لأن الله أمر بأن تقام الشهادة له، ومن خرج عن ذلك بكتم الشهادة أو الشهادة في الباطل لم يقمها لله ﷻ، وأما كونها ظلم للمتعاملين فبينه المصنِّف بقوله: (أمَّا المظلوم فظاهر) لأنها تذهب بحقه، (وأمَّا الظالم) وهو المدعي للحق (فإنَّ شاهد الزور له وكاتمَ الشهادةِ الحق عليه قد أعانه علىٰ الظلم والعدوان) وهو منهيٌّ عن ذلك.

ثم قال: (وفيها دليل أنَّ شهادة الرَّجلين والرجل والمرأتين مقبولةٌ في جميع المعاملات) فهي أصل كليٌّ في جميع المعاملات، وليس في ذلك نفيٌ لقبول غيرها، لأن الله إنَّما ذكر أعلىٰ الحالات التي يحفظ بها الحقوق.

ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وجوهًا أخرىٰ تحفظ بها الحقوق فقال:(وما يحكم به الحاكم أعمُّ من ذلك، فقد ثبت أنَّه ﷺ قضىٰ بالشاهد الواحد ويمين صاحب الحق). ثم قال: (ومنها: أنَّ الله أقام المرأتين مقام الرجل، وكذلك النبي ﷺ حيث قال: «أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل» وأطلق ذلك) أي لم يقيده بحال دون حال.

ثم قال: (ومقتضاه أن يكون في كلِّ الأحوال ولأهل العلم هنا تفصيلات كثيرة، وما دلت عليه النصوص) أي من الإطلاق (يجب تقديمه علىٰ كلِّ قول) فالمرأتان تقومان مقام رجلٍ علىٰ كل حال.

ثم قال: (ومنها: أنَّ من نسي شهادته ثم ذكرها، أنَّ شهادته صحيحة لقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾) فربما كان عند أحد شهادة لما سئل عنها نسي ثم تذكرها فإذا شهد بعد عدم تقدُّمه بها فشهادته صحيحة لأن النسيان يعرض للعبد، فمتىٰ زال عنه عارض النِّسيان ورجع إليه ذُكر الشهادة صحَّت شهادته.

وقوله في هذه الآية: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ دالٌّ علىٰ صحة شهادة المذكَّرة أنها كانت ناسيةً فلما ذُكِّرت انتبهت إلىٰ ذلك، فأُثبتت شهادتُها.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ يدل علىٰ أنَّه ينبغي أن يكون الكاتب كامل الصفات، عالمًا بالعدل، سالكًا لطريق العدل، معتبرًا عند الناس**) فاشتراط وصف العدل في الكتابة يدل علىٰ كمال حال الكاتب، ويندرج في ذلك جميع أحوال الكمال، فكل ما عُد حالًا من أحوال الكمال كان مندرجًا في اسم العدل.

ثم قال: (**وأنَّه لا يحل له**) أي للكاتب (**أن يميل مع أحد المتعاملين لقرابة، أو صحبة أو نحوهما، فإنَّه خلاف العدل**) حقيقة العدل: ألا يميل إلىٰ أحد، فإن العدل لا يكون إلا مستقيمًا.

ثم قال بعد ذلك: (**ومنها: أنَّ معرفة الكتابة من نعمة الله علىٰ العبد**) لأنها من وسائل حفظ حقوقهم، (**وكونه معتبرًا عند الناس مرضيًا عندهم، وتتوجه له حاجاتهم، ويمنُّ الله عليه بقضائها والقيام بها، فبهذا تتم عليه النعمة وعليه أن يشكر الله علىٰ ذلك**) فكونه عالمًا بالكتابة نعمةٌ من نعم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليه، ثم إذا اقترن بذلك كونه مرضيًا عند الناس متوجَّهًا إليه في حاجاتهم وسيلة إلىٰ قضائها فتلك نعمة أخرىٰ تستحقُّ من العبد الشكر.

ثم قال المصنِّف: (**ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾**) وهذا تذكير له بأن الكتابة نعمة، وأن من شُكرها ألا يأبىٰ عن التفضُّل بها إلىٰ من احتاجها، وفي ذلك تنبيهٌ إلىٰ جميع ما يصل إلىٰ العبد من العلم الذي آلتُه العظمىٰ القلم هو محض فضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ علىٰ العبد؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ثم يفتح له موارد الفهم والعلم من القلب واللِّسان والسمع فيزداد علمًا لم يكن عنده من قبل، فهي نعمة خالصة من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تستوجب الشكر.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب، ونستكمل بقية هذا الفصل بعد صلاة العشاء إن شاء الله تعالىٰ،

والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أحكام المواريث

قال الله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١﴾ [النساء]، والآية التي في آخر السورة. لقد فصّل الله في هذه الآيات أحكام المواريث تفصيلًا تامًّا، فذكر ميراث الأولاد وهم أولاد الصُلْبِ الذكور والإناث وأولاد البنين، كذلك الذكور والإناث دون أولاد البنات، فذكر أنَّهم إذا اجتمع منهم ذكور وإناث في درجة واحدة فللذكر مثل حظ الأنثيين، وأنَّهم في

هذه الحال يكونون عَصَبَةً لا يستحق معهم أحدٌ من القرابة شيئًا سوىٰ الوالدين فقط، لكلِّ واحد السدس. ومن باب أولىٰ إذا كان الأولاد ذكورًا خلّصًا وإذا كانوا إناثًا فللواحدة التي ليس معها في درجتها أحد النصف، وللثنتين فأكثر الثلثان، فإن كانت الواحدة في الدرجة العالية كبنت الصلب ومعها بنت أو بنات ابن، فللعالية النصف ويبقىٰ السدس تكملة الثلثين لبنات الابن.

وذكر ميراث الأبوين مع الأولاد لكلِّ واحد منهما السدس. أما الأم فلا تزيد عليه، وكذلك الأب مع الأولاد الذكور أو مع البنات إذا استغرقت الفروض، فإن بقي شيء بعد أخذ البنات فروضهن أخذه الأب تعصيبًا لقوله ﷺ في حديث ابن عباس الذي في الصحيح: «الحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولىٰ رجل ذكر». وهو أولىٰ من الأبعدين، فإن كان أم وأب ومعهما أحد الزوجين أخذ أحد الزوجين فرضه والباقي للأم ثلثه وللأب الباقي، فإن كان للميت أخوة فلأمه السدس.

والجد حكمه حكم الأب في جميع أحكام الفرائض بالاتفاق، إلا في العمريتين المذكورتين فإن للأم مع الأب ثلث الباقي، ومع الجد ثلث المال كلِّه، وإلا مع الإخوة لغير أم، فإنَّ العلماء اختلفوا فمنهم من ورَّثهم مع الجد علىٰ تفاصيل كثيرة معروفة كزيد بن ثابت رضي الله عنه، ومن وافقه من الصحابة والأئمة، ومنهم من أسقطهم بالجد كقول أبي بكر رضي الله عنه، ومن وافقه من الصحابة والأئمة، وهو القول الذي ترجحه الأدلة الكثيرة.

وذكر ميراث الزوجين وأنَّ للزوج نصف ما تركت زوجته، إذا لم يكن لها ولدٌ ذكرٌ أو أنثىٰ واحدٌ أو متعددٌ ولدُ صُلْبٍ، أو ولدُ ابن منه، أو من غيره، والربع بوجود الولد المذكور، وأنَّ للزوجة الثمن مع الولد والربع مع عدمه.

وذكر ميراث الإخوة من كلِّ جهة: أما الإخوة من الأم فلم يورثهم إلا في الكلالة، أي: إذا كان الميت ليس له أولاد صلب ولا أولاد ابن لا ذكور ولا إناث ولا أب ولا جد، فللواحد منهم السدس وللاثنين فأكثر الثلث ذكورهم وإناثهم واحد. وأما الأخوة الأشقاء أو لأب فالذكور منهم عصبة، وكذلك إذا كان معهم إناث كان للذكر مثل حظ الأنثيين، والواحدة من الإناث لها النصف والثنتان فأكثر الثلثان، فإن كانت شقيقة ومعها أخت من أب أو أخوات كان للشقيقة النصف وللتي لأب السدس تكملة الثلثين. وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٥]. يُستدل بعمومها علىٰ إرث جميع عصبة الأقارب، ولم يورِّث الله الأخوات مع إخوتهن إلا البنات والأخوات للميِّت. وأما أولاد الإخوة والأعمام وأولادهم مهما تفاوتت درجاتُهم، فإنَّه يختص الذكر بالميراث دون أخواته.

وأما الجدة من جهة الأم أو من جهة الأب إذا عدمت الأم، فقد ثبت أنَّه ﷺ جعل لها السدس ولا تزيد عليه.

وأما مسائل العول فأخذها الصحابة رضي الله عنهم من عموم أمره تعالىٰ بالعدل، والعول هو العدل المستطاع، كما بسط ذلك في غير هذا الموضع.

وقوله في عدة مواضع: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ يدل علىٰ أنَّ جميع الورثة يرثون كلَّ ما خلّفه ميتهم من الأعيان والديون والحقوق، حتىٰ ما يجب له بعد موته من دية ونحوها.

وأما ميراث الرّد فيؤخذ أيضًا من مأخذ العول، لأنَّ القاعدة الشرعية أنَّ الأموال المشتركة زيادتها أو نقصها بين المشتركين بحسب حصصهم، والعولُ والردُّ فرد من أفراد ذلك.

وكذلك ميراث ذوي الأرحام مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٥] فعند عدم أهل الفروض والعصبات يكون ذوو الأرحام أولىٰ من غيرهم. وأمَّا صفة إرثهم فحيث كانوا مدلين بأصحاب فروض أو عصبات جُعلوا بمنزلتهم لأنَّهم فرعهم.

عقد المصنِّف رحمه الله ترجمة قال فيها: (أحكام المواريث) ذكر فيها قسمًا من الأقسام المندرجة تحت النوع الثالث من أنواع علوم القرآن وهو علم الأحكام.

فإن المصنِّف رحمه الله انتهىٰ بيانه إلىٰ ذكر الأقسام المندرجة في النوع الثالث والأخير من أنواع علوم القرآن وهو علم الأحكام، فمن جملة الأقسام المندرجة فيه أحكام المواريث، فبين المصنِّف رحمه الله أن الله عز وجل بيّن أحكام المواريث في القرآن الكريم في مواضع عدة ولاسيما في سورة النساء، ثم قال رحمه الله في أول كلامه: (لقد فصّل الله في هذه الآيات أحكام المواريث تفصيلًا تامًّا) أي جاءت مبينة واضحة جلية، ولأجل هذا ذهب بعض الفقهاء أنه غلب عليها اسم (الفرائض)؛ لأن الله عز وجل قدرها وحددها، فشهرت باسم الفرائض، وترجمة المصنِّف وهي أحكام المواريث أعم، لأن الميراث **يشمل كل ما خلفه الميت بعده مما يكون مأخوذًا بالفرض، أو بالتعصيب، أو بغير ذلك**، وكان مما ذكره في بيانه رحمه الله قوله: (فذكر ميراث الأولاد وهم أولاد الصُّلْبِ الذكور والإناث وأولاد البنين، كذلك الذكور والإناث دون أولاد البنات، فذكر أنَّهم إذا اجتمع منهم ذكور وإناث في درجة واحدة فللذكر مثل حظ الأنثيين) أي يضعّف ما له تضعيف حظ الأنثىٰ الواحدة، فيكون حظ الذكر يساوي حظ أنثيين، (وأنَّهم في هذه الحال يكونون عَصَبَةً لا يستحق معهم أحدٌ من القرابة شيئًا سوىٰ الوالدين فقط، لكلِّ واحد السدس) فلا يرث مع

الإخوة والأخوات من الأولاد لا يرث إلا والد أو والدة.

ثم قال: (ومن باب أولىٰ إذا كان الأولاد) أي أولاد الميت (ذكورًا خلّصًا) أي لم يمزجوا بإناث فإنهم أيضًا يستحقون الميراث ولا يستحق معهم أحد سوىٰ من يكون معهما من الوالدين.

ثم قال: (وإذا كانوا إناثًا فللواحدة التي ليس معها في درجتها أحد) أي في رتبتها من القرابة، وهذا هو المقصود بالدرجة (أحد النصف، وللثنتين) في الدرجة نفسها (فأكثر الثلثان) فترث الواحدة النصف فإن كان معها غيرها فإنهما يرثان الثُّلثان.

ثم قال: (فإن كانت الواحدة في الدرجة العالية) أي من القرابة (كبنت الصلب) بالنسبة للميت (ومعها بنتٌ أو بنات ابن) وبنت متعلِّقة بالمضاف إليه ابن أيضًا فالتقدير ومعها بنت ابن أو بنات ابن، (فللعالية) وهي بنت الصُّلب (النصف ويبقىٰ السدس تكملة الثلثين لبنات الابن).

ثم قال: (وذكر ميراث الأبوين مع الأولاد لكلِّ واحد منهما السدس) فالوالد مع الأولاد له السدس.

ثم قال: (أما الأم فلا تزيد عليه) أي: لا تزيد علىٰ السدس، (وكذلك الأب مع الأولاد الذكور أو مع البنات إذا اسْتُغرِقت الفروض) أي: لم يبق شيء، (فإن بقي شيء بعد أخذ البنات فروضهن أخذه الأب تعصيبًا) فيرد عليه الباقي لكونه عصبة الميت، (لقوله ﷺ في حديث ابن عباس الذي في الصحيح: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولىٰ رجل ذكر») والأب مع البنات هو أولىٰ رجل ذكر فيرث الباقي تعصيبًا.

قال المصنِّف: (وهو أولىٰ من الأبعدين).

ثم قال: (فإن كان أم وأب ومعهما أحد الزوجين) وهذه هي المسألة التي تسمىٰ بالعمرية وتثنىٰ فيقال: العمريتان باعتبار أنه تارة يكون زوجًا وباعتبار أنه يكون تارة أخرىٰ يكون زوجة قال: (أخذ أحد الزوجين فرضه) بحسب ما يُقدَّر له، (والباقي للأم ثلثه وللأب الباقي) فيكون للأم الثلث من الباقي وللأب الباقي بعد الثلث، (فإن كان للميت أخوة فلأمه السدس).

ثم قال: (والجد حكمه حكم الأب في جميع أحكام الفرائض بالاتفاق) أي ينزل منزلته إلا في مسائل ذكرها بقوله: (إلا في العمريتين المذكورتين فإن للأم مع الأب ثلث الباقي، ومع الجد ثلث المال كلِّه) أي لو هلك هالك عن زوجة وجد وأم فإن الأم ترث ثلث الباقي مع الأب، ومع الجد ترث ثلث المال كله.

ثم قال في مسألة أخرىٰ يختلف فيها حكم الجد عن حكم الأب قال: (وإلا مع الإخوة لغير أم، فإنَّ العلماء اختلفوا فمنهم من ورثهم مع الجد علىٰ تفاصيل كثيرة معروفة كزيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن وافقه

من الصحابة والأئمة، ومنهم من أسقطهم بالجد كقول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وأنزله منزلة الأب (**ومن وافقه من الصحابة والأئمة وهو القول الذي ترجحه الأدلة الكثيرة**)، فإذا وجد مع إخوة لأم فإنه يسقطهم على القول الصحيح ويقوم مقام الأب.

ثم قال: (**وذكر ميراث الزوجين وأنَّ للزوج نصف ما تركت زوجته، إذا لم يكن لها ولدٌ ذكرٌ أو أنثى واحدٌ أو متعددٌ ولدُ صُلْبٍ، أو ولدُ ابن منه، أو من غيره**) وهو الذي يشير إليه الفقهاء بقولهم: إذا عدم الفرع الوارث. فإذا عدم الفرع الوارث للزوجة من أي طرف كان كولد صلب أو ولد ابن منه أو من غيره فإن لزوجها النصف.

ثم قال: (**والرُّبع بوجود الولد المذكور، وأنَّ للزوجة الثمن مع الولد والربع مع عدمه**).

ثم قال: (**وذكر ميراث الإخوة من كلِّ جهة: أما الأخوة من الأم فلم يورثهم إلا في الكلالة**)، (**أي إذا كان الميت ليس له أولاد صلب ولا أولاد ابن لا ذكور ولا إناث ولا أب ولا جد**) أي لا وارث لهم (**فللواحد منهم السدس وللاثنين فأكثر الثلث ذكورهم وإناثهم واحد**) وسبق أن ذكرت لكم ضابطًا للكلالة.

ويسألونك عن الكلالة	هي انقطاع النسل لا محالة
لا والد يبقى ولا مولود	فانقطع الأبناء والجدود

ذكرها العلامة محمد الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان» فإذا انقطع أصله وفرعه فقد صار كلالة.

ثم قال: (**وأما الأخوة الأشقاء أو لأب فالذكور منهم عصبة، وكذلك إذا كان معهم إناث كان للذكر مثل حظ الأنثيين**) لأنه يعصبهن (**والواحدة من الإناث لها النصف والثنتان فأكثر الثلثان، فإن كانت شقيقة ومعها أخت من أب أو أخوات كان للشقيقة النصف وللتي لأب السدس تكملة الثلثين**) الذي يكون للأختين.

ثم قال: (**وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ يستدل بعمومها على إرث جميع عصبة الأقارب**) أي من أي جهة كانت.

ثم قال: (**ولم يورث الله الأخوات مع إخوتهن إلا البنات والأخوات للميت**) فتكون الأخوات محصورة في هاتين الحالين، (**وأما أولاد الإخوة والأعمام وأولادهم مهما تفاوتت درجاتهم، فإنَّه يختص الذكر بالميراث دون أخوته**) فلو كانت أخت ابن عم فإنها لا ترث وإنَّما يكون ابن عم الذكر هو الذي

يرث.

ثم قال: (وأما الجدة من جهة الأم أو من جهة الأب إذا عدمت الأم، فقد ثبت أنَّه ﷺ جعل لها السدس ولا تزيد عليه) فالجدة من أي الجهات كانت لها السدس سواء كانت من جهة الأم أو من جهة الأب.

ثم قال: (وأما مسائل العَوْل فأخذها الصحابة رضي الله عنهم من عموم أمره تعالىٰ بالعدل) لأن العول عندهم زيادة فروض المسألة علىٰ أصلها، فإذا أفصلت المسألة من شيء ثم زادت الفروض عليها سمي هذا عولًا، ووجه استنباطها من القرآن الكريم عموم أمره تعالىٰ بالعدل، أي في قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ [المائدة:٨] وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرحمن:٩] فكل هذه الآيات تدل علىٰ العدل، والعدل المستطاع في هذه الحال هو العول كما ذكر المصنِّف رحمه الله.

ثم قال: (وقوله في عدة مواضع ﴿مِمَّا تَرَكَۚ﴾) أي: الميت (يدل علىٰ أنَّ جميع الورثة يرثون كلَّ ما خلفه ميتهم من الأعيان والديون والحقوق) فما ثبت له أو عليه بذمته فإنه ينتقل إلىٰ ورثته، قال: (حتىٰ ما يجب له بعد موته من دية ونحوها) فإنه ينتقل إليهم لعموم قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَۚ﴾.

ثم قال: (وأما ميراث الرد) وهو إرجاع الباقي علىٰ أصحاب الفروض بعد استيفائهم فروضهم بنسبهما، قال: (فيؤخذ أيضًا من مأخذ العدل، لأنَّ القاعدة الشرعية أنَّ الأموال المشتركة زيادتها أو نقصها بين المشتركين بحسب حصصهم، والعولُ والردُّ فرد من أفراد ذلك) أي فرد من تلك الأموال المشتركة التي دخلتها الزيادة تارة ودخلها النقص تارة، فحكم فيها بالعول أو الرد.

ثم قال: (وكذلك ميراث ذوي الأرحام مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ فعند عدم أهل الفروض والعصبات) وهم أقارب الميت الذين يعصّبونه (يكون ذوو الأرحام أولىٰ من غيرهم) أي من البعيدين ولو كان بيت مال المسلمين، (وأمَّا صفة إرثهم فحيث كانوا مدلين بأصحاب فروض أو عصبات جعلوا بمنزلتهم لأنَّهم فرعهم) أي: رُدوا إلىٰ السبب الذي دخلوا به في الميراث فمثلًا الخال أدلىٰ بالميراث من طريق الأم فيكون بمنزلتها، وقل في بقية ذوي الأرحام هذا القول فيحكم لهم بالجهة التي أدلوا بها إلىٰ الميت.

الأحكام المتعلقة بالنساء وهي كثيرة جدًّا ذكرها الله في كتابه لامتزاج أحكام النساء بالرجال وكثرة الحقوق بينهما والتعلقات.

أحكام النكاح والصداق وتوابع ذلك من العشرة وحقوق الزوجية

قد أمر الله بالنكاح في عدة آيات وقال: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النساء]، وقال: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ [النساء:٢٤]، وذكر قصة تزوج موسىٰ لابنة صاحب مدين علىٰ أن يأجره ثمان أو عشر حجج، وقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [البقرة:٢٢٨] الآية.

فدلت هذه الآيات علىٰ الأمر بالتزوج وجوبًا أو استحبابًا بحسب الأحوال، وحث علىٰ تخير النساء الكُمّل، ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء:٣٤]. وقال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك»، وذلك لنفعها زوجها في دينه ودنياه، وحفظها نفسه وماله وحسن تدبيرها ونفعها للعائلة وتربية الأولاد تربية دينية.

وأباح للرجل أن يتزوج إلىٰ أربع من الحرائر، ومن الإماء ما شاء بملك اليمين، وحث علىٰ الاقتصار علىٰ واحدة عند الخوف من الظلم.

وأمَر بإيتاء النساء صدُقاتهن، وأن المهر يصلح بالقليل والكثير والأموال والمنافع، وأمَرَ من عنده يتيمة هو وليها أن لا يظلمها، وأنّه إن رغب في نكاحها أن يقسط لها في مهرها فلا ينقصه عما تستحقه، ومن رغب عنها أن لا يعضلها ويمنعها الزواج حتىٰ تعطيه شيئًا من مالها، أو حتىٰ يُعطىٰ من صداقها فإنَّ هذا ظلم؛ بل يتعين عليه أن يجتهد في مصلحتها كما يجتهد لبناته، وأنَّ المرأة إذا كانت رشيدة وطابت نفسه له بشيء من صداقها، فله أكله بلا حرج إن لم يكن ذلك بسبب عضله لها، فإن عضلها ظلمًا لتفتدي منه بما أتاها أو ببعضه، فقد أتىٰ إثمًا عظيمًا. وبيّن تعالىٰ أنَّ الحكمة في ذلك أنّه كيف يأخذه وقد استوفىٰ المنفعة وأفضىٰ بعضهم إلىٰ بعض، ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النساء] وهو التزام الزواج المتضمن للقيام بجميع الحقوق التي أولها إيفاؤها الصداق، وإنَّما يتنصف الصداق إذا طلق قبل الدخول وقد فرض لها مهرًا، فلها نصف ما فرض إلا إن عفا أحدهما عن نصفه فيكون للآخر. ففي هذه الآيات أنَّ الصداق ملكٌ للزوجة، وأنّه يتقرّر كلُّه بالدخول وكذلك بالموت لتمام وقته.

وأمر تعالىٰ كلًا من الزوجين أن يعاشر الآخر بالمعروف من الصحبة الجميلة اللائقة بحالهما وكف الأذىٰ، وأن لا يمطل كلٌّ منهما بحق الآخر، ولا يتكره لبذله ويدخل في المعاشرة بالمعروف أنَّ النفقة والكسوة والمسكن وتوابع ذلك راجع إلىٰ العرف إذا اختلفا في تقديره وتحديده، وأنَّه تابع ليسر الزوج وعسره. قال تعالىٰ: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق:٧] وقد أرشد الله وحثّ علىٰ الصبر علىٰ الزوجات ولو كرهها الزوج، فعسىٰ أن يكون منها خير كثير يبدل الله الكراهة بالمحبة، وتتبدل طباعها أو يرزق منها أولادًا أو يكون له من مقارنتها وصحبتها وتوليها لماله مصالح كثيرة.

وقوله: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء:٢٠] يدل علىٰ جواز كثرة المهر، مع أنَّ الأولىٰ السهولة فيه وفي غيره فخير النساء أسهلهن مؤنة.

وقد حرّم تعالىٰ من الأقارب سبعًا:

الأمهات وهنَّ كلُّ أنثىٰ لها عليك ولادة.

والبنات وهنَّ كلُّ أنثىٰ لك عليها ولادة.

والأخوات من كلِّ جهة، وبناتهن وبنات الإخوة وإن نزلن، والعمات وهنَّ كلُّ أنثىٰ أخت لأبيك أو لأحد أجدادك، والخالات وهنَّ كلُّ أنثىٰ أخت لأمك أو لأحد جداتك.

وما سواهنَّ من الأقارب حلالٌ؛ كبنات العم وبنات العمات وبنات الأخوال وبنات الخالات، ويحرم من الرضاع نظير ما يحرم بالنسب من جهة المرضعة، ومن جهة زوجها الذي له اللبن، وأما من جهة الطفل الراضع فلا ينتشر التحريم في الرضاع إلا عليه وعلىٰ ذريته.

وحرّم تعالىٰ من الصِّهر أربعًا: ثلاث بمجرد العقد وهن أمهات زوجاتك، وحلائل أولادك، وحلائل آبائك، وبنات الزوجات إذا دخل بأمهنَّ، فإن لم يدخل بها فلا جناح عليه في الربائب.

وحرّم تعالىٰ الجمع بين الأخوات، وحرمت السنّة الجمع بين المرأة وعمتها، وبينها وبين خالتها، وحرم المملوكة علىٰ الحر إلا إذا عُدم الطول وخاف العنت وهي مسلمة.

وحرّم علىٰ المسلم نكاح الكافرة والإمساك بعصمتها إلا المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارىٰ، وحرّم إنكاح المسلمة للكافر، وحرّم نكاح الزانية حتىٰ تتوب، ومن طلقها ثلاثًا حتىٰ تنكح زوجًا غيره نكاحًا صحيحًا ويطأها ويطلّقها وتنقضي عدتها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]. صريح على أنَّه ليس للمؤمنين أن ينكحوا إلا بمهر مسمى أو مفروض بعد ذلك، وأنَّه إذا شرط نفيَه لغا الشرط، وهل يبطل مع ذلك النكاح أو يجب مهر المثل مع صحة العقد. فيه قولان لأهل العلم، وهذا أيضًا يدلُّ على تحريم نكاح الشغار بأن يزوِّج كلُّ واحد الآخر موليته، ومهر كلِّ واحدة بضع الأخرى.

وقد ذكر الله أنَّه لو تزوَّجها ولم يفرض لها صداقًا ثم يطلقها قبل المسيس، أنَّ لها المتعة على الموسع قدره وعلى المُقتر قدره.

وأمَّا متعة الزوجة المطلَّقة في غير هذه المسألة فإنَّها سنّة مؤكدة كما قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة].

وقد ذكر الله خطاب الأولياء في شأن النساء في عدة مواضع، مثل قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢] وذلك دليل على اعتبار الولي في النكاح، كما أنَّ قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء] دليل على الإيجاب والقَبول، لأنَّ من جملة الميثاق الغليظ إيجاب النكاح وقبوله المتضمن للقيام بجميع حقوق الزوجية ومنه المهر وتوابعه. وفي قوله: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ [البقرة:٢٣٢] دليل على اعتبار رضى الزوجين وأنَّ ذلك التراضي مقيد بالمعروف، فلو رضيت غيرَ كفو لها فلأوليائها منعها من تزوجه.

وقد أمر الله الزوج إذا نشزت زوجته أن يعظها ويهجرها في المضجع، فإن لم تعتدل أن يضربها، وأنَّه إذا خيف الشقاق بينهما وخيف ألا تقبل الحالة الالتئام أنْ يجتمع حكَمان: واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة، فينظران في الاجتماع بينهما إن أمكن بطريقة من الطرق، إما ببذل عوض أو إسقاط حق من الحقوق أو بغير ذلك، فلا يعدلا عن ذلك وإلا فلهما التفريق بينهما بخلع أو بتطليق بحسب ما تقتضيه الأحوال.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد فراغه من القسم المتقدم وهو أحكام المواريث، أن الأحكام المتعلقة بالنساء كثيرة جدًّا، ذكرها الله في كتابه (لامتزاج أحكام النساء بالرجال وكثرة الحقوق بينهما والتعلقات).

ثم عقد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمتين فيهما بيان ما يتعلق بأحكام النساء في القرآن فالترجمة الأولى: قوله: (أحكام النساء والصداق وتوابع ذلك من العشرة والحقوق الزوجية).

ثم قال: (أحكام الطلاق والخلع، والعدد، والنفقة، والرضاع، والإيلاء، والظهار، واللعان، وتوابع

ذلك من الرجعة وغيرها).

واستنباط أحكام النساء من القرآن من أعظم الموارد النافعة في إصلاح أحوال المسلمين في هذا الباب في هذه الأزمان لكثرة الخلط والخبط فيه، ومن العلوم التي تلزم المتفقهة من قبل ومن بعد وتشتد الحاجة إليها في هذه الأزمنة أحكام النساء، ومن أحسن الكتب المفردة فيها كتاب أبي الفرج الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعروف بـ«أحكام النساء» وكذلك للعلامة صالح بن فوزان كتاب نافع اسمه «أحكام تختص بالمؤمنات»، فلابد من العناية بهذه الأحكام لشدة الحاجة إليها، لأننا صرنا إلىٰ زمن بدلت فيه كثير من الأحكام الشرعية المجعولة للنساء ومن جملة الأحكام الشرعية المجعولة للنساء في القرآن الكريم ما ذكره المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الجملة تحت الترجمة التي ترجم لها بقوله: (**أحكام النكاح والصداق وتوابع ذلك من العشرة وحقوق الزوجية**) فذكر أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بالنكاح في عدة آيات، ثم ذكر هؤلاء الآيات.

ثم قال: (**فدلت هذه الآيات علىٰ الأمر بالتزوج وجوبًا أو استحبابًا بحسب الأحوال**) لأن الأمر ينفصل إلىٰ إيجاب أو استحباب عند الأصوليين والفقهاء فإما أن يكون الزواج واجبًا أو مستحبًا بحسب الحال التي تستدعيه، فإذا خشي المرء الفتنة علىٰ نفسه ووجد القدرة علىٰ النكاح صار عليه واجبًا.

ثم قال: (**وحث علىٰ تخير النساء الكُمّل**) ثم ذكر قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ**﴾، وذكر حديث النبي ﷺ في الصحيح: «تنكح المرأة لأربع: لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك»، ثم علله بقوله: (**وذلك لنفعها زوجها في دينه ودنياه، وحفظها نفسه وماله وحسن تدبيرها ونفعها للعائلة وتربية الأولاد تربية دينية**) فانتفاع المرء بنكاح ذات الدين أعظم من انتفاعه بغيرها.

ثم ذكر أن الله (**أباح للرجل أن يتزوج إلىٰ أربع من الحرائر**) كما قال تعالىٰ: ﴿**مثنىٰ وثلاث ورباع**﴾ فانتهىٰ العد إلىٰ الأربع، (**ومن الإماء**) أي المملوكات بملك اليمين (**ما شاء**) و(حث علىٰ الاقتصار بواحدة عند الخوف من الظلم) فمن عجز عن إقامة العدل وخاف الوقوع في الظلم فإنه يقتصر علىٰ واحدة.

ثم ذكر أن الله عَزَّوَجَلَّ (**أمر بإيتاء النساء صدُقاتهن**) أي مهورهن، (**وأن المهر يصلح بالقليل والكثير والأموال والمنافع**) فلو أعطاها مالًا قليلًا أو كثيرًا صح المهر، أو منفعة كتعليم أدب أو حديث أو غير ذلك فإنه يصح.

ثم قال: (وأَمَرَ من عنده يتيمة هو وليها ألا يظلمها، وأنَّه إن رغب في نكاحها أن يقسط لها في مهرها) بالعدل (فلا ينقصه عما تستحقه، ومن رغب عنها ألا يعضلها ويمنعها الزواج حتىٰ تعطيه شيئًا من مالها، أو حتىٰ يُعطىٰ من صداقها فإنَّ هذا ظلم؛ بل يتعين عليه أن يجتهد في مصلحتها كما يجتهد لبناته).

ثم قال: (وأنَّ المرأة إذا كانت رشيدة) أي عاقلة أونس منها الرشد (وطابت نفسها له بشيء من صداقها) أي رضيته أن تعطيها شيء من صداقها عن طيب نفس منها (فله أكله بلا حرج إن لم يكن ذلك بسبب عضله لها) أي منعه من الزواج (فإن عضلها ظلمًا لتفتدي منه بما أتاها أو ببعضه، فقد أتىٰ إثمًا عظيمًا) أي إذا منعها الزواج حتىٰ تفتدي منه بما أتاها من المهر أو ببعضه فقد أتىٰ إثمًا عظيمًا.

ثم قال: (وبيّن تعالىٰ أنَّ الحكمة في ذلك أنَّه كيف يأخذه وقد استوفىٰ المنفعة وأفضىٰ بعضهم إلىٰ بعض ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾ وهو التزام الزوج المتضمن للقيام بجميع الحقوق التي أولها إيفاء الصداق).

ثم قال: (وإنَّما يتنصّف الصداق) أي يدفع منه نصفه (إذا طلق قبل الدخول وقد فرض لها مهرًا) فإذا طلقها قبل الدخول بها وقد عين لها مهرًا وهذا معنىٰ الفرض (فلها نصف ما فرض) أي عين (إلا إن عفا أحدهما عن نصفه فيكون للآخر) فإذا عفت المرأة عن ذلك النصف فإنه لا يدفع إليها شيئًا أو هو بذل لها المهر كاملًا عافيًا عن النصف الذي له جاز ذلك.

قال: (ففي هذه الآيات أنَّ الصداق ملكٌ للزوجة، وأنَّه يتقرر كلُّه بالدخول وكذلك بالموت لتمام وقته) أي تستوفيه كاملًا إذا دخل بها وكذلك إذا مات عنها.

ثم قال: (وأمر تعالىٰ كلًا من الزوجين أن يعاشر الآخر بالمعروف من الصحبة الجميلة اللائقة بحالهما وكف الأذىٰ، وألا يمطل كلٌّ منهما بحق الآخر) أي: لا يسوف أحدهما بحق الآخر ويمنعه ذلك.

ثم قال: (ولا يتكره لبذله) أي لا يكون كارهًا لبذله (ويدخل في المعاشرة بالمعروف أنَّ النفقة والكسوة والمسكن وتوابع ذلك راجع إلىٰ العرف إذا اختلفا في تقديره وتحديده، وأنَّه تابع ليسر الزوج وعسره) لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بالمعاشرة بالمعروف أي المعاملة بالعشرة بالمعروف، ومرد قدر المعروف يكون إلىٰ المعروف بين الناس، فكل ما دخل في اسم المعروف في نفقة أو كسوة أو مسكن فإنه لازم علىٰ الرجل.

ثم ذكر أن ذلك تابع أيضًا ليسر الزوج وعسره، فبحسب ما يستطيع من القدرة يكلَّف كما قال تعالىٰ:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي ضُيِّق عليه رزقه ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

ثم قال: (وقد أرشد الله وحثّ علىٰ الصبر علىٰ الزوجات ولو كرهها الزوج، فعسىٰ أن يكون منها خير كثير يبدل الله الكراهة بالمحبة، وتتبدل طباعها أو يرزق منها أولادًا أو يكون له من مقارنتها وصحبتها وتوليها لماله مصالح كثيرة) فالحياة الزوجية تحتاج إلىٰ صبر لإقامتها وليس كل البيوت تقام علىٰ المحبة وإنَّما أكثر بيوت المسلمين علىٰ الإحسان كما **صح عن عمر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فليس كل زوجين يقع من أحدهما في قلب الآخر حب شديد له، بل أقل ما يقع بينهما الرحمة بينهما بأن يرحم أحدهما الآخر ويحسن إليه، فلابد أن يعتني الإنسان بالصبر علىٰ إمساكه بزوجه تقربًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ورجاء أن يرزقه الله عَزَّوَجَلَّ منها خيرًا بأي وجه كان من وجوه الخير.

ثم قال: (وقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ يدل علىٰ جواز كثرة المهر)، لأن القنطار قدر كثير من المال، (مع أنَّ الأولىٰ السهولة فيه وفي غيره فخير النساء أسهلهن مؤنة) يعني كلفة.

ثم ذكر المحرمات من النساء وأنهن الأمهات، والبنات، والأخوات، وبنات الإخوة، والعمات، والخالات، فكل ما كان قريبًا للرجل من هؤلاء النساء فإنه يحرم عليه.

ثم قال: (وما سواهنَّ من الأقارب حلالٌ) وغيرهن أولىٰ، فكل ما عدا هؤلاء المحرمات فإنه حلال للرجل من قرابته أو من غير قرابته.

ثم قال: (ويحرم من الرضاع) أي بسبب الرضاع (نظير ما يحرم بالنسب من جهة المرضعة، ومن جهة زوجها الذي له اللبن) أي باعتبار ما تعلق بالزوج الذي له اللبن فإنها لم تَدُر إلا بولادة منه، أو من جهة المرضع (وأما من جهة الطفل الراضع فلا ينتشر التحريم في الرضاع إلا عليه وعلىٰ ذريته) فقط، فلو قُدِّر أن رجلين تحت كل واحد منهما أخت الأخرىٰ ثم رضع ولد من أبناء الأولىٰ مع بنت من أبناء الثانية فإن الرضاع يتعلق بهذا الراضع فقط، وأما إخوانه فلهم أن يتزوجوا من أخوات تلك الراضعة، فله أن يتزوج أخت تلك الراضعة أو بنت أختها أو غير ذلك.

ثم قال: (وحرّم تعالىٰ من الصهر أربعًا ثلاث بمجرد العقد) أي بسبب الصهر (ثلاث بمجرد العقد وهن أمهات زوجاتك، وحلائل أولادك، وحلائل آبائك، وبنات الزوجات إذا دخل بأمهنَّ) وهذا هو الصنف الرابع الذي حرم بالدخول وهو بنات الزوجات إذا دخل بأمهن، (فإن لم يدخل بها فلا جناح عليه في الربائب).

ثم قال تعالىٰ: (وحرّم تعالىٰ الجمع بين الأخوات، وحرمت السنّة الجمع بين المرأة وعمتها، وبينها

وبين خالتها، وحرم المملوكة على الحر إلا إذا عدم الطول) يعني القدرة (وخاف العنت وهي مسلمة) فللحر أن ينكح مملوكة إذا وجد ذلك وهو عدم القدرة وخاف العنت وهي المشقة والفتنة عليه، فإنه حينئذ يتزوج مملوكة مسلمة.

ثم قال: (وحرّم على المسلم نكاح الكافرة والإمساك بعصمتها) أي بقائها في ذمته (إلا المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى) فإنه يجوز إبقاؤهن في العصمة، (وحرّم إنكاح المسلمة للكافر) فلا يُنكح كافر مسلمة (وحرّم نكاح الزانية حتى تتوب) بأن تتبين توبتها من زناها ويتيقن ذلك منها باعتبار القرائن التي تعرف من حالها، (ومن طلقها ثلاثًا) حرمت عليه (حتى تنكح زوجًا غيره نكاحًا صحيحًا ويطؤها) فلابد أن يدخل بها وأن يطأها (ويطلقها وتنقضي عدتها) فإذا نكحها ووطئها وطلقها وانقضت عدتها جاز لزوجها الأول أن يراجعها ويتزوجها مرة أخرى.

ثم ذكر أن (قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ صريح على أنّه ليس للمؤمنين أن ينكحوا إلا بمهر مسمى أو مفروض بعد ذلك) لأن اسقاط ذلك خاص بالنبي ﷺ، ثم قال: (وأنّه إذا شرط نفيه لغا الشرط) فإذا شرط نفي المهر فإن هذا الشرط لاغٍ لأنه باطل، (وهل يبطل مع ذلك النكاح أو يجب مهر المثل مع صحة العقد؟ فيه قولان لأهل العلم) أي إذا عقد بلا مهر هل يكون النكاح باطلًا أو يكون النكاح صحيحًا ويجب فيه مهر المثل يعني مهر مثلها من نسائها؟ فيه قولان لأهل العلم:

ومذهب الجمهور صحة العقد ودفع مهر المثل.

والقول الثاني: أن العقد لا يصح ولابد من تجديده وإثبات المهر فيه، وهذا هو اختيار أبو العباس ابن تيمية والمصنِّف رحمهما الله فإنهما يدفعان وقوع نكاح بلا مهر البتة.

ثم قال: (وهذا أيضًا يدل على تحريم نكاح الشغار بأن يزوج كلُّ واحد الآخر موليته) أي من يتولاها (ومهر كلِّ واحدة بضع الأخرى) أي إتيانها ونكاحها فيكون كل واحد منهما لم يدفع مالًا وإنّما دفع كل واحد منهما من يتولاها من النساء ويرعاها إلى الآخر، وأقامها مقام المهر وهذا محرم ونكاح باطل.

ثم قال: (وقد ذكر الله أنّه لو تزوجها ولم يفرض لها صداقًا ثم يطلقها قبل المسيس، أنَّ لها المتعة) أي: تمتع بالمال على الموسع قدره وعلى المقتر قدره بحسب ما يستطيع.

ثم قال: (وأمّا متعة الزوجة المطلقة في غير هذه المسألة) وهي لو تزوجها ولم يفرض لها صداقًا ثم طلقها فإنّها سنّة مؤكدة كما قال تعالى: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾.

ثم قال: (وقد ذكر الله خطاب الأولياء في شأن النساء في عدة مواضع، مثل قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ وذلك دليل علىٰ اعتبار الولي في النكاح، كما أنَّ قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾ دليل علىٰ الإيجاب والقبول، لأنَّ من جملة الميثاق الغليظ إيجاب النكاح وقبوله المتضمن للقيام بجميع حقوق الزوجية ومنه المهر وتوابعه. وفي قوله: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ دليل علىٰ اعتبار رضىٰ الزوجين وأنَّ ذلك التراضي مقيد بالمعروف، فلو رضيت غير كفو لها فلأوليائها منعها من تزوجه) وهذه الجملة أراد بها المصنِّف ذكر أركان النكاح بالآيات التي دلت عليها في القرآن الكريم.

ثم قال: (وقد أمر الله الزوج إذا نشزت زوجته) يعني إذا فارقته وعصته (أن يعظها ويهجرها في المضجع، فإن لم تعتدل أن يضربها) فيكون مبدأ إصلاحها وعظها وزجرها بذلك ثم هجرها في المضطجع بأن لا يجتمع معها في فراش، فإن لم تستقم فإنه يضربها.

ثم قال: (وأنَّه إذا خيف الشقاق بينهما) يعني شدة الخصام ووقع البلاء بينهما (وخيف أن لا تقبل الحالة الالتئام) يعني الاجتماع (أنْ يجتمع حكمان: واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة، فينظران في الاجتماع بينهما إن أمكن بطريقة من الطرق) بالتأليف بينهما (إما ببذل عوض أو إسقاط حق من الحقوق أو بغير ذلك، فلا يعدلا عن ذلك وإلا فلهما التفريق بينهما بخلع أو بتطليق بحسب ما تقتضيه الأحوال) فإذا لم يمكن لُّم شعثهما بالإصلاح بينهما والتأليف بين قلوبهما فإنه عند ذلك لا محيص عن التفريق بينهما بالطريق الذي يؤدي إلىٰ افتراقهما إما بالافتداء بمال وهو الخلع أو بأن يطلقها الرجل بحسب ما تقتضيه الأحوال.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب، ونكتفي بها لجلالة مسائلها.

وقبل الشروع في قراءتها ننبه إلىٰ ما يحتاج إليه من إيضاح عبارة درجت في درس الفقه المتقدم كأن الكلام وقع مني غير مصادف لمراد المصنِّف، وهو ما ذكره في النذر المتتابع، وأن النذر المتتابع في الاعتكاف وغيره نوعان:

أحدهما: أن يكون غير مقيد بزمن.

والثاني: أن يكون مقيد بزمن.

فالنوع الأول وهو الذي يكون مقيد بزمن إذا جاء بمبطل فيه فإنه يستأنف، ثم يكفر.

والنوع الثاني الذي غير مقيد بزمن فإنه يستأنف ولا يكفر، مثاله: أن يكون نوىٰ أن يعتكف نذرًا لله عَزَّوَجَلَّ، ومثله صيام وصلاة في يوم الثامن، والتاسع، والعاشر، ثم جاء بمبطل في يوم التاسع فإنه يبتدئ اعتكافه لأيام ثلاثة جديدة، لأنه نوىٰ نذرًا أن يعتكف ثلاثة أيام متتابعة فيقضي ما عليه بالاعتكاف مجددًا، يقضي نذره بالاعتكاف المجدد ثلاثة أيام، ثم يكفر عن التعيين لأنه فات المحل فهو قد نذر أن يعتكف الثامن، والتاسع، والعاشر، ثم أبطل ذلك الاعتكاف في التاسع فيستأنف في العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر فيكون قد أتىٰ بثلاثة أيام متتابعة لكن لا علىٰ ما عينه من وقتها، ويكفر عن ذلك.

أما إن كانت غير معينة بوقت كأن ينوي نذرًا اعتكاف ثلاثة أيام، ثم ابتدأ في تلك الأيام ثم أفسد اعتكافه في اليوم الثاني أو أفسد صيامه في اليوم الثاني فإنه يستأنف فيصوم أيامًا ثلاثة جديدة لكن ليس عليه كفارة، لأنه لم يقيدها بزمن معين فلم يفت المحل لأنه نوىٰ ثلاثة أيام متتابعة، فصحت من أي زمن، لكن إذا قيدها بزمن ثم فات محلها فإنه يستأنف ويكفر عن فوات المحل.

أحكام الطلاق، والخلع، والعِدد، والنفقة، والرضاع، والإيلاء، والظهار، واللعان، وتوابع ذلك من الرجعة وغيرها

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] الآية، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٤٩﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٢٨] إلىٰ أن قال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة:٢٢٩] إلىٰ أن قال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة:٢٣٠]، وقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق:٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة:٢٣٤].

يستفاد من هذه الآيات أحكام كثيرة في الطلاق والرجعة والعدة. تقدم أنَّ الله حثّ علىٰ إمساك النساء والصبر عليهن، وأنَّه عسىٰ أن يكون فيه خير كثير، وهذا يدل علىٰ محبة الله للاتفاق بين الزوجين وكراهته للفراق، وهذه الآيات دالة علىٰ إباحة الطلاق وهو من نعمه علىٰ عباده، إذ فيه دفع ضرر ومشاق كثيرة عند الاحتياج إليه. ومَعَ ذلك فقد أمر عباده إذا أرادوا أن يطلقوا أن يلزموا الحدود الشرعية التي هي صلاح دينهم ودنياهم فيطلقونهن لعدتهن، فسرها ﷺ بأنَّها تكون طاهرة من الحيض من غير جماع حصل بهذا الطهر، فبهذا تكون مطلقة لعدتها وتعرف أنَّها شرعت فيها، وكذلك إذا طلقت بعدما استبان حملها. وهذا يدل علىٰ أن الطلاق في الحيض أو في الطهر الذي حصل فيه وطء، ولم يستبن حملها أنَّه حرام، وكذلك لا يحل أن يطلقها أكثر من واحدة لقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة:٢٣١]، ولم يذكر الله الألفاظ التي يحصل بها الطلاق ولم يعينها، فدل علىٰ أنَّه كلُّ لفظ يفهم منه الطلاق بصريحه أو كنايته إذا تعينت بالنية أو القرينة، فإنَّه يقع بها الطلاق.

ودلّ علىٰ أن الطلاق الذي تحصل به الرجعة طلقة أو طلقتان، فإن طلقها الثالثة لم تحل له إلا بعد زوج ينكحها نكاحًا صحيحًا ويطؤها، ثم يطلقها وتعتد بعده. وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا﴾ [البقرة:٢٣٠] يدل علىٰ تحريم نكاح التحليل لأنَّه ليس بنكاح شرعي ولا يفيد الحل، ودلّ قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٢٨] علىٰ أنَّ الرجعية زوجة حكمها حكم الزوجات في كلِّ شيء، إلا أنَّه لا قَسْم لها، وأنَّه له رجعتها رضيت أو كرهت لكونه أحق بها.

واشترط الله للرجعة شروطًا:

أحدها: أن يكون في طلاق، فإن كان في فسخ من الفسوخ، فلا رجعة فيها لقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ [البقرة:٢٢٨].

الثاني: أن يكون الطلاق واحدة أو اثنتين؛ لأنَّ قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة:٢٢٩] يعني الذي يحصل به الرجعة، ثم صرح بعد ذلك أنَّه إن طلقها لم تحل له حتىٰ تنكح زوجًا غيره.

الثالث: أن تكون في العدة لقوله: ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٢٨].

الرابع: ألا يقصد برجعتها الإضرار بها؛ بل يقصد إرجاعها لزواجه الحقيقي.

الخامس: ألا يقع الطلاق علىٰ عوض، فإن وقع علىٰ عوض فهو الخُلع أو معناه، والله تعالىٰ سمىٰ الخلع فداء، فلو كان له عليها رجعة لم يحصل الفداء.

السادس: ألا يكون الطلاق قبل الدخول لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ﴾ [الأحزاب:٤٩].

ودلت هذه الآية علىٰ أنَّ الطلاق لا يقع إلا بعد النكاح، فلو عَلَّقَهُ علىٰ نكاحه لها أو نَجَّزَهُ لأجنبية لم يقع.

ودلَّت علىٰ أنَّ المفارقة في الحياة لا عدة عليها، وأمَّا بعد الدخول فإن كانت تحيض فعدَّتها ثلاثة أقراء كاملة، تبتدي بها بعد الطلاق. وظاهر الآية طالت مدَّتها أو قصرت، فإن كانت صغيرة أو لم تحض، أو كانت آيسة من الحيض فعدَّتها ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملًا فعدتها بوضع الحمل كلِّه، وإن أشكل أمرها فلم يُدْرَ هل هي حاملٌ أم لا، بعدما كانت تحيض ولم تيأس مكثت تسعة أشهر احتياطًا للحمل، ثم اعتدَّت بثلاثة أشهر.

وأما المتوفَّىٰ عنها فعدتها إن كانت حاملًا بوضع الحمل، وإن لم تكن حاملًا فبأربعة أشهر وعشر احتياطًا عن الحمل.

وفي قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٤٠] فيها تنبيهٌ علىٰ الإحداد علىٰ المتوفىٰ عنها زوجها، وأنَّها تترك في وقت عدَّتِها كلَّما يدعو إلىٰ نكاحها من ثياب الجمال والحلي والطيب والكحل والحنا ونحوها، كما وردت مفصلة في السنّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة:٢٣٥] الآية. التعريض الذي نفىٰ الله الحرج فيه في خطبة البائن بوفاة أو ثلاث أو فسخ. فالتصريح لا يحل والتعريض الذي

يحتمل الخطبة ويحتمل غيرها لا بأس به، وأمَّا الرجعية فلا تحل خطبتها لا تصريحًا ولا تعريضًا لأنَّها في حكم الزوجات، وفي هذه الآية تحريم العقد علىٰ المعتدة، لأنَّه إذا حرمت خطبتها، فمن باب أولىٰ نفس العقد فهو حرام غير منعقد.

وأما نفقة المطلقة ما دامت في العدة، فإن كانت رجعية فلها النفقة، لأنَّ الله جعلها زوجة وزوجها أحق بها، فلها ما للزَّوجات من النفقة والكسوة والمسكن.

وأما البائن فإن كانت حاملًا فلها النفقة لأجل حملها لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦] وإن لم تكن حاملًا، فليس لها نفقة واجبة ولا كسوة.

وأما نفقة الرضاع فهي علىٰ الأب؛ فإن كانت أمّه في حبال أبيه فنفقة الزوجة تندرج فيها نفقة الرضاع لقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٣] فلم يوجب غيرها، وإن لم تكن في حباله، فعليه لها أجرة الرضاع لقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦]، وأمر تعالىٰ أن ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣٣] وهذا شاملٌ لكلِّ ضرر.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٣]. استدل بها علىٰ نفقة القريب المحتاج إذا كان وارثه غنيًا وارثًا له، وهذا الشرط الأخير في غير الأصول والفروع، فالغني منهم عليه نفقة الفقير وارثًا كان أو غير وارث.

وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩] فيه جواز الخلع عند خوف ألَّا يقيما حدود الله، وأنَّه يجوز بالقليل والكثير، وأنَّه فدية لا يحسب من الطلاق، وليس فيه رجعة.

قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٤١] يشمل كلَّ مطلَّقة فينبغي لمن طلق زوجته أن يمتعها بالمتيسر من المال، وذلك من أفضل الإحسان، ومن مكارم الأخلاق لأنَّها في هذه الحال منكسر خاطرها، قليل في الغالب ما في يدها، ولا تجب إلا إذا طلَّقها قبل الدخول ولم يسمِّ لها مهرًا.

وقد أرشد الله الزوج إلىٰ أن يمسك زوجته بمعروف أو يفارقها بمعروف، وذلك للسلامة من التبعة ولراحة الطرفين وبقاء الألفة بين الأصهار، وحصول الحياة الطيِّبة المانعة من الأكدار، فهل أحسن من هذا الحكم لقوم يوقنون.

واستُدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣] مع قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ

وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف:١٥]. أنَّ أقل مدة يمكن حياة الحمل فيها ستة أشهر، لأنَّك إذا ألقيت[1] الحولين من الثلاثين شهرًا بقي ستة أشهر للحمل.

قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٢٢٧﴾ [البقرة]. فيها حكم الإيلاء وهو حلف الزوج علىٰ ترك وطء زوجته أبدًا، أو مدة تزيد علىٰ أربعة أشهر، فإذا طلبت الزوجة حقها من الوطء وامتنع لإيلائه ضربت له مدة أربعة أشهر، ثم إمَّا أن يطأ ويكفّر عن يمينه، وإمَّا أن تلزمه بالطلاق.

ويؤخذ من معنىٰ الآية أنَّ الزوج إذا امتنع ممَّا يجب عليه من فراش، أو وطء، أو نفقة، أو كسوة، أو مسكن، أو نحوها من الواجبات التي لا عُذر له في تركها، وألحَّت في طلبها حقَّها أنَّ لها الفسخ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النور:٦] الآيات. لما ذكر تعالىٰ أنَّ من قذف غيره بالزنىٰ، فعليه حد القذف ثمانون جلدة إن لم يأت بأربعة شهداء. استثنىٰ من رمىٰ زوجته بالزنىٰ وأنكرت، فإن له أن يلاعنها بأن يشهد أربع شهادات إنَّه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنىٰ، ويزيد في الخامسة وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم تقابله فتشهد أربع شهادات بالله إنَّه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنىٰ، وتزيد في الخامسة وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. فإذا تم اللعان بينهما ترتب عليه سقوط حد القذف عنه وسقوط العذاب عنها وهو حد الزنىٰ أو الحبس، وانتفىٰ الولد المنفي بهذا اللعان وحصلت الفرقة المؤبدة بينهما.

قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة:١] الآيات. ذكر الله حكم الظهار، وأنَّه منكر من القول وزور، وأنَّه إذا أراد أن يعود لوطئها بعد هذا التحريم بأن يحرمها صريحًا أو يقول: هي عليّ كظهر أمي أعتق رقبة مؤمنة من قبل أن يتماسا فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمة أخرىٰ تتضمن قسمًا من الأقسام اللاحقة بالنوع الثالث من أنواع علوم القرآن وهو علم الأحكام فقال: (أحكام الطلاق، والخلع، والعدد، والنفقة، والرضاع، والإيلاء،

---

(١) الله أعلم بصحة (ألقيت) هذه، أخشىٰ أنها (ألغيت) المعروف يعبرون إذا ألغيت الحولين من الثلاثين، لكن المثبت هكذا، ولعل الصواب ألغيت الحولين من الثلاثين، يعني نقصتها منها، مر معنا مثلها كذلك فيما تقدم الحنا كتبت بدون همز هذا علىٰ قواعد الإملاء القديمة، يكتبون الأسما والأشيا المهموز يكتبونه بدون همز لأنها تجيء بهمز وبدونها، لكن في قواعد إملاء الحديث تثبت الهمز مع وجود لغة أيضًا بحذفها، لكن هو أثبتها في هذا المحل بدون همز.

والظهار، واللعان، وتوابع ذلك من الرجعة وغيرها) فهو تابع للزمرة المتقدمة من المسائل المندرجة في قوله: (**الأحكام المتعلقة بالنساء**) فإن هذه الترجمة مع سابقتها مندرجة في أحكام النساء المذكورة في القرآن، ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الآي المتعلقة بمقصود الترجمة.

ثم قال: (**يستفاد من هذه الآيات أحكام كثيرة في الطلاق والرجعة والعدة، تقدم أنَّ الله حثّ على إمساك النساء والصبر عليهن، وأنَّه عسىٰ أن يكون فيه خير كثير، وهذا يدل علىٰ محبة الله للاتفاق بين الزوجين وكراهته للفِراق**) فإن المقصود من النكاح هو إعفاف المسلم والمسلمة، والتئام قلوبهما علىٰ محبة بعضهما البعض، وذلك مما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ويرضاه لما فيه من المقاصد المطلوبة شرعًا، وضد ذلك من الكراهة لغير موجب يوجبها مما ذكره الله تَعَالَىٰ، ورُوي في حديث عند أبي داود عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «إن أبغض الحلال إلىٰ الله الطلاق» وإسناده ضعيف.

ثم قال المصنِّف: (**وهذه الآيات دالة علىٰ إباحة الطلاق وهو من نعمه علىٰ عباده، إذ فيه دفع ضرر ومشاق كثيرة عند الاحتياج إليه**) فإذا احتيج إليه كان في حصوله رفع ضرر ومشاق كثيرة تلحق الزوجين أو أحدهما.

ثم قال المصنِّف: (**ومَعَ ذلك فقد أمر عباده إذا أرادوا أن يطلقوا أن يلزموا الحدود الشرعية التي هي صلاح دينهم ودنياهم فيطلقونهن لعدتهن**) أي أن يطلقوا النساء لعدتهن المقدرة شرعًا.

ثم جاء بما يبين هذه العدة بما صح عن النبي ﷺ في الصحيح وغيره أنه (**فسرها ﷺ بأنَّها تكون طاهرة من الحيض من غير جماع حصل بهذا الطهر، فبهذا تكون مطلقة لعدتها وتُعرف أنَّها شرعت فيها، وكذلك إذا طلقت بعدما استبان حملها**) فالمرأة تطلق في طهره لم تجامع فيه، أو إذا تبين حملها.

ثم قال: (**وهذا يدل علىٰ أن الطلاق في الحيض أو في الطهر الذي حصل فيه وطء، ولم يستبن حملها أنَّه حرام**) فلا يجوز له أن يطلقها حال حيضها أو في طهر جامعها فيه ولم يستبن حملها.

ثم قال: (**وكذلك لا يحل أن يطلقها أكثر من واحدة لقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة:٢٣١]**) فالمأذون به شرعًا أني يطلقها طلقة واحدة ثم إن شاء بعد ذلك راجعها وإن شاء أمسكها.

ثم ذكر أن الله لم يقيد ألفاظ الطلاق بألفاظ معينة بل وكل ذلك إلىٰ عرف الناس فقال: (**ولم يذكر الله الألفاظ التي يحصل بها الطلاق ولم يعينها، فدل علىٰ أنَّه كلُّ لفظ يفهم منه الطلاق بصريحه أو كنايته إذا تعينت بالنية**) أي نية المتكلم (**أو القرينة**) الدالة علىٰ ذلك (**فإنَّه يقع بها الطلاق**).

ثم قال: (**ودلّ علىٰ أن الطلاق الذي تحصل به الرجعة طلقة أو طلقتان**) فله أن يراجع بعد الطلقة

وبعد الطلقتين، (**فإن طلقها الثالثة لم تحل له إلا بعد زوج ينكحها نكاحًا صحيحًا ويطؤها، ثم يطلقها وتعتد بعدة، وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا﴾ يدل علىٰ تحريم نكاح التحليل**) الذي يراد منه تحليل المرأة لمن فارقته بطلاق بائن، فمن نكح امرأة لا يريد إمساكها وإنَّما ليحللها لمن فارقته بطلاق بائن فذلك محرم ولا يفيد الحل لأنه باطل.

ثم قال: (**ودلّ قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ علىٰ أنَّ الرجعية زوجة**) أي المطلقة بعد طلقة أو طلقتين فإنها باقية في كونها زوجة، (**حكمها حكم الزوجات في كلِّ شيء، إلا أنَّه لا قَسْم لها، وأنَّه له رجعتها رضيت أو كرهت لكونه أحق بها**) فإذا أراد أن يراجعها بعد الأولىٰ أو بعد الثانية فإنه بنيّته الرجعة يكون الرجعة قد وقعت، ولو كانت المرأة كارهة أو غير راضية بمراجعتها فإن نية الرجل تكفي إجماعًا، نقله ابن المنذر.

ثم ذكر أن الله ﷻ: (**اشترط للرجعة شروطًا:**

أحدها: أن يكون في طلاق، فإن كان في فسخ من الفسوخ) كالخلع (**فلا رجعة فيها لقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾**) فهو مقيد بحال الطلاق فقط.

(**الثاني: أن يكون الطلاق واحدة أو اثنتين لأنَّ قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ يعني الذي يحصل به الرجعة، ثم صرح بعد ذلك أنَّه إن طلقها**) أي الثالثة (**لم تحل له حتىٰ تنكح زوجًا غيره**) في نكاح تام يطؤها فيه كما تقدم.

ثم قال: (**الثالث: أن تكون في العدة لقوله: ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾**) أي ما لم تخرج من عدتها.

(**الرابع: ألا يقصد برجعتها الإضرار بها، بل يقصد إرجاعها لزواجه الحقيقي**) فهو لا يمسكها بعد الأولىٰ أو بعد الثانية ليضر بها، وإنَّما لكي يردها إلىٰ مقصود الزواج الحقيقي من السكون، وكونها في عصمته وقيامه بحقها.

ثم قال: (**الخامس: ألا يقع الطلاق علىٰ عوض**) يعني علىٰ شيء تفتدي به المرأة فتدفعه من المال إلىٰ زوجها، قال: (**فإن وقع علىٰ عوض فهو الخلع أو معناه، والله تعالىٰ سمىٰ الخلع فداء**) كما قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾؛ لأن المرأة تفتدي نفسها بما تدفعه من المال كي تفارق زوجها، (**فلو كان له عليها رجعة لم يحصل الفداء**) فإذا كان خلعًا لا يحصل به رجعة.

ثم قال: (**السادس: ألا يكون الطلاق قبل الدخول؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ﴾ فإنه إن طلق قبل دخوله فإنه لا عدة علىٰ المرأة، والدخول هو**

الإفضاء إلىٰ المرأة، والخلو بها سواء أتاها أو لم يأتها، فإذا أرخيت الستور وأغلقت الأبواب فقد حصل الدخول. ثم قال: (ودلت هذه الآية علىٰ أنَّ الطلاق لا يقع إلا بعد النكاح) فلا يكون قبله، (فلو عَلَّقَهُ علىٰ نكاحه لها) كأن يقول: إن تزوجتك فأنت طالق، (أو نَجَّزَهُ لأجنبية) كأن يقول لامرأة ليست في ذمته: أنتِ طالق. (لم يقع) لأن أصله الذي يتفرع منه وهو النكاح لم يقع أصلًا.

ثم قال: (ودلت علىٰ أنَّ المفارقة في الحياة لا عدة عليها) يعني أن المرأة التي تفارق في الحياة لا عدة عليها قبل الدخول، (وأمَّا بعد الدخول فإن كانت تحيض فعدتها ثلاثة أقراء كاملة، تبتدئ بها بعد الطلاق، وظاهر الآية طالت مدتها أو قصرت، فإن كانت صغيرة أو لم تحض، أو كانت آيسة من الحيض) يعني لا ترجو حيضًا، انقطع حيضها فلا ترجوه (فعدتها ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملًا فعدتها بوضع الحمل كلِّه) قلت تلك المدة أم كثرت، (وإن أشكل أمرها فلم يُدْرَ هل هي حامل أم لا) أي لم يتبين هل هي حامل أم ليست كذلك مع انقطاع حيضها قال: (بعدما كانت تحيض ولم تيأس مكثت تسعة أشهر احتياطًا للحمل، ثم اعتدت بثلاثة أشهر).

ثم قال: (وأما المتوفىٰ عنها) يعني المفَارَقَة بالموت (فعدتها إن كانت حاملًا بوضع الحمل، وإن لم تكن حاملًا فبأربعة أشهر وعشر احتياطًا عن الحمل).

ثم قال: (وفي قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ فيها تنبيه علىٰ الإحداد علىٰ المتوفىٰ عنها زوجها، وأنَّها تترك في وقت عدتها كلَّما يدعو إلىٰ نكاحها من ثياب الجمال والحلي والطيب والكحل والحناء ونحوها، كما وردت مفصلة في السنّة).

ثم قال: (وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، التعريض الذي نفىٰ الله الحرج فيه في خطبة البائن بوفاة أو ثلاث أو فسخ، فالتصريح لا يحل) وهو اللفظ المبَيّن الدال علىٰ المقصود من النكاح، (والتعريض الذي يحتمل الخطبة ويحتمل غيرها) كأن يقول: مثلك لا تُضيَّع، أو مثلك ترجىٰ (فلا بأس به) وذلك في خطبة البائن بوفاة أو ثلاث أو فسخ، (وأمَّا الرجعية) وهي التي تستطيع الرجعة لزوجها (فلا تحل خطبتها لا تصريحًا ولا تعريضًا لأنَّها في حكم الزوجات) فإذا كان مطلقة طلقة واحدة أو طلقتين فإنها لا تزال رجعية، ولا يجوز التعريض ولا التصريح لها بالنكاح.

ثم قال: (وفي هذه الآية تحريم العقد علىٰ المعتدة، لأنَّه إذا حرمت خطبتها) في حال عدتها (فمن باب أولىٰ نفس العقد فهو حرام غير منعقد).

ثم ذكر ما يتعلق بـ(نفقة المطلقة ما دامت في العدة، فإن كانت رجعية) أي يجوز له أن يرجعها إليه

(**فلها النفقة، لأنَّ الله جعلها زوجة وزوجها أحق بها، فلها ما للزوجات من النفقة والكسوة والمسكن**).

(**وأما البائن**) أي المفارقة لزوجها (**فإن كانت حاملًا فلها النفقة لأجل حملها لقوله تعالىٰ:** ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ **وإن لم تكن حاملًا، فليس لها نفقة واجبة ولا كسوة**) لأنها خرجت من عصمة الرجل وصارت بائنة منه، أجنبية عنه.

ثم قال: (**وأما نفقة الرضاع فهي علىٰ الأب؛ فإن كانت أمه في حبال أبيه**) يعني في ذمته، ولا تزال في عصمته وهي الرجعية (**فنفقة الزوجة تندرج فيها نفقة الرضاع لقوله:** ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ﴾ **فلم يوجب غيرها**) فإذا طلقها وهي ترضع ولدًا له أنفق عليها نفقة تكفيها هي وولدها ما دامت رجعية، (**وإن لم تكن في حباله**) وهي البائنة التي تصرمت حبال الزوجية بينهما وبينه (**فعليه له أجرة الرضاع**) فقط دون النفقة، (**لقوله:** ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ **وأمر تعالىٰ أن** ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ **وهذا شامل لكلِّ ضرر**) فلا يجوز التضييق عليها ولا مضارتها بشيء مطلقًا من قول أو فعل.

ثم قال: (**وقوله:** ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾، **استدل بها علىٰ نفقة القريب المحتاج إذا كان وارثه غنيًا وارثًا له، وهذا الشرط الأخير في غير الأصول والفروع، فالغني منهم عليه نفقة الفقير وارثًا كان أو غير وارث**) وهذا استطراد فيما يتعلق بالنفقة وأن القريب المحتاج إذا كان وارثه غنيًا وارثًا له فإنه ينفق عليه.

ثم قال: (**وقوله:** ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ **فيه جواز الخلع**) وهو دفع عوض للمُفَارَقة (**عند خوف ألا يقيما حدود الله، وأنَّه يجوز بالقليل والكثير، وأنَّه فدية لا يحسب من الطلاق، وليس فيه رجعة**) لأنه فسخٌ وليس طلاقًا. في أصح قولي أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ، وهو الذي اختاره المصنِّف.

ثم قال: (**قوله:** ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ **يشمل كلَّ مطلقة**) فكل مطلقة تطلق فإنه يستحب تمتيعها بالمعروف بأن يدفع لها شيء من المال، ولا يجب إلا إذا كانت مطلقة قبل الدخول ولم يسم لها مهر، فإذا طلقها قبل أن يدخل بها ولم يسم لها مهرًا فإنه يجب عليه أن يمتِّعها بمال يكون بالمعروف المعهود في زمانهم.

ثم قال: (**وقد أرشد الله الزوج إلىٰ أن يمسك زوجته بمعروف أو يفارقها بمعروف، وذلك للسلامة من التبعة**) أي: ما يحلق الذمة من المطالبة الشرعية في الدنيا أو الآخرة.

ثم قال: (**ولراحة الطرفين وبقاء الألفة بين الأصهار، وحصول الحياة الطيِّبة المانعة من الأكدار، فهل أحسن من هذا الحكم لقوم يوقنون**).

ثم ذكر أنه: (استدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ مع قوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أنَّ أقل مدة يمكن حياة الحمل فيها ستة أشهر، لأنَّك إذا ألقيت الحولين) أي ألغيتهما (من الثلاثين شهرًا بقي ستة أشهر للحمل) لأنه يبقىٰ إذا أسقطت أربعة وعشرين شهرًا بقي ستة أشهر، وهذه الستة أشهر هي أقل ما تمكن فيها حياة الحمل، وصح ذلك عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ الآية، فيها حكم الإيلاء، وبينه بقوله: (وهو حلف الزوج) أي قَسَمُه (علىٰ ترك وطء زوجته أبدًا، أو مدة تزيد علىٰ أربعة أشهر)، فإذا حلف الزوج ألا يطأ زوجته أبدًا أو حلف ألا يأتيها ستة أشهر فوق الأربعة أشهر (فإذا طلبت الزوجة حقها من الوطء وامتنع لإيلائه ضَربت له مدة أربعة أشهر) ثم بعد انقضاء الأربعة أشهر (إمَّا أن يطأ ويكفّر عن يمينه، وإمَّا أن تلزمه بالطلاق).

ثم قال: (ويؤخذ من معنىٰ الآية أنَّ الزوج إذا امتنع مما يجب عليه من فراش، أو وطء، أو نفقة، أو كسوة، أو مسكن، أو نحوها من الواجبات التي لا عذر له في تركها، وألحَّت) أي المرأة (في طلبها حقها أنَّ لها الفسخ) إذا امتنع منه، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩] والمعاشرة بالمعروف تقتضي وفاء كل طرف منهما بحق الآخر.

ثم ذكر أن قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآيات من سورة النور أن الله عَزَّ وَجَلَّ (لما ذكر تعالىٰ أنَّ من قذف غيره بالزنىٰ، فعليه حد القذف ثمانون جلدة إن لم يأت بأربعة شهداء. استثنىٰ من رمىٰ زوجته بالزنىٰ وأنكرت) فإن بينهما حالٌ خاصة وهي حال الملاعنة، وذلك بأن يلاعنها (بأن يشهد أربع شهادات إنَّه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنىٰ، ويزيد في الخامسة وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم تقابله فتشهد أربع شهادات بالله إنَّه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنىٰ، وتزيد في الخامسة وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. فإذا تم اللعان بينهما ترتب عليه سقوط حد القذف عنه وسقوط العذاب عنها وهو حد الزنا أو الحبس، وانتفىٰ الولد المنفي بهذا اللعان) عن الأب وألحق بأمه (وحصلت الفرقة المؤبدة بينهما) فيفترقان باللعان، ولو لم يحصل لفظ الطلاق فإنه يكون مفرِّقًا بينهما.

ثم ذكر قوله تعالىٰ: (﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآيات. ذكر الله حكم الظهار، وأنَّه منكر من القول وزور، وأنَّه إذا أراد أن يعود لوطئها بعد هذا التحريم بأن يحرمها صريحًا) كأن يقول: أنت عليّ حرام، (أو يقول: هي عليّ كظهر أمي) أو أختي (أعتق رقبة مؤمنة من قبل أن يتماسا) أي من قبل الوطء (فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا)

وتقدم عندنا في كفارة من أتىٰ أهله في نهار رمضان أنه لا يشترط أن يكون قبل الوطء بل لو وطء ثم أخر الكفارة جاز ذلك، أما الظهار فلا يجوز له أن يطأ أهله حتىٰ يأتي بالكفارة.

أحكام الأيمان والنذر والعتق

قال تعالىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩]. فالحلف إن كان علىٰ أمر ماض وهو كذب قد تعمده صاحبه، فعليه من الإثم ما علىٰ الكاذبين، فإن كانت اليمين فاجرة يقتطع بها مال امرئ مسلم، فهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، فإن كان يظن صدق نفسه أو وقعت في عرض كلام الرجل، كقوله: لا والله، بلىٰ والله في معرض كلامه فهي لغو اليمين لا إثم فيها ولا كفارة، فإن عقدها علىٰ مستقبل وحنث بفعل ما حلف علىٰ تركه، أو ترك ما حلف علىٰ فعله عالمًا ذاكرًا فعليه هذه الكفارة، يخيّر بين العتق وإطعام عشرة مساكين وكسوتهم، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام.

ومثل الحلف لفظ التحريم إذا حرّم علىٰ نفسه شيئًا طعامًا أو شرابًا أو لباسًا أو منزلًا أو غيرها، فحكمه حكم اليمين إذا فعل ما حرّمه علىٰ نفسه، وهذا التحريم من باب الاعتداء كما ذكره الله.

وكذلك لو حلف بالنذر وهو النذر الذي يسميه العلماء نذر اللجاج والغضب، فإنَّ مجراه مجرىٰ اليمين.

وأما النذر الحقيقي الذي ينجّزه العبد، أو يعلقه علىٰ أمر يحبه وينذر طاعة من الطاعات كقوله: لله عليَّ أن أعتق أو أحج أو أتصدق، أو إن شفىٰ الله مريضي فلله عليَّ صدقة بكذا. فيحصل له ما علقه عليه فهذا يتعين عليه الوفاء به وقد مدح الله الموفين بنذورهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾ [البلد] وكون الله ذكر العتق كفارة للظهار والقتل والأيمان. وقال تعالىٰ: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ [النور:٣٣] دليل علىٰ فضيلة العتق، وأنَّه من أجلّ الطاعات وأحبها إلىٰ الله. وفيه الأمر بكتابة الرقيق الذي يُعلم فيه الخير، أي: صلاح في الدين وصلاح في الدنيا. وأما الذي يخشىٰ منه الفساد أو يخشىٰ أن يكون شحّاذًا كلًّا علىٰ الناس، فليس في عتقه وكتابته كثير فائدة.

وفيه الحث علىٰ إعطاء المكاتبين ما يوفون به كتابتهم وأمر السيد أن يضع عنه أو يخفف عنه من

كتابته.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمة أخرىٰ هي قسم من الأقسام المندرجة في النوع الثالث وهو علم الأحكام، وهي أيضًا منفصلة عما تقدمها مما أراده المصنِّف من أحكام النساء فقال: (**أحكام الأيمان والنذر والعتق**).

ثم أورد قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ الآية.

ثم قال: (**فالحلف إن كان علىٰ أمر ماض**) أي فائت، (**وهو كذب قد تعمده صاحبه، فعليه من الإثم ما علىٰ الكاذبين، فإن كانت اليمين فاجرة يقتطع بها مال امرئ مسلم، فهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار**) وقوله هذا مصيرٌ منه إلىٰ تخصيص اليمين الغموس باليمين الكاذبة التي يقتطع بها حق امرئ مسلم.

والقول الثاني: أن اليمين الغموس هي كل يمين كاذبة، **والأول أصح** اتباعًا للأخبار الواردة، اليمين الغموس هي يمين كاذبة اقتطع بها حق امرئ مسلم.

ثم قال: (**فإن كان يظن صدق نفسه أو وقعت في عرض كلام الرجل، كقوله: لا والله، بلىٰ والله. في معرض كلامه فهي لغو اليمين لا إثم فيها ولا كفارة**).

ثم قال: (**فإن عقدها علىٰ مستقبل وحنث بفعل ما حلف علىٰ تركه، أو ترك ما حلف علىٰ فعله عالمًا ذاكرًا فعليه هذه الكفارة**) أي كفارة اليمين (**يخيّر بين العتق وإطعام عشرة مساكين وكسوتهم، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام**) ويعلم منه أن اليمين الغموس ولغو اليمين لا كفارة فيهما، وإنَّما الكفارة فيما يعقده الإنسان علىٰ مستقبل ويحَنث بفعل ما حلف علىٰ تركه أو ترك ما حلف علىٰ فعله.

ثم قال: (**ومثل الحلف لفظ التحريم**) أي يقول: حرام علي. بأن يحرم علىٰ نفسه شيئًا طعامًا أو شرابًا، أو منزلًا أو غير ذلك، كأن يقول: حرام عليّ أن آكل كذا، أو أشرب كذا، أو أن أذهب إلىٰ كذا، فحكمه حكم اليمين إذا فعل ما حرم معه علىٰ نفسه فيكفر عنها، وهذا التحريم من باب الاعتداء كما ذكره الله، يعني في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة] فتحريم الطيبات من الاعتداء، ومن حرم علىٰ نفسه منها شيئًا ثم فعل ما حرمه فإنه يكفر عن يمينه.

قال: (**وكذلك لو حلف بالنذر**) أي بقوله: عليّ نذر ألا أفعل أو أن أفعل كذا.

قال: (وهو النذر الذي يسميه العلماء نذر اللجاج والغضب) وهو ما يقصد به المنع من شيء أو الحمل علىٰ شيء فهو يريد بكلامه فيما نذر أن يمتنع عن شيء أو أن يحمل غيره أو نفسه علىٰ فعل شيء، فما كان كذلك فإنه يجري مجرىٰ اليمين، وفيه كفارته.

ثم قال: (وأما النذر الحقيقي الذي يُنْجِزُه العبد، أو يعلقه علىٰ أمر يحبه وينذر طاعة من الطاعات كقوله: لله عليَّ أن أعتق أو أحج أو أتصدق، أو إن شفىٰ الله مريضي فلله عليَّ صدقة بكذا. فيحصل له ما علقه عليه فهذا يتعين عليه الوفاء به وقد مدح الله الموفين بنذورهم) فيجب عليه أن يفي بنذره.

ثم قال: (وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾ وكون الله ذكر العتق كفارة للظهار والقتل والأيمان. وقال تعالىٰ: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ دليل علىٰ فضيلة العتق) وهو تخليص الرقبة المملوكة من ملكها، (وأنَّه من أجلِّ الطاعات وأحبها إلىٰ الله).

(وفيه الأمر بكتابة الرقيق) يعني في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾، (الذي يُعلم فيه الخير) باعتبار ما يظهر من حاله لا باعتبار باطنه فإن الباطن يخفىٰ، لكن باعتبار ما علم من حاله الظاهرة فإن عُلم فيه خير ورجي صلاحه في الدين والدنيا فإنه يكاتب، (وأما الذي يخشىٰ منه الفساد أو يخشىٰ أن يكون شحاذًا) أي يسأل الناس (كلًّا علىٰ الناس، فليس في عتقه وكتابته كثير فائدة).

ثم قال: (وفيه الحث علىٰ إعطاء المكاتبين) لأنه أمر بمكاتبتهم.

ثم قال: (وفيه الحث علىٰ إعطاء المكاتبين ما يُوفّون به كتابتهم) أي ماجعلوه لمالكهم من مال منجم يبذلونه له، (وأمر السيد أن يضع عنه أو يخفف عنه من كتابته) لأن ذلك يحصل به تخليصه، فإذا علم فيه خير كُوتب وأعين علىٰ هذه الكتابة، بأن يدفع إليه مال يتخلص به من رقه، أو أن يضع عنه سيده أو يخفف عنه من كتابته، (يضع عنه): أي يسقط عنه.

أحكام الحدود

جعل الله الحدود علىٰ الجرائم العظيمة حماية عنها وردعًا ونكالًا. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة:١٧٨] الآيات. وقال: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة:٤٥] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ﴾ [النساء:٩٢] الآية إلىٰ أن قال: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النساء].

قسّم الله القتل إلىٰ عمد فيه الوعيد الشديد وفيه القِصاص، فيخير أولياء الدم بين القصاص والعفو إلىٰ الدية والعفو بلا شيء، فإذا اختاروا القصاص فعلوا بالقاتل كما فعل بالمقتول من غير زيادة في صفة القتل، ولا قتل لغير من جنىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء:٣٣] أي: يتجاوز حقه إلىٰ غيره. ولهذا لو لزم القَوَد أنثىٰ حاملًا لم تقتل حتىٰ تضع. وشرط الله المكافأة في الحرية والرق، وثبت عنه ﷺ أنَّه لا يقتل مسلم بكافر. وأمَّا الذكر فيقتل بالأنثىٰ تقديمًا لعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥] علىٰ مفهوم قوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة:١٧٨] ويؤيده قتله ﷺ لليهودي الذي رض رأس الجارية بين حجرين حين اعترف. فيدل علىٰ قتل الرجل بالمرأة وعلىٰ أنَّه يفعل بالقاتل كما فعل بالمقتول كما هو ظاهر الآية، لأنَّ القصاص أن يفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه، وكذلك الأطراف والجروح تجري مجرىٰ النفس، يؤخذ كلُّ عضو بما يماثله اسمًا ومحلًّا.

فإن عفوا إلىٰ الدية فعليهم الاتباع بالمعروف، وعلىٰ المؤدي أن يؤدي بإحسان من غير مماطلة ولا مناقصة ولا بخس، وهذا الإرشاد الذي نبّه الله عباده عليه في جنس المعاملات أنَّ الناس ما بين طالب ومطلوب، فعلىٰ الطالب أن يَتبع بالمعروف والمساهلة والمياسرة، وعلىٰ المطلوب أن يؤدي بإحسان يسلّم الحق تامًّا لا نقص فيه ولا مطل، هو أكمل المعاملات وأشرفها وصاحب هذه المعاملة قد حاز الفضيلتين شرف الدنيا وأجر الآخرة.

والقسم الثاني: الخطأ، فهذا لم يجعل الله فيه قِصاصًا ولا رتب عليه إثمًا ووعيدًا، وإنَّما أوجب فيه الكفارة علىٰ القاتل عتق رقبة مؤمنة، فمن لم يجد فليصم شهرين متتابعين، ودِية مسلّمة إلىٰ أهل المقتول يسلمها عاقلة القاتل. وقد فصلت السُّنّة مقادير ديات النفوس والأطراف والجروح.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ﴾ [المائدة:٣٣]. هذا حد قطّاع الطريق. من العلماء من قال: إنَّ الإمام مخيّر فيهم في هذه الأشياء يفعل ما يراه أصلح، ومن العلماء من قال: إنَّ هذه العقوبات متفاوتة في غلظها فهي تبعُ الجنايات، فمن قَتَلَ وأخذ مالًا قتل وصلب، ومن قتل ولم يأخذ مالًا قتل ولم يصلب، ومن أخذ مالًا ولم يقتل قُطعت يده اليمنىٰ ورجله اليسرىٰ، ومن أخاف السبيل نفي من الأرض وهذا مرويٌّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو أولىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي

﴿ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾ [النساء]. وهذا السبيل الذي ذكره الله قد بينه ﷺ بأن المحصن يرجم حتىٰ يموت، والبكر يجلد مائة ويغرب عامًا. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢].

وقد شرط تعالىٰ لثبوت هذا الحد أن يشهد فيه أربعة رجال عدول، والإقرار تنوب الأربع عن الأربعة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [النور]. الرمي المذكور هنا هو الرمي بالزِّنىٰ، فعلىٰ القاذف ثمانون جلدة وترد شهادته، إلا أن تاب بأن أكذب نفسه.

وقد أمر تعالىٰ بقطع يد السارق والسارقة، وذلك إذا ثبتت السرقة ببيّنة أو إقرار.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء:١٤٨]، استدل بذلك على القصاص في الأطراف والجروح وإتلاف الأموال واللطمة ونحوها، ومقابلة الشاتم بمثله من غير اعتداء.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمة أخرىٰ ذكر فيها قسمًا من الأقسام المندرجة في النوع الثالث من علم الأحكام فقال: (أحكام الحدود) أي العقوبات التي قُدِّرت في الشرع علىٰ أنواع من المعاصي، وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المعاصي بقوله: (علىٰ الجرائم العظيمة) واسم الجُرْم **يطلق في الشرع علىٰ ما تعلق به الكفر**، فلا يأتي اسم المجرمين في القرآن الكريم إلا وصفًا للكافرين، فالأولىٰ ترك التعبير بمثل هذا والاقتصار علىٰ كونها ذنوبًا وكبائر من المعاصي.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مما يتعلق بالحدود ما تعلق بقتل النفس فذكر آيات أولها قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ﴾.

ثم قال: (قسّم الله القتل إلىٰ عمد) وإلىٰ خطأ، فإنه ذكر هذا القسم الأول دون إشارة، ثم ذكر القسم الثاني بقوله: (والقسم الثاني: الخطأ).

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيه الوعيد الشديد وفيه القصاص) أي: استيفاء الحق، (فيخير أولياء الدم بين القصاص والعفو إلىٰ الدية والعفو بلا شيء، فإذا اختاروا القصاص فعلوا بالقاتل كما فَعل بالمقتول من غير زيادة في صفة القتل، ولا قتل لغير من جنىٰ) أي لغير من أذنب وأصاب ذنبًا في قتل المقتول.

ثم ذكر قول الله تعالىٰ: (﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ أي: لايتجاوز حقه إلىٰ غيره. ولهذا لو لزم القود أنثىٰ حاملًا) أي أن تُقَصَّ (لم تقتل حتىٰ تضع) حملها، فإذا وضعت حملها أقيم عليها الحد.

ثم قال: (وشرط الله المكافأة في الحرية والرق) ولذلك فإن الفقهاء يقولون: إن النفس المكافِئة تقتل بالنفس المكافئة لها، أي بما ثبت لها وصف المكافأة من الحرية والرق والدين.

كما قال المصنِّف: (وثبت عنه ﷺ أنّه لا يقتل مسلم بكافر) فالمسلم لا يكافئه في الدين إلا مسلم مثله.

ثم قال: (وأمّا الذكر فيقتل بالأنثىٰ) في أصح قولي أهل العلم (تقديمًا لعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾) لأن اسم النفس يشمل الذكر والأنثىٰ (علىٰ مفهوم قوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾) لأن وصف الحر ووصف العبد متعلق بموصوف ذكر لكن الآية السابقة عامة فتشمل النفس الذكر والنفس الأنثىٰ. ثم قال: (ويؤيده قتله ﷺ لليهودي الذي رض رأس الجارية بين حجرين حين اعترف) فقتله النبي ﷺ بها.

ثم قال: (فيدل علىٰ قتل الرجل بالمرأة وعلىٰ أنّه يفعل بالقاتل كما فعل بالمقتول كما هو ظاهر الآية، لأنَّ القصاص أن يُفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه، وكذلك الأطراف والجروح تجري مجرىٰ النفس، يؤخذ كلُّ عضو بما يماثله اسمًا ومحلًّا).

قال: (فإن عفوا) يعني أولياء القتيل (إلىٰ الدية فعليهم الاتباع بالمعروف، وعلىٰ المُؤدي) الذي تلزمه الدية (أن يؤدي بإحسان من غير مماطلة ولا مناقصة ولا بخس).

ثم قال: (وهذا الإرشاد الذي نبّه الله عباده عليه في جنس المعاملات أنَّ الناس ما بين طالب ومطلوب، فعلىٰ الطالب أن يتبع بالمعروف والمساهلة والمياسرة) أي الأخذ باليسر والسهولة (وعلىٰ المطلوب أن يؤدي بإحسان يسلّم الحق تامًا لا نقص فيه ولا مَطَل) يعني ولا تأخير مع القدرة عليه، قال: (هو أكمل المعاملات وأشرفها وصاحب هذه المعاملة قد حاز الفضيلتين شرف الدنيا وأجر الآخرة).

ثم ذكر القسم الثاني وهو الخطأ فقال: (فهذا لم يجعل الله فيه قصاصًا ولا رتب عليه إثمًا ووعيدًا، وإنّما أوجب فيه الكفارة علىٰ القاتل عتق رقبة مؤمنة، فمن لم يجد فليصم شهرين متتابعين، ودية مُسلّمة إلىٰ أهل المقتول يسلمها عاقلة القاتل) أي قرابته (وقد فصلت السُنّة مقادير ديات النفوس والأطراف والجروح).

ثم ذكر حد قطاع الطرق في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية فبين أن (**من العلماء من قال: إنَّ الإمام مخيّر فيهم**) إن شاء قتل وإن شاء صلب وإن شاء قطع الأيدي والأرجل من خلاف، وإن شاء نفاهم من الأرض.

(**ومن العلماء من قال: إنَّ هذه العقوبات متفاوتة في غِلظها فهي تبع الجنايات، فمن قَتَلَ وأخذ مالًا قتل وصلب، ومن قتل ولم يأخذ مالًا قتل ولم يصلب، ومن أخذ مالًا ولم يقتل قطعت يده اليمنىٰ ورجله اليسرىٰ، ومن أخاف السبيل نفي من الأرض**) ثم قال: (**وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما**) رواه عنه البيهقي والطبري في تفسيره أيضًا، وكلا الإسنادين اللذين رويا بهما الخبر عند البيهقي والطبري لا يصح عن ابن عباس، ثم قال: (**وهو أولىٰ**) من جهة النظر أن تضعّف العقوبة باعتبار شدة الجناية، فإذا غَلَظَت الجناية غُلّظَت عقوبتها وهو كما قال: متجه من جهة النظر.

ثم ذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ الآية، ثم قال: (**وهذا السبيل**) والأفصح تأنيثه بأن يقال: وهذه السبيل. كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾، وأسماء الطرق يجوز فيها التذكير والتأنيث، وتارة يكون في لفظ منها التأنيث أفصح كالسبيل، فالتأنيث فيه أفصح لقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف:١٠٨] وتارة يكون التذكير فيه أفصح كالطريق ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٠﴾ [الأحقاف:٣٠] فوصفها بالتذكير ولم يقل: وإلىٰ طريق مستقيمة، فالتأنيث جائز والأفصح التذكير فيها.

قال: (**وهذا السبيل الذي ذكره الله قد بينّه ﷺ بأن المحصن يرجم حتىٰ يموت، والبكر يجلد مائة ويغرب عامًا**).

ثم قال بعد ذكر آية الزنىٰ قال: (**وقد شرط تعالىٰ لثبوت هذا الحد**) أي حد الزنىٰ (**أن يشهد فيه أربعة رجال عدول، والإقرار تنوب الأربع**) أي المرات الأربع منهم عن (الأربعة) من الشهود، فإذا أقر مرة كانت عن شاهد، وإذا أقر مرتين كانت عن شاهدين، فثلاث عن ثلاثة، فأربع إقرارات عن أربعة شهود فيقام الحد عليه بإقراره.

ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ..﴾ الآية ثم قال: (**الرمي المذكور هنا هو الرمي بالزنىٰ**) وكنايات القرآن يلاحظ فيها العفاف والأدب فلم يصرَّح بالمرمي به ابتغاء سلوك العفة والأدب في المخاطبة، وأشير إليه بلفظ دال علىٰ عظمه وهو الرمي، لأن الرمي ثقيل، فقال: (**والرمي المذكور هنا هو الرمي بالزِّنىٰ**) يعني القذف بالزنىٰ، (**فعلىٰ القاذف ثمانون جلدة وتُرد شهادته، إلا أن تاب بأن أكذب نفسه**) بأن رجع عن قذفه وبين أنه كان كاذبًا في قوله.

ثم ذكر ما ما أمر الله تعالىٰ به في قطع يد السارق والسارقة، (وذلك إذا ثبتت السرقة ببيّنة أو إقرار) في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ...﴾ [المائدة:٣٨] الآية.

ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ استدل بذلك علىٰ القصاص في الأطراف والجروح وإتلاف الأموال واللطمة ونحوها) في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ﴾ من الإذن بذلك، وأن من اعتدي علىٰ حرمته في جسده أو ماله فإن له أن يقتص بمقابلها، ومن جملة ذلك (مقابلة الشاتم بمثله من غير اعتداء) يعني من غير مجاوزة، في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومنه الشتيمة ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب.

ونستكمل بقيته إن شاء الله تعالىٰ متممين له غدًا بعد العشاء.

أحكام الأطعمة والأشربة، والذبائح، والصيد، والضيافة، والاستئذان، والسلام

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف:٣٢]، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾ [المائدة:٩٦]. وقال في وصف النبي ﷺ ووصف دينه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣] الآيات، إلىٰ أن قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ﴾ [المائدة:٤]، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام:١٤٥] الآية، وقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ﴾ [الأنعام:١٤٣] الآيات.

هذه الآيات تدل علىٰ أنَّ الأصل في الأطعمة الحل، إلا ما صرح الشارع بتحريمه. وقد صرح بحل بهيمة الأنعام وبحل حيوانات البحر، صيده ما صيد حيًّا، وطعامه ما وجد فيه ميتًا، ولم يستثنِ شيئًا. وأحل صيود البر كلّها، لأنَّه لم يحرِّمها إلا في الإحرام، وأحل الحبوب والثمار وجميع الطيِّبات، وشرط لحل حيوانات البر إن كان مقدورًا عليها أن تذكَّىٰ، كما قال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة:٣]، وذكر اسم الله عليه،

وما عجز عنه برميه بما يجرح، أو إرسال الجوارح المعلمة عليه من الطيور والكلاب وشَرْطُ تعليمها بأن تسترسل إذا أرسلت، وتنزجر إذا زجرت وتمسك علىٰ صاحبها ولا تأكل منها، وبأن يذكر اسم الله عليها عند إرسالها، وحرَّم الميتة وهي ما مات حتف أنفه، أو بسبب لا يبيح؛ كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما أدرك من هذه، وذكي ذكاة شرعية، وحرّم الخنزير، وحرّم النبي ﷺ كلَّ ذي ناب من السباع وكلَّ ذي مخلب من الطير، وما نهي عن قتله أو أمر بقتله كالفواسق والحشرات وجميع المستخبثات وجميع ما فيه ضرر، فكلُّ ما أحله فهو نافع، ولم يحرم علىٰ العباد إلا ما يضرهم في أديانهم وأبدانهم وأعراضهم وعقولهم كالمسكرات ومع ذلك قال: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ [المائدة:٣] أي: مجاعة ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ [المائدة:٣] أي: مائل إليه، بأن يتزود منها، أو يأكل فوق ما يزيل ضرورته. وحرم تعالىٰ ما ذُبح لغير الله.

وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤﴾ [الذاريات] الآيات. فيها دلالة علىٰ أنَّ الضيافة من ملة إبراهيم التي أمرنا باتباعها، وأنَّ تمامها إكرام الضيف كما قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». وفيه أنَّه قرّب ضيافتهم إليهم ولم يحوجهم إلىٰ الذهاب إلىٰ محل آخر، وفيه العرض عليهم بلطف لقوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٩١﴾ [الصافات]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء:٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور:٢٧]. في هذا مشروعية السلام، وأنَّه من شعار المسلمين، وأنَّه ينبغي الابتداء بالسلام وأنَّ الراد عليه أن يقابل التحية بمثلها، أو أحسن منها قولًا وبشاشة وملاطفة، فإنَّ السلام والتحية تحسن بما يقترن بها من اللطف وحسن اللقاء والإيناس وإدخال السرور علىٰ أخيك المسلم. وفيه الإرشاد لعباده أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم إلَّا بإذن أهلها، فإن أذنوا وإلا وجب عليه الرجوع. وحرّم عليه التطفُّل والأكل والشرب من بيوت الناس بدون إذن، إلا من جرت عادتهم بالرِّضىٰ بذلك كالذي استثنىٰ الله بقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ﴾ [النور:٦١] إلىٰ آخرها. ونهىٰ عن الدُّخول إلا بإذن، إلا المماليك والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلم، حيث كانوا مترددين طوافين علىٰ الناس، فلهم الدُّخول بلا إذن إلا في أوقات العورات الثلاث، حين اليقظة من النوم ووقت النوم ووقت الظهيرة.

وقد أمر بالسلام عند دخول البيوت سواءٌ كانت للإنسان أو لغيره فإنَّها تحية مباركةٌ طيبة.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ترجمة ختم بها النوع الثالث من أنواع علوم القرآن، وهو علم الأحكام، فذكر قسمًا آخر من الأقسام المندرجة فيه بوّب له بقوله: (**أحكام الأطعمة والأشربة، والذبائح، والصيد، والضيافة، والاستئذان، والسلام**).

وقرن بينها بجريان العادة باقترانها، فإن الغالب اجتماع هذه المطالب في آنٍ واحد، أو اتصال بعضها ببعض في أحكامها كالذبائح والصيد مثلًا، وأورد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ آيًا عديدة في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تبين جملة من الأحكام المتعلِّقة بما ترجم له.

ثم قال: (**هذه الآيات تدل علىٰ أنَّ الأصل في الأطعمة الحل، إلا ما صرح الشارع بتحريمه، توسعة علىٰ الخلق**)، فالأصل فيما يتناوله الناس من مطعوماتهم ومشروباتهم؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ امتن عليهم في غير آية بما أخرج لهم من الأرض، وبما جعل لهم من الطيِّبات، والمناسب للامتنان أن يكون الأصل هو الحل، فإن جعل الأصل هو التحريم يخالف مقتضىٰ الإمتنان، فإن المنة الكاملة والنعمة الظاهرة أن يكون الأصل في المطعومات والمشروبات هو الحلال، إلَّا أن يأتي دليل بتحريمه.

ثم قال المصنِّف: (**وقد صرح بحل بهيمة الأنعام وبحل حيوانات البحر، صيده ما صيد حيًّا، وطعامه ما وجد فيه ميتًا، ولم يستثنِ شيئًا**) والبحر اسم للماء المستَبحِر الكثير سواء كان مالحًا أو كان عذبًا.

ثم قال: (**وأحل صيود البر كلّها، لأنَّه لم يحرمها إلا في الإحرام، وأحل الحبوب والثمار وجميع الطيبات، وشرط لحل حيوانات البر إن كان مقدورًا عليها أن تذكىٰ، كما قال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾**) بالصفة الشرعية من قطع الحلقوم والمريء، (**وذكر اسم الله عليه، وما عُجز عنه برميه بما يجرح**) أي: يخرج منه الدم (**أو إرسال الجوارح المعلمة عليه من الطيور والكلاب**) فسميت جوارح لأنها تجرح المصيد فيخرج الدم منه، (**وشَرْطُ تعليمها بأن تسترسل إذا أُرسلت**) أي: تنطلق إذا أرسلت في طلب الصيد (**وتنزجر**) أي تنتهي (**إذا زجرت وتُمسك علىٰ صاحبها ولا تأكل منها**) أي من ذلك المصيد (**وبأن يذكر اسم الله عليها عند إرسالها**).

ثم قال مبينًا أنواع المحرمات التي جاء النص بالشرع علىٰ تحريمها فقال: (**وحرم الميتة وهي ما مات حتف أنفه**) أي رغمًا عنه (**أو بسبب لا يبيح**) أي لا يبيح أكله، فإذا وجد هذا السبب لم يكن أكله مباحًا، ومثل له بقوله: (**كالمنخنقة**) أي التي ماتت بالخنق وهي أن تُخنق بما يقطع عنها النفس فتموت حينئذ، (**والموقوذة**) وهي ما يضرب بشيء ثقيل، فإن الوقذ هو الضرب بشدة، والعادة جارية ضربه بالمثقلات من الصخور، والعصي، والأخشاب أو غيرها، (**والمتردية**) وهي ما سقط من علو أو خسف

في دنو، كالساقط من شاهق في جبل أو كالواقع في بئر فإن اسم التردي يشمل هذا وهذا.

(**والنطيحة**) وهي ما ماتت بنطح دابة أخرىٰ لها بقرونها، وإن جرح القرن، وإن وقع القرن في موقع الذكاة فإنه لا يحل بأي حال، لأن اسم النطيحة يشمله.

ثم قال: (**وما أكل السبع**) أي العادي من الجوارح كالأسد، والذئب وغيره (**إلا ما أُدرك من هذه، وذكي ذكاة شرعية**) وشرط الإدراك أن يكون إدراكها مع حياة مُستقرة، فإذا أُدركت مع حياة مستقرة وذُكِّيت جاز ذلك، وإن لم تدرك حياتها مستقرة فإن الذكاة لا تنفعها.

ثم قال: (**وحرّم الخنزير، وحرّم النبي ﷺ كلَّ ذي نابٍ من السباع**) وهذا استطراد في ذكر تتمة المحرمات؛ فقال: (**وكلَّ ذي مخلب من الطير، وما نَهىٰ عن قتله أو أمر بقتله كالفواسق والحشرات وجميع المستخبثات وجميع ما فيه ضرر، فكلُّ ما أحله فهو نافع، ولم يحرم علىٰ العباد إلا ما يضرهم في أديانهم وأبدانهم وأعراضهم وعقولهم كالمسكرات، ومع ذلك قال**) رأفة بخلقه (**﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ أي: مجاعة**) فمن حملته حال الاضطرار بأن لا يجد سوىٰ ذلك في حال المجاعة (**﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ أي: مائل إليه**) فإن الجَنَفَ الميل كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا﴾ يعني ميلًا، ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾.

قال: (**بأن يتزود منها، أو يأكل فوق ما يزيل ضرورته. وحرم تعالىٰ ما ذبح لغير الله**) فإذا اضطر إليها من غير إرادته الوقوع في الإثم فإنه يجوز له ذلك، ومن علامة إرادته الإثم أن يأكل فوق حاجته وضرورته أو أن يأخذ منها شيئًا يتزود به مع عدم الخوف من الجوع، فإذا وجد هذا المعنىٰ كان ذلك دالًّا علىٰ أن ما وقع فيه من أكل ما حرم الله مشتمل علىٰ ميله عمَّا أذن الله ﷻ له فيه.

ثم ذكر قصة ضيف إبراهيم في سورة الذاريات وذكر شيئًا من آداب الضيافة فيها، و(**أن الضيافة من ملة إبراهيم التي أُمرنا باتباعها، وأنَّ تمامها إكرام الضَّيف**) وذكر أحوالًا وقعت من إبراهيم تدل علىٰ إكرامه ضيفه كتقريبه الطَّعام إليهم وعرضهم عليهم ذلك بلُطف في قوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١﴾، وتقدَّم استقصاء هذه الوجوه المستفادة من تلك الآيات في التقرير علىٰ كتاب «الرسالة التبوكية» لأبي عبد الله بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه ذكر شيئًا مما يستنبط من آداب الضيافة في قصة ضيف إبراهيم، ثم ذكرنا أشياء زائدة تستوفي ما يستنبط من تلك الآيات في آداب الضيافة.

ثم ذكر آيًا تتعلق بالتحية والسلام تدلُّ علىٰ مشروعية السلام وأنه من شعار المسلمين، (**وأنَّه ينبغي الابتداء بالسلام**) إما وجوبًا عند قوم وإما استحبابًا عند قوم آخرين، والأرجح من القولين أن الابتداء

بالسلام سنة لنقل الإجماع عليه، (وأنَّ الراد عليه يقابل التحية بمثلها) فإذا حُيِّيَ بتحية قابلها بمثلها لأنه مقتضىٰ حسن الخلق (أو أحسن منها قولًا وبشاشة وملاطفة) فيكون في قوله الذي ينطق به وفي وجهه الذي يردُّ به باشًا، وفي حاله ملاطِفًا كما ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: (فإنَّ السلام والتحية تحسن) أي تكون حسنةً (بما يقترن بها من اللطف وحسن اللقاء والإيناس وإدخال السرور علىٰ أخيك المسلم).

ثم قال: (وفيه الإرشاد لعباده ألّا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم إلا بإذن أهلها، فإن أذنوا) دخل، (وإلا وجب عليه الرجوع) دون وحشة يجدها في صدره، لأن من حق صاحب البيت الإذن فيه، فإن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن له.

ثم ذكر أنه (حرّم عليه التطفل والأكل والشرب) أي الدخول إلىٰ بيوت الناس بدون إذن منهم وحضور ضيافاتهم (إلا من جرت عادتهم بالرضىٰ بذلك كالذي استثنىٰ الله بقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ﴾ إلىٰ آخره الآية) أو علم من القرينة ما يدل علىٰ ذلك كمن يشرع أبوابه ويضع الطعام في مكان عام فمثل هذا يعلم أنه بالقرينة الدالة علىٰ حاله لا يمنع أحدًا من الدخول إلىٰ طعامه والإصابة منه، أو علم ذلك في حاله العامة كمشهور بالكرم أو مقصود بالشفاعة والوجاهة فلا بأس حينئذ بالدخول عليه بدون إذن لجريان العرف بذلك، فإن الإذن مرده إلىٰ أعراف الناس، فإذا كان العرف قد جعل شيئًا من الأحوال دالًّا علىٰ الإذن كان الإذن العرفي قائمًا مقام الإذن اللفظي. ثم قال: (ونهىٰ عن الدخول إلا بإذن، إلا المماليك والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم) أي الذين لم يبلغوا، (حيث كانوا مترددين طوافين علىٰ الناس) فإن العادة الجارية أن الصغار يكون لهم طواف وتنقل علىٰ البيوت ولاسيما في الأزمنة الأولىٰ التي كانت فيها البيوت متصلة والأبواب مشرعة.

قال: (فلهم الدخول بلا إذن إلا في أوقات العورات الثلاث، حين اليقظة من النوم) يعني من قبل صلاة الفجر، (ووقت النوم) ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ [النور:٥٨] (ووقت الظهيرة) ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور:٥٨].

ثم قال: (وقد أمر بالسلام عند دخول البيوت سواء كانت للإنسان) أي ملكًا له (أو لغيره فإنَّها تحية مباركة طيبة) فإذا دخل الإنسان بيته ولو لم يكن فيه أحد، أو دخل بيت غيره ولم يكن فيه أحد فإنه يسلم لأنه يسلم علىٰ نفسه وعلىٰ ما يخفىٰ عليه من خلق الله كالملائكة أو الجن، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور:٦١] فيسلم الإنسان إذا كان داخلًا البيت منفردًا علىٰ نفسه وعلىٰ من يكون في البيت من الملائكة أو من الجن.

أحكام متنوعة في الأصول والفروع والآداب

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام]. تدل الآية علىٰ النهي عن مجالسة أصحاب المعاصي والقعود معهم ما داموا علىٰ معصيتهم، وأنَّه يجب علىٰ من سمع الكلام المحرم أن يمنع صاحبه، فإن لم يتمكن من ذلك وجب عليه القيام من ذلك المجلس، وكذلك فاعل المحرم ولهذا أتىٰ باللفظ العام في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]. دليل علىٰ أنَّ شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بنسخه، لأنَّ هداهم ما هم عليه من العقائد والأخلاق والأعمال.

قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [الأنعام:١٠٨]. فيها سد الذرائع عن الأمور المحرمة، وأنَّ المباح أو المستحب إذا أفضىٰ إلىٰ مفسدة نهي عنه.

ويستدل بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة:٢٨٦] وفي الأخرىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطلاق:٧]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج:٧٨] علىٰ أنَّ المشقة تجلب التيسير.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [الأنعام:١٥٢]، ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥] فيها وجوب النصح في المعاملات كلِّها، وتحريم البخس والغش فيها.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ﴾ [هود:٤١]، وقوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف]. يدل علىٰ استحباب هذه الأذكار عند ركوب كلِّ مركوب من دابة، وسفينة ومراكب برية وبحرية وهوائية.

قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف:٢٦] الآية. يدل علىٰ اعتبار القرائن وشواهد الأحوال.

قوله: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥﴾ [يوسف]، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص]. يدل علىٰ اعتبار الكفاءة والأمانات في الولايات والوظائف كلِّها بحسب ما يليق بالولاية، فإن لم يحصل الأكمل في هذه الصفات فالأمثل فيها.

عقد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمة جعلها كالخاتمة لكتابه فإنه ذكر في صدر كتابه أنه يجعله أنواعًا ثلاثة:

أحدهما: ما يتعلق بالاعتقاد.

وثانيها: ما يتعلق بالآداب.

وثالثها: ما يتعلق بالأحكام.

ثم أورد هنا ترجمة تتعلق بما سلف جميعًا فقال: (**أحكام متنوعة في الأصول والفروع والآداب**) فهو بمنزلة الخاتمة الجامعة لمتفرقاتٍ تتعلق بالأنواع الثلاثة المتقدمة، و(**الأصول والفروع**) جملة لها معنيان:

أحدهما: معنًى صحيح وهو كون الأصول اسمًا للمسائل التي لا تقبل الاجتهاد. والفروع اسمًا للمسائل التي تقبل الاجتهاد.

والآخر: معنىً باطل وهو في جعل الأصول اسمًا للمسائل العلميات، أو الخبريات، والفروع اسمًا للمسائل العمليات أو الطلبيات.

فالأول هو الذي دلت عليه دلائل الشرع.

وأما الثاني فهو من أوضاع المتكلمين الذين رتبوا علىٰ ذلك مسائل تتعلق بالتكفير وغيره، وهذا المعنىٰ الثاني هو الذي أنكره جماعة من المحققين كأبي العباس ابن تيمية الحفيد وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالىٰ.

واستفتح المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الجملة من الأحكام المتنوعة بما تدل عليه الآية المذكورة أولًا وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية، فبين أنها (**تدل علىٰ النهي عن مجالسة أصحاب المعاصي والقعود معهم ما داموا علىٰ معصيتهم**) والمعصية هنا اسم لكل ما يخالف أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فيندرج فيه الشرك، والبدعة، والمعصية التي هي دونهما من كبيرة أو صغيرة، (**وأنَّه يجب علىٰ من سمع الكلام المحرم أن يمنع صاحبه**) من إتمامه (**فإن لم يتمكن من ذلك وجب عليه القيام من ذلك المجلس، وكذلك فاعل المحرم**) فإن الفعل كالقول (**ولهذا أتىٰ باللفظ العام في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**) الذي يشمل قائل المحرم وفاعل المحرم.

ثم ذكر أن (**قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ دليل علىٰ أنَّ شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بنسخه، لأنَّ هداهم ما هم عليه من العقائد والأخلاق والأعمال**) وهذه مسألة مذكورة في أصول الفقه، ومن أدلة القائلين بالاحتجاج بشرع من قبلنا هذه الآية، وهي أيضًا عند ابن القيم وجماعة من الأدلة التي تدل علىٰ وجوب تقديم قول الصحابي وفعله علىٰ غيره، لأنه ممن يندرج فيمن هدىٰ الله، وهم فيما يتعلق بالأمر باتباعهم أولىٰ لكونهم من هذه الأمة.

ثم ذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية وأن (فيها سد الذرائع عن الأمـور المحرمة) أي: غلق الوسائل المفضية إلىٰ الأمور المحرمة فإن السد هو الغلـق، والـذرائع هـي الوسـائل المفضية إلىٰ الشيء، (وأنَّ المباح أو المستحب إذا أفضىٰ إلىٰ مفسدة نهي عنـه) والمفسـدة المـرادة هنـا المحرم، لأن اسم المفسدة مختص في الشـرع في المحـرم فقـط أما مـا نهـي عنـه لا علـىٰ وجـه الإلـزام كالمكروهات فإن هذا تسمىٰ مفاسد.

ثم قال: (ويستدل بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾) والآيات بعدها (علىٰ أنَّ المشقة تجلـب التيسـير) وأحسن من هذا التعبير ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح منظومته أن هـؤلاء الآيـات تـدل علـىٰ أن التعسـير يجلـب التيسير وإنَّما كانت عبارته في شرح منظومته أولىٰ؛ لأن لفظ التعسير جاء نفيه في الشرع لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وأحسن منهما أن يقال: الدين يسر. كما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند البخـاري مرفوعًا.

ثم أورد قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ الآية وآية أخرىٰ بعدها من سورة الأعـراف ثـم قـال: (فيهـا وجوب النصح في المعاملات كلِّها) وتقدم أن النصح في الشرع هو قيام المنصوح بما للناصح مـن حـق، ومن جملة ذلك فيما يتعلق بالمعاملات قيامه بكلِّ ما تتم به المعـاملات علـىٰ وجـه الكمـال، (وتحـريم البَخْس) يعني نقص الحق مع كتمه، فإنَّ البخس أخص من النقص، فإن البخس يَخفـىٰ والـنقص يَظهـر، ثم قال: (والغش فيها).

ثم قال: (وقوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾) وآية بعدها (تـدل علـىٰ اسـتحباب هـذه الأذكار عند ركوب كلِّ مركوب من دابة، وسفينة ومراكـب بريـة وبحريـة وهوائيـة) فمـا سُـمّي مركوبًـا اندرج في جملة ذلك، وما لم يكن مركوبًا فإنه لا تذكر فيه هذه الأذكار، وإن كان فيـه انتقـال كمـن تـدلىٰ بحبل فإن هذا لا يسمىٰ مركوبًا، ومثله من نزل بالآلـة التـي تسـمىٰ بالمصـعد فـإن هـذا لا يشـمله اسـم الركوب، وإنَّما هو انتقال.

ثم قال: (قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ الآيـة. يـدل علـىٰ اعتبـار القـرائن وشـواهد الأحـوال) أي المتعلقة بقضية ما، فالقرائن التي تحفها وشواهد الأحوال التي تكون معهـا يُعتنـىٰ بمعرفتهـا لتـدل علـىٰ حقيقة واقعها.

ثم أورد قوله تعالىٰ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، وآية أخرىٰ بعـدها قـال: (يـدل علـىٰ اعتبـار الكفاءة والأمانات في الولايات والوظائف كلِّها بحسب ما يليق بالوِلاية) أي بحسـب مـا ينـاسـب حالهـا،

فإن الولايات تختلف مقادير ما تحتاج إليه من القوة والكفاءة والأمانة فيراعىٰ ذلك في كل ولاية ووظيفة بحسب حالها، (**فإن لم يحصل الأكمل في هذه الصفات فالأمثل فيها**) أي من يقوم بها علىٰ وجه يحصل به المقصود وإن لم يكن ذلك المقصود هو المقصود الأكمل.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ [يوسف:٩٧]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:٤٠]، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾ [الأحقاف]. يدل علىٰ الاجتهاد في الدعاء للوالدين والذرية وعلىٰ طلب الدعاء من الوالدين والفضلاء.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر]. يدل علىٰ أنَّ التسبيح والتحميد والإكثار من ذكر الله، والاشتغال بعبادته مع ما فيه من الخيرات والأجور، أنَّها تشرح الصدر وتهون المشاق وتسلي عن المصائب.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحىٰ]، وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح]. فيه الترغيب في إكرام اليتيم، والزجر عن الإساءة إليه، وفيه حسن الخلق مع السائل للمال والعلم، والتحدث بنعم الله مع نفسك، ومع الخلق، والاشتغال بعبادة الله عند الفراغ من الأشغال الدنيوية، وكثرة الرغبة إلىٰ الله في جميع المطالب الدينية والدنيوية.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠]. فيه الحث علىٰ الاستعاذة بالله من الشيطان عند القراءة في الصلاة وخارجها، وعندما ينزغ الشيطان العبد ويُحس بوساوسه التي تدور علىٰ التثبيط عن الخير والترغيب في الشر، فالاستعاذة بالله منه تدفع شره وكيده.

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ [الكهف]. تدل علىٰ صحة الوكالة والتوكل، وعلىٰ المشاركة في الطعام وغيره، وعلىٰ اختيار الطيب منه، وعلىٰ الاحتراز عن الأمور الضارة، وعلىٰ أنَّه ينبغي كتمان السر الذي تضر إذاعته ضررًا عامًا أو خاصًا.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن

يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف]. ينبغي للعبد أن يسترشد بهذه الوصايا النافعة، ولا يحكم علىٰ الأمور المستقبلة المتعلقة بفعله حتىٰ يقرنها بمشيئة الله، وعند نسيانه مطلقًا يذكر الله ويرجوه الهداية كلَّ وقت لأرشد الأمور وأحبها إليه.

قوله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف:٣٩] ينبغي لمن أعجبه شيء مما أعطاه الله أن يقول ذلك لأنَّه اعتراف بالنعمة وحراسةٌ لها من كلِّ آفة.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ جملة أخرىٰ مما يندرج في الأحكام المتنوعة في الأصول والفروع والآداب ابتدأ ذلك بقوله: وقوله: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ إلىٰ تمام الآيات بعدها مما ذكره المصنِّف.

ثم قال: (**يدل علىٰ الاجتهاد في الدعاء للوالدين والذرية وعلىٰ طلب الدعاء من الوالدين والفضلاء، الذين ترجىٰ إجابة دعوتهم**) والأكمل أن يكون طالب دعائهم قاصدًا نفعهم، فهو يسألهم الدعاء له مع إيرادته نفعهم بما يقومون به من وظيفة الدعاء، فإن اختصر علىٰ مطلوبه هو من الدعاء فإن في ذلك نقصًا في العبودية ولأجل هذا كرهه جماعة من السلف أن يقول الرجل لغيره: ادع لي. أو لا تنسنا من دعائك، لأنه خلاف الكامل في العبودية، فالكامل في العبودية هو أن يكون الإنسان قاصدًا نفع غيره عند سؤاله الدعاء له، وهو الذي وقع من النبي ﷺ في أمره أمته بسؤال الوسيلة له من الله عَزَّوَجَلَّ فإنه قصد نفع الأمة بما يتحقق لهم من شفاعة النبي ﷺ بهذا.

وقد روىٰ أبو خيثمة زهير بن حرب في كتاب «العلم» بسند صحيح أنهم كانوا إذا قاموا لم يكونوا يقولون: ادع لي، ادع لي. يعني ليس هذا من الشعار الفاشي عندهم، لأنه يخالف كمال العبودية فإن من كمال العبودية أن يقصد به الإنسان مرجوًا إجابة دعوته مع إرادة نفع من يطلب منه الدعاء.

ثم ذكر أن قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الآيات (**تدل علىٰ أنَّ التسبيح والتحميد والإكثار من ذكر الله، والاشتغال بعبادته مع ما فيه من الخيرات والأجور، أنَّها تشرح الصدر وتهون المشاق وتسلي عن المصائب**) وتذهب ضيق الصدر وضنكه، وللمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة ماتعة اسمها «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» تقدم إقراؤها في أحد برامج الدرس الواحد، وهي رسالة نافعة جدًّا يحسن قراءتها مرات مع نشرها بين الناس، لأن انتفاعهم بمثل ما فيها من الآيات والأحاديث أكمل مما يلقىٰ إليهم من الخواطر وحديث النفس الذي يجده بعض الناس، ثم بيّنه علىٰ أنه من أسباب

الوصول إلىٰ الحياة السعيدة.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ الآي من سورة الضحىٰ وما بعدها من سورة الشرح قال: (**فيه الترغيب في إكرام اليتيم، والزجر عن الإساءة إليه، وفيه حُسن الخُلق مع السائل للمال والعلم**) وإنَّما ذُكر حسن الخلق مع السائل للعلم مع أن الآية في السائل للمال لأن العلم أولىٰ، والأصل أن السؤال إذا أطلق في الخطاب الشرعي هو سؤال الحاجة المتعلقة بالمال.

ثم قال: (**والتحدث بنعم الله مع نفسك**) تذكيرًا لها، (**ومع الخلق**) شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ (**والاشتغال بعبادة الله عند الفراغ من الأشغال الدنيوية**) يعني في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشَّرح]، (**وكثرة الرغبة إلىٰ الله في جميع المطالب الدينية والدنيوية**).

ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ قال: (**فيه الحث علىٰ الاستعاذة بالله من الشيطان عند القراءة في الصلاة وخارجها**) أي عند قراءة القرآن في الصلاة أو في خارجها، فلا تكون في مقروء سوىٰ القرآن، أي أنها لم تأت إلا عند قراءة القرآن فلا تشرع في غيره، فإذا أراد الإنسان أن يقرأ كتابًا في الحديث أو في الأدب أو في نوع من العلوم فإنه لا يستعيذ، لاختصاص الاستعاذة بقراءة القرآن الكريم، (**وعندما ينزغ الشيطان العبد**) أي عندما يورد عليه أمرًا من المفسدات لأن النزغ في الأصل هو الفساد، فإذا ألقىٰ فيه الشيطان ما يحمله علىٰ الفساد ووسوس له ذلك فإنه يستعيذ بالله منه لدفع شره وكيده، والاستعاذة من الأذكار المعلقة بأسبابها، وليست ذكرًا مطلقًا فلا يشرع للعبد أن يذكر الله عَزَّوَجَلَّ بها قائلًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم دون سبب داعٍ ولكن إذا ورد سبب مقتضٍ لذلك كأن يغضب الإنسان أو يتثاءب فيتعوذ فقد جاء في ذلك أشياء عن السلف رحمهم الله وهي مندرجة في عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ فكل شيء عُلم أنه من طريق الشيطان بخبر الشرع فإن الإنسان يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ منه.

ثم أورد الآية من سورة الكهف وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ قال: (**تدل علىٰ صحة الوكالة والتوكل**) والورق الفضة، (**وعلىٰ المشاركة في الطعام وغيره، وعلىٰ اختيار الطيب منه، وعلىٰ الاحتراز عن الأمور الضارة، وعلىٰ أنَّه ينبغي كتمان السر الذي تضر إذاعته ضررًا عامًّا أو خاصًّا**) أي إذا وجدت مصلحة شرعية في كتمه، فإذا وجدت مصلحة شرعية في كتمه كُتم، وإن لم توجد مصلحة شرعية في ذلك لم يُكتم.

ثم ذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣﴾ قال: (**ينبغي للعبد أن يسترشد بهذه

الوصايا النافعة، ولا يحكم علىٰ الأمور المستقبلة المتعلقة بفعله حتىٰ يقرنها بمشيئة الله) لأن الأمر معلَّق بما شاءه الله عَزَّوَجَلَّ، فما أراده أنفذه ولم يرده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم ينفذه.

ثم قال: (وعند نسيانه مطلقًا يذكر الله) أي إذا نسي شيئًا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بأي ذكر من الأذكار المعتادة كالتهليل أو التسبيح أو غير ذلك، (ويرجوه الهداية كلَّ وقت لأرشد الأمور وأحبها إليه).

ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ ثم قال: (ينبغي لمن أعجبه شيء مما أعطاه الله أن يقول ذلك لأنَّه اعتراف بالنعمة وحراسةٌ لها من كلِّ آفة) فهو ذكر مشروع في حق العبد إذا رأىٰ ما يُعجبه مما يتعلق به هو، كأن تعجبه نفسه أو يعجبه ولده، أو تعجبه حديقته أي بستانه، وأما إن كان لغيره فإنه يُبرِّكُ بذكر بركة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كأن يقول: ما شاء الله اللَّهُمَّ بارك، لأن تبارك الله هذا وصف لله عَزَّوَجَلَّ، لكن يقول: ما شاء الله اللَّهُمَّ بارك، وإن قال: ما شاء الله. فإنه لم يحصل المقصود من التبريك وإنَّما في ذلك رد إلىٰ مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يستفاد من قصة موسىٰ مع الخضر أدب المتعلم مع المعلم، وأنَّ المفسدة الجزئية تغتفر في جانب المصلحة العظيمة، وأنَّ إفساد مال الغير إذا تضمن إصلاحه من وجه آخر أرجح من إفساده فإنَّه محمود، وأنَّ الرجل الصالح يحفظه الله في نفسه وذريته، وأنَّ كثيرًا من الأمور الكريهة للعبد قد تكون خيرًا وتجلب خيرًا كثيرًا وتدفع شرًّا كثيرًا.

وفي بناء ذي القرنين للسد فيه أنَّه ينبغي إعانة الضُّعفاء ودفع شرور المعتدين بكلِّ وسيلة، وأنَّ ذلك من نعمة الله في حق الضعفاء وفي حق من أعانهم.

قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه:٤٤] فيه استحباب اللين في خطاب الرؤساء والعظماء.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه]. أدبُ طالب العلم، وأنَّه ينبغي له أن يتأنىٰ في تدبره وتأمله للعلم ولا يستعجل بالحكم علىٰ الأشياء ولا يعجب بنفسه، ويسأل ربه العلم النافع والتسهيل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [طه:١٣١] فيه أنَّه ينبغي للموفق ألا ينظر إلىٰ زينة الدنيا نظر المعجب المفتون، وأن يقنع برزق ربه، وأن يتعوَّض مما منع منه من الدنيا بزاد التقوىٰ الذي هو عبادة الله واللَّهج بذكره.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء] ينبغي لكلِّ مؤمن وقع في كربة وضيق أن يدعو بهذه

الدعوة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء].

قوله تعالىٰ: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ۝١٢﴾ [النور]. هذا إرشاد منه لعباده إذا سمعوا الأقوال القادحة في إخوانهم المؤمنين رجعوا إلىٰ ما علموا من إيمانهم، وإلىٰ ظاهر أحوالهم ولم يلتفتوا إلىٰ أقوال القادحين؛ بل رجعوا إلىٰ الأصل وأنكروا ما ينافيه.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١﴾ [النور] هذا متعيِّنٌ علىٰ كلِّ مؤمن.

قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ [الفرقان:٢٧] الآيات، مع قوله: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف] فيها التَّحذير من صحبة الأشرار والترغيب في صحبة الأخيار.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] يدخل فيه كلُّ حديث يُلهي العبد عن الخير من الغناء وغيره.

قوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢﴾ [الأحزاب] فيه أدب المرأة في خطاب الرجال الأجانب، ألا تخشن الكلام ولا تلينه؛ بل تقول قولًا معروفًا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٥٨﴾ [الأحزاب:٥٨] فيه النهي عن أذية المؤمنين القولية والفعلية بغير استحقاق.

قوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص:٢٦] فيه ضابط ما يجب علىٰ الحكام والقضاة من الحكم بين الناس بالحق المتضمن لمعرفته وتنفيذه وعدم الميل واتباع الهوىٰ.

قوله: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ [ص:٤٤] فيه التخفيف عن الضعيف وعن الحبيب لله.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر:١٨] هذا الضابط في الواجب علىٰ مستمع القول أنْ يتبع أحسنه وهو الحق المأمور به.

قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحجرات:١] إلىٰ آخر السورة. فيها الإرشاد من الله لعباده أن يتأدبوا معه ومع رسوله بالخضوع والانقياد والطاعة، وألّا يقدموا علىٰ ذلك شيئًا، وأن يخضعوا بالقول عند رسوله، وفيها الحث علىٰ التأني والتثبت والإصلاح بين المؤمنين بكلِّ وسيلة، والزجر عن السخرية وسوء الظن والغيبة والنميمة، والحثُّ علىٰ معرفة الأنساب ومعرفة الاتصال بين الإنسان وبين غيره، وبيان حقيقة الإيمان وشهود منة الله علىٰ العبد بتوفيقه للإيمان.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ [الواقعة] أي: منعهم الترف من أداء الواجبات، وكانوا يصرون علىٰ عظائم المنكرات، فلذلك استحقوا هذه العقوبات.

يستدل بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف] وما بعدها، علىٰ أن من تكلم بالحق وعمل بخلافه أنَّه ممقوت مذموم، وأنَّ الحمد والعواقب الحميدة لمن توافق ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله.

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، تدلُّ علىٰ أنَّه لا واجب مع العجز ولا محرَّم مع الضرورة.

ذكر المصنِّف ﵀ جملة أخرىٰ تندرج في الأحكام المتنوعة من الأصول والفروع والآداب، استفتحها بذكر ما يُستفاد من قصة موسىٰ مع الخضر في أدب المتعلم مع المعلِّم وهي قصة عظيمة، ولإمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رسالة نافعة بذكر الفوائد المستنبطة من قصة موسىٰ مع الخضر، ثم ذكر من جملة ما يستفاد أن المفسدة الجزئية تغتفر في جانب المصلحة العظيمة، فإذا وجدت مصلحة عظيمة فإن المفسدة الصغيرة لا تقاومها؛ بل تستغرق فيها ويغتفر إتيانها، وإن إفساد مال الغير إذا تضمن إصلاحه من وجه آخر أرجح من إفساده فإنه محمودٌ كما فعل الخضر في السفينة التي أراد صرف الملك الظَّالم عن غصبها بما جعل فيها من فساد يسير يمكن إصلاحه، وأن الرجل الصالح يحفظه الله في نفسه وذريته بصلاحه، فإن الصلاح يؤثر في حفظ النفس والذرية؛ بل والبلد التي يكون فيها الرجل الصالح كما قال بعض السلف: **"إن الله يحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدُّوْيرة حوله"** يعني أهل المحلة الذين من حوله.

ثم ذكر أن كثيرًا من الأمور الكريهة للعبد قد تكون خيرًا وتجلب خيرًا كثيرًا وتدفع شرًّا كثيرًا لأن العبد لا يدري ما في حكم الله ﷻ.

والله ﷿ يقول: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

ثم قال: (**وفي بناء ذي القرنين للسَّد فيه أنَّه ينبغي إعانة الضعفاء ودفع شرور المعتدين بكلِّ وسيلة**) أي بكل وسيلة مباحة شرعًا، فإن المقاصد لا تبرر الوسائل؛ بل لابد أن تكون الوسيلة التي يراد منها مقصد شرعي أن تكون وسيلة مشروعة.

ثم قال: (**وأنَّ ذلك من نعمة الله في حق الضعفاء وفي حق من أعانهم**) بسلوك ما أمر الله ﷻ به من

إعانة الضعفاء ودفع الظلم عنهم.

ثم قال: (**قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فيه استحباب اللِّين في خطاب الرؤساء والعظماء**) لأن نفوسهم مجبولةٌ على الفخر والشدة، والاختيال والزهو بما هم عليه من رئاسة، فلا يناسبهم إلا تليين الخطاب لهم ليقبلوا، وفي ذلك كلامٌ مأثور عن جماعة من السلف منهم الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في أمر السلطان ونهيه.

ثم ذكر أن (**قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية، أدبُ طالب العلم، وأنَّه ينبغي له أن يتأنى في تدبره وتأمله للعلم**) أي يأخذه شيئًا فشيئًا (**ولا يستعجل بالحكم على الأشياء ولا يعجب بنفسه، ويسأل ربه العلم النافع والتسهيل**).

ثم ذكر أن (**قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ فيه أنَّه ينبغي للموفق ألا ينظر إلى زينة الدنيا نظر المعجب المفتون، وأن يقنع برزق ربه، وأن يتعوض مما مُنع منه من الدنيا بزاد التقوى الذي هو عبادة الله واللهج بذكره**) يعني الإكثار من ترديد ذكر الله ﷻ، والنظر إلى أفراد الدنيا وأعراضها على وجه الإعجاب بها، والافتتان بما انتهت إليه محرم في أصح قولي أهل العلم.

ومن لطائف فتاوى ابن الرِفّعة أحد فقهاء الشافعية أنه أفتى بحرمة دخول القاهرة لما بنيت لأجل الفرجة فيها في حسن بنائها وعلو قصورها، وذكر أن ذلك من النظر إلى الدنيا على وجه الإعجاب بها وأقره أبو العباس ابن تيمية الحفيد في استنباطه من الآية المذكورة، وكان أبو العباس ابن تيمية إذا ذكر ابن الرفعة يقول: "**لقيت رجلًا تتساقط فروع الفقه من لحيته**" كناية عن شدة معرفته بالفقه.

ثم ذكر أن (**قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ ينبغي لكلِّ مؤمن وقع في كربة وضيق أن يدعو بهذه الدعوة**) وهي دعوة يونس في هذه الآيات في سورة الأنبياء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء]، وكتبت ﴿نُـۨجِى﴾ بهذه الصورة في رسم القرآن لتحتمل قراءة أخرى وهي القراءة التي تكون بالنون فقط وتشديد الجيم، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُجِّى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم ذكر أن قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ الآية أن (**هذا إرشاد منه لعباده إذا سمعوا الأقوال القادحة في إخوانهم المؤمنين رجعوا إلى ما علموا من إيمانهم، وإلى ظاهر أحوالهم ولم يلتفتوا إلى أقوال القادحين؛ بل رجعوا إلى الأصل وأنكروا ما ينافيه**) لأن الأصل حفظ عرض المسلم لأنه محرم، فلا ينقل عن هذا الأصل إلا ببينة، فإذا سمع الإنسان شيئًا لا يتحققه فإنه لا يجوز له أن يصغي إليه ولا أن ينقله، وهذا أمر يعم الصغير والكبير، والأمير والمأمور، والعالم

والجاهل، وهو من الآداب التي ضيعها الناس فصار أحدهم لا يبالي بما يسمع ولا يبالي بما يتكلم، ولاسيما بما فتن به الناس بأخرة مما يسمىٰ بأدوات التواصل الاجتماعي الذي صار كل إنسان يتكلَّم بما شاء بالبهت والكذب والظِنَّة، ويجد سماعين لكلامه وهي مما يفسد أحوال المسلمين، وليست من التواصل الاجتماعي إلا علىٰ قانون الغرب، وأما أهل الإسلام فإن الله ﷿ أمرهم بالتواصل بما هو أعظم من ذلك من الزِّيارة، والعيادة، والالتقاء، والاجتماع، فجعلها بديلًا عن ذلك فهو من طرائق تغيير حياة المسلمين، وهي فيها خير ولكن فيها شر كثير.

ثم قال ذاكرًا قول الله ﷿: (﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ ثم قال: (هذا متعين علىٰ كلِّ مؤمن) أي إعلان السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الآيات مع ما ذكر بعدها (فيها التحذير من صحبة الأشرار والترغيب في صحبة الأخيار) لأن صحبة الأشرار تورث شرًّا، وصحبة الأخيار تورث خيرًا ولو كانت صحبته مقتصرة علىٰ النَّظر إليهم، فإن النظر إليهم يورث شرورًا كما ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ.

ثم ذكر أن (قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يدخل فيه كلُّ حديث يُلهي العبد عن الخير من الغناء وغيره) لأنه ثبت عن ابن مسعود عند الطبري وغيره أنه فسر لهو الحديث بالغناء، فكل ما كان في معناه مما يشغل العبد عن الخير بأصل وضعه فهو محرم ومنهي عنه، ولا يقال حينئذ: إنه إذا لم يلهِ عن الخير أنه يجوز، لأنه إلهاءه عن الخير وصف ملازم له، وليس هذا كالحديث المباح الذي قد يلهي عن الخير وبالإشغال، وإنَّما هذا فيما يكون في أصله ملهيًا عن الخير؛ كالغناء.

ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ الآية (فيه أدب المرأة في خطاب الرجال الأجانب، ألا تخشن الكلام ولا تلينه؛ بل تقول قولًا معروفًا) أي: حسب العرف الجاري في خطاب المرأة التي لا تخضع بالقول للرجال فلا تلين لهم القول ولا تخشنه.

ثم ذكر أن (قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ فيه النهي عن أذية المؤمنين القولية والفعلية بغير استحقاق) أي بغير وجه يثبت به الحق شرعًا، أما ما ثبت به وجه الحق شرعًا فإن الإنسان لا يكون آثمًا به.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية (فيه ضابط ما يجب علىٰ الحكام والقضاة من الحكم بين الناس بالحق المتضمِّن لمعرفته وتنفيذه وعدم الميل واتِّباع الهوىٰ) فكل من ولي

ولاية تتضمن حكمًا بين الناس كأمير أو وزير أو قاضٍ أو غير ذلك فإنه يجب عليه أن يجتهد في إقامة الحقِّ بين الناس، وأن يحذر من الهوىٰ.

ثم ذكر أن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ أن (فيه التخفيف عن الضعيف وعن الحبيب لله) أي المطيع لله عَزَّوَجَلَّ، لأن الله يحب من أطاعه، والضِّغث هو ما يبس من تعانين النخل، وفي معناه ما كان يابسًا ضعيفًا من أغصان الشجر.

ثم ذكر أن (قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ هذا الضابط في الواجب علىٰ مستمع القول أنْ يتبع أحسنه وهو الحق المأمور به) وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣] فالعبد مأمور عند قوله بأن يقول الذي هو أحسن، وعند استماعه أن يستمع القول فيكون اتباعه لأحسن ما سمعه.

ثم ذكر صدر سورة الحجرات، ثم قال: (فيها) أي في السورة كلها (الإرشاد من الله لعباده أن يتأدبوا معه ومع رسوله بالخضوع والانقياد والطاعة، وألّا يقدموا علىٰ ذلك شيئًا وأن يخضعوا بالقول عند رسوله) بأن يخفضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ في حياته في مجالسه، وبعد موته ﷺ في مسجده كما ثبت عن عمر عند البخاري في زجره الرجلين اللذين رفعا أصواتهما في المسجد النبوي بعد موت النبي ﷺ.

قال: (وفيها الحث علىٰ التأني والتثبت والإصلاح بين المؤمنين بكلِّ وسيلة، والزجر عن السخرية وسوء الظن والغيبة والنميمة، والحث علىٰ معرفة الأنساب ومعرفة الاتصال بين الإنسان وبين غيره لإقامة حق الله عَزَّوَجَلَّ) لا لغير ذلك، فإن هذه المعارف إنَّما تحمد إذا كانت حاملة علىٰ إقامة حق الله عَزَّوَجَلَّ كصلة الرحم، وفي الحديث عند الترمذي «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم» فإذا كان المقصود من معرفتها ما يحمل علىٰ إقامة حقوق الشرع فيها كان ذلك ممدوحًا مأمورًا به، وإن كان الحامل علىٰ ذلك الفخر والاستعلاء علىٰ الناس فهو محرم وإن خلا من هذا وذاك لكنه مباح.

ثم ذكر أن في آخر سورة الحجرات (بيان حقيقة الإيمان) وهو رسوخه واندفاع الريب منه، وتقديم المال والنفس في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال: (وشهود منة الله علىٰ العبد بتوفيقه للإيمان) فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي من عليك إذ رزقك الإيمان.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾ قال: (أي: منعهم الترف من أداء الواجبات، وكانوا يصرون علىٰ عظائم المنكرات، فلذلك استحقوا هذه العقوبات) والترف هو التنعم برغد العيش

الزائد عن الحاجة المقتضية للحال، فإذا زاد عن حاجة الإنسان صار ترفًا مضرًّا به.

ثم ذكر أن قوله تعالىٰ في أوائل سورة الصف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ وما بعدها دال (**علىٰ أن من تكلم بالحق وعمل بخلافه أنَّه ممقوتٌ مذموم، وأنَّ الحمد والعواقب الحميدة لمن توافَق ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله**) وعند البخاري من حديث ابن عباس "**إنَّ النبي ﷺ كان إذا قال فعل**" فكان قوله ﷺ مصدَّقًا بفعله.

ثم ذكر أن (**قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ تدل علىٰ أنَّه لا واجب مع العجز**) أي أنه لا يجب علىٰ العبد شيء إذا عجز عنه، ويسقط عنه الوجوب باعتبار ما يلحقه من العجز كمن لا يستطيع أن يصلي قائمًا فيصلي جالسًا، (**ولا محرم مع الضرورة**) أي إذا وجد عليه ضيق واحتاج واضطر إلىٰ المحرم فإنه يتناوله كأكل الميت إذا خشي الهلاك.

ويستدل بقصة أصحاب الجنة وما عاقبهم الله به علىٰ التحذير من التشبه بهم، والترغيب في الإحسان عند الحصاد والجذاذ علىٰ الفقراء والمساكين.

قوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلىٰ] مفهوم الآية أنَّه إذا ترتب علىٰ التذكير مضرة أرجح، ترك التذكير خوف وقوع المنكر.

قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة] والآيات الشبيهة بها فيها الحث علىٰ فعل الخير وإن قلّ، والتحذير من قليل الشر وكثيره.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص]، وقوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق]، وقوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس] إلىٰ آخر السور الثلاث صَدَّرَ كلًّا منها بالأمر بقول ما تضمنته كلُّ سورة. ففي قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أمر بقول التوحيد، وكلِّ ما دل علىٰ الثناء علىٰ الله، ووصفه بصفات الكمال وتنزيهه عن ضدها.

وفي السورتين الأخيرتين أمر باللجأ إليه من جميع الشرور الداخلية والخارجية والظاهرة والباطنة والله أعلم.

وقد ذكر الله القرعة في موضعين حين تنازعوا في مريم أيهم يكفلها، وحين تساهم يونس ومن معه أيهم يلقىٰ في اليم. فيدل علىٰ استعمال القرعة عند إبهام المستحِق، وعند التزاحم في الحق إذا لم يكن لأحدهما مزية ترجيح ولا تمكن المشاركة. وأما قرعة الميسر والرهان ففي غير ذلك من مواضع الخطر،

مثل أن يعرف أنَّ الشيء مشترك بينهما فيريدان أن يقترعا عليه فهذا الذي لا يحل لأنَّه ميسر ظاهر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة] ولم يقل في موضع واحد أنَّه يخبر أو يُعَلِّم ما يُعْلَمُ خلافه، بُرْهان علىٰ أنَّه ﷺ لا يأتي بما تحيله العقول، ولا بأمر يعلم يقينًا نقيضه وهذا أحد براهين الرسالة.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورىٰ:١٦] الآية. فيها أكبر برهان علىٰ أنَّ من آمن بالله ورسوله إيمانًا تامًّا، وعلم مراد الرسول ﷺ قطعًا، تيقّن ثبوت جميع ما أخبر به، وعلم أنَّ ما عارض ذلك فهو باطل، وأنَّه ليس بعد الحق إلا الضلال. فهذا الإيمان التام والعلم القطعي الإجمالي يدفع كلَّ باطل ناقضه، فإن اهتدىٰ بعد ذلك لتفصيل رد الشبه الباطلة وإلا كفاه هذا الأصل.

وقد أخبر في عدة آيات أنَّ الرسول ﷺ بلغ البلاغ المبين، وذلك يفيد أنَّ كلامه فيه الهدىٰ التام، وأنَّه يستحيل أن يريد بكلامه غير ما يفهمه الناس ويتبادر إلىٰ أذهانهم منه، ويمتنع أن يريد به الاحتمالات البعيدة، لأنَّ هذا ينافي ما وصفه الله به، فإنَّه أعلم الخلق وأنصحهم وأفصحهم، فمن قدح في شيء من بيانه فهو قادح به، إذ هذا يوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كلِّ أحد.

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب] فيها أنَّ جميع المسائل الأصولية والفروعية قد قالها الله وبيّنها بالأدلة والبراهين. فقوله: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بيانه للمسائل، وهدايته السبيل إرشاده للدلائل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] فيه أصرح الدلالة علىٰ أنَّ جميع مسائل الاختلاف بين الناس يتعين ردها إلىٰ الكتاب، وأنَّ فيه حَلَّها وحكمَها، وأنَّ غير الكتاب لا يفصل النزاع ولا يحل الخلاف، لا عقل، ولا قياس، ولا رأي أحد من الخلق كائنًا ما كان.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٣] ونحوها من الآيات. تدل علىٰ أنَّ من طلب الهدىٰ والرشد من غير الكتاب والسنّة ضلّ، لأنَّ الهدىٰ محصور في هدىٰ الله الذي أرسل به رسوله ﷺ.

ختم المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الفصل الجامع بما ذكره أنه يستدل بقصة أصحاب الجنة في سورة القلم ما عاقبهم الله به علىٰ التحذير من التشبه بهم في منع الفقراء حقهم، والترغيب في الإحسان عند الحصاد والجذاذ علىٰ الفقراء والمساكين.

ثم ذكر أن (**قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝﴾ مفهوم الآية أنَّه إذا ترتب علىٰ التذكير مضرة أرجح، تُرك التذكير خوف وقوع المنكر**) وهو اختيار العلامة محمد الأمين الشنقيطي أيضًا، فإذا رجي الانتفاع ذُكر وإن خشي وجود مفسدة فإنه يمتنع من التذكير.

ثم ذكر أن خاتمة سورة الزلزلة وما في معناها فيها الحث علىٰ فعل الخير وإن قل، (**والتحذير من قليل الشر وكثيره**).

ثم ذكر أن سورة الإخلاص وسورة الفلق وسورة الناس كل منها صُدِّر بقول ما تضمنته كل سورة، (**ففي قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ أمر بقول التوحيد، وكلِّ ما دل علىٰ الثناء علىٰ الله، ووصفه بصفات الكمال وتنزيهه عن ضدها**) لأن سورة الإخلاص متمحضة في الحق التوحيد.

(**وفي السورتين الأخيرتين**) الفلق والناس (**أمر باللجأ إليه من جميع الشرور الداخلية والخارجية والظاهرة والباطنة والله أعلم**) وسميت هاتان السورتان بالمعوِّذتين لاستفتاحهما بالأمر بالاستعاذة، وسميت بالمعوِّذات بالنظر إلىٰ آياتها وما فيها من تضمن الاستعاذة من أشياء ذكرت فيها، فالتثنية وصف للسورتين والجمع وصف لآياتها أنها تعوذ العبد أي تحميه.

ثم قال: (**وقد ذكر الله القرعة في موضعين حين تنازعوا في مريم أيهم يكفلها، وحين تساهم يونس ومن معه أيهم يلقىٰ في اليم**) أي في البحر (**فيدل علىٰ استعمال القرعة عند إبهام المستحق**) أي عدم معرفته (**وعند التزاحم في الحق**) أي عند التشاح فيه (**إذا لم يكن لأحدهما مزية ترجيح ولا تمكن المشاركة**). فالقرعة إنَّما تلتمس شرعًا عند الإبهام أو الازدحام، (**وأما قرعة الميسر والرهان**) أي ما يتعلق بالمغامرة بشيء قد يقع للعبد وقد لا يقع له، قال: (**ففي غير ذلك من مواضع الخطر**) أي المخاطرة (**مثل أن يعرف أنَّ الشيء مشترك بينهما**) واشتراكه بأن يكون الحق ثابتًا لكل واحد منهما (**فيريدان أن يقترعا عليه**) بأن يأخذ من خرجت له حق الآخر (**فهذا الذي لا يحل لأنَّه ميسر ظاهر**) واسم الميسر مأخوذ من إصابة الشيء بيسر فهو يأخذه يسيرًا كأن يكون له ولآخر أرض كل واحد منهما له نصفها واختلفا في تعيين النصف، فهذا يقول: هذا النصف لي، وهذا يقول: هذا النصف لي. ثم اتفقا علىٰ أن يقترعا وأن من ظهرت له القرعة يأخذ الأرضين معًا فهذا محرم لما فيه من القمار والميسر، وإن اتفقا علىٰ أن يقترعا بأن من ظهرت له القرعة يختار أحد الأرضين فهذا جائز، وهذا هو الذي يكون فيه الإبهام، وأما الذي يكون فيه إذهاب حق الآخر فهذا هو المحرم من القرعة.

ثم ذكر أن (**قوله تعالىٰ: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝﴾ ولم يقل في موضع واحد أنَّه يخبر أو**

يُعَلِّم ما يُعْلَمُ خلافه) أي ما يعلم الناس خلافه (بُرْهان علىٰ أنَّه ﷺ لا يأتي بما تحيله العقول، ولا بأمر يعلم يقينًا نقيضه وهذا أحد براهين الرسالة) فالنبي ﷺ خاصة بل الأنبياء عامة لم يأتوا بما تحيله العقول أي تمنعه وتحكم عليه بالاستحالة، وإنَّما جاءوا بما تتحير فيه العقول، وهذا معنىٰ قول أهل العلم: "إن الأنبياء جاءوا بمَحَارات العقول لا محالاتها"، بمحارات العقول أي ما تتحير فيه العقول، لا بما تحيله العقول.

ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ الآية (فيها أكبر برهان علىٰ أنَّ من آمن بالله ورسوله إيمانًا تامًا، وعلم مراد الرسول ﷺ قطعًا، تيقّن ثبوت جميع ما أخبر به، وعلم أنَّ ما عارض ذلك فهو الباطل) فإذا امتلأ قلب العبد باليقين بما جاء به ربنا عَزَّوَجَلَّ وبما جاء عن نبينا ﷺ لم تجد الشبهات إليه سبيلًا، فالراسخ في العلم يرد عسكر الشبهات خائبة خاسرة كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» فإذا كمل اليقين في القلب لم تجد الشبهة إليه سبيلًا، وإن نقص اليقين تسربت الشبه بقدر ما ينقص من اليقين.

ثم قال: (وقد أخبر في عدة آيات أنَّ الرسول ﷺ بلغ البلاغ المبين، وذلك يفيد أنَّ كلامه فيه الهدىٰ التام، وأنَّه يستحيل أن يريد بكلامه غير ما يفهمه الناس ويتبادر إلىٰ أذهانهم منه، ويمتنع أن يريد به الاحتمالات البعيدة، لأنَّ هذا ينافي ما وصفه الله به) يعني من البيان المبين، (فإنَّه أعلم الخلق وأنصحهم وأفصحهم، فمن قدح في شيء من بيانه فهو قادح به، إذ هذا يوجب أن يكون بيانه للحق أكمل من بيان كلِّ أحد).

ثم ذكر أن (قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ فيها أنَّ جميع المسائل الأصولية والفروعية قد قالها الله وبيّنها بالأدلة والبراهين، فقوله: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بيانه للمسائل، وهدايته السبيل إرشاده للدلائل) فما وضعه الله عَزَّوَجَلَّ من الدين حق وقد هدىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شاء من خلقه إلىٰ دلائله.

ثم ذكر أن (قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية فيه أصرح الدلالة علىٰ أنَّ جميع مسائل الاختلاف بين الناس يتعيَّن ردها إلىٰ الكتاب، وأنَّ فيه حَلَّها وحكمَها، وأنَّ غير الكتاب لا يفصل النزاع ولا يحل الخلاف، لا عقل، ولا قياس، ولا رأي أحد من الخلق كائنًا ما كان) فأنزل الكتاب الذي هو الوحي الشرعي لإقامة الحق بين الناس، والنبي ﷺ مخبرٌ عن ذلك الوحي الشرعي؛ لأن خبره ﷺ وحي، فيلحق فيما يلحق في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما يحكمون به مما أنزله عليهم أو فهموه مما أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم.

ثم قال: (**قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ ونحوها من الآيات تدل علىٰ أنَّ من طلب الهدىٰ والرشد من غير الكتاب والسنّة ضلّ؛ لأنَّ الهدىٰ محصور في هدىٰ الله الذي أرسل به رسوله ﷺ**) فمن اهتدىٰ بهدي الله هداه الله، ومن عدل عنه إلىٰ غيره فإنه يضل، ومن ظنَّ أنه يوجد في غير الكتاب والسنة ما يهتدي به الناس فهو ضالٌّ كما قال أبو العباس ابن تيمية الحفيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فالقرآن والسنة فيهما النور التام، والهداية الكاملة التي تنفع الناس في أحوالهم جميعًا صغيرها وكبيرها، وقليلها وكثيرها، ولكن الشأن في صدق الإقبال علىٰ الوحي، فمن صدق إقباله علىٰ الوحي من حاكم أو عالم جعل الله له نورًا وفرقانًا، وهداه إلىٰ أوضح السبل وأهداها، ومن عدل عنه فإنه لا يزال في عماية متحيرًا من ضلال إلىٰ ضلال.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة الأخيرة من كلام المصنِّف في «فتح الرحيم الملك العلام» وبه يتم هذا الكتاب علىٰ ما وجد منه -إن كان مما انتهىٰ إليه المصنِّف أو أنه مات قبل أن يتمه-، والظاهر أن المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتمه؛ لأنه فرغ من الأنواع الثلاثة ثم جعل هذه الخاتمة بمنزلة ما يتعلق بالأنواع الثلاثة المتقدمة علىٰ وجه متفرِّقٍ فضم المتفرقات إلىٰ موضع واحد ذكر فيه ما بقي من الأصول والفروع والآداب.

وبه نكون قد أتينا علىٰ ما ذكره المصنِّف في هذا الكتاب النافع العظيم «فتح الرحيم الملك العلام»، وكتب المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير ومنها «فتح الرحيم الملك العلام»، و«المواهب الربانية»، و«خلاصة التفسير» والتفسير مما ينبغي أن يحتفل به طالب العلم وأن يعتني به، لأنها من أنفع تفاسير المتأخرين وأسهلها وأيسرها إدراكًا وفهمًا، وإذا قدر الإنسان علىٰ أن يضم متفرقها إلىٰ موضع واحد فذلك أكمل، فإذا جعل كتاب التفسير أصلًا له. ثم أشار في حواشيه إلىٰ ما تفرق كأن يكون شيء ذكره هنا ولم يذكره في تفسيره وهذا موجود، أو شيء في المواهب الربانية، ولم يذكره في تفسيره وهو موجود أيضًا، أو شيء في خلاصة التفسير لا يوجد في تفسيره فيضعه علىٰ موضعه منه، فإنه أكمل حتىٰ يلتئم عند طالب العلم علىٰ نسخته من تفسير ابن سعدي كلامه المتفرق في تفسير كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيما صنفه من الكتب خاصة، وإلا فيوجد له في بعض الرسائل المتفرقة أشياء في التفسير تُلحق بهذا الموضع، وهي محتاجة إلىٰ وضع معْلَمة لتفسير ابن سعدي تجمع متفرق تراثه فيه.

وبهذا نكون بحمد الله قد فرغنا من الكتاب الثالث من المرحلة الأولىٰ من برنامج التعليم المستمر، ولم يبق إلا الكتاب الأخير، وهو «بلوغ القاصد جل المقاصد» وقد انتهىٰ بنا البيان إلىٰ كتاب «مناسك

الحج»، ونستكمله إن شاء الله تعالىٰ يوم الأربعاء القادم بعد صلاة المغرب وبعد صلاة العشاء.